الجواب الصحيح
لمن بدل دين المسيح

لشيخ الإسلام

أحمد بن تيمية

الجزء الأول

تحقيق

مجدي قاسم

حقوق الطبع محفوظة

١٤١٤هـ / ١٩٩٣م

الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

لا إله إلا الله محمد رسول الله ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم مالك يوم الدين .

الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون .

الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيراً.

والله أكبر الله أكبر لا اله إلا الله ، الله أكبر الله أكبر ولله الحمد ، الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً .

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ، ما كثين فيه أبداً ، وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً . مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولوا إلا كذباً .

والحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير ، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور.

والحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شئ قدير . ما يفتح الله للناس

من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ، ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم ، الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، الأول الآخر الظاهر الباطن الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً ،أرسله بالحق بين يدى الساعة بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، أرسله إلى جميع الثقلين ، الجن والإنس ، عربهم وعجمهم ، أميهم وكتابيهم ، وأنزل عليه أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد ، كتاب أنزله إليه ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ويهديهم إلى الله وإلى الله تصير الأمور ، وهو صراط العزيز الحميد ، الله الذى له ما في السموات وما فى الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور ، وهو الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وهو دين الله الذى بعث به الرسل قبله ، كما قال تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذين أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ ، [سورة الشورى : ١٣] .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم * وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ [سورة المؤمنون : ٥١، ٥٢]

كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وأنا ربكم فاعبدون ﴾ ، [سورة الأنبياء : ٩٢] ﴿ فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ ، [سورة المؤمنون : ٥٣] .

وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ ، [سورة الأنبياء : ٢٥] .

وقال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ ، [سورة النحل : ٣٦] .

أنزل عليه الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فمصدق كتابه ما بين يديه من كتب السماء ، وأمر بالإيمان بجميع الأنبياء كما قال تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون * فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنهم هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ [سورة البقرة : ١٣٦ ، ١٣٧]

وهيمن على ما بين يديه من الكتاب ، وذلك يعم الكتب كلها ، شاهداً وحاكماً ومؤتمناً ، شهد بمثل ما فيها من الأخبار الصادقة : وقرر ما فى الكتب المتقدمة من أصول الدين وشرائعه الجامعة ، التى اتفقت عليها الرسل ، كالوصايا المذكورة فى آخر الأنعام ، وأول سورة الأعراف ، وسورة سبحان ، ونحوها من السور المكية .

قال تعالى : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربون الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم

تعقلون * ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون * وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٥١ -١٥٣] ، وقال تعالى : ﴿ قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون * فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون * يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين * قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون * قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله مالا تعلمون ﴾ ، [سورة الأعراف : ٢٩-٣٣] .

وقال تعالى ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً * واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً * ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً * وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً * إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً * وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسوراً * ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً * إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأ كبيرا* ولا

تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا * ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ومن قُتِل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف فى القتل إنه كان منصوراً * ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا . وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا * ولا تمش فى الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا * كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً * ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى فى جهنم ملوماً مدحوراً ﴾ [سورة الإسراء : ٢٣-٣٩]

فدين الأنبياء والمرسلين دين واحد ، وإن كان لكل من التوراة والإنجيل شرعة ومنهاجاً ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق على صحته عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم : (١) « إنا معشر الأنبياء ديننا واحد ، وأنا أولى الناس بابن مريم ، لأنه ليس بينى وبينه نبى » .

فدين المرسلين يخالف دين المشركين المبتدعين ، الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً :

قال تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون * . منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين * من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ ، [سورة الروم : ٣٠-٣٢] ، قال تعالى : ﴿ وجعلنا ابن

(١) « متفق عليه » بلفظ أنا أولى الناس بعيسى بن مريم » ، رواه البخارى فى كتاب « أحاديث الأنبياء » باب قوله تعالى : « واذكر فى الكتاب مريم » (٦/٥٥٠ ، ٥٥١ ح ٣٤٤٢ ، ٣٤٤٣ السلفية)
وراه مسلم فى كتاب « الفضائل » باب « فضائل عيسى عليه السلام (٤/١٨٣٧ح٢٣٦٥)
ورواه أبو داود فى كتاب « السنة » باب « فى التخيير بين الأنبياء » (٥/٥٥ح ٦٧٥ ٤ عون)
بلفظ « أنا أولى الناس بابن مريم ، الأنبياء أولاد علاّت وليس بينى وبينه نبى »

مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين . ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم * وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ [سورة المؤمنون : ٥٠ - ٥٢] - وقال فى الآية الأخرى : ﴿ فاعبدون ﴾ ﴿ فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ [سورة المؤمنون : ٥٣] .

وقال تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب ﴾ ، [سورة الشورى : ١٣] .

وقد خص الله تعالى محمداًصلى الله عليه وسلم بخصائص ميزه الله بها على جميع الأنبياء والمرسلين ، وجعل له شرعة ومنهاجاً ، أفضل شرعة وأكمل منهاج مبين ، كما جعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، فهم يوفون سبعين أمة هم خيرها وأكرمها على الله من جميع الأجناس ، هداهم الله بكتابه ورسوله لما اختلفوا فيه من الحق قبلهم ، وجعلهم وسطاً عدلا خياراً ، فهم وسط فى توحيد الله وأسمائه وصفاته ، وفى الإيمان برسله وكتبه وشرائع دينه من الأمر والنهى والحلال والحرام ، فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر ، وأحل لهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث ، لم يحرم عليهم شيئاً من الطيبات كما حرم على اليهود ، ولم يحل لهم شيئاً من الخبائث كما استحلتها النصارى ، ولم يضيق عليهم باب الطهارة والنجاسة كما ضيق على اليهود ، ولم يرفع عنهم طهارة الحدث والخبث كما رفعته النصارى فلا يوجبون الطهارة من الجنابة ولا الوضوء للصلاة ولا اجتناب النجاسة فى الصلاة ، بل يعد كثير من عبادهم مباشرة النجاسات من أنواع القرب والطاعات ، حتى يقال

فى فضائل الراهب : « له أربعون سنة ما مس الماء » ولهذا تركوا الختان مع أنه شرع إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وأتباعه .

واليهود عندهم إذا حاضت المرأة لا يؤاكلونها ولا يشاربونها ، ولا يقعدون معها في بيت واحد ، والنصارى لا يحرمون وطء الحائض .

وكان اليهود لا يرون إزالة النجاسة . بل إذا أصاب ثوب أحد منهم قرضه بالمقراض ، والنصارى ليس عندهم شئ نجس يحرم أكله أو تحرم الصلاة معه .

وكذلك المسلمون وسط فى الشريعة ، فلم يجحدوا شرعه الناسخ لأجل شرعه المنسوخ ، كما فعلت اليهود ، ولا غيروا شيئاً من شرعه المحكم ولا ابتدعوا شرعاً لم يأذن الله به ، كما فعلت النصاري ، ولا غلوا فى الأنبياء والصالحين كغلو النصارى ، ولا بخسوهم حقوقهم كفعل اليهود ، ولا جعلوا الخالق سبحانه وتعالى متصفاً بخصائص المخلوق ونقائصه ومعايبه - من الفقر والبخل والعجز ، كفعل اليهود - ولا المخلوق متصفاً بخصائص الخالق سبحانه ؛ التى ليس كمثله فيها شئ كفعل النصارى ولم يستكبروا عن عبادته كفعل اليهود ولا أشركوا بعبادته أحداً كفعل النصارى .

وأهل السنة والجماعة فى الإسلام كأهل الإسلام في أهل الملل : فهم وسط فى باب صفات الله عز وجل . بين أهل الجحد والتعطيل ، وبين أهل التشبيه والتمثيل ، يصفون الله بما وصف به نفسه ، وبما وصفته به رسله من غير تعطيل ولا تمثيل ، إثباتاً لصفات الكمال وتنزيهاً له عن أن يكون له فيها أنداد وأمثال ، إثباتاً بلا تمثيل ، وتنزيه بلا تعطيل ؛ كما قال تعالى : ﴿ليس كمثله شئ﴾ ، [سورة الشورى : ١١] ، وهو رد على الممثلة ، ﴿ وهو السميع البصير﴾ ، [سورة الشورى : ١٢] رد على المعطلة .

وقال تعالى : ﴿ قل هو الله * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد﴾ [سورة الإخلاص بأكملها] .

فالصمد: السيد المستوجب لصفات الكمال ، والأحد الذى ليس له كفو ولا مثال .

وهم وسط فى باب أفعال الله عز وجل ، بين المعتزلة المكذبين بالقدر ، والجبرية النافين لحكمة الله ورحمته وعدله ، والمعارضين بالقدر أمر الله ونهيه ثوابه وعقابه .

وفى باب الوعد الوعيد ، بين الوعيدية الذين يقولون بتخليد عصاة المسلمين فى النار ، وبين المرجئة الذين يجحدون بعض الوعيد ؛ وما فضل الله به الأبرار على الفجار .

وهـــم وسط فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ بين الغالى فى بعضهم ، الذى يقول فيه بإلهية أو نبوة أو عصمة ؛ والجافى فيهم : الذى يكفر بعضهم أو يفسقه . وهم خيار هذه الأمة .

والله سبحانه وتعالى أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم للناس رحمة ؛ وأنعم به نعمة يالها من نعمة . قال تعالي : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ . [سورة الأنبياء : ١٠٧] . وقال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴾ ؛ [سورة إبراهيم : ٢٨] . وهم الذين لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فإرساله أعظم نعمة أنعم الله بها على عباده . فجمع الله لأمته بخاتم النبيين وإمام المتقين وسيد ولد آدم أجمعين ما فرقه فى غيرهم من الفضائل ، وزادهم من فضله أنواع الفواضل ، بل أتاهم كفلين من رحمته ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم * لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شئ من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ [سورة الحديد : ٢٨ ، ٢٩] .

وفى الصحيحين عن ابن عمـــر وأبو موسى ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (١) « إنما أجلكم فى أجل من خلا من الأمم ما بين صلاة العصر إلى مغرب

---

(١) « صحيح » رواية ابن عمر »
رواه البخارى فى كتاب « مواقيت الصلاة » باب « من أدرك ركعـــة من العصر قبل المغـــرب =
(٤٦/٢ح٥٥٧)

الشمس ، وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالا فقال : من يعمل لى إلى نصف النهار على قيراط قيراط ؟ فعملت اليهود إلى نصف النهار على قيراط قيراط ، ثم قال : من يعمل لى نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ؟ ، فعملت النصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ، ثم قال : من يعمل من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين ؟ ألا فأنتم الذين تعملون من صلاة العصر إلى مغرب الشمس ، ألا لكم الأجر مرتين ، فغضبت اليهود والنصارى وقالوا : لا . نحن أكثر عملا وأقل عطاءاً فقال الله تعالى : فهل ظلمتكم من حقكم شيئاً ؟ قالوا : لا .قال الله تعالى : فإنه فضلى أعطيه من شئت »

أما بعد : فإن الله تبارك وتعالى جعل محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، وأكمل له ولأمته الدين ، وبعثه على حين فترة من الرسل وظهور الكفر وانطماس السبل ، فأحيا به مادرس من معالم الايمان ، وقمع به أهل الشرك والكفر من عبدة الأوثان والنيران والصلبان ، وأذل به كفار أهل الكتاب ، أهل الشرك والارتياب ، وأقام به منار دينه الذى ارتضاه ، وشاد به ذكر من اجتباه من عباده واصطفاه ، وأظهر به ما كان مخفياً عند أهل الكتاب ، وأبان به ما عدلوا فيه عن منهج الصواب وحقق به صدق التوارة والزبور والإنجيل ، وأماط به عنها ما ليس بحقها من باطل

= ورواه أيضًا برقم (٢٢٦٨، ٢٢٦٩، ٣٤٥٩، ٥٠٢١، ٧٤٦٧، ٧٥٣٣)

ولفظ الحديث عند البخارى فى كتاب « أحاديث الأنبياء » باب « ما ذكر عن بنى اسرائيل » (٥٧١/٦، ٥٧٢ ح ٣٤٥٩)

ورواه الترمذى فى كتاب « الأمثال » باب « ما جاء فى مثل ابن آدم (١٧٥/٨، ١٧٧ح٣٠٣٥ تحفة) وقال : « هذا حديث حسن صحيح »

وحديث أبى موسى :

وراه البخارى فى كتاب مواقيت الصلاة » باب « من أدرك ركعة من العصر قبل المغرب » (٤٦/٢ ح ٥٥٨)

ورواه أيضًا فى كتاب « الإجارة » باب « الإجارة من العصر إلى الليل » (٥٢٣/٤، ٥٢٤ح ٢٢٧١)

التحريف والتبديل .

وكان من سنة الله تبارك وتعالى مواترة الرسل وتعميم الخلق بهم ، بحيث يبعث فى كل أمة رسولا ليقيم هداه وحجته ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ ، [سورة النحل : ٣٦] . وقال تعالي : ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ ، [سورة فاطر : ٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترا ﴾ ، [سورة المؤمنون : ٤٤] . وقال : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا * ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما * رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ ، [سورة النساء : ١٦٣-١٦٥] .

ولما أهبط آدم إلي الأرض قال تعالى : ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ، [سورة البقرة : ٣٨] وقال فى الآية الأخرى : ﴿ فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى * وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ ، [سورة طه : ١٢٣-١٢٧] .

وقال تعالي عن أهل النار . ﴿ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شئ إن أنتم إلا فى ضلال كبير وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ ، [سورة الملك : ٨-١٠] . وقال تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ ، [سورة الإسراء

: ١٥] . وقال تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين * ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ﴾ . [سورة الأنعام : ١٣٠ ، ١٣١] .

فصل

وكان دينه الذى ارتضاه لنفسه هو دين الإسلام ، الذى بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل ، ولا يقبل من أحد ديناً غيره ، لا من الأولين ، ولا من الآخرين ، وهو دين الأنبياء وأتباعهم ، كما أخبر الله بذلك عن نوح ومن بعده إلى الحواريين ، قال تعالي : ﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه ياقوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون * فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ [سورة يونس : ٧١ ، ٧٢] .

وقال تعالى عن إبراهيم : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين * إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين * ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وانتم مسلمون ﴾ [سورة البقرة : ١٣٠ -١٣٢] .

وقال تعالى عن يوسف الصديق : ﴿ رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي فى الدنيا والآخرة توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين ﴾ ، [سورة يوسف : ١٠١] .

وقال تعالى عن موسى أنه قال : ﴿ ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ ، [سورة يونس : ٨٤] .

وأخبر تعالى عن السحرة أنهم قالوا لفرعون : ﴿ وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٢٦] .

وقال تعالى عن بلقيس ملكة اليمن : ﴿ رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ ، [سورة النمل : ٤٤]

وقال تعالى عن أنبياء بنى إسرائيل : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٤]

وقال تعالى عن المسيح : ﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون * ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٥٢، ٥٣] وقال تعالى : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾ [سورة المائدة : ١١١] .

فهذا دين الأولين والآخرين من الأنبياء وأتباعهم هو دين الإسلام ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، وعبادته تعالى فى كل زمان ومكان ، بطاعة رسله عليهم السلام . فلا يكون عابداً من عباده بخلاف ما جاءت به رسله . كالذين قال تعالى فيهم : ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾ [سورة الشورى : ٢١] فلا يكون مؤمنا به إلا من عبده بطاعة رسله ، ولا يكون مؤمنا به ولا عابداً له إلا من آمن بجميع رسله وأطاع من أرسل إليه ؛ فيطاع كل رسول إلى أن يأتى الذى بعده ؛ فتكون الطاعة للرسول الثانى ، ومن يطع الرسول فقد أطاع الله ؛ قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ﴾ ؛ [سورة النساء : ٦٤]

ومن فرق بين رسله فآمن ببعض وكفر ببعض كان كافرا ، كما قال تعالى : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض

ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً * أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً * والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ [سورة النساء : ١٥٠-١٥٢]

فلما كان محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ولم يكن بعده رسول ولا من يجدد الدين ، لم يزل الله سبحانه وتعالى يقيم لتجديد الدين من الأسباب ما يكون مقتضياً لظهوره ، كما وعد به في الكتاب ، فيظهر به محاسن الإيمان ومحامده ، ويعرف به مساوئ الكفر ومفاسده .

ومن أعظم أسباب ظهور الإيمان والدين ، وبيان حقيقة أنباء المرسلين ظهور المعارضين لهم من أهل الإفك المبين كما قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون * ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون * أفغير الله أبتغي حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين * وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ﴾ ، [سورة الأنعام : ١١٢-١١٥] .

وقال تعالى : ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا * ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا * لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للأنسان خذولا * وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا * وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾ ، [سورة الفرقان : ٢٧-٣١] .

وذلك أن الحق - إذا جحد وعورض بالشبهات - أقام الله تعالى له مما يحق به الحق ويبطل به الباطل من الآيات والبينات مما يظهره من أدلة الحق وبراهينه الواضحة ، وفساد ما عارضه من الحجج الداحضة .

فالقرآن لما كذب به المشركون ، واجتهدوا على إبطاله بكل طريق - مع أنه تحداهم بالإتيان بمثله ، ثم بالإتيان بعشر سور ، ثم بالإتيان بسورة واحدة - كان ذلك مما دل ذوى الألباب على عجزهم عن المعارضة مع شدة الاجتهاد وقوة الأسباب ، ولو اتبعوه - من غير معارضة وإصرار على التبطيل - لم يظهر عجزهم عن معارضته التى بها يتم الدليل .

كذلك السحرة لما عارضوا موسى عليه السلام ، وأبطل الله ما جاءوا به ، كان ذلك مما بين الله تبارك وتعالى به صدق ما جاء به موسي عليه السلام .هذا من الفروق بين آيات الأنبياء وبراهينهم التى تسمى بالمعجزات ، وبين ما قد يشتبه بها من خوارق السحرة وما للشيطان من التصرفات ، فإن بين هذين فروقاً متعددة ، منها ما ذكره الله تعالى فى قوله : ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين * تنزل علي كل أفاك أثيم ﴾ ، [سورة الشعراء : ٢٢١ ، ٢٢٢]

ومنها ما بينه فى آيات التحدى ، من أن آيات الأنبياء عليهم السلام لا يمكن أن تعارض بالمثل فضلا عن الأقوى ، ولا يمكن أحداً إبطالها ، بخلاف خوارق السحرة والشياطين ، فإنه يمكن معارضتها بمثلها ، وأقوى منها ، ويمكن إبطالها .

وكذلك سائر أعداء الأنبياء من المجرمين شياطين الإنس والجن ، الذين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً - إذا أظهروا من حججهم ما يحتجون به على دينهم المخالف لدين الرسول ، ويموهون فى ذلك بما يلفقونه من منقول ومعقول - كان ذلك من أسباب ظهور الإيمان الذى وعد الله تعالى بظهوره على الدين كله ،

بالبيان والحجة والبرهان ، ثم بالسيف واليد والسنان .

قال الله تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٥] . وذلك بما يقيمه الله تبارك وتعالى من الآيات والدلائل التى يظهر بها الحق من الباطل والحالى والعاطل ، والهدى من الضلال ، والصدق من المحال ، والغى من الرشاد ، والصلاح من الفساد ، والخطأ من السداد . وهذا كالمحنة للرجال التى تميز بين الخبيث والطيب ، قال تعالى : ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٧٩] ، وقال تعالى : ﴿الم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين * أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون ﴾ ، [سورة العنكبوت ١-٤] .

والفتنة هي الامتحان والاختبار ، كما قال موسى عليه الصلاة والسلام : « إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء » ، أي امتحانك واختبارك ، تضل بها من خالف الرسل ، وتهدى بها من اتبعهم ، والفتنة للإنسان كفتنة الذهب إذا أدخل كير الامتحان ، فإنها تميز جيده من رديئه .فالحق كالذهب الخالص ، كلما امتحن ازداد جودة ، والباطل كالمغشوش المغشى ، إذا امتحن ظهر فساده فالدين الحق كلما نظر فيه الناظر ، وناظر عنه المناظر ، ظهرت له البراهين ، وقوى به اليقين ، وازداد به إيمان المؤمنين ، وأشرق نوره فى صدور العالمين . والدين الباطل إذا جادل عنه المجادل ، ورام أن يقيم عوده المائل ، أقام الله تبارك وتعالى من يقذف بالحق علي الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ويبين أن صاحبه الأحمق ، كاذب مائق وظهر فيه من القبح والفساد ، والحلول والاتحاد ، والتناقص والإلحاد ، والكفر والضلال ، والجهل

والمحال - ما يظهر به لعموم الرجال ، أن أهله من أضل الضلال ، حتى يظهر فيه من الفساد ما لم يكن يعرفه أكثر العباد ، ويتنبه بذلك من كان غافلا من سنة الرقاد ، من كان لا يميز الغي من الرشاد ، ويحيي بالعلم والإيمان من كان ميت القلب لا يعرف معروف الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، ولا ينكر منكر المغضوب عليهم والضالين ، فإن ماذم الله به اليهود والنصارى فى كتابه - مثل تكذيب الحق المخالف للهوى ، والاستكبار عن قبوله ، وحسد أهله ، والبغي عليهم ، واتباع سبيل الغى ، والبخل والجبن وقسوة القلوب ، ووصف الله سبحانه وتعالى بمثل عيوب المخلوقين ونقائصهم ، وجحد ما وصف به نفسه من صفات الكمال المختصة به ، التى لا يماثله فيها مخلوق ، وبمثل الغلو فى الأنبياء والصالحين ، والإشراك فى العبادة لرب العالمين ، والخروج فى أعمال الدين عن شرائع الأنبياء والمرسلين ، والعمل بمجرد هوى القلب وذوقه ووجده فى الدين ، من غير اتباع العلم الذى أنزله الله فى كتابه المبين ، واتخاذ أكابر العلماء والعباد أرباباً يتبعون فيما يبتدعونه من الدين المخالف للأنبياء عليهم السلام ، كما قال تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ ، [سورة التوبة : ٣١]، ومخالفة صريح المعقول وصريح المنقول ، بما يظن أنه من التنزلات الإلهية والفتوحات القدسية ، مع كونه من وساويس اللعين ؛ حتى يكون صاحبها ممن قال الله فيه : ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أونعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ ، [سورة الملك : ١٠] ، وقال تعالى فيه : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٧٩] إلى غير ذلك من أنواع البدع والضلالات التى ذم الله بها أهل الكتابين - فإنها مما حذر الله منه هذه الأمة الأخيار ، وجعل ما حل

بهما عبرة لأولى الأبصار .

وقد أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أنه لابد من وقوعها فى بعض هذه الأمة ، إن كان قد أخبر صلى الله عليه وسلم أنه لا يزال فى أمته أمة قائمة على الحق ، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتي تقوم الساعة ، وأن أمته لا تجتمع على ضلالة ، ولا يغلبها من سواها من الأمم ، بل لا تزال ظاهرة منصورة متبعة لنبيها المهدى المنصور ، ولكن لابد أن يكون فيها من يتبع سنن اليهود والنصارى والروم والمجوس ، كما فى الصحيحين عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : (١) « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا فى جحرضب لدخلتموه » . قالوا : يارسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن ؟ » .

وفى الصحيحين أيضاً ، عن أبى سعيد رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : (٢) « لتأخذن أمتى مأخذ الأمم قبلها شبراً وذراعاً بذراع » قالوا :

---

(١) « صحيح » رواه البخارى فى كتاب « الاعتصام » باب قول النبى صلى الله عليه وسلم « لتتبعن سنن من كان قبلكم » (٣١٢/١٣ح٧٣١٩) بلفظ «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتى بأخذ القرون قبلها شبرًا بشبر ...»

ورواه ابن ماجة فى كتاب « الفتن « باب » افتراق الأمم (١٣٢٢/٢ح٣٩٩٤) واللفظ له ورواه الطبرى فى تفسير»(١٢١/١٠،١٢٢)

(٢) « متفق عليه »

رواه البخارى فى كتاب أحاديث الأنبياء » باب « ماذكر عن بنى إسرائيل » (٥٧١/٦ح ٣٤٥٦) بلفظ « لتتبعن سنن من كان قبلكم ..»

ورواه أيضًا فى كتاب « الاعتصام بالكتاب والسنة .

باب « قول النبى صلى الله عليه وسلم :« لتتبعن سنن من كان قبلكم (٣١٢/١٣،٣١٣ح ٧٣٢٠) ورواه مسلم فى كتاب « العلم » باب» اتباع سنن اليهود والنصارى » بنفس لفظ البخارى (٢٠٥٤/٤، ٢٠٥٥ح٢٦٦٩)

يارسول الله ، فارس والروم ؟ قال : « فمن الناس إلا أولئك ؟ » .

وفى المظهرين للإسلام منافقون . والمنافقون في الدرك الأسفل من النار، تحت اليهود والنصارى . فلهذا كان ماذم الله به اليهود والنصارى قديوجد فى المنافقين المنتسبين للإسلام ، الذين يظهرون الإيمان بجميع ما جاء الرسول ، ويبطنون خلاف ذلك ، كالملاحدة والباطنية، فضلاً عمن يظهر الإلحاد منهم ، ويوجد بعض ذلك فى أهل البدع ، ممن هو مقر بعموم رسالة النبى صلى الله علية وسلم ، باطناً وظاهراً ، لكن اشتبه عليه بعض ما اشتبه على هؤلاء ، فاتبع المتشابه ، وترك المحكم ، كالخوارج وغيرهم من أهل الأهواء .

وللنصارى - فى صفات الله سبحانه وتعالى ، واتحاده بالمخلوقات - ضلال شاركهم فيه كثير من هؤلاء ، بل من الملاحدة من هو أعظم ضلالا من النصارى .

والحلول والاتحاد نوعان : عام وخاص .

* **فالعام** : كالذين يقولون : إن الله بذاته حال فى كل مكان ، أو أن وجوده عين وجود المخلوقات .

* **والخاص** : كالذين يقولون بالحلول والاتحاد فى بعض أهل البيت كعلى ، وغيره ، مثل النصيرية وأمثالهم ، أو بعض من ينتسب إلى أهل البيت ، كالحاكم وغيره ، مثل الدرزية وأمثالهم ، أو بعض من يعتقد فيه المشيخة ، كالحلاجية وأمثالهم .

فمن قال : إن الله سبحانه وتعالى حل أو اتحد بأحد من الصحابه ، أو القرابة ، أو المشايخ ، فهو من هذا الوجه أكفر من النصارى الذين قالوا بالاتحاد والحلول فى المسيح ، فإن المسيح عليه السلام أفضل من هؤلاء كلهم .

ومن قال بالحلول والاتحاد العام فضلا له أعم من ضلال النصارى ، وكذلك من قال بقدوم أرواح بنى آدم ، أو أعمالهم ، أو كلامهم أو أصواتهم ، أو مداد مصاحفهم ،

أو نحو ذلك . ففى قوله شعبة من قول النصارى .

فبمعرفة حقيقة دين النصارى وبطلانه ، يعرف بطلان ما يشبه أقوالهم ، من أقوال أهل الإلحاد والبدع . فإذا جاء نور الإيمان والقرآن أزهق الله به ما خالفه ، كما قال تعالى : ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾ ، [سورة الإسراء : ٨١] ، وأبان الله سبحانه وتعالى من فضائل الحق ومحاسنه ما كان به محقوقاً .

وكان من أسباب نصر الدين وظهوره أن كتاباً ورد من قبرص فيه الاحتجاج لدين النصارى ، بما يحتج به علماء دينهم وفضلاء ملتهم قديماً وحديثاً من الحجج السمعية والعقلية ، فاقتضى أن نذكر من الجواب ما يحصل به فصل الخطاب ، وبيان الخطأ من الصواب ، لينتفع بذلك أولو الألباب ، ويظهر ما بعث الله به رسله من الميزان والكتاب . وأنا أذكر ما ذكروه بألفاظهم بأعيانها فصلا فصلا ، وأتبع كل فصل بما يناسبه من الجواب فرعاً وأصلا ، وعقداً وحلا ، وما ذكروه فى هذا الكتاب هو عمدتهم التى يعتمد عليها علماؤهم فى مثل هذا الزمان ، وقبل هذا الزمان ، وإن كان قد يزيد بعضهم على بعض ، بحسب الأحوال ، فإن هذه الرسالة وجدناهم يعتمدون عليها قبل ذلك ويتناقلها علماؤهم بينهم والنسخ بها موجودة قديمة وهى مضافة إلى « بولص » الراهب أسقف صيداً الأنطاكى ، كتبها إلى بعض أصدقائه ، وله مصنفات فى نصر النصرانية ، وذكر أنه لما سافر إلى بلاد الروم والقسطنطينية وبلاد الملافطة وبعض أعمال الإفرنج وورمية ، واجتمع بأجلاء أهل تلك الناحية ، وفاوض أفاضلهم وعلماءهم ، وقد عظم هذه الرسالة ، وسماها : « الكتاب المنطيقى الدولة خانى المبرهن عن الاعتقاد الصحيح والرأى المستقيم » .

ومضمون ذلك ستة فصول :

(**الفصل الأول**) : دعواهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يبعث إليهم ، بل

إلى أهل الجاهلية من العرب ، ودعواهم أن فى القرآن ما يدل على ذلك والعقل يدل على ذلك .

(الفصل الثانى) : دعواهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم أثنى فى القرآن على دينهم الذى هم عليه ومدحه بما أوجب لهم أن يثبتوا عليه .

(الفصل الثالث) : دعواهم أن نبوات الأنبياء المتقدمين كالتوراة والزبور الإنجيل ، وغير ذلك من النبوات ، يشهد لدينهم الذى هم عليه من الأقانيم والتثليث والاتحاد ، وغير ذلك بأنه حق وصواب ، فيجب التمسك به ولا يجوز العدول عنه إذ لم يعارضه شرع يرفعه ولا عقل يدفعه .

(والفصل الرابع) : فيه تقرير ذلك المعقول ، وأن ما هم عليه من التثليث ثابت بالنظر المعقول ، والشرع المنقول ، موافق للأصول .

(الفصل الخامس) ودعواهم أنهم موحدون ، والاعتذار عما يقولونه من ألفاظ يظهر منها تعدد الآلهة ، كألفاظ الأقانيم ، بأن ذلك من جنس ما عند المسلمين من النصوص التى يظهر منها التشبيه والتجسيم .

(الفصل السادس) : أن المسيح عليه السلام جاء بعد موسى عليه السلام بغاية الكمال ، فلا حاجة - بعد النهاية - إلى شرع مزيد على الغاية ، بل يكون ما بعد ذلك شرعاً غير مقبول .

ونحن - ولله الحمد والمنة - نبين أن كل ما احتجوا به من حجة سمعية ، من القرآن أو من الكتب المتقدمة على القرآن ، أو عقلية ، فلا حجة لهم فى شئ منها ، بل الكتب كلها مع القرآن ، والعقل حجة عليهم لا لهم ، بل عامة ما يحتجون به من نصوص الأنبياء ، ومن المعقول ؛ فهو نفسه حجة عليهم ، ويظهر منه فساد قولهم ، مع ما يفسده من سائر النصوص النبوية والموازين التى هى مقاييس عقلية .

وهكذا يوجد عامة ما يحتج به أهل البدع من كتب الله عز وجل ، ففى تلك النصوص ما تبين أنه لا حجة لهم فيها ؛ بل هى بعينها حجة عليهم ، كما ذكر أمثال ذلك فى الرد علي أهل البدع والأهواء ، وغيرهم من أهل القبلة وإنما عامة ما عند القوم ألفاظ متشابهة ، تمسكوا بها ظنوها تدل عليه ، وعدلوا عن الألفاظ المحكمة الصريحة المبنية ، مع ما يقترن بذلك من الأهواء . وهذه حال جميع أهل الباطل ، كما قال تعالى فيهم ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأ نفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ [سورة النجم : ٢٣] .

فهم فى جهل وظلم ، كما قال تعالى ﴿ وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا * ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ [سورة الأحزاب : ٧٢ ، ٧٣] .

فالمؤمنون الذين تاب الله عليهم من الجهل والظلم هم أتباع الأنبياء عليهم السلام ، فإن الأنبياء بعثوا بالعلم والعدل ، كما قال تعالى : ﴿ والنجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى ﴾ ، [سورة النجم ١-٤]فبين سبحانه وتعالى أنه ليس ضالا جاهلا ، ولا غاوياً متبعاً هواه ، ولا ينطق عن هواه ، إنما نطقه وحى أوحاه الله سبحانه وتعالي .

وقال تعالي : ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً ﴾ ، [سورة الفتح : ٢٨] .

فالهدى يتضمن العلم النافع ، ودين الحق يتضمن العمل الصالح ، ومبناه على العدل . كما قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٥] .

وأصل العدل فى حق الله تعالى هو عبادة الله وحده لا شريك له . فإن الشرك ظلم

عظيم . كما قال لقمان لابنه : ﴿ يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [سورة لقمان : ١٣] .

وفي الصحيحين ، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، لما نزلت ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ [سورة الأنعام : ٨٢] ، شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وقالوا : أينا لم يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) : « ليس هو كما تظنون ، إنما هوالشرك . ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح : إن الشرك لظلم عظيم ؟ » .

ولما كان أتباع الأنبياء هم أهل العلم والعدل كان كلام أهل الإسلام والسنة مع الكفار وأهل البدع بالعلم والعدل ، لا بالظن وما تهوى الأنفس . ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم : (٢) « القضاة ثلاثة : قاضيان فى النار ، وقاض فى الجنة .

---

(١) «متفق عليه » رواه البخارى فى كتاب « الإيمان » «باب» ظلم دون ظلم » (١/١٠٩ح٣٢)
ورواه أيضاً برقم (٣٣٦٠، ٣٤٢٨ ، ٣٤٢٩ ، ٤٦٢٩ ، ٤٧٧٦ ، ٦٩١٨ ، ٦٩٣٧)
ورواه مسلم فى كتاب « الإيمان » «باب » صدق الإيمان وإخلاص» (١/١٤٣، ١١٤، ١١٥ح ١٢٤)
ورواه الترمذي فى كتاب «التفسير» « باب » تفسير سورة الأنعام »(٨/٤٤٠، ٤٤١ح ٥٠٦٢)
وقال : « هذا حديث حسن صحيح »
ورواه النسائى فى الكبرى كتاب « التفسير » باب » تفسير سورة الأنعام « (٦/٣٤١ح ١١١٦٦)
ورواه أيضاً فى باب « تفسير سورة لقمان » (٦/٤٢٧ح ١١٣٩٠)
(٢) « صحيح » من حيث « بريدة »
رواه أبو داود فى كتاب « الأقضية » باب » فى القاضى يخطئ » (٩/٤٨٧، ٤٨٨ح ٣٥٥٦)
وقال أبو داود :« هذا أصح شئ فيه »
ورواه الترمذي فى كتاب « الأحكام » باب « ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القاضى » (٣/٦٠٤ح ١٣٢٢)
ورواه ابن ماجة فى كتاب « الأحكام » باب « الحاكم يجتهد فيصيب الحق » (٢/٧٧٦ح ٢٣١٥)
ورواه النسائى فى الكبرى فى كتاب القضاة » باب « ذكر ما أعد الله تعالى للحاكم الجاهل »
(٣/٤٦١،٤٦٢ح٥٩٢٢)

رجل علم الحق وقضى به فهو فى الجنة ، ورجل علم الحق بخلافه فهو فى النار ، ورجل قضى للناس على جهل فهو فى النار » رواه أبو داود وغيره .

فإذا كان من يقضى بين الناس فى الأموال والدماء والأعراض - إذا لم يكن عالماً عادلا - كان فى النار ، فكيف بمن يحكم فى الملل والأديان ، وأصول الإيمان والمعارف الإلهية ، والمعالم الكلية ، بلا علم ولا عدل ؟ كحال أهل البدع والأهواء ، الذين يتمسكون بالقدر المشترك المتشابه في المقاييس والآراء ، ويعرضون عما بينها من الفروق المانعة من الإلحاق والاستواء كحال الكفار وسائرأهل البدع والأهواء ، الذين يمثلون المخلوق بالخالق ، والخالق بالمخلوق ، ويضربون لله المثل السوء بالقول الهزء .

وذلك أن دين النصارى الباطل إنما هو دين مبتدع ، ابتدعوه بعد المسيح عليه السلام ، وغيروا به دين المسيح ، فضل منهم من عدل عن شريعة المسيح إلى ما ابتدعوه . ثم لما بعث الله تعالى محمداً عليه أفضل الصلاة والسلام كفروا به ، فصار كفرهم وضلالهم من هذين الوجهين : تبديل دين الرسول الأول ، وتكذيب الرسول الثاني : كما كان كفر اليهود بتبديلهم أحكام التوراة قبل مبعث المسيح ثم تكذيبهم المسيح عليه السلام .

ونبين - إن شاء الله تعالي - أن ما عليه النصارى من التثليث والاتحاد لم يدل عليه شئ من كتب الله ، لا الإنجيل ، ولا غيره ، بل دلت على نقيض ذلك . ولا دل على ذلك عقل ، بل العقل الصريح ، مع نصوص الأنبياء ، تدل على نقيض ذلك . بل وكذلك عامة شرائع دينهم ، محدثة مبتدعة ، لم يشرعها المسيح عليه السلام .

ثم التكذيب لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم هو كفرهم المعلوم لكل مسلم ، مثل كفر اليهود بالمسيح عليه السلام ، وأبلغ وهم يبالغون فى تكفير اليهود بأعظم مما يستحقه اليهود من التكفير . إذ كان اليهود يزعمون أن المسيح ساحر كذاب ، بل

يقولون : إنه ولد بغية ، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله سبحانه : ﴿ وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً ﴾ ، [سورة النساء : ١٥٦] ، والنصارى يدعون أنه الله الذى خلق الأولين والآخرين ، وأنه ديان يوم الدين فكانت الأمثال فيه على غاية التناقض والتعادل والتقابل . ولهذا كل أمة تذم الأخرى بأكثر مما تستحقه ، كما قال تعالى : ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شئ وقالت النصارى ليست اليهود على شئ وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ ، [سورة البقرة : ١١٣] .

ذكر محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضى الله عنه : (١) أنه لما قدم وفد نجران من النصارى على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، أتتهم أحبار يهود ، فتنازعوا عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال ربيع بن حرملة : ما أنتم على شئ ، وكفر بعيسى والإنجيل جميعاً ، فقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود : ما أنتم على شئ ، وجحد بنبوة موسى وكفر بالتوراة ، فأنزل الله تعالى ذلك في قولهما : ﴿ وقالت اليهود ليست النصاري علي شئ وقالت النصارى ليست اليهود على شئ وهم يتلون الكتاب ﴾ ، [سورة البقرة : ١١٣] ، قال : كل يتلو فى كتابه تصديق ما كفر به : أى تكفير اليهود بعيسى ، وعندهم التوراة فيها ما أخذ الله تعالى عليهم بتصديق موسى عليه السلام ، وبما جاء به من التوراة من الله تعالى ، وكل يكفر بما فى يدى صاحبه .

قال قتادة : (٢) « وقالت اليهود ليست النصارى على شئ » ، قال : بلى ، قد

---

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (١ /٣٩٤)

وابن إسحاق كما فى « سيرة ابن هشام .(٢/٢٢٥،٢٢٦) ، طبعة مكتبة المنار

ورواه ابن أبى حاتم كما فى تفسير (ق ١/ البقرة) (ص ٣٣٨، ٣٣٩ ح ١١١٠)

(٢) رواه الطبرى فى تفسيره (١/٣٩٥)

وذكره السيوطى كما فى « الدر المنثور » (١/ ١٠٨) ورواه ابن أبى حاتم كما فى تفسيره (ق١/ البقرة) (ص ٣٣٩ ح ١١١) ، وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير

كان أوائل النصارى على شئ ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا . « وقالت النصارى ليست اليهود على شئ » ، قال : بلى ، قد كان أوائل اليهود على شئ ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا : فاليهود كذبوا بدين النصارى ، وقالوا : ليسوا على شئ . والنصارى كذبوا بجميع ما يتميز به اليهود عنهم ، حتي فى شرائع التوراة التي لم ينسخها المسيح ، بل أمرهم بالعمل بها ، واليهود كذبوا بكثير من الذى تميزوا به عنهم ، حتي كذبوا بما جاء به عيسى عليه السلام من الحق .

لكن النصارى - وإن بالغوا فى تكفير اليهود ومعاداتهم عن الحد الواجب عما ابتدعوه من الغلو والضلال - فلا ريب أن اليهود لما كذبوا المسيح صاروا كفاراً ، كما قال الله تعالى للمسيح : ﴿ إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا ﴾ ، [سورة آل عمران : ٥٥] ، وقال تعالى : ﴿ قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ ، ﴿سورة الصف : ١٤] .

وكفر النصارى - بتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم ، وبمخالفة المسلمين - أعظم من كفر اليهود بمجرد تكذيب المسيح ، فإن المسيح لم ينسخ من شرع التوراة إلا قليلا ، وسائر شرعه إحالة على التوراة . ولكن عامة دين النصارى أحدثوه بعد المسيح . فلم يكن فى مجرد تكذيب اليهود له - من مخالفة شرع الله - ما فى تكذيب النصارى لمحمد صلى الله عليه وسلم ، الذى جاء بكتاب مستقل من عند الله ، لم يحل شئ من شرعه على شرع غيره . قال تعالى : ﴿ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ ، [سورة العنكبوت : ٥١] .

والقرآن أصل كالتوراة ، وإن كان أعظم منها ، ولهذا كان علماء النصارى يقربون

بين موسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ، كما قال النجاشي ملك النصارى لما سمع القران :(١) إن هذا والذى جاء به موسي ليخرج من مشكاة واحدة . وكذلك قال ورقة بن نوفل ، وهو من أحبار نصارى العرب ، لما سمع كلام النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : (٢) إنه يأتيك الناموس الذى يأتى موسى ، ياليتني فيها جذعاً حين يخرجك قومك ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أو مخرجى هم ؟ قال : نعم ، لم يأت أحد بمثل ما أتيت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً »

ولهذا يقرن سبحانه وتعالى بين التوراة والقرآن فى مثل قوله : ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا ساحران تظاهرا » يعنى التوراة والقرآن ، وفى القراءة الأخرى : « قالوا ساحران » ، أى موسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ، ﴿ وقالوا إنا بكل كافرون * قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدي منهما أتبعه إن كنتم صادقين ﴾ [سورة القصص : ٤٨ ، ٤٩] . فلم ينزل كتاب من عند الله أهدى من التوراة والقرآن .

ثم قال تعالى : ﴿ فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن

---

(١) رواه ابن إسحاق كما فى سيرة ابن هشام » (١/٤١٣: ٤١٨)
وفيه صرح ابن إسحاق بالسماع وسنده صحيح ورواه أحمد من طريق « ابن اسحاق » (١/ ٢٠١: ٢٠٣)، (٥/٢٩٠: ٢٩٣)
ورواه البيهقى فى « الدلائل » (٢/٣٠١: ٣٠٤)
وانظر منحة المعبود (٢/٨٩، ٩٠)
وانظر البداية والنهاية « لابن كثير » (٣/٧٢:٧٥)
(٢) « متفق عليه » رواه البخارى في كتاب « بدء الوحى » باب (٣) (١/٣٠، ٣١ح ٣)
ورواه أيضًا برقم (٣٣٩٢، ٤٩٥٣ ، ٤٩٥٥، ٤٩٥٦، ٤٩٥٧، ٦٩٨٢)
ورواه مسلم فى كتاب « الإيمان » باب « بدء الوحى » (١/١٣٩: ١٤٢ح ١٦٠)

اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ ، [سورة القصص : ٥٠] .

وهؤلاء النصارى ، ذكر كاتب كتابهم في كتابه : أنه لما سأله أن يفحص له فحصاً بيناً عما يعتقده النصاري المسيحيون المختلفة ألسنتهم ، المتفرقة فى أربع زوايا العالم ، من المشرق إلى المغرب ، ومن الجنوب إلى الشمال ، والقاطنون بجزائر البحر ، والمقيمون بالبر المتصل إلي مغيب الشمس ، فإن الأسقف ديان الملك الرومى اجتمع بمن اجتمع به من أجلائهم ورؤسائهم ، وفاوض من فاوض من أفاضلهم وعلمائهم ، فيما علمه من رأى القوم الذين رآهم بجزائر البحر قبل دخوله إلى قبرص ، وخاطبهم فى دينهم وما يعتقدونه ويحتجون به عن أنفسهم ، قال الكاتب على لسان الأسقف : إنهم يقولون : إنا سمعنا أن قد ظهر إنسان من العرب اسمه محمد ، ويقول : إنه رسول الله ، وأتى بكتاب فذكر أنه منزل عليه من الله ، فلم نزل إلى أن حصل الكتاب عندنا . قال : فقلت لهم : إذا كنتم قد سمعتم بهذا الكتاب وهذا الإنسان ، واجتهدتم على تحصيل هذا الكتاب الذى أتى به عندكم ، فلأى حال لم تتبعوه ، ولاسيما وفى هذا الكتاب يقول : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨٥) ؟ . أجابوا قائلين : لأحوال شتى . قال : فقلت : وما هى ؟ قالوا : منها أن الكتاب عربى وليس بلساننا ، حسب ما جاء فيه ، يقول : ﴿ إنا أنزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون ﴾ ، [سورة يوسف : ٢]، وقال : ﴿ بلسان عربى مبين ﴾ ،[سورة الشعراء : ١٩٥] وقال فى سورة الشعراء : ﴿ ولو نزلناه على بعض الأعجمين * فقرأه عليهم ما كانوا به مومنين ﴾ ، [سورة الشعراء : ١٩٨ ، ١٩٩] ، وقال فى سورة البقرة : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم اياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ ، (سورة البقرة : ١٥١) ، وقال فى سورة

آل عمران : ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من زنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ورن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٦٤] . وقال تعالى فى سورة القصص ﴿ لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ﴾ [سورة القصص : ٤٦] ، وقال فى سورة يس ﴿ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ﴾ ، [سورة يس : ٦] ، قالوا : فما رأينا هذا علمنا أنه لم يأت إلينا ، بل إلى جاهلية العرب ، الذين قالوا : إنه لم يأتهم رسول ولا نذير من قبله . ،إنه لا يلزمنا اتباعه ، لأننا نحن قد أتانا رسل من قبله : خاطبونا بألسنتنا ، وأنذرونا بديننا الذى نحن متمسكون به يومنا هذا ، وسلموا إلينا التوراة والإنجيل بلغتنا ، على ما يشهد لهم هذا الكتاب الذى أتى به هذا الرجل ، حيث يقول فى سورة إبراهيم : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ ، [سورة إبراهيم : ٤] ، وقال فى سورة النحل ﴿ لقد بعثنا فى كل أمة رسولاً ﴾ : وقال فى سورة الروم : ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات ﴾ ،[سورة الروم : ٤٧] . فقد صح فى هذا الكتاب أنه لم رأت إلا إلى الجاهلية من العرب ، وأما قوله : ﴿ ومن يتبع غير الرسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨٥] ، فيريد بحسب مقتضى العدل قومه الذين أتاهم بلغتهم ، لا غيرهم ممن لم يأتهم بما جاء فيه . ونعلم أن الله عدل ، وليس من عدله أن يطالب يوم القيامة أمة من الأمم باتباع إنسان لم يأت إليهم ، ولا وقفوا له على كتاب بلسانهم ، ولا من جهة داع من قبله .

وهذه ألفاظهم بأعيانها فى الفصل الأول وهذا الفصل لم يتعرضوا فيه لا لتصديقه . ولا لتكذيبه ، بل زعموا أنه فى نفس هذا الكتاب أنه لم يقل : إنه مرسل إليهم ، بل إلى جاهلية العرب . وأن العقل أيضاً يمنع أن يرسل إليهم .

فنحن نبدأ بالجواب على هذا ، ونبين أنه صلى الله عليه وسلم أخبر أنه مرسل

إليهم وإلى جميع الإنس والجن ، وأنه لم يقل قط : إنه لم يرسل إليهم ، ولا فى كتابه ما يدل على ذلك . وأن ما احتجوا به من الآيات التى غلطوا فى معرفة معناها ، فتركوا النصوص الكثيرة الصريحة فى كتابه ، التي تبين أنه مرسل إليهم . من جنس ما فعلوه في التوراة والإنجيل والزبور . وكلام الأنبياء ، حيث تركوا النصوص الكثيرة الصريحة ، وتمسكوا بقليل من المتشابه الذى لم يفهموا معناه ومعلوم أن الكلام فى صدق مدعى الرسالة وكذبه . متقدم على الكلام فى عموم رسالته وخصوصها ، وإن كان قد يعلم أحدهما قبل الآخر . لكن هؤلاء القوم ادعوا خصوص رسالته . وذكروا أن القرآن يدل على ذلك فنجيب عما ذكروه على حسب ترتيبهم فصلا فصلا ، فنقول وبالله التوفيق :

الكلام فيمن خاطب الخلق بأنه رسول الله إليهم ، كما فعل محمد صلى الله عليه وسلم ، وغيره ممن قال : إنه رسول الله ، كإبراهيم ، وموسى ونحوهما من الأنبياء الصادقين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وآل كل من الصالحين وكمسيلمة الكذاب والأسود العنسى ، ونحوهما ، من المتنبئين الكاذبين ، ينبنى على أصلين :

أحدهما : أن يعرف ما يقوله فى خبره وأمره ، فيعرف ما يخبر به ويأمر به ،وهل قال : إنه رسول الله إلى جميع الناس ؟ إنه لم يرسل إلا إى طائفة معينة ، لا إلى غيرها ؟

والثانى : أن نعرف هل هو صادق أو كاذب ؟

وبهذين الأصلين يتم الإيمان المفصل ، وهو معرفة صدق الرسول ، ومعرفة ما جاء به .

وأما الإيمان المجمل ، فيحصل بالأول ، وهو معرفة صدقه فيما جاء به ، كإيماننا بالرسل المتقدمة . وقد يعلم صدقه أو كذبه ، قبل أن يعلم ما يذكره . وقد يعلم ما يذكره ، قبل أن يعلم صدقه أو كذبه.وهؤلاء بدأوا فى كتابهم هذا بما ذكره الرسول ،

مما زعموا أنه حجة لهم على عدم وجوب اتباعه ، وعلى مدح دينهم الذى هم اليوم عليه ، بعد النسخ والتبديل . ثم ذكروا حججاً مستقلة على صحة دينهم ، ثم ذكروا ما يقدح فيه وفى دينه ، فلهذا قدمنا الجواب عما احتجوا به من القرآن ، كما قدموه فى كتابهم .

فصل

ودلائل صدق النبى الصادق ، وكذب المتنبى الكاذب ، كثيرة جداً .

فإن من ادعى النبوة - وكان صادقاً - فهو من أفضل خلق الله تعالى ، وأكملهم فى العلم والدين ، فإنه لا أحد أفضل من رسل الله وأنبيائه ، صلوات الله عليهم وسلامه ، وإن كان بعضهم أفضل من بعض ، كما قالا تعالى : ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٥٣] ، وقال تعالى : ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ﴾ ، [سورة الإسراء : ٥٥] .

وإن كان المدعى للنبوة كاذباً فهو من أكفر خلق الله ، وشرهم ، كما قال تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شئ ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ﴾ ، [سورة الأنعام : ٩٣] ، وقال تعالى : ﴿ فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين * والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون * لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ﴾ ، [سورة الزمر : ٣٢ - ٣٤] ، وقال تعالى : ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين ﴾ [سورة الزمر : ٦٠] ، فالكذب أصل للشر ، وأعظمه الكذب على الله عز وجل . والصدق أصل للخير ، وأعظمه الصدق على الله تبارك وتعالى .

وفى الصحيحين ، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، عن النبى صلى ا
عليه وسلم أنه قال : (١) « عليكم بالصدق ؛ فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن ا
يهدى إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند ا
صديقاً ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إل
النار ، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » .

ولما كان هذا فى أعلى الدرجات ، وهذا فى أسفل الدركات ، كان بينهما مر
الفروق والدلائل والبراهين ، التى تدل على صدق أحدهما وكذب الآخر - ما يظهر
لكل من عرف حالهما . ولهذا كانت دلائل الأنبياء وأعلامهم الدالة على صدقهم
كثيرة متنوعة ، كما أن دلائل كذب المتنبئين كثيرة متنوعة ، كما قد بسط فى موضع
آخر .

فصل

إذا عرف هذا ، فهؤلاء القوم - فى هذا المقام - ادعوا أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يرسل إليهم ، بل إلى أهل الجاهلية من العرب ، فهذه الدعوى على وجهين :

إما أن يقولوا : إنه بنفسه لم يدع أنه أرسل إليهم ، ولكن أمته ادعوا له ذلك .

---

(١) « متفق عليه »

رواه البخارى فى كتاب « الأدب » بـاب قوله تعالى ﴿ ... اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ (٥٢٣/١٠ ح٦٠٩٤)

ورواه مسلم فى كتاب « البر و الصلة » باب «قبح الكذب وحسن الصدقة » (٢٠١٢/٤، ٢٠١٣ ح ٢٦٠٧)

ورواه أبو داود فى كتاب « الأدب » باب « فى التشديد فى الكذب (٣٣٣/١٣، ٣٣٤ح ٤٩٦٨)

ورواه الترمذي فى كتاب « البر » باب « ماجاء فى الصدق والكذب » (١٠٦/٦، ١٠٧ح ٢٠٣٨)

وقال : « وفى الباب عن أبى بكر وعمر وعبد الله بن الشخير وابن عمر »

وإما أن يقولوا : إنه ادعى أنه أرسل إليهم ، وهو كاذب فى هذه الدعوى وكلامهم فى صدر هذا الكتاب يقتضى الوجه الأول .

وفى آخره قد يقال : إنهم قد أشاروا إلى الوجه الثانى ، لكنهم فى الحقيقة لم ينكروا رسالته إلى العرب ، وإنما أنكروا رسالته إليهم . وأما رسالته إلى العرب فلم يصرحوا بتصديقه فيها ولا بتكذيبه ، وإن كان ظاهر لفظهم يقتضى الإقرار برسالته إلى العرب بل صدقوا بما وافق قولهم ، وكذبوا بما خالف قولهم .

ونحن نبين أنه لا يصح احتّجاجهم بشئ مما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم ثم تكلم على الوجهين جميعا ، ونبين أنه لا يصح احتجاجهم بشئ من القرآن على صحة دينهم ، بوجه من الوجوه . ونبين أن القرآن لا حجة فيه لهم ، ولا فيه تناقض ، وكذلك كتب الأنبياء المتقدمين ، التى يحتجون بها ، هى حجة عليهم ، ليس فى شئ منها حجة لهم ، ولو لم يبعث محمد صلى الله عليه وسلم . فكيف والكتاب الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم موافق لسائر كلام الأنبياء عليهم السلام ، فى إبطال دينهم ، وقولهم فى التثليث والاتحاد ، وغير ذلك ، مع العقل الصريح ؟ فهم احتجوا فى كتابهم هذا بالقرآن وبما جاءت به الأنبياء ، قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، مع العقل .

ونحن نبين أنه لا حجة لهم فيما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا فيما جاءت به الأنبياء قبله ، ولا فى العقل . بل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وما جاءت به الأنبياء قبله ، مع صريح العقل ، كلها براهين قطعية على فساد دينهم . ولكن نذكر قبل ذلك . أن احتجاجهم بما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم لا يصح بوجه من الوجوه ، وأنه لا يجوز أن يحتج بمجرد المنقول عن محمد صلى الله عليه وسلم من يكذبه فى كلمة واحدة مما جاء به .

وكذلك كلام سائر الأنبياء عليهم السلام ، بخلاف الاحتجاج بكلام غير الأنبياء ، فإن ذلك يمكن موافقة بعضه دون بعض ، وأما ما أخبرت به الأنبياء عليهم السلام ، أو من قال : إنه نبى ، فلا يمكن الاحتجاج ببعضه دون بعض سواء قدر صدقهم أو كذبهم .

فيقال لهم ، على تقدير ، سواء إن أقروا بنبوته إلى العرب أو إلى غيرهم ، أو كذبوه فى قوله : إنه رسول الله مطلقاً ، أو سكتوا عن هذا وهذا ، أو صدقوه فى البعض دون البعض .

إن احتجاجهم على صحة ما يخالفون فيه المسلمون ، مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، لا يصح بوجه من الوجوه . فاحتجاجكم على أنه لم يرسل إليكم ، أو على صحة دينكم بشئ من القرآن ، حجة داحضة ، على كل تقدير .

مع أنَّا سنبين ، إن شاء الله تعالى ، أن الكتب الإلهية كلها ، مع المعقول لا حجة لكم شئ منها ، بل كلها حجة عليكم .

وهذا بخلاف المسلمين ، فإنه يصح احتجاجهم على أهل الكتاب ، اليهود والنصارى ، بما جاءت به الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم . وأهل الكتاب لا يصح احتجاجهم بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك أن المسلمين مقرون بنبوة موسى ، وعيسى ، وداود وسليمان ، وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام وعندهم يجب الإيمان بكل كتاب أنزله الله ، وبكل نبى أرسله الله وهذا أصل دين المسلمين : فمن كفر بنبى واحد ، أوكتاب واحد . فهو عندهم كافر بل من يسب نبياً من الأنبياء فهو عندهم كافر مباح الدم . كما قال تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون * فإن

آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ [سورة البقرة : ١٣٦ ، ١٣٧] وقال تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٨٥] . وقال تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾ ، [سورة البقرة : ١٧٧] .

والكتاب اسم جنس لكل كتاب أنزله الله ، يتناول التوراة والإنجيل ، كما يتناول القرآن ، كقوله تعالى : ﴿ وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم ﴾ [سورة الشورى ١٥] . وقوله تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٨٥] . وفي القراءة الأخرى : « وكتابه » ، كقوله تعالى : ﴿ وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم ﴾ [سورة الشورى : ١٥] . وقوله تعالى : ﴿ ألم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالأخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ ، [سورة البقرة : ١- ٥] .

نذكر أن هذا الكتاب الذى أنزل عليه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة والذين يؤمنون بما أنزل إليه وما أنزل من قبله وبالآخرة هم يوقنون . ثم أخبر تعالى أن هؤلاء هم المفلحون . فحصر الفلاح فى هؤلاء ، فلا يكون مفلحاً إلا من كان من هؤلاء ؛ وقوله تعالى : ﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴾ [سورة البقرة : ٤] هو صفة للمذكورين ليس

هؤلاء صنفاً آخر . فإن عطف الشئ على الشئ قد يكون لتغاير الصفات وإن كانت الذات واحدة . هذا هو الصحيح هنا . وإن كان قد قيل : إن الصنف الثانى مؤمنوا أهل الكتاب ، والأول هم المسلمون ، فهذا ضعيف وأفسد منه قول هؤلاء النصارى : إن الكتاب المراد به الإنجيل ؛ كما سيأتى الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى .

والعطف لتغاير الصفات كقوله تعالى : ﴿سبح اسم ربك الأعلى * الذى خلق فسوى * والذى قدر فهدى * والذى أخرج المرعى * فجعله غثاء أحوى ﴾ [سورة الأعلى : ١-٥] . وهو سبحانه الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ، والذى أخرج المرعى ، فجعله غثاء أحوى . وقوله تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ [سورة المؤمنون : ١-٥] ... إلى آخر الآيات . وكذلك قوله : ﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴾ ، [سورة البقرة : ٤] هم الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون وهم الذين على هدى من ربهم ، وهم المفلحون . ولكن فصل إيمانهم بعد أن أجمله ؛ لئلا يظن ظان أن مجرد دعوى الإيمان بالغيب ينفع وإن لم يؤمن بما أنزل إلى محمد صلى الله عليه وسلم وما أنزل إلى من قبله : فلو قال أحد من الناس : أنا أؤمن بالغيب ، وهو مع ذلك لا يؤمن ببعض ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم : أو ببعض ما أنزل على من قبله لم يكن مؤمناً ، حتى يؤمن بجميع ما أنزل إليه . وما أنزل إلى من قبله . ولو كانوا صنفاً آخر لكان المفلحون قسمين : قسما يؤمنون بالغيب ولا يؤمنون بما أنزل إليه وما أنزل إلى من قبله وقسما يؤمنون بما أنزل إليه وما أنزل إلى من قبله ، ولا يؤمنون بالغيب وهذا باطل عند جميع الأمم : المؤمنين واليهود والنصارى فإن الإيمان بما أنزل إليه وإلى من قبله ، يتضمن الإيمان بالغيب . والإيمان بالغيب لا يتم إلا بالإيمان بجميع ما أنزله الله تبارك وتعالى .

والمسلمون لا يستجيز أحد منهم التكذيب بشئ مما أنزل على من كان قبل محمد صلى الله عليه وسلم . لكن الاحتجاج بذلك عليهم يحتاج إلى ثلاث مقدمات :

أحدهما : ثبوت ذلك عن الأنبياء عليهم السلام .

والثانية : صحة الترجمة إلى اللسان العربى . أو اللسان الذى يخاطب به ؛ كالرومى والسريانى . فإن لسان موسى وداود والمسيح وغيرهم من أنبياء بنى إسرائيل كان عبرانياً . ومن قال : إن لسان المسيح كان سريانياً أو رومياً فقد غلط .

والثالثة : تفسير ذلك الكلام ومعرفة معناه .

فلهذا كان المسلمون لا يردون شيئاً من الحجج بتكذيب أحد من الأنبياء فى شئ قاله . ولكن قد يكذبون الناقل عنهم أو يفسرون المنقول عنهم بما أرادوه بمعنى آخر على وجه الغلط .

وإن كان بعض المسلمين قد يغلط فى تكذيب بعض النقل أو تأويل بعض المنقول عنهم . فهو كما يغلط من يغلط منهم ، ومن سائر أهل الملل ، فى التكذيب على وجه الغلط ببعض ما ينقل عمن يقر بنبوته ، أو في تأويل المنقول عنه .

وهذا بخلاف تكذيب نفس النبى فإنه كفر صريح بخلاف أهل الكتاب ، فإنه لا يتم مرادهم إلا بتكذيبهم ببعض ما أنزل الله ، ومتى كذب بكلمة واحدة مما أخبر به من قال : إنه رسول الله ، بطل احتجاجه بسائر كلامه . فكانت حجتهم التى يحتجون بها داحضة . وذلك أن الذى يقول : إنه رسول الله إما أن يكون صادقاً فى قوله : إنى رسول الله ، وفى جميع ما يخبر به عن الله . وإما أن يكون كاذباً . ولو فى كلمة واحدة عن الله .

فإن كان صادقاً فى ذلك ، امتنع أن يكذب على الله فى شئ مما يبلغه عن الله ؛ فإن من كذب على الله . ولو في كلمة واحدة . كان ممن افترى على الله الكذب ولم

يكن رسولا من رسل الله . ومن افترى على الله الكذب تبين أنه من المتنبئين الكذابين . ومثل هذا لا يجوز أن يحتج بخبره عن الله ، فإنه قد علم أن الله لم يرسله . وإذا قال هو قولا ، وكان صدقاً ، كان كما يقوله غيره ، يقبل .

لا لأنه بلغه عن الله . ولا لأنه رسول عن الله ، بل كما يقبل من المشركين وسائر الكفار ما يقولونه من الحق : فإن عباد الأوثان إذا قالوا عن الله ما هو حق مثل إقرار مشركى العرب بأن الله خلق السموات والأرض لم نكذبهم فى ذلك ، وإن كانوا كفاراً . وكذلك إذا قال الكافر : إن الله حى قادر خالق لم نكذبه فى هذا القول . فمن كذب على الله فى كلمة واحدة . قال : إن الله أنزلها عليه ، ولم يكن أنزلها عليه . فهو من الكذابين الذين لا يجوز أن يحتج بشئ من أقوالهم ، التى يقولون : إنهم يبلغونها عن الله تبارك وتعالى .

وما قالوه غير ذلك فهم فيه كسائر الناس ، بل كأمثالهم من الكذابين : إن عرف صحة ذلك القول من جهة غيرهم قبل ؛ لقيام الدليل على صحته لا لكونهم قالوه . وإن لم يعرف صحته من جهة غيرهم ، لم يكن فى قولهم له مع ثبوت كذبهم على الله حجة .

وحينئذ فهؤلاء إن أقروا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه صادق فيما بلغه عن الله من الكتاب والحكمة ، وجب عليهم الإيمان بكل ما ثبت عنه من الكتاب والحكمة ، كما يجب الإيمان بكل ما جاءت به الرسل .

وإن كذبوه فى كلمة واحدة ، أو شكوا فى صدقه فيها ، امتنع مع ذلك أن يقروا بأنه رسول الله .وإذا لم يقروا بأنه رسول الله ، كان احتجاجهم بما قاله ، كاحتجاجهم بسائر ما يقوله من ليس من الأنبياء ، بل من الكذابين ، أو من المشكوك فى صدقهم . ومعلوم أن من عرف كذبه على الله فيما يقول : إنه يبلغه عن الله

أوشك فى صدقه ، لم يعلم أنه رسول الله ، ولا أنه صادق فى كل ما يقوله ويبلغه عن الله . وإذا لم يعلم ذلك منه ، لم يعرف أن الله أنزل إليه شيئاً . بل إذا عرف كذبه ، عرف أن الله لم ينزل إليه شيئاً ولا أرسله . كما عرف كذب مسيلمة الكذاب ، والأسود العنسى ، وطليحة الأسدى ، وكما عرف كذب « مانى » وأمثاله ، من المتنبئين الكذابين .

وإذا شك فى صدقه فى كلمة واحدة ، بل جوز أن يكون كذبها عمداً أو خطأ ، لم يجز تصديقه مع ذلك فى سائر ما يبلغه عن الله ؛ لأن تصديقه فيما يخبر به عن الله ، إنما يكون إذا كان رسولا صادقاً لا يكذب عمداً ولا خطأ . فإن كل من أرسله الله لا بد أن يكون صادقاً فى كل ما يبلغه عن الله ، لا يكذب فيه عمداً ولا خطأ .

وهذا أمر اتفق عليه الناس كلهم : المسلمون واليهود والنصارى وغيرهم ، اتفقوا على أن الرسول لا بد أن يكون صادقاً معصوماً فيما يبلغه عن الله ، لا يكذب على الله خطأ ولا عمدا . فإن مقصود الرسالة لا تحصل بدون ذلك ، كما قال موسى عليه السلام لفرعون : ﴿ يا فرعون إني رسول من رب العالمين * حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٠٤ ، ١٠٥] . وفى القراءة المشهورة : يخبر أنه جدير وحرى وثابت ومستقر على أن لا يقول على الله إلا الحق . وعلى القراءة الأخرى : أخبر أنه واجب عليه أن لا يقول على الله إلا الحق ، وقال تعالى : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ ، [سورة الحاقة : ٤٤: ٤٧] وقال تعالى : ﴿ أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمحو الله الباطل ويحق الحق بكلماته ﴾ . [سورة الشورى : ٢٤] . وقال تعالى : ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون * قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ . [سورة النحل : ١٠١ - ١٠٢] . وقال تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون

لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل لا يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلى - ﴾ .[سورة يونس : ١٥] . وهذا لبسطه موضع آخر .

وإنما المقصود هنا : أن احتجاجهم بكلمة واحدة مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، لا يصح بوجه من الوجوه . فإنه إن كان رسولا صادقاً فى كل ما يخبر به عن الله عز وجل ، فقد علم كل واحد أنه جاء بما يخالف دين النصارى ، فيلزم إذا كان رسولا صادقاً أن يكون دين النصارى باطلا : وإن قالوا فى كلمة واحدة مما جاء به أنها باطلة ، لزم أن يكون عندهم رسولا صادقاً ؛ مبلغا عن الله ، وحينئذ فسواء قالوا : هو ملك عادل ، أو هو عالم من العلماء ، أو هو رجل صالح من الصالحين ، أو جعلوه قديساً عظيماً من أعظم القديسين . فمهما عظموه به ، ومدحوه به ، لما رأوه من محاسنه الباهرة ، وفضائله الظاهرة ، وشريعته الطاهرة ، متى كذبوه فى كلمة واحدة مما جاء به أوشكوا فيها كانوا مكذبين له فى قوله : إنه رسول الله ، وأنه بلغ هذا القرآن عن الله . ومن كان كاذباً فى قوله : إنه رسول الله لم يكن من الأنبياء والمرسلين . ومن لم يكن منهم لم يكن قوله حجة البتة ، لكن له أسوة أمثاله . فإن عرف صحة ما يقوله بدليل منفصل ، قبل القول ؛ لأنه عرف صدقه من غير جهته ، لا لأنه قاله . وإن لم يعرف صحة القول لم يقبل .

فتبين أنه ، إن لم يقر المقر لمن ذكر أنه رسول الله بأنه صادق فى كل ما يبلغه عن الله ، معصوم عن استقرار الكذب خطأ أو عمداً لم يصح احتجاجهم بقوله . وهذا الأصل يبطل قول عقلاء أهل الكتاب وهو لقول جهالهم أعظم إبطالا فإن كثيراً من عقلاء أهل الكتاب أو أكثرهم يعظمون محمداً صلى الله عليه وسلم ، لما دعا إليه من توحيد الله تعالى ، ولما نهى عنه من عبادة الأوثان ، ولما صدق التوراة والإنجيل والمرسلين قبله ، ولما ظهر من عظمة القرآن الذى جاء به ومحاسن الشريعة التى جاء بها ، وفضائل أمته التى آمنت به ولما ظهر عنه وعنهم من الآيات والبراهين والمعجزات والكرامات لكن يقولون مع ذلك إنه بعث إلى غيرنا أو إنه ملك عادل له سياسة عادله وإنه مع ذلك حصل علوماً من علوم أهل الكتاب وغيرهم ، ووضع لهم

ناموساً بعلمه ورتبه كما وضع أكابرهم لهم القوانين والنواميس التى بأيديهم ومهما قالوه من هذا فإنهم لا يصيرون به مؤمنين به ، ولا يسوغ لهم بمجرد ذلك الاحتجاج بشئ مما قاله ؛ لأنه قد عرف بالنقل المتواتر الذى يعلمه جميع الأمم من جميع الطوائف أنه قال : إنه رسول إلى جميع الناس وأن الله أنزل عليه القرآن فإن كان صادقاً فى ذلك فمن كذبه فى كلمة واحدة فقد كذب رسول الله ، ومن كذب رسول الله فهو كافر وإن لم يكن صادقاً فى ذلك لم يكن رسولا لله ، بل كاذباً . ومن كان كاذباً على الله يقول : الله أرسلنى بذلك . ولم يرسله به لا يجوز أن يحتج بشئ من أقواله .

وأما من كان من جهال أهل الكتاب الذين يقولون : إنه كان ملكا مسلطاً عليهم وأنه رسول غضب أرسله الله إرسالا كونياً لا دينيا لينتقم به منهم ؛ كما أرسل بختنصر وسنجاريب على بنى إسرائيل وكما أرسل جنكس خان وغيره من الملوك الكافرين والظالمين . مما ينتقم الله به ممن عصاه ، فهؤلاء أعظم تكذيباً له ، وكفراً به من أولئك ؛ فإن هؤلاء الملوك لم يقل أحد منهم : إن الله أنزل عليه كتاباً ، ولا أن هذا الكلام الذى أبلغه إليكم هو كلام الله ، ولا أن الله أمركم أن تصدقوني فيما أخبرتكم به . وتطيعونى فيما أمرتكم به . ومن لم يصدقنى باطناً وظاهراً ، فإن الله يعذبه فى الدنيا والآخرة . بل هؤلاء أرسلهم إرسالا كونياً قدره وقضاه كما يرسل الريح بالعذاب ، وكما يرسل الشياطين .

قال الله تعالى : ﴿الم ترأنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً﴾ . [سورة مريم : ٨٣] . وقال تعالى : ﴿ وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً * فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا ﴾ . [سورة الإسراء : ٤ ، ٥] وهذا بخلاف قوله : ﴿ إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ [سورة نوح : ١] وقوله : ﴿ إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا ﴾ [سورة المزمل : ١٥] . وقوله تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح

والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً * ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما * ورسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ . [سورة النساء : ١٦٣ - ١٦٥] . فإن هذا يعنى به الإرسال الدينى . الذى يحبه تعالى ويرضاه . الذى هدي به من اتبعهم . وأدخله فى رحمته ، وعاقب من عصاهم . وجعله من المستوجبين للعذاب وهو الإرسال الذى أوجب الله به طاعة من أرسله . كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ﴾ . [سورة النساء : ٦٤) . وقال تعالى : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ ، [سورة النساء ٨٠] وهذه الرسالة التى أقام الله بها الحجة على الخلق ، كما قال تعالى : ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ ، [سورة النساء : ١٦٥] . وقال تعالى : ﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ﴾ ، [سورة الحج : ٧٥] . وهذا كما اصطفى روح القدس جبريل عليه السلام ، لنزوله بالقرآن على من اصطفاه من البشر وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

قال تعالى : ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾ ، [سورة البقرة : ٩٧] . وقال تعالى : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين ﴾ ، [سورة الشعراء : ١٩٢ - ١٩٥] . وقال تعالى : ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ ، [سورة النحل : ١٠١ ، ١٠٢] .فأخبر أنه نزل به جبريل ، وسماه الروح الأمين ، وسماه روح القدس . وقد ذكره أيضاً فى قوله : ﴿ إنه لقول رسول كريم . ذى قوة عند ذى العرش مكين * مطاع ثم أمين ﴾ [سورة التكوير ١٩ : ٢١] ثم قال : ﴿ وما صاحبكم بمجنون * ولقد رآه بالأفق المبين * وما هو على الغيب بضنين * وما هو

بقول شيطان رجيم * فأين تذهبون * إن هو إلا ذكر للعالمين * لمن شاء منكم أن يستقيم * وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ ، [سورة التكوير : ١٩ - ٢٩] فهذا الرسول جبريل عليه السلام . وقال تعالى : ﴿ إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلا ما تومنون * ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون * تنزيل من رب العالمين * ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ [سورة الحاقة : ٤٠ - ٤٧] فهذا الرسول محمد صلى الله عليه وسلم .وأما الإرسال الكونى الذى قدره وقضاه مثل إرسال الرياح وإرسال الشياطين فذلك نوع آخر . قال تعالى : ﴿ إنَّا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً ﴾ ، [سورة مريم : ٨٣] . وقال تعالى : ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته ﴾ ، [سورة الأعراف : ٥٧] . والله تعالى له الخلق والأمر فلفظ الإرسال ، والبعث ، والإرادة ، والأمر ، والإذن ، والكتاب ، والتحريم ، والقضاء والكلام ينقسم إلى : خلقى ، وأمرى ، وكونى ، ودينى ، وقد ذكرنا الإرسال .

وأما البعث ، فقال تعالى فى البعث الدينى : ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ ، [سورة الجمعة : ٢] وقال فى الكونى : ﴿ فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد ﴾ ، [سورة الإسراء : ٥] وقال تعالى : ﴿ فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض ﴾ ، [سورة المائدة : ٣١] .

وأما الإرادة ، فقال تعالى فى الكونية : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٢٥] وقال نوح عليه السلام : ﴿ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم ﴾ [هود : ٣٤] وقال تعالى فى الإرادة الدينية ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ ، [سورة البقرة : ١٨٥] . وقال تعالى : ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ﴾ ، [سورة النساء : ٢٦] ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما * يريد الله أن يخفف عنكم ﴾ ،

[سورة النساء : ٢٧ - ٢٨] . وقال تعالى : ﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم ﴾ ، [سورة المائدة : ٦] . وقال تعالى : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾ ، [سورة الأحزاب : ٣٣] .

وقال تعالى فى الأمر الكونى : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ [سورة يس : ٨٢] .

وكذلك أظهر القولين قوله تعالى : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول ﴾ [سورة الإسراء : ١٦] .

وأما الأمر الدينى مثل قوله : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ سورة النساء : ٥٨] .

وأما الإذن الكونى مثل قوله فى السحرة : ﴿ وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ ، [سورة البقرة : ١٠٢] . والدينى مثل قوله : ﴿ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا ﴾ . [سورة الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦]

والكتاب الكونى مثل قوله : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ﴾ ، [سورة المجادلة : ٢١] . وقوله : ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴾ . [سورة التوبة : ٥١] . والدينى مثل قوله : ﴿ كتاب الله عليكم ﴾ [سورة النساء : ٢٤]وقوله : ﴿ كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ﴾ [سورة البقرة : ١٨٣] وقوله : ﴿ كتب عليكم القصاص ﴾ ، [سورة البقرة : ١٧٨] .

والقضاء الكونى كقوله : ﴿ فقضاهن سبع سموات ﴾ ، [سورة فصلت : ١٢] والدينى كقوله : ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ﴾ ، [سورة الإسراء : ٢٣] . أى : أمر .

والتحريم الكونى مثل قوله : ﴿ وحرمنا عليه المراضع من قبل ﴾ ، [سورة القصص ١٢] وقوله : ﴿ إنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض ﴾ ، [سورة المائدة :٢٦] . وقوله : ﴿ وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون ﴾ ، (سورة الأنبياء : ٩٥) . والدين مثل قوله : ﴿ حرمت عليكم الميته والدم ولحم الخنزير ﴾ ، [سورة المائدة : ٣] . وقوله : ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم ﴾ ، [سورة النساء : ٢٣] .

والكلمات الكونية مثل قول النبى صلى الله عليه وسلم : (١) « أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر » ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وصدقت بكلمات ربها وكتبه ﴾ . [سورة التحريم : ١٢] .

---

(١) رواه أحمد (٤١٩/٣) عن عبد الرحمن بن خنبش

ورواه أبو يعلى فى مسنده (٢٣٧/١٢: ٢٣٨ح ٦٨٤٤)

وقال الهيثمى فى المجمع (١٢٧/١٠) :رواه أحمد وأبو يعلى والطبرانى بنحوه ....، ورجال أحد إسنادى أحمد وأبى يعلى وبعض أسانيد الطبرانى رجال الصحيح ، وكذلك رجال الطبرانى »

وورد عن خولة بنت حكيم » رواه مسلم فى كتاب « الذكر والدعاء » باب « فى التعوذ من سوء القضاء » (٢٠٨٠/٤، ٢٠٨١ح ٢٧٠٨)

ورواه الترمذي فى كتاب « الدعوات » باب » ما جاء ما يقول إذا انزل منزلاً » (٣٩٦/٩، ٣٩٧ح ٣٤٩٩)

وقال : « هذا حديث حسن غريب صحيح وروى مالك بن أنس هذا الحديث أنه بلغه عن يعقوب بن الأشج فذكر نحو الحديث . وروى عن ابن عجلان هذا الحديث عن يعقوب بن عبد الله بن الأشج ويقول عن سعيد بن المسيب عن خولة وحديث الليث أصح من رواية ابن عجلان أ هـ ورواه النسائى فى الكبرى فى كتاب « عمل اليوم والليلة باب « ما يقول إذا نزل منزلاً » (١٤٤/٦ح ١٠٣٩٤)

ورواه ابن ماجة فى كتاب (الطب « باب » الفزع والأرق وما يتعوذ منه » (١١٧٤/٢ ح ٣٥٤٧)

هذا وقد ورد الحديث عن أبى هريرة وغيره

وانظر مجمع الزوائد (١٢٦/١٠ ، ١٢٨)(١٦٢) «صحيح »

والدينية : مثل قول النبى صلى الله عليه وسلم :(١) « اتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله » ومنه قوله تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾ ، [سورة آل عمران : ٦٤] وهذا مبسوط فى موضع آخر .

والمقصود هنا : تفرق أهل الكتاب فى النبى صلى الله عليه وسلم ، كل يقول فيه قولا هو نظير تفرق سائر الكفار ، فإن الكفار بالأنبياء من عادتهم أن تقول كل طائفة فيه قولا يناقض قول الطائفة الأخرى ، وكذلك قولهم في الكتاب الذى أنزل عليه ، وأقوالهم كلها أقوال مختلفة باطلة ، وهذا هو الاختلاف المذموم الذي ذكره الله تعالى فى قوله : ﴿ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ﴾ ، [سورة هود : ١١٩] . وفى قوله : ﴿ إنكم لفى قول مختلف * يؤفك عنه من أفك ﴾ ، [سورة الذاريات : ٨] ، وقوله تعالى ﴿ وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد ﴾ ، [سورة البقرة : ١٧٦] ، وقوله : ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم * يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ ، [سورة آل

---

(١) هذا جزء من حديث حجة النبى صلى الله عليه وسلم الذى رواه جابر :

رواه مسلم فى كتاب « الحج » باب « حجة النبى صلى الله عليه وسلم (٢/٨٨٦، ٨٩٢ح ١٢١٨)

ورواه أبو داود فى كتاب « الحج » باب « صفة حجة النبى صلى الله عليه وسلم » (٥/٣٦٠ ،٣٨٥ح ١٨٨٨) ، ورواه النسائى في كتاب « المناسك » باب « الكراهية فى الثياب المصبغة للمحرم » (٥/١٤٣ ، ١٤٤) دونه ذكر الشاهر

ورواه أيضًا في الكبرى فى كتاب « عشرة النساء » باب إيجاب نفقة المرأة وكسوتها » (٥/ ٣٧٥ ح ٩١٧٩)

ورواه ابن ماجة فى كتاب « المناسك » باب « حجة النبى صلى الله عليه وسلم (٢/١٠٢٢ ، ١٠٢٧ح ٣٠٧٤)

عمران : ١٠٥ ، ١٠٦] وقوله تعالى : ﴿ ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ﴾ ، [سورة المائدة : ١٤] .

ومثال أقوال الكفار فى الأنبياء ما ذكره تعالى فى قوله : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً * الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شئ فقدره تقديرا * واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا * وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزورا * وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا * قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً * وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا * أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً * انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾ ، [سورة الفرقان ١ -٩] .

فبين سبحانه أن الكفار ضربوا له أمثالا كلها باطلة ضلوا فيها عن الحق ، فلا يستطيعون مع الضلال سبيلا إلى الحق ، وضرب الأمثال له يتضمن تمثيله بأناس آخرين ، وجعله فى تلك الأنواع التى ليس هو منها ولا مماثلا لأفرادها مثل قولهم : ﴿ إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ﴾ . [سورة الفرقان : ٤] مثلوه بالكاذب المستعين بمن يعينه على ما يفتريه ، ومثلوه بمن يستكتب أساطير الأولين من غيره ، فيقرأ عليه طرفى النهار وهو يتعلم من أولئك ما يقوله ومثلوه بالمسحور ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً * وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه * وفى آذانهم وقراً وإذا

ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا * نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا * انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾ [سورة الإسراء : ٤٥ - ٤٨] وقال تعالى : ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم * لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين * وقل إنى أنا النذير المبين * كما أنزلنا على المقتسمين * الذين جعلوا القرآن عضين فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون * فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين * إنا كفيناك المستهزئين * الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون ﴾ ، [سورة الحجر : ٨٧ - ٩٦] .

قال كثير من السلف : (١) الذين جعلوا القرآن عضين : هم الذين عضهوه ، فقالوا : سحر ، وشعر ، وكهانة ونحو ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ فلا أقسم بما تبصرون * ومالا تبصرون * إنه لقول رسول كريم * ولا هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون * تنزيل من رب العالمين * ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين * وإنه لتذكرة للمتقين * وإنا لنعلم أن منكم مكذبين * وإنه لحسرة على الكافرين * وإنه لحق اليقين * فسبح باسم ربك العظيم ﴾ [الحاقة : ٣٨ - ٥٢] . وقال تعالى : ﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون * أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون * قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين * أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون * أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون * فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ ، [سورة الطور : ٢٩ - ٣٤] وقال تعالى : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح

(١) هذا القول ورد عن « مجاهد» كما فى الدر المنثور (٥/٩٩) وعزاه لابن أبى حاتم وابن المنذر

الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين . وإنه لفي زبر الأولين * أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل * ولو نزلناه على بعض الأعجمين * فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين * كذلك سلكناه في قلوب المجرمين * لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم * فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون * فيقولوا هل نحن منظرون . أفبعذابنا يستعجلون * أفرأيت إن متعناهم سنين * ثم جاءهم ما كانوا يوعدون * ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون * وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون * ذكرى وما كنا ظالمين ﴾ ، [سورة الشعراء : ١٩١ - ٢٠٩] ، ثم قال تعالى ﴿ وما تنزلت به الشياطين * وما ينبغي لهم وما يستطيعون * إنهم عن السمع لمعزولون * فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين * وأنذر عشيرتك الأقربين * واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين * فإن عصوك فقل إني برئ مما تعملون * وتوكل على العزيز الرحيم * الذي يراك حين تقوم * وتقلبك في الساجدين * إنه هو السميع العليم * هل أنبئكم على من تنزل الشياطين * تنزل على كل أفاك أثيم * يلقون السمع وأكثرهم كاذبون * والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تر أنهم في كل واد يهيمون * وأنهم يقولون مالا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ ، [سورة الشعراء : ٢١٠ - ٢٢٧] وقال تعالى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم * وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون * وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون * وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون * بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون * وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين * أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك

لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون * قل كفى بالله بينى وبينكم شهيداً يعلم ما فى السموات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون * ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون * يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين * يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾ ، [سورة العنكبوت : ٤٦ - ٥٥] وقال تعالى : ﴿ أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون * فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ ، [سورة الطور : ٣٤ ، ٣٥] وقال تعالى ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ [سورة يونس : ٣٨] ، وقوله : ﴿ فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾ [سورة هود : ١٤] قال تعالى : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٣ ، ٢٤] . وقال تعالى : ﴿ ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون * ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين * ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إنى لكم منه نذير مبين ﴾ . [سورة الذاريات : ٤٩ - ٥١] .

وقد أخبر سبحانه وتعالى أن هذه سنة الكفار فى الأنبياء قبله كما قال : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحراً أومجنون * أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾ . [سورة الذاريات : ٥٢ ، ٥٣] وقال تعالى : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ . [سورة فصلت : ٤٣] . وقال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ﴾ [سورة الأنعام

١١٢].

وقــد أخبر سبحـانه أن الكفار قـالوا عن مـوسى عليه السـلام : إنه ساحـر وإنه مـجنون ، فـقـال فـرعـون : ﴿ إن رسـولكم الذى أرسـل إليكم لمجنون ﴾ ، [سـورة الشعراء : ٢٧] ، وقوله : ﴿ وقالوا يأيها الساحر إدع لنا ربك ﴾ ، [سورة الزخرف : ٥٩] وقـوله : ﴿ إنه لكبيـركم الذى علمكم السـحـر ﴾ ، [سـورة طه : ٧١] ، وكذلك قـالوا عن المسيح ابن مريم كـما قال تعـالى : ﴿ وقال المسيـح يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مـصدقاً لما بين يدى من التـوراة ومبشراً برسـول يأتى من بعدى اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾ ، [سورة الصف : ٦] .

وذكر تعالى عن اليهود أنهم قالوا على مريم بهتاناً عظيماً : فقول اليهود فى المسيح من جنس أقوال الكفار من الأنبياء ، وكذلك قول كفار أهل الكتاب فى خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم تسليما .

وإن قالوا : نحن مقصودنا بيان تناقضه وأن كلامه ينقض بعضه بعضاً .

قيل : فهذا أيـضاً يستلزم أنه ليس رسولا صـادقاً ، فلا يصح لكم الاحتـجاج بشئ من قوله علـى هذا التقدير ، وإن كنا نحـن نبين أنه ـ ولله الحمد ـ قـوله يصدق بعـضه بعضه ، وكذلك يصدق قول الأنبياء قبله ، وأن قول الأنبياء كلهم يوافق صريح العقل ، فلا يتناقض شئ من الحق المعلوم بـسمع أو عقل ، فإذا علم هذا فنقـول بعد ذلك لمن قال إنه رسول أرسل إلى العرب الجاهلية دون أهل الكتاب : إنه من المعلوم بالضرورة لكل من علم أحواله وبالنقل المتواتر الذى هو أعظم تواتـراً مما ينقل عن موسى وعيسى وغيرهـــما ، وبالقرآن المتواتـر عنه وسنته المتواترة عنه ، وسنة خلفـائه الراشدين من بعده ، أنه صلى الله عليـه وسلم ذكر أنه أرسل إلى أهل الكتاب اليـهود والنصارى ، كما ذكر أنه أرسل إلى الأميين رسولا ، بل ذكر أنه أرسل إلى جميع بنى آدم : عربهم

وعجمهم من الروم ، والفرس والترك ، والهند ، والبربر ، والحبشة ، وسائر الأمم ، بل إنه أرسل إلى الثقلين الجن والإنس جميعاً ، وهذا كله من الأمور الظاهرة المتواترة عنه التى اتفق على نقلها عنه أصحابه - مع كثرتهم وتفرق ديارهم وأحوالهم - وقد صحبه عشرات ألوف لا يحصى عددهم على الحقيقة إلا الله تعالى ، ونقل ذلك عنهم التابعون وهم أضعاف الصحابة عدداً ، ثم ذلك منقول قرناً بعد قرن إلى زمننا مع كثرة المسلمين وانتشارهم فى مشارق الأرض ومغاربها ، كما أخبر بذلك قبل أن يكون ، فقال فى الحديث الصحيح : (١) « زويت إلى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى مازوى لى منها » وكان كما أخبر ، فبلغ ملك أمته طرفى العمارة مشرقاً ومغرباً ، وانتشرت دعوته فى وسط الأرض ، كالإقليم الثالث والرابع والخامس ؛ لأنهم أكمل عقولا وأخلاقاً ، وأعدل أمزجة ، بخلاف طرفى الجنوب والشمال ، فإن هؤلاء نقصت عقولهم وأخلاقهم ، وانحرفت أمزجتهم .

أما طرف الجنوب ، فإنه لقوة الحرارة احترقت أخلاطهم ، فاسودت ألوانهم وتجعدت شعورهم .

وأما طرف الشمال فلقوة البرد لم تنضج أخلاطهم ، بل صارت فجة فأفرطوا فى سبوطة الشعر والبياض البارد الذى لا يستحسن .

ولهذا لما ظهر الإسلام غلب أهله على وسط المعمورة وهم أعدل بنى آدم وأكملهم

---

(١) صحيح رواه مسلم فى كتاب « الفتن » باب « هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض (٤/٢٢١٥، ٢٢١٦ح٢٨٨٩)

ورواه أبو داود فى كتاب « الفتن » باب « ذكر الفتن ودلائلها » (٣٢٢/١١: ٣٢٤ح٤٢٣٢)ورواه الترمذي فى كتاب « الفتن » باب « سؤال النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثًا فى أمته » (٣٩٨/٦: ٤٠٠ح٢٢٦٧)

ورواه ابن ماجة فى كتاب « الفتن » باب « مايكون من الفتن » (١٣٠٤/٢ح ٣٩٥٢)

، والنصارى الذين تربوا تحت ذمة المسلمين أكمل من غيرهم من النصارى عقولا وأخلاقاً ، وأما النصارى المحاربون للمسلمين الخارجون عن ذمتهم من أهل الجنوب والشمال فهم أنقص عقولا وأخلاقاً ، ولما فيهم من نقص العقول والأخلاق ظهرت فيهم النصرانية دون الأسلام .

والمقصود : أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو نفسه دعا أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلى الإيمان به وبما جاء به ، كما دعا من لا كتاب له من العرب وسائر الأمم ، وهو الذى أخبر عن الله تبارك وتعالى بكفر من لم يؤمن به من أهل الكتاب وغيرهم ، وبأنهم يصلون جهنم وساءت مصيراً ، وهو الذى أمر بجهادهم ودعاهم بنفسه ونوابه ، وحينئذ فقولهم فى الكتاب لم يأت إلينا ، بل إلى الجاهلية من العرب ، سواء أرادوا به أن الله بعثه إلى العرب ولم يبعثه إلينا أوأرادوا أنه ادعى أنه أرسل إلى العرب لا إلينا . فإنه قد علم جميع الطوائف أن محمداً دعا اليهود والنصارى إلى الإيمان به ، وذكر أن الله أرسله إليهم وأمره بجهاد من لم يؤمن به منهم ، فإذا قيل مع هذا إنه قال : لم أبعث إلا إلى العرب ، كان كذباً ظاهراً عليه ، سواء صدقه الإنسان أو كذبه ؛ فإن المقصود هنا أنه نفسه دعا جميع أهل الأرض إلى الإيمان به ، فدعا أهل الكتاب كما دعا الأميين .

أما اليهود : فإنهم كانوا جيرانه فى الحجاز وبالمدينة وما حولها وخيبر ، فإن المهاجرين والأنصار كلهم آمنوا به من غير سيف ولا قتال ، بل لما ظهر لهم من براهين نبوته ودلائل صدقه آمنوا به ، وقد حصل من الأذى فى الله لمن آمن بالله ما هو معروف فى السيرة ، وقد آمن به فى حياته كثير من اليهود والنصارى بعضهم بمكة وبعضهم بالمدينة ، وكثير منهم كانوا بغير مكة والمدينة ، فلما قدم المدينة عاهد لمن لم يؤمن به من اليهود ثم فقضوا العهد فأجلى بعضهم وقتل بعضهم لمحاربتهم لله ورسوله وقد ، قاتلهم مرة بعد مرة ، قاتل بنى النضير ، وأنزل الله تعالى فيهم سورة

الحشر ، وقاتل قريظة عام الأحزاب ، وذكرهم الله في سورة الأحزاب ، وقاتل قبلهم بنى قينقاع ؛ وبعد هؤلاء غزا خيبر هو وأهل بيعة الرضوان ، الذين بايعوه تحت الشجرة ، وكانوا ألفاً وأربعمائة ، ففتح الله عليهم خيبر وأقر اليهود فيها فلاحين ، وأنزل الله تعالى سورة الفتح يذكر فيها ذلك ، فكيف يقال : إنه لم يذكر أنه أرسل إلا إلى مشركى العرب وهذه حال اليهود معه ؟

وأما النصارى ، فإن أهل نجران - التى باليمن - كانوا نصارى فقدم عليه وفدهم ستون راكباً وناظرهم فى مسجده وأنزل الله فيهم صدر سورة آل عمران ، ولما ظهرت حجته عليهم ، وتبين لهم أنه رسول الله إليهم ، أمره الله إن لم يجيبوه أن يدعوهم إلى المباهلة ، فقال تعالى : ﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله علي الكاذبين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٦١] . فلما دعاهم إلى المباهلة طلبوا أن يمهلهم حتى يشتوروا فاشتوروا ، فقال بعضهم لبعض : تعلمون أنه نبى وأنه ما باهل قوم نبياً إلا نزل بهم العذاب ، فاستعفوا من المباهلة فصالحوه وأقروا له بالجزية عن يد وهم صاغرون ؛ لما خافوا من دعائه عليهم ، لعلمهم أنه نبى فدخلوا تحت حكمه كما يدخل أهل الذمة الذين فى بلاد المسلمين تحت حكم الله ورسوله وأدوا إليه الجزية عن يد وهم صاغرون ، وهم أول من أدى الجزية من النصارى ، واستعمل عليهم وعلى من أسلم منهم عمرو بن حزم الأنصارى ، وكتب له كتاباً مشهوراً يذكر فيه شرائع الدين فكانوا فى ذمة المسلمين تحت حكم الله ورسوله ونائب رسوله عمرو بن حزم الأنصارى - رضى الله عنه - وقصتهم مشهورة متواترة نقلها أهل السير ، وأهل التفسير ، وأهل الحديث ، وأهل الفقه ، وأصل حديثهم معروف فى الصحاح وفى السنن كما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ووفد نجران لما قدموا أنزل الله تبارك وتعالى بسبب ما جرى صدر سورة آل

عمران ، وذكر تعالى فرض الحج بقوله : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ﴾ ، [سورة آل عمران : ٩٧] . وهذا أنزل إما سنة تسع وإما سنة عشر ، كما ذكر ذلك غير واحد من العلماء منهم : القاضى أبو يعلى وغيره .

قالوا : إن فرض وجوب الحج يثبت بقوله ﴿ ولله على الناس حج البيت ﴾ روى أنه نزل فى سنة عشر ، وروى أنه نزل فى سنة تسع وهذا قول العلماء إنما ثبت بهذه الآية ، وقال بعضهم : (١) بل ثبت ذلك بقوله تعالى : ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾ ، [سورة البقرة : ١٩٦] وهذه الآية نزلت سنة ست عام الحديبية لما صد المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البيت وصالحهم ذلك العام وبايع المسلمين تحت الشجرة ، وأنزل فيها سورة الفتح ، ثم رجع إلى المدينة وفتح الله عليهم خيبر سنة سبع ، وفيها قدم عليه جعفر بن أبى طالب مع وفد الحبشة ، ثم أرسل جعفراً ، وزيداً ، وعبد الله بن رواحة لغزو النصارى لمؤته ، ثم فتح مكة سنة ثمان فى رمضان ، ثم فى أثناء سنة تسع غزوا النصارى إلى تبوك ، وفيها حج أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - وأمر أن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان .

وأردفه بعلى بن أبى طالب - رضى الله عنه - لنبذ العهود ، وأنزل الله آية السيف المطلقة بجهاد المشركين وجهاد أهل الكتاب ، فقال تعالى : ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوالهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ﴾ ، [سورة التوبة : ٥] .

وهذه الأشهر عند جمهور العلماء هى المذكورة فى قوله تعالى :(٢) ﴿ فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين ﴾ [سورة التوبة : ٢] .

---

(١) انظر « تفسير ابن كثير » (٣٨٥/١)

(٢) وانظر المراد بهذه الأشهر في تفسير ابن كثير .(٣٣٥/٢ : ٣٣٦)

فإن المشركين كانوا نوعين : نوعاً لهم عهد مطلق غير مؤقت ، وهو عقد جائز غير لازم ، ونوعاً لهم عقد مؤقت فأمر الله رسوله أن ينبذ إلى المشركين أهل العهد المطلق ؛ لأن هذا العهد جائز غير لازم ، وأمره أن يسيرهم أربعة أشهر ، ومن كان له عهد مؤقت فهو عهد لازم ، فأمر الله أن يوفى له إذا كان هو مؤقتاً ، وقد ذهب بعض الفقهاء إلى أن الهدنة لا تجوز إلا مؤقتة . وذهب بعضهم إلى أنه يجوز للإمام أن يفسخ الهدنة المؤقتة مع قيامهم بالواجب ، والصواب هو القول الثالث ، وهو أنها تجوز مطلقة ومؤقتة .

فأما المطلقة فجائزة غير لازمة يخير بين إمضائها وبين نقضها .

والمؤقتة لازمة ، قال تعالى : ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين * فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين * وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برئ من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم * إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين * فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم * وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون * كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، إن الله يحب المتقين * كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون * اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون * لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون * فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان

لهم لعلهم ينتهون * ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ﴾ ، [سورة التوبة : ١- ١٣] .

والمقصود هنا ذكر وفد نجران النصارى : « السيد والعاقب ومن معهما » .

قال أبو الفرج ابن الجوزى : (١) ثم دخلت سنة عشر من الهجرة فمن الحوادث فيها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث خالد بن الوليد إلى بنى الحارث ابن كعب ، فروى ابن إسحاق قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالداً فى ربيع الآخر أو جمادى الأول من سنة عشر إلى بنى الحارث بن كعب بنجران ، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم . وذكر القصة ، ثم قال : وفيها قدم وفد الأزد ، وفيها قدم وفد غسان ، وفيها قدم وفد زبيد . وفيها قدم وفد عبد القيس . قال ابن إسحاق : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم الجارود بن عمرو فى وفد عبد القيس وكان نصرانيا فأسلموا . وفيها قدم وفد كندة فأسلموا ، وفيها قدم وفد بنى حنيفة . وفيها قدم وفد بجيلة قال : وفيها قدم العاقب والسيد من نجران . فكتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب صلح .

وذكر محمد بن سعد فى الطبقات (٢) قدومهم فى ذكر الوفود فقال : بعث النبى صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فى شهر ربيع الأول سنة عشر إلى بنى الحارث بن كعب ذكره بإسناده : أنبأنا محمد بن عمر ، حدثني إبراهيم بن موسى المخزومى عن عبد الله بن عكرمة بن عبد الرحمن بن الحارث عن أبيه ، ثم ذكر قدوم نصارى نجران من طريق على بن محمد فقال : (٣) أنبأنا على بن محمد القرشى وهو المدائنى

---

(١) المنتظم (٣/٣٧٩: ٣٨٠) وذكره ابن اسحاق كما فى سيرة ابن هشام (٤/٣١٦: ٣١٧) والبيهقى فى الدلائل (٥/٤١١، ٤١١ ،٤١٢) من طريقة ابن إسحاق والحديث ضعيف إذ لم يصرح عنده بالسماع وسنده منقطع

(٢) طبقات ابن سعد (١/٢/٧٢) ط دار التحرير وفى سنده الواقدى قال عنه ابن حجر فى التقريب (٢/١٩٤) : متروك مع سعة علمه والحديث بذلك يكون ضعيفًا

(٣) طبقات ابن سعد (١/٢/٧٨)

المشهور ، فقال : أخبرنا على بن محمد عن أبى معشر عن يزيد بن رمان ومحمد بن كعب قال : أنبأنا على بن مجاهد عن محمد بن إسحاق عن الزهرى ، وعكرمة بن خالد وعاصم بن عمر بن قتادة ، وأنبأنا يزيد بن عياض بن جعدية عن عبد الله بن أبى بكر بن حزم ، وعن غيرهم من أهل العلم يزيد بعضهم على بعض قالوا : ووفد فلان وفلان فى رجال من خثعم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما هدم جرير بن عبد الله - رضى الله عنه - ذا الخلصة وقتل من قتل من خثعم فقالوا : آمنا بالله ورسوله فاكتب لنا كتاباً ، وذكروا القصة ؛ وقدوم وفود متعددة ، قالوا : وقدم وفد الأشعريين على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم خمسون رجلا فيهم أبو موسى وذكر قصتهم ، قالوا : وقدم وفد حضر موت مع وفد كندة على رسول الله صلي الله عليه وسلم وذكر قصتهم ، قالوا : وقدم وفد أزد عمان ، قالوا : وقدم وفد غافق قالوا وقدم وفد دوس ، وقدم وفد حزام ووفد حمير وقدم وفد نجران .(١) وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل نجران ، فخرج إليه أربعة عشر من أشرافهم نصارى وفيهم ثلاثة نفر يتولون أمورهم :

العاقب واسمه عبد المسيح رجل من كندة وهو أميرهم وصاحب مشورتهم والذى يصدرون عن رأيه وأبو حارثة أسقفهم وإمامهم وصاحب مدارسهم ؛ والسيد وهو صاحب رحلتهم . فدخلوا المسجد وعليهم ثياب الحبرة وأردية مكفوفة بالحرير ، فقاموا يصلون فى المسجد نحو المشرق ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « دعوهم » ثم أتوا النبى صلى الله عليه وسلم فأعرض عنهم فلم يكلمهم ، فقال لهم عثمان : ذلك من أجل زيكم هذا . فانصرفوا يومهم ذلك ، ثم غدوا عليه بزى الرهبان ، فسلموا عليه ، فرد عليهم ودعاهم إلى الإسلام فأبوا . وكثر الكلام والحجاج بينهم وتلا عليهم القرآن ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن

---

(١) طبقات ابن سعد (٨٥:٨٤/٢/١)

أنكرتم ما أقول فهلم أباهلكم ، فانصرفوا على ذلك فغدا عبد المسيح ورجلان من ذوى رأيهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : قد بدا لنا أن لا نباهلك فاحكم علينا بما أحببت نعطك ونصالحك ، فصالحهم على ألفى حلة فى رجب ، وألف فى صفر ، أوقيمة كل حلة من الأواقى ، وعلى عارية ثلاثين ذرعا وثلاثين رمحاً وثلاثين بعيراً وثلاثين فرساً ، إن كان باليمن كيد .

ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنفسهم ، وملتهم ، وأرضهم ، وأموالهم ، وغائبهم وشاهدهم ، وبيعهم ولا يغير أسقف من سقيفاه ، ولا راهب من رهبانيته ، ولا واقف من وقفانيته ، وأشهد على ذلك شهوداً منهم : أبو سفيان بن حرب والأقرع بن حابس ، والمغيرة بن شعبة ، فرجعوا إلى بلادهم ، فلم يلبث السيد والعاقب إلا يسيراً حتى رجعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلما وأنزلهما دار أبى أيوب الأنصارى ، وأقام أهل نجران على ما كتب لهم به النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى قبضه الله - صلوات الله عليه وسلم ورحمته ورضوانه - ثم ولى أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - فكتب بالوصاة بهم عند وفاته ، ثم أصابوا ربا فأخرجهم عمر بن الخطاب من أرضهم ، وكتب لهم هذا ما كتب عمر أمير المؤمنين لنجران ، أنه من سار منهم أنه آمن بأمان الله لا يضرهم أحد من المسلمين ، ووفى لهم بما كتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر . فمن وقعوا به من أمراء الشام وأمراء العراق فليوسعهم من خراج الأرض فما اعتملوا من ذلك فهو لهم صدقة وعقبة لهم ، فكان أرضهم لا سبيل عليهم فيه لأحد ولا مغرم .

أما بعد فمن حضرهم من رجل مسلم فلينصرهم على من ظلمهم فإنهم أقوام لهم الذمة وجزيتهم عنهم متروكة أربعة وعشرين شهراً بعد أن تقدموا ، ولا يكلفوا إلا من ضيعتهم التى اعتملوا غير مظلومين ولا معسوف عليهم . شهد عثمان بن عفان

ومعيقيب بن أبــي فاطمة فوقع ناس منهم العراق . فنزلوا النجرانية التى بناحية الكوفة .

وما ذكره ابن سعد عن على بن محمد المدائنى عن أشياخه فى حديث وفد نجران فهو يوافق ما ذكره بن إسحاق فإن قوله أربعة عشر من أشرافهم يوافق قول ابن إسحاق عن محمد بن جعفر قال : (١) قدم على رسول الله صلى عليه وسلم وفد نجران ستون راكباً فيهم أربعة عشر من أشرافهم فى الأربعة عشر ثلاثة نفر إليهم يئول أمرهم : العاقب أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم والذى لا يصدرون إلا عن رأيه واسمه عبد المسيح . والسيد ثمالهم وصاحب رحلهم ونجعتهم واسمه الأيهم وأبو حارثة بن علقمة أخوبنى بكر بن وائل أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم ، وكان أبو حارثة قد شرف فيهم ودرس كتبهم حتى حسن علمه فى دينهم ، فكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه ومولوه وأخدموه وبنوا له الكنائس وبسطوا له الكرامات لما بلغهم عنه من علمه واجتهاده فى دينهم ، فلما وجهوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من نجران جلس أبو حارثة على بغلة له موجها وإلى جنبه أخ له يقال له كرز بن علقمة فعثرت بغلة أبى حارثة فقال كرز تعس الأبعد يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له أبو حارثة : بل أنت تعست فقال : لم ياأخى ؟ قال : والله ، إنه للنبى الذى كنا ننتظره . فقال له كرز فما منعك منه وأنت تعلم هذا ؟ قال : ما صنع بنا هؤلاء القوم ، شرفونا ومولونا وأكرمونا وقد أبوا إلا خلافه فلو فعلت نزعوا منا كل ماترى فأضمر عليها منه أخوه كرز بن علقمة حتى أسلم بعد ذلك وهو كان يحدث عنه هذا الحديث فيما بلغنى .

قال ابن هشام : (٢) وبلغنى أن رؤساء نجران كانوا يتوارثون كتباً عندهم فكلما

---

(١) انظر السيرة لابن هشام (٢/٢٥٤: ٢٥٥)

(٢) سيرة ابن هشام (٢/٢٥٦)

مات رئيس منهم فأفضت الرياسة إلى غيره ختم على تلك الكتب خاتماً مع الخواتم التي قبله ولم يكسرها ، فخرج الرئيس الذى كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى فعثر ، فقال ابنه : تعس الأبعد . يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له أبوه : لا تفعل فإنه نبي واسمه في الوضائع ـ يعنى : الكتب ـ فلما مات لم يكن لابنه همة إلا أن شد فكسر الخواتم فوجد فيها ذكر النبى صلى الله عليه وسلم فأسلم فحسن إسلامه وحج وهو يقول :

إليك تغدو قلقاً وضينـــــــــها
معترضاً فى بطنهـــا جنينـــــها
مخالفاً دين النصـــارى دينـــــها

قال ابن إسحاق : (١) وحدثنى محمد بن جعفر بن الزبير قال : قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر عليهم ثياب الحبرات جبب وأردية في جمال رجال بنى الحارث بن كعب ، قال : يقول بعض من رآهم من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : يومئذ ما رأينا بعدهم وفداً مثلهم وقد حانت صلاتهم فقاموا فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : دعوهم فصلوا إلى المشرق ، قال ابن إسحاق وكان تسمية الأربعة عشر الذين يئول إليهم أمرهم : العاقب وهو عبد المسيح . والسيد وهو الأيهم ، وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل . وأوس . والحارث . وزيد . وقيس .ويزيد وبنيه . وخويلد . وعمرو . وخالد . وعبد الله . ويحنس فى ستين راكباً فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم أبو حارثة بن علقمة . والعاقب عبد المسيح والأيهم السيد . وهم من النصرانية على دين الملك مع اختلافهم في أمرهم يقولون : هو الله . ويقولون : هو ولد الله ، ويقولون : هو ثالث ثلاثة ، وكذلك قول النصارى ، فهم يحتجون فى

---

(١) انظر السيرة لابن هشام (٢/٢٥٦: ٢٦٦)

قولهم هو الله بأنه كان يحيي الموتى ويبرئ الأسقام ويخبر بالغيوب ويخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيراً ، وذلك كله بأمر الله وليجعله آية للناس . ويحتجون في قولهم إنه ولد الله فإنهم يقولون : لم يكن له أب يعلم ، وقد تكلم فى المهد وهذا شئ لم يصنعه أحد من ولد آدم .ويحتجون فى قولهم ثالث ثلاثة بقول الله فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا فيقولون : لو كان واحداً ما قال إلا فعلت وقضيت وأمرت وخلقت ولكنه هو وعيسى ومريم ففى كل ذلك من أقوالهم قد نزل القرآن فلما كلمه الحبران قالا لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أسلما »قالاقد أسلمنا ، قال « إنكما لم تسلما فأسلما » . قالا : بل قد أسلمنا قبلك ، قال كذبتما يمنعكما من الإسلام دعواكما لله ولداً ، وعبادتكما للصليب وأكلكما الخنزير قالا فمن أبوه يا محمد ! فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهما فلم يجبهما ؛ فأنزل الله فى ذلك من قولهم واختلافهم فى أمرهم كله صدراً من سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية ، وذكر نزول الآيات بسببهم غير واحد ، مثلما ذكره محمد بن جرير الطبرى فى تفسيره قال : (١) حدثنا المثنى ، حدثنا إسحاق ، حدثنا ابن أبى جعفر - يعنى عبد الله بن أبى جعفر الرازى - عن أبيه عن الربيع فى قوله تعالى : ﴿ الم * الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ ، [سورة آل عمران : ١ ، ٢] . قال : إن النصارى أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فخاصموه فى عيسى ابن مريم ، وقالوا له من أبوه ؟ وقالوا على الله الكذب والبهتان . لا إله إلا هو لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : « ألستم تعلمون أنه لا يكون ولدا إلا وهو يشبه أباه ؟ قالوا : نعم ، قال : ألستم تعلمون أن ربنا حى لا يموت وأن عيسى يأتى عليه الفناء ؟ قالوا : بلى ، قال : ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شئ يكلؤه ويحفظه ويرزقه ! قالوا : بلى قال فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً ؟ قالوا : لا ، قال

(١) تفسير الطبرى (٣/١٠٨:١٠٩)

: ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء ؟ قالوا : بلى قال : فهل يعلم عيسى من ذلك شيئاً إلا ما علم ؟ قالوا لا . قال : فإن ربنا صو عيسى فى الرحم كيف شاء . قال : ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث ؟ قالوا : بلى . قال : ألستم تعلمون أن عيسى حملته أ كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ؛ ثم غذى كما يتغذى الصبى ؛ كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث ؟ قالوا : بلى ، قال فكيف يكو هذا كما زعمتم ؟ قال فعرفوا ثم أبوا إلا جحودا ، فأنزل الله ﴿ الم * الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ .

وقد ثبت فى الصحاح حديث وفد نجران ففى البخارى ومسلم عن حذيفة (١ وأخرجه مسلم عن سعد بن أبى وقاص قال : (٢) لما نزلت هذه الآية ﴿ فقل تعالو ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ﴾ ، [سورة آل عمران : ٦١] . دعا رسول الله صلي الله عليه وسلم عليا وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال : اللهم هؤلاء أهلى .

وفي البخاري عن حذيفة بن اليمان قال : (٣) جاء السيد والعاقب صاحبا نجران

(١) متفق عليه

رواه البخارى فى كتاب « فضائل الصحابة » باب « مناقب أبى عبيدة (٧/١١٦:١١٧ ح ٣٧٤٥) وأعاد فى مواضع بأرقام (٤٣٨٠، ٤٣٨١، ٧٢٥٤)

ورواه مسلم في كتاب « فضائل الصحابة » باب « فضائل أبى عبيدة » (٤/١٨٨٢ح٢٤٢٠)

ورواه الترمذي فى كتاب المناقب باب مناقب معاذ بن جبل ...» (١٠/٢٩٦:٢٩٧ح ٣٨٨٣) وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح » ورواه النسائى فى سننه الكبرى كما فى تحفة الأشراف (٣/٤٠: ٤١ ح ٣٣٥٠)

(٢) حديث صحيح

رواه مسلم فى كتاب « فضائل الصحابة » باب « فضائل على بن أبى طالب (٤/١٨٧١ح٢٤٠٤)

ورواه الترمذي فى كتاب « التفسير » باب « سورة آل عمران » (٨/٣٤٩: ٣٥٠ح ٤٠٨٥) وقال الترمذي : « هذا حديث حسن غريب صحيح ورواه الترمذي أيضًا (١٠/٢٢٨:٢٢٩ ح ٣٨٠٨)

(٣) رواه البخارى فى كتاب « المغازى » باب قصة أهل نجران (٧/٦٩٥)ح ٤٣٨٠)

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدان أن يلاعناه فقال أحدهما لصاحبه : لا تفعل فوالله لئن كان نبياً فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا . قالا إنما نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلا أميناً فلا تبعث معنا إلا أميناً . قال لأبعثن معكم رجلا أميناً حق أمين . قال فاستشرف لها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : قم يا أبا عبيدة بن الجراح ، فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « هذا أمين هذه الأمة » .

وفي سنن أبي داود وغيره قال أبو داود :(١) أخبرنا مصرف بن عمرو اليامي حدثنا يونس - يعني ابن بكير - حدثنا أسباط بن نصير الهمداني عن إسماعيل بن عبد الرحمن القرشي ، عن ابن عباس قال : صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل نجران على ألفي حلة : النصف في صفر ، والنصف في رجب ، يؤدونها إلى المسلمين وعارية ثلاثين درعاً وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزون بها ، والمسلمون ضامنون لها حتي يردوها عليهم إن كان باليمن كيد ذات عذر . على أن لا يهدم لهم بيعة ولا يخرج لهم قس ولا يفتنون عن دينهم مالم يحدثوا حدثاً ، أو يأكلوا الربا . قال إسماعيل : فقد أكلوا الربا قال أبو داود إذاً نقضوا بعض ماشرط عليهم ، فقد أحدثوا ، وماذكره أبو داود وأهل السير من مصالحته لأهل نجران على الجزية المذكورة معروف عند أهل العلم وقد ذكر ذلك أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب « الأموال » ذكره من طريقين .

قال أبو عبيد رحمه الله : (٢) حدثنا أبو أيوب الدمشقي قال حدثني سعدان بن

(١) حديث ضعيف

رواه أبو داود في كتاب « باب في أخذ الجزية » (٨/٢٩١: ٢٩٢ ح٣٠٢٥)

وفي الحديث ضعف للانقطاع بين إسماعيل وابن عباس ففي سماعه منه نظر ، وفي رجال الإسناد بعض الضعف والحديث ضَعف إسناده الألباني في ضعيف أبي داود (ص ٣٠٣ ص ٦٥٨)

(٢) حديث ضعيف جداً رواه أبو عبيد في كتاب الأموال (ص ٨٥،٨٦ ح ٥٠٣) وفيه عبيد الله بن أبي حميد الهذلي ، متروك الحديث كما في التقريب (٥٣٢/١) والسند في المطبوعة فيه تصحيف ، فلينبه !

يحيى عن عبد الله بن أبى حميد عن أبى المليح الهذلى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صالح أهل نجران فكتب له كتاباً « بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما كتب محمد النبى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل نجران إذ كان حكمه عليهم أن فى كل سوداء وبيضاء وصفراء وحمراء أو ثمرة ورقيق وأفضل عليهم وترك ذلك لهم ، ألفى حلة : فى كل صفر ألف حلة ، وفى كل رجب ألف حلة ، كل حلة أوقية ما زاد الخراج أو نقص فعلى الأواقى فليحسب ، وما قضوا من ركاب أو خيل أو دروع أخذ منهم بالحساب ، وعلى أهل نجران أن يقروا رسلى عشرين ليلة فما دونها ، وعليهم عارية ثلاثين فرساً ، وثلاثين بعيراً ، وثلاثين درعاً إذا كان كيد باليمن ذو معذرة ، وما هلك مما أعاروا رسلى فهو ضامن على رسلى حتى يؤدوه إليهم ولنجران وحاشيتها ذمة الله وذمة رسوله على دمائهم وأموالهم وملتهم وبيعهم ورهبانهم وأساقفتهم وشاهدهم وغائبهم ، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ، وعلى أن لا يغيروا أسقفاً من سقيفاه ، ولا واقها من وقيهاه ، ولا راهباً من رهبانيته ، وعلى أن لا يخسروا ولا يعشروا ولا يطأ أرضهم جيش ومن ملك منهم حقاً فالنصف بينهم ، وهذا لنجران على أن لايأكلوا الربا فمن أكل الربا من ذى قبل فذمتى منه بريئة ، وعليهم الجهد والنصح فيما استقبلوا غير مظلومين ولا معسوف عليهم . شهد عثمان بن عفان ومعيقيب » .

قال أبو عبيد:(١) الواقه ولى العهد فى لغة لحارث بن كعب يقول : إذا مات هذا الأسقف قام الآخر مكانه .

قال أبو عبيد: (٢) قال أبو أيوب ، وحدثنى عيسى بن يونس ، عن عبد الله ابن

---

(١) فى كتاب الأموال (ص ٨٦) قال أبو عبيد « الواقة : ولى العهد بلغتهم ، وهم بنو الحرث »

(٢) حديث ضعيف جداً رواه فى كتاب الأموال (ص ٨٦ح ٥٠٤)

وفيه عبيد الله بن أبى حميد متروك الحديث كما سبق أن الحديث مرسل

أبي حميد ، عن أبي المليح عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك وزاد في حديثه قال : فلما توفي رسول الله صلي الله عليه وسلم ، أتو أبا بكر فوفى لهم بذلك وكتب لهم كتاباً نحواً من كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما ولى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أصابوا الربا في زمانه فأجلاهم عمر وكتب لهم أما بعد : فمن وقعوا به من أمراء الشام أو العراق فليوسعهم من خراج الأرض ، وما اعتملوا من شئ . فهو لهم لوجه الله وعقبى من أرضهم وقال فأتوا العراق فاتخذوا النجرانية .

قال أبو عبيد : (١) وهى قرية بالكوفة ، وكتب عثمان إلى الوليد بن عقبة . أما بعد : فإن العاقب والأسقف وسراة أهل نجران أتوني بكتاب رسول الله صلى اله عليه وسلم وأروني شرط عمر ـ رضي الله عنه ـ وقد سألت عثمان بن حنيف فأنبأني أنه قد كان بحث على ذلك فوجده صار للدهاقين ، فنزعهم عن أرضهم ، وإني قد وضعت عنهم من جزيتهم مائتى حلة لوجه الله ، وعقبى لهم من أرضهم وإني أوصيك بهم فإنهم قوم لهم ذمة .

قال أبو عبيد: (٢) وحدثنا عثمان بن صالح عن عبد الله بن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كتب لأهل نجران من محمد النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ذكر نحو هذه النسخة وليس في حديثه قصة أبي بكر وعمر رضى الله عنهما ، وفي آخره ، شهد أبو سفيان بن حرب ، وغيلان بن عمرو ، ومالك بن عوف من بنى نضر ، والأقرع بن حابس الحنظلى ، والمغيرة بن شعبة .

قال أبو عبيد :(٣) حدثني سعيد بن عفير ، عن يحيى بن أيوب ، عن يونس بن

(١) الأموال لأبي عبيد (ص ٨٦ح ٥٠٥)

(٢) حديث ضعيف

الأموال لأبي عبيد (ص٨٦ح ٥٠٦)

والحديث مرسل كما أن فيه ابن لهيعة وفيه ضعف

(٣) الأموال لأبي عبيد (ص ١٩ ح ٦٧)

يزيد الأيلي ، عن ابن شهاب قال : أول من أعطى الجزية أهل نجران وكانوا نصارى .
فإن قيل قوله تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴾ [سورة آل عمران : ٦٤]

وقد ثبت في الصحيحين (١) أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى هرقل مع دحية الكلبي مدة هدنته للمشركين وكان أبو سفيان إذ ذاك لم يسلم وقد حضر عند هرقل وسأله هرقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبو سفيان أسلم عام الفتح .فدل ذلك على أن هذا الكتاب كان قبل الفتح ، ونزول آية الجزية كان بعد الفتح سنة تسع ، فدل ذلك على أن هذه الآية نزلت قبل آية الجزية وقبل آية المباهلة ، وقدوم وفد نجران قبل آية المباهلة - قد علم يقيناً أنها نزلت في قصة قدوم وفد نجران - والمفسرون وأهل السير ذكروا أن آل عمران نزلت بسبب مناظرة أهل نجران ، وقد ذكرناه من نقل أهل الحديث بالإسناد المتصل ..

ونقل أهل المغازي والسير أن وفد نجران صالحهم على الجزية وهم أول من أداها فعلم أن قدومهم كان بعد نزول آية الجزية . وآية الجزية نزلت بعد فتح مكة ، فعلم أن قدوم وفد نجران كان بعد آية السيف التي هي آية الجزية .

قال الزهري : أهل نجران أول من أدى الجزية وقوله تعالى : (٢) ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ﴾ [سورة آل عمران : ٦٤] بعدها آيات نزلت قبل ذلك كقوله : (٣) ﴿ يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون * يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم

(١) متفق عليه
رواه البخاري في كتاب « بدء الوحي » باب (٦) (١/٤٢:٤٤ ح ٧)
وقد أعاد في مواضع كثيرة
ورواه مسلم في كتاب « الجهاد» باب « كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل »
(٣/١٣٩٣:١٣٩٧ ح١٧٧٣)
(٢) انظر الدر المنثور (٢/٤٠)
(٣) انظر الدر المنثور (٢/٤٢)

تعلمـون ﴾ . [سورة آل عمـران : ٧٠ ، ٧١] . فيكون هذا مما تقـدم نزوله وتلك مما تأخر نزوله ، وجـمع بينها للمناسبـة كما فى نظائره ، فإن الآية كـانت إذا نزلت يأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يضعها فى مـواضع تناسبها ، وإن كان ذلك مما تقدم . ومما يبين ذلك أن هذه الآية وهى قولـه تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعـالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ﴾ لفظها يعم اليهود والنصـاري . كذلك ذكر أهل العلم أنها دعاء للطائفتين ، وأن النبى صلى الله عليـه وسلم دعا بها اليهـود فدل ذلك على أن نزولها متقدم فـإن دعاءه لليهود كان قبل نزول آية الجزية ، ولهـذا لم يضرب الجزية على أهل خيبر وغيـرهم من يهود الحـجاز ولكن لما بعث معـاذاً لليمن ـ وكـان كثيـر من أهلها يهوداً ـ أمر أن يأخـذ من كل حالم ديناراً أو عدله مغـافراً وهذا كان متأخـراً بعد غزوة تبـوك ، وتوفى النبى صـلى الله عليـه وسلم ومـعـاذ باليـمن . قـال ابن أبى حـاتم في تفسيره : (١) حدثنا أبى ، حدثنا هشـام بن عمار ، حدثنا الوليد حـدثنا الضحاك بن عبد الـرحمن بن حوشب وغيـره ، أن عمر بن عبـد العزيز كتب إلى (إليون) طـاغية الروم قال فـيمـا أنزل الله على محمـد صلى الله عليه وسلم : ﴿ قل يـاأهل الكتاب ـ يعنى اليهـــود والنصـــارى ـ تعـــالوا إلى كلمـــة ســـواء بيننا وبينكم ﴾ ، [سورة آل عمران : ٦٤] .

وروى بإسناده عن ابن جـريج (٢) فى قوله تعـالى ﴿ تعالوا إلى كلمـة سواء بيننا وبينكم ﴾ قـال : بلغنى أن النبى صلى الله عـليه وسلم دعـا اليـهود أهل المدينة فـأبوا عليه فجاهدهم ، وكذلك سائر الآيات التى فيـها خطاب للطائفتين ، كقوله تعالى :

(١) تفسير ابن أبى حاتم (ق ١/آل عمران) (ص ٣١٥ح ٦٩٠)

(٢) إسناده مرسل وفيه ضعف

رواه ابن أبى قاسم فى تفسير (ق١/آل عمران)(ص٣١٦ح٦٩٢)

ررواه ابن جرير الطبرى فى تفسير (٣١٢/٣)

﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التورارة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون * ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون .* ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلما وما كان من المشركين ﴾، [سورة آل عمران : ٦٥ -٦٧] .

ومما ينبغي أن يعلم ، أن أهل نجران المذكورة ، نجران اليمن لا نجران الشام ، وأهل نجران كان منهم نصارى أهل ذمة ، وكان منهم مسلمون - وهم الأكثرون - والنبي صلى الله عليه وسلم بعث أبي عبيدة لهؤلاء و هؤلاء ، واستعمل عمرو بن حزم على هؤلاء وهؤلاء ، كما أخرجا في الصحيحين عن أنس ابن مالك قال : (١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لكل أمة أمينا وإن أميننا أيها الأمة أبو عبيدة بن الجراح » .

وعن أنس أيضاً : أن أهل اليمن قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : ابعث معنا رجلا أميناً يعلمنا السنة والإسلام ، فأخذ بيد أبي عبيدة ابن الجراح فقال (٢) : « هذا أمين هذه الأمة » .

---

(١) متفق عليه
رواه البخاري في كتاب « فضائل » الصحابة » باب مناقب أبي عبيدة بين الجراح رضى الله عنه (١١٦/٧ ح ٣٧٤٤) ، ورواه أيضاً برقم (٤٣٨٢، ٧٢٥٥)
ورواه مسلم في كتاب « فضائل الصحابة » باب » فضائل أبي عبيدة بين الجراح رضى الله عنه (١٨٨١/٤ح٢٤١٩) ، وذكره الترمذي في كتاب « المناقب » باب » أبي عبيدة عامر بن الجراح رضى الله عنه (٢٦١/١٠) ، ورواه النسائي في الكبرى في كتاب « المناقب » باب « أبو عبيدة بين الجراح رضى الله عنه (٥٧/٥ح٨٢٠٠)

(٢) « صحيح »
رواه مسلم في كتاب « فضائل الصحابة » باب » فضائل أبي عبيدة بين الجراح رضى الله عنه (١٨٨١/٤ح٢٤١٩)

وفى الصحيحين عن حذيفة بن اليمان قال : (١) جاء أهل نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : أيا رسول الله ابعث إلينا رجلا أميناً فقال « لأبعثن إليكم رجلا أميناً حق أمين » قال : فاستشرف لها الناس ، قال : فبعث أبا عبيدة ابن الجراح .

وللبخارى عن حذيفة قال : (٢) جاء السيد والعاقب صاحبا نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدان أن يلاعناه قال: فقال أحدهما للآخر : لا تفعل فوالله لإن كان نبياً فلاعناه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا قالا : إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلا أميناً فقال : لأبعثن معكم رجلا أميناً حق أمين فاستشرف لها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قم يا أبا عبيده بن الجراح فلما قام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذا أمين هذه الأمة » .

وكذلك استعمل النبى صلى الله عليه وسلم عليهم عمرو بن حزم وكتب له

---

(١) « متفق عليه »
رواه البخارى فى كتاب « فضائل الصحابة » باب مناقب أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه (١١٦/٧، ١١٧ح٣٧٤٥) ، ورواه أيضاً برقم (٤٣٨١، ٧٢٥٤)
ورواه مسلم فى كتاب « فضائل الصحابة » باب « فضائل أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه (١٨٨٢/٤ح ٢٤٢٠) ورواه النسائى فى الكبرى فى كتاب « المناقب » باب «أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه (٥٧/٥ح٨١٩٨)
ورواه ابن ماجة فى كتاب « المقدمة » باب فضل أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه (٤٨/١ح١٣٥)
(٢) صحيح
رواه البخارى فى كتاب « المغازى » باب « قصة أهل نجران » (٦٩٥/٧ح٤٣٨٠)
ورواه الترمذي فى كتاب « المناقب » باب » أبى عبيدة ابن الجراح رضى الله عنه » (٢٦٠/١٠، ٢٦١ح ٣٨٤٣)
ورواه النسائى فى الكبرى فى كتاب « المناقب » باب « أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه (٥٧/٥ح ٨١٩٦، ٨١٩٧)

الكتاب المشهور الذي فيه الفرائض والسنن ، وقد رواه النسائى (١) بطوله وروى الناس بعضه مفرقاً ، ومحمد بن سعد لم يذكر بعد وفد نجران إلا وفد جيشان ، فدل على أن قدومهم كان متأخراً ، ومحمد بن إسحاق ذكر قدومهم فى أوائل السيرة مع قصة اليهود ليجمع بين خبر اليهود والنصارى ، وذكر فى سنة عشر فتح نجران وإرسال النبى صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد ، وإرسال خالد ذكروا أنه كان متأخراً قبل وفاته صلى الله عليه وسلم بأربعة أشهر ، وأنه قدم وفد منهم بالإسلام ، وهذا إنما كان بعد قدوم وفد النصارى ، فإنه قد ذكر ابن سعد أن العاقب والسيد أسلما بعد ذلك ، والعهد بالجزية إنما كان مع النصارى ، آية الجزية هى قوله تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ ، [سورة التوبة : ٢٩] . وهذه آية السيف مع أهل الكتاب ، وقد ذكر فيها قتالهم إذ لم يؤمنوا حتى يعطوا الجزية والنبى صلى الله عليه وسلم لم يأخذ من أحد الجزية إلا بعد هذه الآية ، بل قالوا . إن أهل نجران أول من أخذت منهم الجزية ، كما ذكر أهل العلم ، كالزهرى وغيره ، فإنه باتفاق أهل العلم لم يضرب النبى صلى

---

(١) رواه النسائى فى كتاب « القسامة » ، باب ذكر حديث عمرو بن حزم فى المعقول (٨/٥٧:٦٠)
ورواه ابن اسحاق معلقا كما فى « السيرة » (٤/٣٢٠-٣٢٢)
ورواه مالك فى الموطأ (٢/٨٤٩ح١)
ورواه الحاكم(١/٣٩٥-٣٩٧)
ورواه ابن حبان كما فى « موارد الظمآن »
ورواه البيهقى فى السنن (٤/٨٩،٩٠)
ورواه أيضًا فى الدلائل (٥/٤١٣- ٤١٥)
انظر ضعيف سنن النسائى (ص٢٠١:٢٠٢ح٣٣٩،٣٤٠)
وانظر صحيح سنن النسائى (ص٣/١٠٠٢ح٤٥١٣)
وانظر الإرواء(٧/٢٦٨ح٢٢١٢)

الله عليه وسلم الجزية على أحد قبل نزول هذه الآية ، لا من الأميين ولا من أهل الكتاب ، ولهذا لم يضربها على يهود قينقاع ، والنضير وقريظة ولا ضربها على أهل خيبر فإنها فتحت سنة سبع قبل نزول آية الجزية ، وأقرهم فلاحين وهادنهم هدنة مطلقة قال فيها : « نقركم ما أقركم الله » فإذا كان أول ما أخذها من وفد نجران علم أن قدومهم عليه ، ومناظرته لهم ، ومحاجته إياهم ، وطلبه المباهلة معهم ، كانت بعد آية السيف التى فيها قتالهم ، وعلم بذلك أن ماذكره الله تعالى من مجادلة أهل الكتاب بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم محكم لم ينسخه شئ . وكذلك ما ذكره تعالى من مجادلة الخلق مطلقاً بقوله : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ . [سورة النحل : ١٢٥] .فإن من الناس من يقول :آيات المجادلة والمحاجة للكفار . منسوخات بآية السيف ؛ لاعتقاده أن الأمر بالقتال المشروع ينافى المجادلة المشروعة وهذا غلط ، فإن النسخ إنما يكون إذا كان الحكم الناسخ مناقضاً للحكم المنسوخ كمناقضة الأمر باستقبال المسجد الحرام فى الصلاة للأمر باستقبال بيت المقدس بالشام ، ومناقضة الأمر بصيام رمضان للمقيم للتخيير بين الصيام وبين إطعام كل يوم مسكيناً ، ومناقضة نهية عن تعدى الحدود التى فرضها للورثة للأمر بالوصية للوالدين والأقربين ومناقضة قوله لهم كفوا أيديكم عن القتال لقوله فاتلدهم ، كما قال تعالى ﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم : ﴿ كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ﴾ .[سورة النساء : ٧٧] . فأمره لهم بالقتال ناسخ لأمره لهم بكف أيديهم عنهم . فأما قوله تعالى : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ [سورة النحل : ١٢٥] . وقوله : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم ﴾ [سورة العنكبوت : ٤٦] . فهذا لا يناقضه الأمر بجهاد من أمر بجهاده منهم ،

ولكن الأمر بالقتال يناقض النهى عنه والاقتصار على المجادلة .

فأما مع إمكان الجمع بين الجدال المأمور به والقتال المأمور به ، فلا منافاة بينهما وإذا لم يتنافيا بل أمكن الجمع لم يجز الحكم بالنسخ ، ومعلوم أن كلا منهما ينفع حيث لا ينفع الآخر ، وأن استعمالها جميعا أبلغ من إظهار الهدى ودين الحق ، ومما يبين ذلك وجوه :

أحدهما : أن من كان من أهل الذمة والعهد والمستأمن منهم لا يجاهد بالقتال ، فهو داخل فيمن أمر الله بدعوته ومجادلته بالتى هى أحسن ، وليس هو داخلا فيمن أمر الله بقتاله .

الثانى : أنه قال : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا ﴾ [سورة العنكبوت : ٤٦] فالظالم لم يؤمر بجداله بالتى هى أحسن ، فمن كان ظالماً مستحقاً للقتال غير طالب للعلم والدين ، فهو من هؤلاء الظالمين الذين لا يجادلون بالتى هى أحسن ، بخلاف من طلب العلم والدين ولم يظهر منه ظلم ، سواء كان قصده الاسترشاد أو كان يظن أنه على حق يقصد نصر ما يظنه حقاً ، ومن كان قصده العناد يعلم أنه على باطل ويجادل عليه ، فهذا لم يؤمر بمجادلته بالتى هى أحسن ، لكن قد نجادله بطرق أخرى نبين فيها عناده وظلمه وجهله جزاء له بموجب عمله .

الثالث : أنه سبحانه وتعالى قال : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ﴾ .[سورة التوبة : ٦] فهذا مستجير مستأمن وهو من أهل الحرب أمره الله بإجارته حتى تقوم حجة الله عليه ، ثم يبلغه مأمنه وهذا فى سورة براءة التى فيها نقض العهود وفيها آية السيف ، وذكر هذه الآية فى ضمن الأمر بنقض العهود ؛ ليبين سبحانه أن مثل هذا يجب أمانه حتى

تقوم عليه الحجة ، لا تجوز محاربته كمحاربة من لم يطلب أن يبلغ حجة الله عليه .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : (١) ثم « أبلغه مأمنه » إن لم يوافقه ما نقص عليه ونخبر به فأبلغه مأمنه قال : وليس هذا بمنسوخ ، وقال مجاهد : (٢) من جاءك واستمع ما تقول واستمع ما أنزل إليك فهو آمن حتى يأتيك . وقال عطاء فى الرجل من أهل الشرك يأتى المسلمين بغير عهد قال : خيره إما أن تقره ، وإما أن تبلغه مأمنه .

وقوله تعالى : ﴿ فأجره حتى يسمع كلام الله ﴾ .[سورة التوبة : ٦] . قد علم أن المراد أنه يسمعه سمعاً يتمكن معه من فهم معناه ، إذ المقصود لا يقوم بمجرد سمع لفظ لا يتمكن معه من فهم المعنى ، فلو كان غير عربى لوجب أن يترجم له ماتقوم به عليه الحجة ، ولو كان عربياً وفى القرآن ألفاظ عربية ليست من لغته ، وجب أن نبين له معناها ولو سمع اللفظ كما يسمعه كثير من الناس ولم يفقه المعنى وطلب منا أن نفسره له ونبين له معناه ، فعلينا ذلك . إن سألنا عن سؤال يقدح فى القرآن أجبناه عنه ، كما كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أورد عليه بعض المشركين أو أهل الكتاب أو المسلمين سؤالا يوردونه على القرآن . فإنه كان يجيبهم عنه كما أجاب ابن الزبعرى لما قاس المسيح على آلهة المشركين وظن أن العلة فى الأصل بمجرد كونهم معبودين ، وأن ذلك يقتضى أن كل معبود غير الله فإنه يعذب فى الآخرة ، فجعل المسيح مثلا لآلهة المشركين ، قاسهم عليه قياس الفرع على الأصل .

قال تعالى : ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون * وقالوا آلهتنا خير

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره(٥٧/١٠)

(٢) رواه ابن جرير فى تفسيره (٥٧/١٠)

وعزاه السيوطى فى « الدر المنثور (٢١٣/٣) لابن المنثور ابن أبى حاتم

أم هو ماضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون ﴾ [سورة الزخرف : ٥٧ ، ٥٨] فبين سبحانه الفرق المانع من الإلحاق بقوله تعالى : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ [سورة الأنبياء : ١٠١] وبين أن هؤلاء القائسين ما قاسوه إلا جدلا محصناً لا يوجب علماً ؛ لأن الفرق حاصل بين الفرع والأصل . فإن الأصنام إذا جعلوا حصباً لجهنم ، كان ذلك إهانة وخزياً لعابديها من غير تعذيب من لا يستحق التعذيب ، بخلاف ما إذا عذب عباد الله الصالحون بذنب غيرهم ، فإن هذا لا يفعله الله تعالى ، لاسيما عند جماهير المسلمين وسائر أهل الملل - سلفهم وخلفهم - الذين يقولون : إن الله لا يخلق ويأمر إلا لحكمة ولا يظلم أحداً فينقصه شيئاً من حسناته ولا يحمل عليه سيئات غيره . بل ولا يعذب أحداً إلا بعد إرسال رسول إليه . كما قال تعالى : ﴿ ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضما ﴾ [سورة طه : ١١٠] وقال تعالى : ﴿ فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً ﴾ [سورة الجن : ١٣] وقال تعالى : ﴿ هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ . [سورة النمل : ٩٠]. وقال تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ [سورة الإسراء : ١٥] .

ومن قال من المسلمين وغيرهم من أهل الملل : إنه يجوز منه تعالى فعل كل شئ وأن الظلم هو الممتنع الذى يدخل تحت القدرة فهؤلاء يقولون : إنما يعلم ما يفعله وم لا يفعله بدلالة خبر الصادق أو بالعادة وإن كان الجمهور يستدلون بخير الصادق وبغيره على ما يمتنع من الله . وقد أخبر الله تعالى أن عباده الصالحين فى الجنة لا يعذبهم في النار . بل يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة فضلا أن يعاقبهم بذنب غيرهم مع كراهته لفعلهم ونهيهم عن ذلك . ومن زعم أن لفظ « ما » كانت تتناول المسيح وأخر بيان العام أو أجاب بأن لفظ « ما » لا يتناول إلا مالا يعقل فالقولان ضعيفان . كما قد بسط فى موضعه وإنما المشركون عارضوا

النص الصحيح بقياس فاسد . فبين الله تعالى فساد القياس وذكر الفرق بين الأصل والفرع ، وكذلك لما أورد بعض النصارى على قوله تعالى : ﴿ يا أخت هارون ﴾ . [سورة مريم : ٢٨] ظناً منه أن هارون هذا : هو هارون أخو موسى بن عمران . وأن عمران هذا : هو عمران أبو مريم أم المسيح فسئل النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك . فأجاب : بأن هارون هذا ليس هو ذاك . ولكنهم كانوا يسمون بأسماء الأنبياء والصالحين وبعض جهال النصارى يقدح فى القرآن بمثل هذا ولا يعلم هذا المفرط فى جهله أن آحاد الناس يعلمون أن بين موسى وعيسى مدة طويلة جداً يمتنع معها أن يكون موسى وهارون خالى المسيح وأن هذا مما لا يخفى على أقل أتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، فضلا عن أن يخفى على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا السؤال مما أورده أهل نجران ، كما ثبت عن المغيرة بن شعبة قال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل نجران فقالوا : ألستم تقرءون ﴿ يا أخت هارون ﴾ وقد علمتم ما بين موسى وعيسى ؟ فلم أدرما أجيبهم ، فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال : (١) « ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين قبلهم » .

وهذا السؤال الذى هو سؤال الطاعن فى القرآن لما أورده أهل نجران الكفار على المغيرة رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجبهم عنه أجاب عنه النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم يقل لهم : ليس لكم عندى إلا السيف ، ولا قال قد نقضتم العهد إن كانوا قد عاهدوه وقد عرف أن أهل نجران لم يرسل إليهم رسولا إلا والجهاد مأمور به ، وكان المسلمون يوردون الأسئلة عليه كما أورد عليه عمر عام الحديبية لما صالح المشركين ولم يدخل مكة فقال له : (٢) ألم تكن تحدثنا أنا نأتى البيت ونطوف

---

(١) صحيح

رواه مسلم فى كتاب « الآداب » باب النهى عن التكنى بأبى القاسم « (٣/١٦٨٥ح٢١٣٥)

ورواه الترمذي فى كتاب « التفسير » باب» تفسير سورة مريم (٨/٦٠١،٦٠٢ح٥١٦٤)

وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب لانعرفه إلا من حديث ابن إدريس » ورواه النسائى فى الكبرى فى كتاب « تفسير » باب تفسير سورة مريم (٦/٣٩٣ح١١٣١٥)

(٢) رواه البخارى فى كتاب « الشروط » باب الشروط فى الجهاد (٥/٣٨٨:٣٩٢ح ٢٧٣١، ٢٧٣٢)

وأعاد فى مواضع أخر [ورواه أحمد (٤/٣٢٣: ٣٢٦، ٣٢٨، ٣٢٨: ٣٣١، ٣٣١، ٣٣٢)

وانظر صحيح ابن حبان (١١/٢١٦: ٢٢٧ح٤٨٧٢)

به ؟ قال: بلى ، أفقلت لك إنك تأتيه فى هذا العام ؟ قال : لا قال : فإنك آتيه ومطوف به . وكذلك أجابه أبو بكر ولم يكن سمع جواب النبى صلى الله عليه وسلم له ؛ ومعلوم أنه ليس فى ظاهر اللفظ توقيت ذلك بعام ؛ ولكن السائل ظن مالايدل اللفظ عليه ؛ وكذلك لما قال : (١) « من نوقش الحساب عذب » قالت له عائشة : ألم يقل الله : ﴿ فأما من أوتى كتابه بيمينه * فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾ ، [سورة الأنشقاق : ٧ ، ٨] . فقال ذلك العرض ومن نوقش الحساب عذب ، ومعلوم أن الحساب اليسير لا يتناول من نوقش ؛ وقد زادها بياناً ، فأخبر أنه العرض لا المقابلة المتضمنة للمناقشة وكذلك لما قال : (٢) إنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة ، قالت له حفصة ألم يقل الله : ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ ، [سورة مريم : ٧١] فأجابها بأنه قال : ﴿ ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾ ، [سورة مريم : ٧٢].

فبين صلى الله عليه وسلم أن هؤلاء هم الذين يدخلون جهم ، وهذا الدخول هو الذى نفاه عن أهل الحديبية ، وأما الورود : فهو مرور الناس على الصراط كما فسره فى الحديث الصحيح (٣) حديث جابر بن عبد الله ، وهذا المرور لا يطلق عليه اسم الدعوى الذي تجزى به العصاة وينفى عن المتقين ومثل هذا كثير .

---

(١) متفق عليه رواه البخارى فى كتاب « التفسير » باب فسوف يحاسب حساباً يسيرًا (٨/٥٦٦،٥٦٧ح٤٩٣٩)

ورواه أيضًا برقم (٦٥٣٦)

ورواه مسلم فى كتاب الجنة ونعيمها « باب » إثبات الحساب» (٤/٢٢٠٤،٢٢٠٥ح٢٨٧٦)ورواه الترمذى فى كتاب « التفسير » باب « سورة إذا السماء انشقت » (٩/٢٥٦ح٣٣٩٣،٣٣٩٤)

ورواه النسائى فى الكبرى كتاب « التفسير » باب » سورة الانشقاق ش (٦/٥١٠ح ١١٦٥٩)

(٢) صحيح من أم مبشر

رواه مسلم فى كتاب فضائل الصحابة » باب من فضائل أصحاب الشجرة أهل بيعة الرضوان رضى الله عنهم(٤/١٩٤٢ح٢٤٩٦)

(٣) رواه أحمد (٣/٣٢٩)

=

وأما ما فى القرآن من ذكر أقوال الكفار وحججهم وجوابها ، فهذا كثير جداً ، فإنه يجادلهم تارة فى التوحيد ، وتارة فى النبوات ، وتارة فى المعاد ، وتارة فى الشرائع بأحسن الحجج وأكملها ، كما قال تعالى ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا * ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾ ، [سورة الفرقان : ٣٢ ، ٣٣] .

وقد أخبر الله تبارك وتعالى عن أولى العزم من الرسل بمجادلة الكفار ، فقال تعالى عن قوم نوح ﴿ قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ﴾ ، [سورة هود :٣٢] ، وقال عن الخليل : ﴿ وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان - إلى قوله - وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ﴾ . [سورة الأنعام ٨٠ - ٨٣] .

وأمر تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم بالمجادلة بالتى هى أحسن ، وذم سبحانه من جادل بغير علم أو فى الحق بعد ما تبين ومن جادل بالباطل ، فقال تعالى : ﴿ ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٦٦] . وقال تعالى : ﴿ يجادلونك فى الحق بعد ما تبين ﴾ ، [سورة الأنفال : ٦] . وقال تعالى : ﴿ وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ﴾ . [سورة غافر : ٥] وهذا هوالجدال المذكور فى قوله : ﴿ ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا ﴾ [سورة غافر : ٤] .

= ورواه الحاكم (٥٨٧/٤) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى [وذكره الحكيم الترمذي فى نوادر الأصول »

وعزاه السيوطى فى « الدر المنثور » (٢٨٠/٤) لأحمد وعبد بن حميد والحكيم الترمذي وابن المنذور ابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى البعث

وإذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يحاج الكفار بعد نزول الأمر بالقتال وقد أمره الله تعالى أن يجير المستجير حتى يسمع كلام الله ثم يبلغه مأمنه ، والمراد بذلك تبليغه رسالات الله وإقامة الحجة عليه ، وذلك قد لا يتم إلا بتفسيره له الذى تقوم عليه الحجة ويجاب به عن المعارضة ،وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، علم بطلان قول من ظن أن الأمر بالجهاد ناسخ للأمر بالمجادلة مطلقاً .

الوجه الرابع : إن القائل إذا قال : إن آية مجادلة الكفار أو غيرها مما يدعى نسخه منسوخة بآية السيف قيل له : ما تعنى بآية السيف ؟ أتعنى آية بعينها أم تعنى كل آية فيها الأمر بالجهاد ؟

فإن أراد الأول ، كان جوابه من وجهين :

أحدهما : أن الآيات التى ورد فيها ذكر الجهاد متعددة ، فلا يجوز تخصيص بعضها .

وإن قال : أريد قوله تعالى : ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ . [سورة التوبة : ٥] .

قيل له : هذه فى قتال المشركين ، وقد قال بعدها فى قتال أهل الكتاب : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ . [سورة التوبة : ٢٩] . فلو لم تكن آية السيف إلا واحدة لم تكن هذه أولى من هذه .

وإن قال : كل آية فيها ذكر الجهاد .

قيل له : الجهاد شرع على مراتب ، فأول ما أنزل الله تعالى فيه الإذن فيه بقوله : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ ، [سورة الحج : ٣٩] .

فقد ذكر(١) غير واحد من العلماء أن هذه أول آية نزلت فى الجهاد ، ثم بعد ذلك نزل وجوبه (٢) بقوله : ﴿ كتب عليكم القتال ﴾ . [سورة البقرة : ٢١٦] .

ولم يؤمروا بقتال من طلب مسالمتهم بل قال : ﴿ فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيرا * إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا ﴾ ، [سورة النساء : ٨٩ . ٩٠] .

كذلك من هادنهم لم يكونوا مأمورين بقتاله . وإن كانت الهدنة عقداً جائزاً غير لازم ، ثم أنزل الله فى « براءة » الأمر بنبذ العهود ، وأمرهم بقتال المشركين كافة ، وأمرهم بقتال أهل الكتاب إذا لم يسلموا حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، ولم يبح لهم ترك قتالهم وإن سالموهم وهادنوهم هدنة مطلقة مع إمكان جهودهم .

فإن قيل : آية السيف التى نسخت المجادلة هى آية الإذن . قيل : فآية الإذن نزلت فى أول مقدمة المدينة قبل أن يبعث شيئاً من السرايا ، وقد جادل بعد هذا الكفار .

وكذلك إن قيل : آيات فرض القتال ، قيل كقوله : ﴿ كتب عليكم القتال ﴾ . [سورة البقرة ، ٢١٦] . نزلت فى البقرة أول الأمر قبل بدر، وقيل : لا ريب أن الجهاد كان واجباً يوم أحد والخندق وفتح خيبر ومكة ، وقد ذكر الله آيات فرض الجهاد فى هؤلاء المغازى ، كما ذكر ذلك فى سورة آل عمران والأحزاب ، فإن قيل : بل الجدال إنما نسخ لما أمر بجهاد من سالم ومن لم يسالم .

قيل : هذا باطل ، فإن الجدال إن كان منافياً للجهاد ، فهو مناف لإباحته ولإيجابه

---

(١) انظر هذه الأقوال في « الدر المنثور » للسيوطي (٣٦٣/٤ ، ٣٦٤)

(٢) انظر « الدر المنثور للسيوطي » (٢٤٤/١)

ولو للمسالم ، وإن لم ينافِ الجهاد إيجاب الجهاد للمسالمين ، كما لم ينافِ إيجاب جهاد غيرهم .

فإن المسالم قد لا يجادل ولا يجالد ، وقد يجادل ولا يجالد ، كما أن غيره قد يجادل ويجالد وقد يفعل أحدهما ، فإذا كان إيجابه لجهاد المحارب المبتدئ بالقتال لا ينافي مجادلته ، فلأن يكون جهاد من لا يبدأ بالقتال لا ينافي مجادلته أولى وأخرى ، فإن من كان أبعد عن القتال كانت مجادلته أقل منافاة للقتال ممن يكون أعظم قتالا . يبين هذا .

الوجه الخامس : هو أن يقال المنسوخ هو الاقتصار على الجدال ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم فى أول الأمر مأموراً أن يجاهد الكفار بلسانه لا بيده فيدعوهم ويعظهم ويجادلهم بالتى هى أحسن ، ويجاهدهم بالقرآن جهاداً كبيراً قال تعالى فى سورة الفرقان وهى مكية : ﴿ ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا * فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً ﴾ . [سورة الفرقان : ٥١ ، ٥٢] . وكان مأموراً بالكف عن قتالهم لعجزه وعجز المسلمين عن ذلك ، ثم لما هاجر إلى المدينة وصار له بها أعوان أذن له فى الجهاد ، ثم لما قووا كتب عليهم القتال ولم يكتب عليهم قتال من سالمهم ؛ لأنهم لم يكونوا يطيقون قتال جميع الكفار ، فلما فتح الله مكة وانقطع قتال قريش ملوك العرب ، ووفدت إليه وفود العرب بالإسلام أمره الله تعالى بقتال الكفار كلهم إلا من كان له عهد مؤقت ، وأمره بنبذ العهود المطلقة ، فكان الذى رفعه ونسخه ترك القتال .

---

(١) حديث صحيح عن أنس

رواه أبو داود فى كتاب « الجهاد » باب كراهية ترك الغزو « (٧/١٨٢ح٢٤٨٧)

ورواه النسائى فى السنن (٦/٧) فى كتاب الجهاد باب وجوب الجهاد وفى الكبرى (٦/٣ح٤٣٠٤)

وانظر النسائى أيضًا باب من خان غازيًا فى أهله (٦/٥١)

وانظر صحيح النسائى للألبانى (٢/٦٤٩ح٢٩٠٠) وانظر (ح٢٩٩٢)رواه الطبرى فى تفسير (٢١/٢)

وأما مجاهدة الكفار باللسان ، فما زال مشروعاً من أول الأمر إلى آخره ، فإنه إذا شرع جهادهم باليد ، فباللسان أولى ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : (١) « جاهدوا المشركين بأيديكم وألسنتكم وأموالكم » وكان ينصب لحسان منبرا فى مسجده يجاهد فيه المشركين بلسانه جهاد هجو ، وهذا كان بعد نزول آيات القتال ، وأين منفعة الهجو من منفعة إقامة الدلائل والبراهين على صحة الإسلام وإبطال حجج الكفار من المشركين وأهل الكتاب ؟

الوجه السادس : إنه من المعلوم أن القتال إنما شرع للضرورة ، ولو أن الناس امنوا بالبرهان والآيات لما احتيج إلى القتال ، فبيان آيات الإسلام وبراهينه واجب مطلقاً وجوباً أصلياً .

وأما الجهاد : فمشروع للضرورة ، فكيف يكون هذا مانعاً من ذلك ؟ فإن قيل : الإسلام قد ظهرت أعلامه وآياته فلم تبق حاجة إلى إظهار آياته ، وإنما يحتاج إلى السيف .

قيل : معلوم أن الله وعد بإظهاره على الدين كله ظهور علم وبيان وظهور سيف وسنان ، فقال تعالى : ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ ، [سورة الصف : ٩] .

وقد فسر العلماء ظهوره بهذا وهذا . ولفظ الظهور يتناولهما فإن ظهور الهدى بالعلم والبيان وظهور الدين باليد والعمل ، والله تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ومعلوم أن ظهور الإسلام بالعلم والبيان قبل ظهوره باليد والقتال ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم مكث بمكة ثلاث عشر سنة ، يظهر الإسلام بالعلم والبيان والآيات والبراهين ، فآمنت به المهاجرون والأنصار طوعاً واختياراً بغير سيف ، لما بان لهم من الآيات البينات ، والبراهين والمعجزات ، ثم أظهره بالسيف فإذا وجب علينا جهاد الكفار بالسيف ابتداء ودفعاً ، فلأن يجب

علينا بيان الإسلام وإعلامه ابتداء ودفعاً لمن يطعن فيه بطريقة الأولى والأخرى . فإن وجوب هذا قبل وجوب ذاك ومنفعته قبل منفعته ومعلوم أنه يحتاج كل وقت إلى السيف فكذلك هو محتاج إلى العلم والبيان وأظهاره بالعلم والبيان .

من جنس إظهاره بالسيف وهو ظهور مجمل علا به على كل دين ، مع أن كثيراً من الكفار لم يقهره سيفه ، فكذلك كثيرا من الكفار لم يقهره سيفه ، فكذلك كثير من الناس لم يظهر لهم آياته وبراهينه بل قد يقدحون فيه ويقيمون حججهم على بطلانه ، ولا سيما والمقهرون بالسيف فيهم منافقون كثيرون ، فهؤلاء جهادهم بالعلم والبيان دون السيف والسنان يؤكد هذا .

الوجه السابع : وهو أن القتال لا يكون إلا لظالم ، فإن من قاتل المسلمين لم يكن إلا ظالماً متعدياً ، ومن قامت عليه الحجة فشاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى واتبع غير سبيل المؤمنين لم يكن إلا ظالما.

وأما المجادلة فقد تكون لظالم ، إما طاعن فى الدين بالظلم ، وإما من قامت عليه الحجة الظاهرة فامتنع من قبولها ، وقد تكون لمسترشد طالب حق لم يبلغه أما من بلغه ، بعض أعلام نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ودلائل نبوته ولكن عورض ذلك عنده بشبهات تنافى ذلك ، فاحتاج إلى جواب تلك المعارضات ، وإما طالب لمعرفة دلائل النبوة على الوجه الذى يعلم به ذلك ، فإذا كان القتال الذى لا يكون إلا لدفع ظلم المقاتل مشروعاً ، فالمجادلة التى تكون لدفع ظلمه ولانتفاعه وامتناع غيره مشروعة بطريق الأولى . قال مجاهد :(١) ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم ﴾ [سورة العنكبوت :٤٦] .

---

(١) انظر الدر المنثور للسيوطى (١٤٧/٥)

رواه الطبرى فى تفسيره (٣/٢١)

قال : الذين ظلموا : من قاتلك ولم يعطك الجزية ، وفى لفظ آخر عنه قال : الذين ظلموا منهم : أهل الحرب من لا عهد لهم المجادلة لهم بالسيف .

وفى رواية عنه قال : لا تقاتلوا إلا من قاتلكم ولم يعط الجزية .

وفى رواية عنه قال : من أدى منهم الجزية فلا تقولوا لهم إلا خيراً ، وعن مجاهد : إلا بالتى هى أحسن ، فإن قالوا : شراً فقولوا : خيراً . فهذا مجاهد لا يجعلها منسوخة وهو قول أكثر المفسرين .

قال عبد الرحمن بن يزيد بن أسلم : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلابالتى هى أحسن ﴾ . ليست منسوخة ، ولكن عن قتادة قال (١) : نسختها : ﴿ اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ ولا مجادلة أحد من السيف ، والأول أصح ؛ لأن هؤلاء من الذين ظلموا فلا نسخ ومما يعجب منه أن بعض المنكرين لمجادلة الكفار بناء على ظهور دلائل النبوة نجده هو ومن يعظمه من شيوخه الذين يعتمد فى أصول الدين على نظرهم ومناظرتهم ، ويزعمون أنهم قرروا دلائل النبوة قد أوردوا من الشبهات والشكوك والمطاعن على دلائل النبوة ما يبلغ نحو ثمانين سؤالا ، وأجابوا عنه بأجوبة لا تصلح أن تكون جواباً فى المسائل الظنية ، بل هى إلى تقرير شبه الطاعنين أقرب منها إلى تقرير أصول الدين ، وهم كما مثلهم الغزالى وغيره بمن يضرب شجرة ضرباً يزلزلها به ، وهو يزعم أنه يريد أن يثبتها ، وكثير من أئمة هؤلاء مضطرب فى الإيمان بالنبوة اضطراباً ليس هذا موضع بسطه ، وهم مع ذلك يدعون أنه قد ظهر عند

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (٢١/٣) ، وانظرالدر المنثور للسيوطى (١٤٧/٥)
وعزاه (قول قتادة) لأبى داود فى ناسخة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن الأنبارى فى المصاحف

أهل الكتاب مالم يظهر عند شيوخ هؤلاء النظار ، وينهون عن إظهار آيات الله وبراهينه التى هى غاية مطالب مشايخهم وهم لم يعطوها حقها ، إما عجزاً وإما تفريطاً .

الوجه الثامن : أن كثيراً من أهل الكتاب يزعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم وأمته إنما أقاموا دينهم بالسيف لا بالهدى والعلم والأيات فإذا طلبوا العلم والمناظرة فقبل لهم : ليس لكم جواب الإ السيف ، كان هذا مما يقرر ظنهم الكاذب ، وكان هذا من أعظم ما يحتجون به عند أنفسهم على فساد الإسلام ، وأنه ليس دين رسول من عند الله ، وإنما هو دين ملك أقامه بالسيف .

الوجه التاسع : إنه من المعلوم أن السيف لاسيما سيف المسلمين وأهل الكتاب هو تابع للعلم والحجة ، بل وسيف المشركين هو تابع لآرائهم واعتقادهم ، والسيف من جنس العمل ، والعمل أبداً تابع للعلم والرأى .

وحينئذ فبيان دين الإسلام بالعلم وبيان أن ما خالفه ضلال وجهل هو تثبيت لأصل دين الإسلام ، واجتثاب لأصل غيره من الأديان التى يقاتل عليها أهلها ، ومتى ظهرت صحته وفساد غيره كان الناس أحد رجلين :إما رجل تبين له الحق فاتبعه ، فهذا هو المقصود الأعظم من إرسال الرسل .

وإما رجل لم يتبعه ، فهذا رجل قامت عليه الحجة ؛ إما لكونه لم ينظر فى علوم الإسلام ، أو نظر وعلم فاتبع هواه أو قصر ، وإذا قامت عليه الحجة كان رضى لله ولرسوله وأنصر لسيف الإسلام وأذل لسيف الكفار ، وإذا قدر أن فيهم من يعجز عن فهم الحجة ، فهذا إذا لم يكن معذوراً مع عدم قيامها فهو مع قيامها أولى أن لا يعذر ، وإن كان معذوراً مع قيامها

فهو مع عدمها أعذر ، فعلى التقديرين قيام الحجة أنصر وأعذر ، وقد قال تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ ، [سورة الإسراء : ١٥] . وقال تعالى : ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ ، [سورة النساء : ١٦٥] ، وقال تعالى : ﴿ فالملقيات ذكراً * عذراً أو نذراً ﴾ ، [سورة المرسلات : ٥ ، ٦] .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : (١) « ما أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين » .

فصل

وكان قبل قصة نجران قد آمن بالنبى كثير من اليهود والنصارى رؤساؤهم وغير رؤسائهم لما تبين لهم أنه رسول الله إليهم كما آمن به النجاشى ملك الحبشة وكان نصرانياً هو وقومه ، وكان إيمانه به فى أول أمر النبى صلى الله عليه وسلم لما كان أصحابه مستضعفين بمكة ، وكان الكفار يظلمونهم . ويؤذونهم ويعاقبونهم على الإيمان بالله ورسوله ، فهاجر منهم طائفة مثل عثمان بن عفان وعبد الرحمن ابن عوف ، والزبير بن العوام ، وعبد الله بن مسعود ، وجعفر بن أبى طالب ، وغيرهم من الرجال والنساء إلى بلده وكان ملكا عادلا ، فأرسل الكفار خلفهم رسلا إلى أرض الحبشة - أرض النجاشى - بهدايا ليردهم إليهم . فامتنع من عدله أن يسلمهم إليهم حتى يسمع كلامهم ، فلما سمع كلامهم وما أخبروه به من أمر النبى صلى الله عليه وسلم آمن بالنبى صلى الله عليه وسلم وآواهم .

---

(١) « متفق عليه » من حديث المغيرة

رواه البخارى فى كتاب « التوحيد » باب « قول النبى صلى الله عليه وسلم » : « لاشخص أغير من الله » (١٣/٤١١ ح ٧٤١٦)

ورواه مسلم فى كتاب « اللعان» (٢/١١٣٦ ح ١٤٩٩)

ولما سمع القرآن قال : (١) إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة ولما سألهم فى المسيح عليه السلام قالوا : نشهد أنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول التى لم يمسها رجل ، فقال النجاشى لجعفر بن أبى طالب : والله ما زاد عيسى بن مريم على ما قلت هذا العود فنخرت أصحابه ، فقال : وإن نخرتم ، وإن نخرتم . وبعث ابنه وطائفة من أصحابه إلى النبى صلى الله عليه وسلم مع جعفر بن أبى طالب ، وقدم جعفر على النبى صلى الله عليه وسلم عام خيبر ، وقد ذكر قصتهم جماعة من العلماء والحفاظ ، كأحمد بن حنبل فى المسند ، وابن سعد فى الطبقات ، وأبى نعيم فى الحلية وغيرهم ، وذكرها أهل التفسير ، والحديث ، والفقه ، وهى متواترة عند العلماء .

قال أحمد : حدثنى يعقوب بن إبراهيم بن سعيد عن أبيه قال : حدثنا محمد بن إسحاق ، حدثنى محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهرى ، عن أبى بكر عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومى ، عن أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة زوج النبى صلى الله عليه وسلم - ورضى عنهما - قالت : (٢) لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار (النجاشى)أمنا على ديننا ، وعبدنا الله لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتروا أن يبعثوا إلى النجاشى فينا رجلين جلدين ، وأن يهدوا للنجاشى هدايا مما يستطرف من متاع مكة وكان أعجب ما يأتيه منها إليه الأدم فجمعوا له أدما كثيراً ، ولم يتركوا من بطارقته بطريقا إلا أهدوا له هدية ، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبى ربيعة بن المغيرة المخزومى ، وعمرو بن العاص بن وائل السهمى ، وأمروهما ، وقالوا لهما : ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشى فيهم ثم قدموا إلى النجاشى هداياه ، ثم اسألوه أن يسلمهم إليكم قبل أن

---

(١) سبق تخريجه ص :

(٢) سبق تخريجه ص :

يكلمهم . قالت : فخرجا فقدما على النجاشى ، ونحن عنده بخير دار عند خير جار . فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشى ، ثم قالا لكل بطريق منهم : إنه قد صبأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمالهم وعشائرهم ليردوهم إليهم ، فأشيروا عليه أن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم ، فإن قومهم أعلا بهم عيناً . وأعلم بما عابوا عليهم فقالوا لهما : نعم ، ثم إنهما قربا هداياهما إلى النجاشى فقبلها منهما ، ثم كلماه فقالا له :

أيها الملك ، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم عليهم ، فهم أعلا بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .

قالت : ولم يكن شئ أبغض إلى عبد الله بن أبى ربيعة ، وعمرو بن العاص من أن يسمع النجاشى كلامنا .

فقالت بطارقته حوله : صدقوا أيها الملك قومهم أعلا بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما ، فليرداهم إلى بلادهم وقومهم .

قالت : فغضب النجاشى ، ثم قال : لا وايم الله إذاً لا أسلمهم إليهما ولا أكاد قوماً جاورونى ونزلوا بلادى واختارونى على من سواى ، حتى أدعوهم فاسألهم ما يقول هذان فى أمرهم ، فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاورونى .

قالت : ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ، ثم قال بعضهم لبعض : ماتقولون للرجل إذا أجبتموه ؟قال :

نقول : والله ما علمنا وما جاء به نبينا كائن فى ذلك وهو كائن فلما جاءوه زاد أبو نعيم وقد دعى النجاشي أساقفته ومعهم مصاحفهم حوله ، فلما جاءوه فسألهم فقال : ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الأمه ! .

قالت : فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب ، فقال : أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ، ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم ، والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنه ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والصيام .

قالت : فعدد عليه أمور الإسلام ، قال : فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به ، فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئاً وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدى علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث . فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلدك واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك ، قالت : فقال له النجاشى : هل معك مما جاء به عن الله من شئ .

قالت : فقال له جعفر : نعم ، فقال النجاشى : فاقرأه على . فقرأ عليه صدراً من سورة مريم ﴿ كهيعص * ذكر رحمة ربك عبده زكريا * إذ نادي ربه نداءً خفيا * قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا * وإنى

خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقراً فهب لى من لدنك وليا * يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا * يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا * قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتيا * قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً * قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً * فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً * يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً * وحناناً من لدنّا وزكاة وكان تقيا * وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً * وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً * واذكر فى الكتاب مريم إذا انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً * فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً * قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً * قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً * قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا * قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً * فحملته فانتبذت به مكاناً قصيا * فأجاءها المخاض إلى جزع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً * فناداهامن تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا * وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيا * فكلى واشربى وقرى عيناً فإما ترين من البشر أحداً فقولى إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيا * فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا * يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا * فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا * قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً * وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا * وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً* والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا * ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا

قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم * فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم * أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين * وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمــر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون * إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾ ، [سورة مريم : ١ : ٤٠] .

قالت أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ فبكى والله النجاشى حتى أخضل لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلى عليهم ، ثم قال النجاشى : إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة ، ثم قال لعبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص : انطلقا ، فوالله لا أسلمهم إليكما أبداً ولا أكاد .

قالت أم سلمة : فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص : والله لآتينه غداً أعيبهم عنده ، ثم أستأصل به حضراهم .

قالت : فقال له عبد الله بن أبى ربيعة ـ وكان أتقى الرجلين فينا ـ لا تفعل فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا ، قال : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد .

قالت : ثم غدا عليه الغد فقال له : أيها الملك ، إنهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولا عظيماً فأرسل إليهم فاسألهم عما يقولون فيه .

قالت : فأرسل إليهم يسألهم عنه .

قالت : ولم ينزل بنا مثلها فاجتمع القوم فقال بعضهم لبعض : ما تقولون فى عيسى إذا سألكم عنه ؟ قالوا : نقول والله فيه ما قاله الله وما جاء به نبينا كائناً فى ذلك ما هو كائن ، فلما دخلوا عليه قال لهم : ما تقولون فى عيسى بن مريم ؟ فقال له جعفر بن أبى طالب : نقول فيه الذى جاء به نبينا : هو عبد الله ورسوله وروحه

وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

قالت : فضرب النجاشى يده على الأرض فأخذ منها عوداً ، ثم قال : ما عدى عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود ، فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال فقال : وإن نخرتم والله ، اذهبوا فأنتم سيوم بأرضى ، والسيوم : الآمنون من سبكم غرم ، ثم من سبكم غرم ، ثم من سبكم غرم ، فما أحب أن لى ديراً ذهباً وأنى آذيت رجلا منكم ، والدير بلسان الحبشة : الجبل - ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لنا بها ، فوالله ما أخذ منى الرشوة حين رد على ملكى فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فى فأطيعهم فيه .

قالت : فخرجا من عنده مقبوحين مردود عليهما ما جاءا به ، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار .

قالت : فوالله إنا على ذلك إذ نزل به ، يعنى من ينازعه فى ملكه .

قالت : فوالله ما علمنا حزناً قط كان أشد من حزن حزناه ، عند ذلك تخوفنا أن يظهر على النجاشى فيأتى رجلا لا يعرف من حقنا ما كان النجاشى يعرف منه .

وروى عبد الله بن عامربن الزبير عن أبيه قال : لما نزل بالنجاشى عدوه من أرضه جاء المهاجرون فقالوا : إنا نحن نخرج إليهم فنقاتل معك وترى حربنا ونجزيك بما صنعت بنا فقال : ذو بنصره الله خير من الذى ينصره الناس ، يقول : الذى ينصره الله خير من الذى ينصره الناس فأبى ذلك عليهم .

(رجعنا إلى) حديث أم سلمة قالت : وسار النجاشى - وبينهما عرض النيل - قالت : فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : من رجل يخرج حتى يحضر وقعة القوم ثم يأتينا بالخبر ؟

قالت : فقال الزبير بن العوام : أنا .

قالت : وكان من أحدث القوم سناً ، قالت : فنفخنا له قربة فجعلها فى صدره ،

ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التى بها ملتقى القوم ، ثم انطلق حتى حضرهم .

قالت : ودعونا الله للنجاشى بالظهور على عدوه والتمكين له فى بلاده .

قالت : فوالله إنا لعلى ذلك متوقعين لما هو كائن إذ طلع الزبير بن العوام يسعى ويلوح بثوبه ويقول : ألا أبشروا قد ظهر النجاشى وقد أهلك الله عدوه .

قالت : فوالله ما علمت فرحنا فرحة مثلها قط .

قالت : فرجع النجاشى ، وقد أهلك الله عدوه ، ومكن له فى بلاده واستوثق عليه أمر الحبشة ، فكنا عنده فى خير منزل حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد روى جمل هذه القصة أبو داود فى سننه من حديث أبى موسى .

وفى الصحيحين من حديث أبى موسى قال : (١) بلغنا مخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن باليمن ، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لى أنا أصغرهما فى اثنين وخمسين رجلا من قومى ، فركبنا سفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشى بالحبشة ، فوافقنا جعفر بن أبى طالب به عنده قال جعفر إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثنا وأمرنا - يعنى بالأقامه - فأقيموا معنا . قال : فأقمنا معهم حتى قدمنا جميعاً قال فوفقنا - رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فتح خيبر فأسهم لنا منها ، وما قسم لأحد غائب عن فتح خيبر غيرنا إلا لمن شهد معنا أصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحاب قسم لهم معهم .

---

(١) متفق عليه

رواه البخارى فى كتاب « فرض الخمس » باب « ومن الدليل على أن الخمس لنوائب المسلمين (٢٧٣/٦ح٣١٣٦)

وأعاده فى عدة مواضع (ح٣٨٧٦، ٤٢٣٠، ٤٢٣١)

ورواه مسلم فى كتاب « فضائل الصحابة » باب « من فضائل جعفر » (١٩٤٦/٤: ١٩٤٧ح٢٥٠٢)

قال : فلما رأى ناس من الناس يقولون لنا ـ يعنى أهل السفينة ـ سبقناكم الهجرة ، قال : ودخلت أسماء بنت عميس وهى ممن قدم معنا على حفصة زائرة ، وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر اليه ، فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها ، فقال عمر حين رأى أسماء : من هذه ؟ قالت : أسماء بنت عميس ، فقال عمر : الحبشية هذه ؟ البحرية هذه ؟ قالت أسماء : نعم . فقال عمر سبقناكم بالهجرة نحن أحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فلكم ، فغضبت وقالت : ياعمر كلا ولله كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يطعم جائعكم ، ويعظ جاهلكم وكنا فى أرض البعد البغضاء بالحبشة ، وذلك فى الله تبارك وتعالى وفى رسول الله صلى الله عليه سلم ، وإيم الله لأطعم طعاما ، ولا أشرب شربا حتى أذكر ما قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن كنا نؤذى ونخاف ، وسأذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأسأله الله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد على ذلك .

فلما جاء النبى صلى الله عليه وسلم قالت : « يارسول الله ، إن عمر قال كذا وكذا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فماذا قلت له قالت : كذا وكذا ، قال : ليس بأحق بى منكم وله ولأصحابه هجرة واحدة ، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان » .

قالت : فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتونى أرسالا يسألونى عن هذا الحديث ما من الدنيا شئ هم به أفرح ولا أعظم فى أنفسهم مما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال أبو بردة : قالت أسماء فلقد رأيت أبا موسى وإنه ليستعيد هذا الحديث منى .

أخرجاه فى الصحيحين البخارى ومسلم .

وأخرجاه فى الصحيحين عن أبى هريرة : (١) أن النبى صلى الله عليه وسلم نعى

---

(١) متفق عليه

رواه البخارى فى كتاب « الجنائز » باب « الرجل ينعى إلى أهل الميت بنفسه » (١٣٩/٣ ح١٢٤٥)

وأعاده فى عدة مواضع : (ح ١٣١٨ ، ١٣٢٧ ، ١٣٢٨ ، ١٣٣٣ ، ٣٨٨٠ ، ٣٨٨١)

ورواه مسلم فى كتاب « الجنائز » باب فى التكبير على الجنائز » (٦٥٦/٢ ، ٦٥٧ ح ٩٥١)

النجاشي صاحب الحبشة في اليوم الذى مات فيه قال : « استغفروا لأخيكم » .

وعنه ـ رضى الله عنه ـ قال: نعى النبى صلى الله عليه وسلم النجاشى يوم توفى وقال : « استغفروا لأخيكم » ثـم خرج بالناس إلى المصلى فصفوا وراءه وصلى عليه وكبر أربع تكبيرات . أخرجاه .

وقال جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما : (١) إن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى على أصحمة النجاشى فكبر عليه أربعاً . أخرجاه فى الصحيحين .

فصـل

وكان أول ما أنزل الله تعالى عليه صلى الله عليه وسلم الوحى عرضت خديجة امرأته أمره على عالم كبير من علماء النصارى يقال له ورقة بن نوفل ، وكان من العرب المتنصرة ، فقال : (٢) هذا هو الناموس الذى كان يأتى موسى بن عمران ياليتنى أكون فيها جذعاً حين يخرجك قومك ـ يعنى ليتنى أكون شاباً ـ فإنه كان شيخاً كبيراً قد كف بصره ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم « أو مخرجى هم ؟ قال : نعم ، لم يأت أحد بمثل ما أتيت به إلا عودى . إن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً » رواه أصحاب الصحيح .

وقدم إليه بمكة طائفة من أهل الكتاب من النصارى فآمنوا به ، فآذاهم المشركون فصبروا واحتملوا ، فأنزل الله فيهم : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك

---

(١) متفق عليه

رواه البخارى فى كتاب « الجنائز » باب « من صف صفين أو ثلاثة ...» (٣/٢٢١ ح١٣١٧)

وأعاده فى عدة مواضع(ح١٣٢٠،١٣٣٤،٣٨٧٧،٣٨٧٨،٣٨٧٩)

ورواه مسلم فى كتاب « الجنائز » باب « فى التكبير على الجنائز » (٢/٦٥٧ح٩٥٢)

(٢) متفق عليه وسبق تخريجه ص :

يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون * وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين ﴾ . [سورة القصص : ٥٢ - ٥٥] .

وقصتهم مشهورة في كتب التفسير وغيرها (١) ، وروى البيهقى فى كتاب دلائل النبوة وأعلام الرسالة فقال : (٢) أنبأنا أبو عبد الله الحافظ ، أنبأنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، أنبأنا أحمد بن عبد الجبار ، أنبأنا يونس عن ابن إسحاق قال : ثم قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرون رجلا وهو بمكة أو قريب من ذلك - من النصارى حين ظهر خبره فى الحبشة فوجدوه فى المجلس فكلموه وساءلوه ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة ، فلما فرغوا من مساءلتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عما أرادوا ، دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره ، فلما قاموا من عنده اعترضهم أبو جهل فى نفر من قريش ، فقالوا : خيبكم الله من ركب بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم فتأتونهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال لكم ما نعلم ركباً أحمق منكم أو كما قال لهم ، فقالوا : سلام عليكم لانجاهلكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا نألوا لأنفسنا إلا خيراً ، ويقال - والله أعلم - إن فيهم نزلت هؤلاء الآيات : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون - إلى قوله تعالى - لا نبتغى الجاهلين ﴾ ، [سورة القصص : ٥٢ - ٥٥] .

ولما كان بعد عام الحديبية ومهادنة قريش أرسل رسله إلى جميع الطوائف ،

---

(١) انظر الدر النثور (١٣١/٥، ١٣٣)

(٢) رواه البيهقى فى « الدلائل » (٣٠٦/٢، ٣٠٧)

ونقله ابن كثير فى البداية والنهاية » (٨٢/٣)

فأرسل إلى جميع النصارى : نصارى الشام ومصر ، فأرسل إلى هرقل ملك الروم ، وقد قيل : إن هرقل هذا هو الذى زادت النصارى له فى صومهم عشرة أيام لما اقتتلت الروم والفرس وقتل اليهود بعد أن كان قد أمنهم فطلبت منه النصارى قتلهم وضمنوا له أن يكفروا له خطيئته بما زادوه فى الصوم ، وكانت الفرس مجوساً والروم نصارى ، وكانت المجوس الفرس غلبت النصارى أولا ، وكان هذا فى أوائل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم وهو بمكة وأتباعه قليل ، ففرح المشركون بانتصار الفرس ، لأنهم أقرب إليهم من أهل الكتاب وساء المسلمين ذلك ؛ لأن أهل الكتاب أقرب إليهم ، فدخل أبو بكر الصديق رضى الله عنه ـ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بانتصار الفرس على الروم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ آلم * غلبت الروم * فى أدنى الأرض وهم بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ . [سورة الروم : ١ـ ٥] .

وكان هذا مما أخبر به النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يكون ، فكان كما أخبر ، ولما ذكر ذلك أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ كذبوه فراهنهم أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ على ذلك كما ذكر هذا المفسرون والمحدثون : (١)

قال سفيان بن سنيد فى تفسيره ـ وهو شيخ البخارى ـ حدثنا حجاج عن أبى الزناد (٢) عن أبيه عن عروة بن الزبير عن نيار بن مكرم الأسلمى أنه قال : لما أنزل الله

---

(١) انظر سنن الترمذى ، كتاب « التفسير » باب « سورة الروم » (٥٠/٩ ـ ٥٤:٥ ح ٣٢٤٤:٣٢٤٦)
وتفسير النسائى « سورة الروم » (١٤٩/٢ : ١٥٠ ح ٤٠٩)
ومسند أحمد (٢٧٦/١،٣٠٤) وتفسير الطبرى (١٢/٢١ ،١٦:) والمعجم الكبير للطبرانى (٢٩/١٢ ح١٢٣٧٧)
ومستدرك الحاكم (٤١٠/٢) ، والدر المنثور (١٥٠/٥ : ١٥٢) وانظر الأحاديث الآتية
(٢) الصواب : « ابن أبى الزناد » وهو عبد الرحمن بن أبى الزناد :
عبد الله بن ذكوان ، وهو صدوق تغير حفظه لما قدم بغداد ، وكان فقيها .
وحجاج الراوى عنه هو حجاج بن محمد المصيصى ، ثقة ثبت لكنه اختلط فى آخر عمره لما قدم بغداد قبل موته .

على رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ آلم * غلبت الروم * فى أدنى الأرض - إلى قوله - وهو العزيز الرحيم ﴾ ، [سورة الروم : ١ - ٥] . خرج أبو بكر وهو يقرؤها بمكة رافعاً بها صوته : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ آلم * غلبت الروم * فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين ﴾ [سورة الروم : ١ - ٤].

فقال له رءوس أهل مكة : ما هذا يا ابن أبى قحافة لعله مما يأتى به صاحبك ؟ قال : لا والله ، ولكنه كلام الله وقوله تبارك وتعالى ، قالوا : فذلك بيننا وبينك إن ظهرت الروم على فارس فى بضع سنين ، فراهنهم أبو بكر بفتح الله الروم على فارس دون التسع ، فأسلم عند ذلك خلق كثير من المشركين .

قال ابن مُكْرَم : (١) وإنما كانت قريش تستفتح يومئذ بالفرس ؛ لأنهم وإياهم أهل تكذيب بالبعث ، وأهل أصنام ، وإنما كان المؤمنون يستفتحون يومئذ بالروم ؛ لأنهم وإياهم أهل نبوة وتصديق بالبعث . فأنزل الله تعلى : ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ينصر من يشاء ﴾ ، [سورة الروم : [٤ ، ٥].

وهذا الحديث رواه الترمذى فى جامعه فقال : (٢) حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثنا إسماعيل بن أبى أويس قال : حدثنى ابن أبى الزناد عن أبى الزناد عن عروة بن الزبير عن نيار بن مكرم الأسلمى قال : لما نزلت : ﴿ ألم * غلبت الروم * فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين ﴾ ، [سورة الروم : ١- ٤] . فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم ، وكان المسلمون يحبون ظهور

---

(١) هو صحابى عاش إلى أول خلافة معاوية ، وأنكر ابن سعد أن يكون سمع من النبى صلى الله عليه وسلم .

(٢) رواه الترمذى فى كتاب « التفسير » باب « سورة الروم » (٩/٥٢:٥٤ح٣٢٤٦)
والحديث فيه إسماعيل بن أبى أويس ، وهو صدق أخطأ فى أحاديث من حفظه .
والحديث حسنه الألبانى فى صحيح الترمذى (٣/٨٨ح٢٥٥٢)

الروم عليهم ؛ لأنهم وإياهم أهل كتاب .

وذلك قوله تعالى : ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ ، [سورة الروم : ٤ ، ٥] .

وكانت قريش تحب ظهور فارس ، لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث ، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - يصيح فى نواحى مكة : ﴿ ألم * غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين * لله الأمر من قبل ومن بعد ﴾ .قال ناس من قريش لأبى بكر : فذلك بيننا وبينكم زعم صاحبكم أن الروم ستغلب فارساً فى بضع سنين ، أفلا نراهنك على ذلك ؟ فارتهن أبو بكر والمشركون فظهرت الروم على فارس فى بضع سنين ، وأسلم عند ذلك ناس كثير من المشركين .

قال الترمذى : هذا حديث صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن أبى الزناد - يعنى غريباً من هذا الوجه - وإلا فهو مشهور متواتر عن أهل التفسير ، والمغازى ، والحديث ، والفقه ، والقصة متواترة عند الناس .

وقال أبو جعفر بن جرير فى تفسيره : (١) عن سفيان عن حبيب بن أبى عمرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : كان المسلمين يحبون أن تغلب الروم على فارس لأنهم أهل كتاب وكان المشركون يحبون أن تغلب أهل فارس ، لأنهم أهل أوثان . قال : فذكروا ذلك لأبى بكر فذكره أبو بكر للنبى صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله : ﴿ ألم * غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين * لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴾ فذكره أبو بكر للمشركين ، فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلا ، فإن غلبوا كان لك كذا وكذا ، وإن غلبوا كان لنا كذا وكذا ، فجعلوا بينهم أجلا خمس سنين ، فذكر ذلك أبو

(١) « حديث صحيح »

رواه الطبرى فى تفسير (١٢/٢١)

بكر للنبى صلى الله عليه وسلم فقال له : « هلا احتطت ، أفلا جعلته دون العشر ؟ » قال سعيد بن جبير . والبضع ما دون العشرة ، قال : فغلبت الروم ثم غلبت ، فذلك قوله : ﴿ الم * غلبت الروم ﴾ الآية .

وهذا أيضاً أخرجه الترمذى : (١) حدثنا حسن بن حريث ، أنبأنا معاوية ابن عمرو عن أبى إسحاق الفزارى ، عن سفيان ، عن حبيب بن أبى عمرة ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب ، إنما نعرفه من حديث سفيان الثورى عن حبيب بن أبى عمرة .

ورواه أيضاً من حديث الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبه عن ابن عباس وقال : هذا حديث غريب من هذا الوجه . ورواه أيضاً من حديث الأعمش عن عطية عن أبى سعيد ، وقال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

وذهبت طائفة من العلماء إلى أن الخبر جاء بظهور الروم على فارس يوم بدر (٢) ، وذهب آخرون أنه يوم الحديبية (٣) - وهذا هو الصحيح - وهرقل كان قد مشى شكراً لله من حمص إلى بيت المقدس لما نصره الله على الفرس ، فوافاه كتاب النبى صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام عقب نصر الله للروم على فارس ، ففرح النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين .

قال علماء السير : فلما انتصرت الروم ، وخرج هرقل ملك الروم من منزله من حمص ماشياً على قدميه إلى بيت المقدس متشكراً لله عز وجل حين رد عليه ما رد ليصلى فيه ، فلما انتهي إلى بيت المقدس وصلى فيه ، قدم عليه

---

(١) رواه الترمذى (٩/٥١:٥٢ح٣٢٤٥)

والحديث صححه الألبانى فى صحيح الترمذى (٣/٨٧:٨٨ح٢٥٥١)

(٢) قال سفيان الثورى كما فى رواية الترمذى السابقة

(٣) قال الواقدى كما فى البداية والنهاية لابن كثير (٤/١٨٠)

حيئذ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع دحية الكلبى يدعوه إلى الإسلام .

قال ابن إسحاق : (١) حدثنى الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عبد الله بن عباس قال : حدثنى أبو سفيان قال : كنا قوماً تجاراً وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حصرتنا حتى هلكت أموالنا ، فلما كانت الهدنة بيننا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم - يعنى التى عقدت يوم الحديبية - فلما عقدت الهدنه آمنا ، فخرجت فى نفر من قريش تاجراً إلى الشام ، وكان وجه متجرنا ، فقدمتها حين ظهر هرقل على من كان عارضه من فارس ، فأخرجهم منها ، وانتزع له صليبه الأعظم وقد كانوا سلبوه إياه فلما بلغه ذلك منهم ، وبلغه أن صليبه قد استنقذ له ، وكانت حمص منزله ، فخرج منها على قدميه متشكراً لله عز وجل حين رد عليه ما رد ليصلى فى بيت المقدس ، وبسط له الطريق بالبسط ويلقى عليها الرياحين ، فلما انتهى إلى إيليا وقضى فيها صلاته ومعه بطارقته وأساقفته الروم ، وقدم عليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع دحية بن خليفة الكلبى فيه « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله ، إلى هرقل عظيم الروم ، السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فأسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين » يعنى الأكارين .

قال ابن إسحاق ، وقال ابن شهاب : حدثنى أسقف النصارى فى زمان عبد الملك بن مروان زعم لى أنه أدرك ذلك من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأمر هرقل وعقله ، قال : لما قدم عليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع دحية أخذه فجعله على خاصرته ، ثم كتب إلى رجل برومية كان يقرأ من العبرانية ما يقرأ يذكر له أمره ويصف له شأنه ، ويخبره ما جاء منه ، قال : فكتب إليه صاحب

---

(١) انظر البداية والنهاية (٤/٢٦٢:٢٦٤)

رومية أنه النبى الذى ننتظره لاشك فيه فاتبعه وصدقه ، فأمر هرقل ببطارقة الروم فجمعوا له فى دسكرة ملكه ، وأمر بها فاسترخت عليهم أبوابها ، ثم طلع عليهم من عليه وخافهم على نفسه وقال : يامعشر الروم إنى قد جمعتكم لخير ، إنه قد أتانى كتاب هذا الرجل يدعونى إلى دينه ، وإنه والله للرجل الذى كنا ننتظره ونجده فى كتبنا ، فهلم فلنتبعه ولنصدقه ، فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا ، فنخروا نخرة رجل واحد ، ثم ابتدروا أبواب الدسكرة ليخرجوا منها ، فوجدوها قد أغلقت دونهم فقال : كروهم على وخافهم على نفسه فكروا عليه ، وقال : يامعشر الروم ، إنما قلت لكم هذه المقالة التى قلت لكم ، لأنظر كيف صلابتكم على دينكم الأمر الذى حدث ، فقد رأيت منكم الذى أسر به فوقعوا سجوداً وأمر بأبواب الدسكرة ففتحت لهم فانطلقوا .

وهذا حديث مشهور من حديث محمد بن إسحاق - وهو ذو علم وبصيرة بهذا الشأن . حفظ مالا يحفظه غيره - قال ابن إسحاق : وأخذ هرقل كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعله فى قصبة من ذهب وأمسكها عنده تعظيما له ، وهذه القصة مشهورة ذكرها أصحاب الصحاح ، ففى البخاى ومسلم (١) والسياق

---

(١) متفق عليه

رواه البخارى فى كتاب « بدء الوحى »باب » (٦) (١/٤٢:٤٤ح٧)

وأعاد البخارى ذكره فى مواضع عديدة

(ح٥١،٢٦٨١،٢٨٠٤،٢٩٤١،٢٩٧٨،٣١٧٤،٤٥٥٣،٥٩٨٠،٦٢٦٠،٧١٩٦،٧٥٤١)

ورواه مسلم فى كتاب « الجهاد والسير » باب « كتاب النبى صلى الله عليه وسلم إلى هرقل » (٣/١٣٩٣:١٣٩٧ح١٧٧٣)

ورواه أبو داود فى كتاب « الأدب » باب « كيف يكتب إلى الذمى »(١٤/٤٥:٤٦ح٥١١٤) ببعضه

ورواه الترمذى فى كتاب « الاستئذان والأدب » باب « كيف يكتب إلى أهل الشرك (٧/٥٠٠ :٥٠١ح٢٨٦٠) ببعضه ، وقال الترمذى : « حديث حسن صحيح » ورواه النسائى فى التفسير » فى سورة آل عمران باب (٥٨) (١/٣٠٣:٣٠٧ح٨٤) بتمامه

للبخاري عن الزهري قال : أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن عبد الله بن عباس أخبره أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش ، وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هادن فيها أبا سفيان بن حرب وكفار قريش فأتوه وهو بإيليا فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ثم دعاهم بالترجمان فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ فقال أبو سفيان : فقلت : أنا أقربهم نسباً ، فقال : أدنوه وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه : إني سائل هذا عن هذا الرجل . فإن كذبني فكذبوه . قال أبو سفيان : فوالله لولا الحياء من أن يأثروا على الكذب لكذبت عليه ، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب ، قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قبله قط ؟ قلت : لا ، قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت لا . قال : فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ قلت : بل ضعفاؤهم فقال . أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون . قال : فهل يرتد منهم أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت لا . قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا .

قال فهل يغدر ؟ قلت لا . ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها . قال : ولم يمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة . قال فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم . قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه . قال : فبماذا يأمركم ؟ قلت : يقول : اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة . فقال للترجمان : قل له سألتك عن نسبه ، فذكرت أنه فيكم ذو نسب وكذلك الرسل تبعث في أنساب قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله فذكرت أن لا . فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله ، وسألتك

هل كان من آبائه من ملك ؟ فذكرت أن لا . فقلت : لو كان فى آبائه من ملك قلت : رجل يطلب ملك ؟ أبيه . وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك أشراف الناس أم ضعفاؤهم اتبعوه فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل ، وسألتك هل يزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون ؛ وكذلك أمر الإيمان حتى يتم . وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا . وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد ، وسألتك هل يغدر ؟ فذكرت أن لا . وكذلك الرسل لا تغدر ، وسألتك بم يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة ، والصدق ، والعفاف ، فإن كان ما تقول حقاً ، فسيملك موضع قدمى هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظنه أنه منكم ، فلو أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه .

ثم دعى بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى بعث به مع دحية الكلبى إلى عظيم بصرى فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل فقرأه فإذا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبد الله ورسوله ، إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت ، فإن عليك إثم الأريسيين ، ويا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

قال أبو سفيان : فلما قال ما قال ، وفرغ من قراءة الكتاب ، كثر عنده الصخب ، وارتفعت الأصوات وأخرجنا ، فقلت لأصحابى حين أخرجنا : لقد أمر ابن أبى كبشة أنه ليخافه ملك بنى الأصفر ، فما زلت موقنا أنه سيظهر حتى أدخل الله على

الإسلام .

وكان ابن الناطور صاحب إيليا أسقفاً على نصارى أهل الشام ، يحدث أن هرقل حين قدم إيليا أصبح يوماً خبيث النعس ، فقال له بعض بطارقته : قد استنكرنا هيئتك . قال ابن الناطور : وكان هرقل حزاء ينظر فى النجوم ، فقال لهم حين سألوه : إنى رأيت الليلة حين نظرت فى النجوم أن ملك الختان قد ظهر ؛ فمن يختتن من هذه الأمة ؟ فقالوا : ليس يختتن إلا اليهود فلا يهمنك شأنهم واكتب إلى مدائن ملكك فليقتلوا من فيهم من اليهود ؛ فبينماهم على أمرهم ، أتى هرقل برجل أرسل به ملك غسان يخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فلما استخبره هرقل قال : اذهبوا فانظروا أمختتن هو أم لا ؟ فنظروا إليه فحدثوه أنه مختتن وسأله عن العرب قال : هم يختتنون ، فقال هرقل : هذا ملك هذه الأمة قد ظهر ؛ ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية وكان هرقل نظيره فى العلم . وسار هرقل إلى حمص فلم يرم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأى هرقل على خروج النبى صلى الله عليه وسلم وأنه نبى . فأذن هرقل لعظماء الروم فى دسكرة له بحمص . ثم أمر بأبوابها فغلقت . ثم اطلع عليهم فقال : يامعشر الروم . هل لكم فى الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتتابعوا هذا النبى . فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قدغلقت دونهم . فلما رأى هرقل نفرتهم ويئس من الإيمان منهم قال : ردوهم على : وقال : إنى قلت مقالتى آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت . فسجدوا له ورضوا عليه . فكان هذا آخر شأن هرقل .

قلت : وكان هرقل من أجل ملوك النصارى فى ذلك الوقت . وقد أخبر غير واحد أن هذا الكتاب باق إلى الآن عند ذرية هرقل فى أرفع صوان وأعز مكان يتوارثونه كابراً عن كابر ، وأخبر غير واحد أن هذا الكتاب باق الآن عند الفنش صاحب قشتالة وبلاد الأندلس يفتخرون به وهذا أمر مشهور معروف .

وقـد روى سـنيد ـ وهـو شـيخ البخـارى ـ فى تفسـيره قـال : (١) حدثنا هشام قال : أخبرنا حصين عن عبد الله بن شداد بن الهاد قال : لما كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل فقرأ كتابه وجمع الروم فأبوا عليه قال : فلما كان يوم الأحد لم يحضر أسقفهم الكبير وتمارض ، فأرسل إليه فأبى ، ثم أرسل إليه ، فأبى ثلاث مرات فركب إليه فقال له : أليس قد عرفت أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : بلى ، قال أليس قد رأيت ماركبوا منى فأنت أطوع فيهم منى فتعال فادعهم .قال : أو تأذن لى فى ذلك ! قال : نعم قال : اذهب هو ذا أجئ ، قال : فجاء بسواده إلى كنيستهم العظمى ، فلما رأوه خروا له سجداً الملك وغيره ، فقام فى المذبح فقال : ياأبناء الموتى ، هذا النبى الذى بشر به عيسى ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ، فنخروا ووثبوا إليه فعضوه بأفواههم

---

(١) حديث مرسل فإن عبد الله بن شداد بن الهاد ولد على عهد النبى صلى الله عليه وسلم وذكر العجلى من كبار التابعين الثقات ، وكان معدوداً فى الفقهاء

والسند المذكور فيه تصحيفات فالصواب هو : حدثنا هشيم قال : أخبرنا حصين بن عبدالله بن شداد ... وحصين هو حصين بن عبد الرحمن السلمى ، أبو الهذيل الكوفى ، ثقة تغير حفظه فى الآخر وهذا الحديث رواه أبو نعيم فى « الدلائل » (٢/٤٤٧، ٤٤٩ ح ٢٤٠)

ورواه البزار كما فى « كشف الأستار » (٣/١١٧، ١١٩ح٢٣٧٤)

وقال : لم يحدث دحية إلا بهذا الحديث .

ورواه الطبرى فى الكبير (٤/٢٢٥ح٤١٩٨)

وقال الهيثمى فى المجتمع (٥/٣٩) رواه البزار عن ابراهيم بين إسماعيل بن يحيى بن مسلمة عن أبيه وكلاهما ضعيف »

وقال أيضاً (٥/٣٠٦) رواه الطبرى وفيه يحيى بن عبد الحميد الحمانى وهو ضعيف

قلت رواية الطبرى فيها أيضاً « يحيى بن مسلمة بن كهيك »

قال عن ابن حجر فى « التقريب » (٢/٣٤٩) : متروك »

وأشار إلى هذه الرواية ابن حجر فى « الفتح » (١/٥٦)

حتى قتلوه ، قال : وجعلوا يخرجون أضلاعه بالكلبتين حتى مات .

فصـــل

وأرسل النبى صلى الله عليه وسلم رسولا أيضاً إلى ملك مصر المقوقس - ملك النصارى فى ذلك الوقت بالإسكندرية - وكان رسوله إليه حاطب بن أبى بلتعة رضى الله عنه - قال حاطب :(١) قدمت على المقوقس - واسمه جريج بن مينا - بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له : إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فانتقم به ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر بك . قال : هات ، قلت : إن لك دينا لن تدعه إلا لما هو خير منه ، وهو الإسلام الكافي بعد ما سواه ، إن هذا النبى دعا الناس إلى الله ، فكان أشدهم عليه قريش ، وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه النصارى ، ولعمرى ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، وكل من أدرك نبياً فهو من أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه ، فأنت ممن أدرك هذا النبى ولسنا ننهاك عن دين المسيح ، ولكنا نأمرك به ، ثم ناوله كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قرأه قال : خيراً قد نظرت فى هذا فوجدته قد لا يأمر بمزهـــود فيه ، ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب ، ووجدت معه آلة النبوة ، ثم جعل الكتاب فى حق من عاج وختم عليه ودفعه إلى خازنه ، وكتب جوابه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد علمت أن نبياً قد بقى وقد أكرمت رسلك ، وأهدى للنبى صلى الله عليه وسلم جاريتين وبغلة تسمى الدلدل ، فقبل النبى صلى الله عليه وسلم هديته ،

---

(١) رواه البيهقى فى « الدلائل » (٤/٣٩٥،٣٩٦) وأشار إليه ابن إسحاق كما فى « سيرة ابن هشـــام » (٤/٣٣٨)

واصطفى الجارية االواحدة - واسمها مارية القبطية - لنفسه فولدت منه إبراهيم ، وأعطى الأخرى لحسان ابن ثابت ، فولدت منه عبد الرحمن ، وعاشت البغلة إلى زمان معاوية فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ضن الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه » .

قال محمد بن سعد : (١) حدثنا محمد بن عمر قال : حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن أبيه قال : لما رجع النبى صلى الله عليه وسلم من الحديبية فى ذى القعدة سنة ست من الهجرة ، بعث حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس القبطى صاحب الإسكندرية ، وكتب إليه معه كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام ، فلما قرأ الكتاب قال له : خيراً ، وأخذ الكتاب - وكان مختوماً - فجعله فى حق من عاج ، وختم عليه ، ودفعه إلى خازنه وكتب إلى النبى صلى الله عليه وسلم جواب كتابه ولم يسلم ، وأهدى إلى النبى صلى الله عليه وسلم ما تقدم ذكره .

فكل من الملكين عظم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وتواضع له ولكتابه ، واعترف بأنه الرسول المنتظر الذى بشرت به الأنبياء عليهم السلام .

وقد كان المقوقس يعرف أنه حق بما يسمع من صفاته من أهل الكتاب ، ولكن ضن بملكه ولم يؤمن ، وكان قد خرج إليه المغيرة بن شعبة قبل إسلام المغيرة فحدثه بذلك .

قال محمد بن عمر الواقدى : (٢) حدثنى محمد بن سعد الثقفى ، وعبد الرحمن

---

(١) ذكره ابن سعد كما فى « الطبقات » (٣/١/٨٠)
والحديث ضعيف جداً لأن فيه « محمد بن عمر الواقدى » وهو متروك

(٢) رواه أبو نعيم فى دلائل النبوة (١/١٠١:١٠٥ح٤٥)
وانظر طبقات ابن سعد (٤/٢/١٤:٢٦)
والحديث ضعيف جداً لأنه من رواية الواقدى

ابن عبد العزيز بن عبد الله بن عثمان بن سهل بن حنيف ، وعبد الملك بن عيسى ، وعبد الله بن عبد الرحمن ، ومحمد بن يعقوب بن عتبة عن أبيه وغيرهم ، كل قد حدثنى من هذا الحديث بطائفة منه قال : قال المغيرة بن شعبة فى خروجه إلى المقوقس مع بنى مالك وإنهم لما دخلوا على المقوقس قال : كيف خلصتم إلى من طائفتكم محمد وأصحابه بينى وبينكم ؟ قالوا : الصقنابالبحر وقد خفناه على ذلك . قال : فكيف صنعتم فيما دعاكم إليه ؟ قالوا : ما تبعه منا رجل واحد . قال : ولم ذلك ؟ قالوا : جاءنا بدين مجدد لا تدين به الآباء ولا يدين به الملك ، ونحن على ما كان عليه آباؤنا . قال : فكيف صنع قومه ؟ قالوا : تبعه أحداثهم وقد لاقاه من خالفه من قومه وغيرهم من العرب فى مواطن ، مرة تكون عليهم الدائرة ومرة تكون له . قال : ألا تخبرونى إلى ماذا يدعو إليه ؟ قالوا : يدعونا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له ، ونخلع ما كان يعبد آباؤنا ، ويدعوا إلى الصلاة والزكاة . قال : وما الصلاة والزكاة ؟ ألها وقت يعرف وعدد تنتهي إليه ؟ قالوا : يصلون فى اليوم والليلة خمس صلوات كلها لمواقيت وعدد سموه له ، ويؤدون من كل ما بلغ عشرين مثقالا نصف مثقال ، وأخبروه بصدقة الأموال كلها . قال : أفرأيتم إذا أخذها أين يضعها ؟ قالوا : يردها على فقرائهم ، ويأمر بصلة الرحم ، ووفاء العهد وتحريم الزنا والخمر ، ولا يأكل مما ذبح لغير الله فقال المقوقس : هذا نبى مرسل إلى الناس ، ولو أصاب القبط والروم اتبعوه ، وقد أمرهم بذلك عيسى ابن مريم ، وهذا الذى تصفون منه بعث به الأنبياء من قبله ، وسيكون له العاقبة حتى لا ينازعه أحد ، ويظهر إلى منتهى الخف والحافر ومنقطع البحور ، ويوشك قومه أن يدافعوه بالراح . قالوا : فلو دخل الناس كلهم معه ما دخلناه ، قال المغيرة : فأنغض المقوقس رأسه وقال : أنتم فى اللعب ، ثم قال : كيف نسبه فى قومه ؟ قلنا : هو أوسطهم نسباً . قال : كذلك والمسيح ، الأنبياء تبعث فى نسب قومها ، ثم قال : فكيف صدق حديثه ؟ قال : قلنا

: ما يسمى إلا الأمين من صدقه ، قال : انظروا فى أمركم أترونه يصدق فيما بينكم وبينه ويكذب على الله . قال : فمن تبعه ؟ قلنا : الأحداث . قال : هم والمسيح أتباع الأنبياء قبله . قال : فما فعلت يهود يثرب فهم أهل التوراة ؟ قلنا : خالفوه فأوقع بهم فقتلهم وسباهم وتفرقوا فى كل ناحية . قال : هم قوم حسدة حسدوه ، أما إنهم يعرفون من أمره مثل ما نعرف ؟ قال المغيرة : فقمنا من عنده وقد سمعنا كلاماً ذللنا لمحمد صلى الله عليه وسلم وخضعنا له ، قلنا : ملوك العجم يصدقونه ويخافونه فى بعد أرحامهم منه ، ونحن أقرباؤه وجيرانه ولم ندخل معه ، وقد جاءنا داعياً إلى منازلنا . قال المغيرة : فرجعت إلى منزلنا فأقمت بالإسكندرية لا أدع كنيسة إلا دخلتها وسألت أساقفتها من قبطها ورومها عما يجدون من صفة محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان أسقف من القبط هو رأس كنيسة يوحنس ، كانوا يأتونه بمرضاهم فيدعو لهم لم أر قط أشد اجتهاداً منه فأتيته فقلت : هل بقى أحد من الأنبياء ؟ قال : نعم ، هو آخر الأنبياء ليس بينه وبين عيسى ابن مريم أحد ، وهو نبى مرسل وقد أمرنا عيسى باتباعه ، وهو النبى الأمى العربى اسمه أحمد ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، فى عينيه حمرة ، وليس بالأبيض ولا بالأدم ، يعفى شعره ، ويلبس ما غلظ من الثياب ، ويجتزى بما لقى من الطعام ، سيفه على عاتقه ، ولا يبالى بمن لاقى ، يباشر القتال بنفسه ، ومعه أصحابه يفدونه بأنفسهم ، هم له أشد حباً من أولادهم وآبائهم ، يخرجهم من أرض حرم ويأتى إلى حرم ، يهاجر إلى أرض سباخ ونخل ، يدين بدين إبراهيم عليه السلام . قال المغيرة : فقلت له : زدنى فى صفته . قال : يأتزر على وسطه ، وغسل أطرافه ، ويخص بما لا تخص به الأنبياء قبله ، وكان النبى يبعث إلى قومه ، ويبعث هو إلى الناس كافة ، وجعلت له الأرض مسجدا وطهوراً ، أينما أدركته الصلاة تيمم وصلى ومن كان قبله كان مشدداً عليهم لا يصلون إلا فى الكنائس والبيع . قال المغيرة بن شعبة : فوعيت ذلك كله من قوله

وقول غيره ، وما سمعت من ذلك .

فذكر الواقدى حديثاً طويلا فى رجوعه وإسلامه ، وما أخبر بـه من صفات النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك مما يعجب النبى صلى الله عليه وسلم ، ويحب أن يسمعه أصحابه . قال المغيرة : فكنت أحدثهم بذلك ، وهذا أمر معروف عند علماء أهل الكتاب وعظمائهم .

وقد أخرج أبو حاتم فى صحيحه عن عمرو بن العاص أنه قال : (١) خرج جيش من المسلمين - أنا أميرهم - حتى نزلنا الإسكندرية ، فقال عظيم من عظمائهم : أخرجوا إلى رجلا يكلمنى وأكلمه . فقلت : لا يخرج إليه غيرى . قال : فخرجت إليه ومعى ترجمانى ومعه ترجمانه . فقال : ما أنتم ؟ فقلت : نحن العرب ، ونحن أهل الشوك ، ونحن أهل بيت الله الحرام ، كنا أضيق الناس أرضاً ، وأجهدهم عيشاً نأكل الميتة والدم . يغير بعضنا على بعض ، حتى خرج فينا رجل ليس بأعظمنا يومئذ ، ولا بأكثرنا مالا ، فقال : أنا رسول الله إليكم ، فأمرنا بما لا نعرف ، ونهانا عما كنا عليه ، وكان عليه آباؤنا ، فكذبناه ، ورددنا عليه مقالته ، حتى خرج إليه قوم غيرنا ، فقاتلنا وظهر علينا وغلبنا وتناول من يليه من العرب فقاتلهم حتى ظهر عليهم ولو يعلم من ورائى من العرب ما أنتم فيه من العيش لم يبق أحد إلا جاءكم حتى يشارككم فيما أنتم فيه من العيش فضحك ، ثم قال : إن رسولكم قد صدق ، قد جاءتنا رسلنا بمثل الذى جاء به رسولكم ، فإن أنتم أخذتم بأمر نبيكم لم يقاتلكم أحد إلا غلبتموه ، ولن يشارككم أحد إلا ظهرتم عليه ، وإن فعلتم مثل الذى فعلنا وتركتم أمر نبيكم ، لم تكونوا أكثر عدداً منا ولا أشد منا قوة .

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (١٤/٥٢٢:٥٢٣ح٦٥٦٤)
ورواه الطبرى أيضًا كما فى مجمع الزوائد (٦/٢١٨) وقال الهيثمى: « وفيه محمد بن عمرو بن علقمة ، وهو حسن الحديث ، وبقية رجاله ثقات » قلت : محمد بن عمرو مختلف فيه !!

فصـــل

ثم بعد الإرسال إلى الملوك ، أخذ صلى الله عليه وسلم فى غزو النصارى ، فأرسل أولا زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى طالب ، وعبد الله بن رواحة فى جيش ، فقاتلوا النصارى بمؤتة من أرض الكرك وقال لأصحابه (١) « أميركم زيد ، فإن قتل فجعفر ، فإن قتل ، فعبد الله بن رواحة » فقتل الثلاثة ، وأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بقتل الثلاثة فى اليوم الذى قتلوا فيه ، وأخبر أنه أخذ الراية خالد بن الوليد ، ففتح الله علي يديه ، ثم إنه بعد هذا غزا النصارى بنفسه وأمر جميع المسلمين أن يخرجوا معه فى الغزاة ، ولم يأذن فى التخلف عنه لأحد ، وغزا فى عشرات ألوف غزوة تبوك ، فقدم تبوك ، وأقام بها عشرين ليلة ليغزو النصارى ، عربهم ورومهم وغيرهم ، وأقام ينتظرهم ليقاتلهم فسمعوا به وأحجموا عن قتاله ، ولم يقدموا عليه وأنزل الله تعالى فى ذلك أكثر سورة براءة ، وذم تعالى الذين تخلفوا عن جهاد النصارى ذماً عظيماً ، والذين لم يروا جهادهم طاعة جعلهم منافقين كافرين ، لا يغفر الله لهم إذا لم يتوبوا ، وقال لنبيه صلي الله عليه وسلم : ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ﴾ [سورة المنافقون : ٦].

وقال تعالى : ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره ﴾ ، [سورة التوبة : ٨٤] .

فإذا كان هذا حكم الله ورسوله فيمن تخلف عن جهادهم إذ لم يره طاعة ولا يراه واجباً ، فكيف حكمه فيهم أنفسهم ؟ حتي قال تعالى : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون

---

(١) رواه البخارى فى كتاب « المغازى » باب « غزوة مؤتة من أرض الشام (٧/٥٨٣ح٤٢٦١) من حديث «ابن عمر»

وقد ورد هذا الحديث من رواية عبد الله بن جعفر وأبى قتادة

كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ﴾ ، [سورة التوبة : ١٤] .

ثم عند موته صلى الله عليه وسلم أمرنا بإخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب ، ففى صحيح مسلم أن عمر بن الخطاب قال : سمعت رسول الله صلى اله عليه وسلم يقول : (١) « لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلماً » .

وروى الإمام أحمد ، وأبو عبيد عن أبى عبيدة بن الجراح - رضى الله عنه - قال : (٢) آخر ما تكلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أخرجوا يهود أهل الحجاز ، ونصارى أهل نجران من جزيرة العرب » وقام خلفاؤه - رضى الله عنهم - بعده بدينه صلى الله عليه وسلم ، فأرسل أبو بكر الصديق الجيوش لغزو النصارى بالشام ، وجرت بين المسلمين وبينهم عدة غزوات ، ومات أبو بكر وهم محاصرون دمشق ، ثم ولى عمر بن الخطاب ففتح عامة الشام ومصر والعراق وبعض خراسان فى خلافته ، وقدم إلى الشام فى خلافته ، وسلم إليه النصارى بيت المقدس لما رأوه من صفته عندهم .

قال أبو عبد الله محمد بن عائذ ، فى كتاب الفتوح قال : قال عطاء الخراسانى : (٣) لما نزل المسلمون بيت المقدس قال لهم رؤساؤهم : إنا قد أجمعنا

---

(١) « صحيح »

رواه مسلم فى « كتاب الجهاد» «باب» «إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب »(١٣٨٨/٣ح ١٧٦٧)

ورواه أبو داود فى« كتاب الإمارة» « باب »إخراج اليهود من جزيرة العرب (٢٧٧/٨ح٣٠١٤)

ورواه الترمذى فى كتاب « السير « باب» فى إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب (٢٣٠/٥، ٢٣١ح١٦٥٦)

ورواه النسائى فى الكبرى فى « كتاب السير » «باب» إجلاء أهل الكتاب (٢١٠/٥ح٨٦٨٦)

(٢) رواه أحمد (١٩٥/١، ١٩٦) ورواه أبوعبيد فى الأموال (ص٤٨ح٢٧٦)

(٣) انظر البداية والنهاية (٥٥/٧، ٥٦)

لمصالحتكم وقد عرفتم منزل بيت المقدس ، وإنه المسجد الذى أسرى بنبيكم إليه ونحن نحب أن يفتحها ملككم - وكان الخليفة عمر بن الخطاب - فبعث المسلمون وفداً ، وبعث الروم أيضاً وفداً مع المسلمين حتى أوتوا المدينة ، فجعلوا يسألون عن أمير المؤمنين ، فقال الروم لترجمانهم : عمن يسألون ؟ قالوا : عن أمير المؤمنين ، فاشتد عجبهم وقالوا : هذا الذى غلب فارس والروم ، وأخذ كنوز كسرى وقيصر ، وليس له مكان يعرف به بهذا غلب الأمم ، فوجدوه قد ألقى نفسه حين أصابه الحر نائما ، فازدادوا تعجباً ، فلما قرأ كتاب أبى عبيدة أقبل حتى نزل بيت المقدس وفيها اثنى عشر ألفاً من الروم وخمسون ألفاً من أهل الأرض فصالحهم ، وكان من جملة المصالحة أن لا يدخل عليهم من اليهود أحد ، ثم دخل المسجد فوجد زبالة عظيمة على الصخرة ، فأمر بكنس الزبالة ، وتنظيف المسجد وأمر ببنائه وجعل مصلاه فى مقدمه ، ثم رجع إلى المدينة ، وقصته مشهورة فى كتاب الفتوحات ، ثم قدم مرة ثانية إلى أرض الشام لما تم فتحه فشارط بوضع الخراج ، وفرض الأموال ، وشارط أهل الذمة على شروط المسلمين فأتم بها المسلمون بعده .

وقد ذكرها أهل السير وغيرهم ، فروى سفيان الثورى عن مسروق عن عبد الرحمن بن غنم قال (١) : كتبت لعمر بن الخطاب - رضى الله عنه - حين صالح نصارى الشام وشرط عليهم فيه أن لا يحدثوا فى مدينتهم ولا محاولها ديراً ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب ، ولا يجددوا ما خرب ، ولا يمنعوا كنائسهم أن ينزلها أحد المسلمين ثلاث ليال يطعمونهم ، ولا يؤووا جاسوساً ، ولا يكتموا غشاً للمسلمين ، ولا يعلموا أولادهم القرآن ، ولا يظهروا شركا ، ولا يمنعوا ذوى قرابتهم من الإسلام إن أرادوه ، وأن يوقروا المسلمين ، وأن يقيموا لهم إذا أرادوا الجلوس ، ولا يتشبهوا بالمسلمين بشئ من لباسهم فى قلنسوة ولا عمامة ، ولا نعلين ، ولا فرق شعر ، ولا

(١) أخرجه أبو داود في سننه .

يتسموا بأسماء المسلمين ، ولايكتنوا بكناهم ، ولا يركبوا سرجاً ، ولا يتقلدوا سيفاً ولا يتخذوا شيئاً من سلاح ، ولاينقشوا اخواتيمهم بالعربية ، ولا يبيعوا الخمور ، وأن يجزوا مقادم رؤوسهم ،وأن يلزموا زيهم حيث ما كانوا ، وأن يشدوا الزنانير ولا يجاوروا المسلمين بموتاهم ، ولا يضربوا الناقوس إلا ضرباً خفيفاً ، ولا يرفعوا أصواتهم بالقراءة فى كنائسهم فى شئ من حضرة المسلمين ، ولا يخرجوا سعانين ولا يرفعوا مع موتاهم أصواتهم ، ولا يظهروا النيران معهم ، ولا يشتروا من الرقيق ما جرت عليه سهام المسلمين ، فإن خالفوا في شئ مما شرطوه ، فلا ذمة لهم وقد حل للمسلمين منهم ما يحل من أهل المعاندة والشقاق .

وقال أبو عبيدة فى كتاب الأموال : (١) حدثنا النضربن إسماعيل عن عبد الرحمن ابن إسحق عن حليفة بن قيس قال : كان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يأمر فأكتب إلى أهل الأمصار فى أهل الكتاب أن يجزوا نواصيهم ، وأن يربطوا الكستنجات فى أوساطهم لعرف زيهم من زى أهل الكتاب .

وحدثنا أبو المنذر ومصعب بن المقدام كلاهما عن سفيان عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن أسلم قال : (٢) كتب عمر إلى أمراء الأجناد أن يختموا رقاب أهل الذمة .

قال أبو عبيد : حدثنا عبد الرحمن عن عبد الله بن عمر عن نافع عن أسلم (*) أن عمر أمر أهل الذمة أن يجزوا نواصيهم ، وأن يركبوا على الأكف ، وأن يركبوا عرضاً لا يركبوا كما يركب المسلمون ، وأن يوثقوا المناطق .

---

(١) ورواه أبو عبيد الأموال (ص٣٠ح١٣٨)

(٢) رواه أبو عبيد فى الأموال (ص٣٠ ح ١٣٦)

رواه أبو عبيد فى الأموال (ص٣٠ح١٣٧)

وفيه عبد الله عمر (المكبر) ضعيف

قال أبو عبيد : يعنى الزنانير .

ولما كتب عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أهل الذمة هذه الشروط والتزموها ، أوصى بهم نوابه ومن يأتي بعده من الخلفاء وغيرهم ، وهذا هو العدل الذى أمر الله به رسوله .

ففي صحيح البخارى عن عمر بن الخطاب أنه قال فى خطبته عند وفاته : (١) وأوصى الخليفة من بعدى بذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا إلا طاقتهم ، وهذا امتثال لقول النبى صلى الله عليه وسلم : (٢) « ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه من حقه أو كلفه فوق طاقته ، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس ، فأنا حجيجه يوم القيامة » فكان هذا فى النصارى الذين أدوا إليه الجزية .

عمر بن الخطاب لما فتح الشام وأدوا إليه الجزية عن يد وهم صاغرون أسلم منهم خلق كثير لا يحصى عددهم إلا الله تبارك وتعالى ، فإن العامة والفلاحين وغيرهم كان عامتهم نصارى ، ولم يكن فى المسلمين من يعمل فلاحة ولم يكن للمسلمين فى دمشق مسجد يصلون فيه إلا مسجد واحد لقلتهم ، ثم صار أكثر أهل الشام وغيرهم مسلمين طوعاً لا كرهاً ، فإن إكراه أهل الذمة على الإسلام غير جائز ، كما قال تعالى

---

(١) رواه البخارى فى كتاب «الجنائز » باب « ما جاء فى قبر النبى صلى الله عليه وسلم (٣/٣٠١ح١٣٩٢)

رأعاده فى مواضع (ح٣٠٥٢، ٣١٦٢، ٣٧٠٠، ٤٨٨٨، ٧٢٠٧) ، وعزاه المزى فى تحفة الأشراف (٨/٩٦ح١٠٦١٨) إلى النسائى فى سننه الكبرى

(٢) «صحيح »

رواه أبو داود فى كتاب « الإمارة » باب« فى تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارة(٨/٣٠٤ح ٣٠٣٦) وانظر « صحيح أبى داود » (٢/٥١٢ح٢٦٢٦) للألبانى

﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى * فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم * الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٥ - ٢٥٧] .

قال أبو عبيد فى كتاب الأموال عن ابن الزبير قال : (١) كتب النبى صلى الله عليه وسلم إلى أهل اليمن أنه من أسلم من يهودى أو نصرانى ، فإنه من المؤمنين ، له مالهم وعليه ما عليهم ، ومن كان على يهودية أو نصرانية ، فإنه لا يفتن عنها وعليه الجزية .

فصل

وقاتل عمر بن الخطاب الفرس والمجوس ، وفتح أرضهم ، وظهر تصديق خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : (٢) « إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله عز وجل »

---

(١) رواه أبو عبيد فى الأموال (ص١٩ ح٦٦) عن عروة بن الزبير مرسلاً والحديث فيه عبد الله بن لهيعة وفيه ضعيف

(٢) «متفق عليه » من رواية أبى هريرة

رواه البخارى فى كتاب « الجهاد والسير « باب » الحرب خدعة » (١٨٢/٦ ح٣٠٢٧)

ورواه أيضًا برقم (٣١٢٠، ٣٦١٨، ٦٦٣٠) [ورواه مسلم فى كتاب « الفتن » باب « لاتقوم الساعة حتى يمر الرجل بغير الرجل ...» (٢٢٣١/٤ ح٢٩١٨)

ورواه الترمذى فى كتاب « الفتن » باب» ما جاء إذا ذهب كسرى فلا كسرى بعده «

(٤٦٢/٦ ح٢٣١٣) وقال هذا حديث حسن صحيح «

وقد ورد الحديث من طريق جابر بن سمرة أيضًا رواه البخارى ومسلم

وهذا ، بعد أن بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رسوله إلى المجوس ، وكتب كتابا إلى كسرى ملك الفرس ، كما كتب إلى ملوك النصارى كما تقدم عن قيصر والمقوقس ، لكن ملوك النصارى تأدبوا معه وخضعوا له فبقى ملكهم ، وأما ملك الفرس فمزق كتابه فدعا عليهم فقال : « اللهم مزق ملكهم كل ممزق » فلم يبق لهم ملك .

قال ابن عباس : (١) بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن حذافة بكتابه إلى كسرى يدفعه إلى عظيم البحرين ، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى ، فلما قرأه - يعنى كسرى - مزقه فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمزقوا كل ممزق .

وقال ابن إسحاق : كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر ، فأما كسرى : فلما قرأ الكتاب مزقه ، وأما قيصر : فلما قرأ الكتاب طواه ووضعه عنده ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أما هؤلاء - يعنى كسرى - فيمزقون ، وأما هؤلاء ، فستكون لهم بقية » .

قال ابن إسحاق : (٢) بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن حذافة ابن قيس السهمى إلى كسرى بن هرمز ملك الفرس وكتب :

(١) رواه البخارى فى كتاب « العلم » باب « ما يذكر فى المناولة ...» (١/١٨٥ح٦٤)
ورواه أيضاً برقم (٢٩٣٩، ٤٤٢٤، ٧٢٦٤)
ورواه أحمد (١/٢٤٣، ٣٠٥)
وأبو نعيم فى الدلائل (٢/٤٤٩، ٤٥٠ح٢٤١)
ورواه أبو عبيد فى كتاب الأموال (ص١٧ ح٥٨)
ورواه البيهقى فى « الدلائل (٤/٣٩٤) بإسنادهما عن عمير بن إسحاق
(٢) رواه ابن جرير فى « تاريخه » (٢/٦٥٤، ٦٥٥) ، طبعة المعارف وانظر البداية والنهاية (٤/٢٦٩)

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله ، إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى ، آمن بالله ورسوله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، فإنى أدعوك بدعاية الله ، فإنى رسول الله إلى الناس كافة ؛ لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، فأسلم تسلم وإن أبيت ، فإن إثم المجوسية عليك » .

فلما قرأ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم شققه وقال : يكتب إلى بهذا الكتاب وهو عبدى ؟

قلت : وسبب قول كسرى هذا واستعلائه : أن الحبشة كانوا قد ملكوا اليمن ، وملكهم سار إلى مكة بالفيل ليخرب البيت وكانوا نصارى ، فأرسل الله عليهم من ناحية البحر طيراً أبابيل ، وهى جماعات فى تفرقة ، تحمل حجارة من طين ، فألقتها على الحبشة النصارى فأهلكتهم ، وكان هذا آية عظيمة خضعت بها الأمم للبيت وجيران البيت ، وعلم العقلاء أن هذا لم يكن نصراً من الله لمشركى العرب ، فإن دين النصارى خير من دينهم ، وإنما كان نصراً للبيت وللأمة المسلمة التى تعظمه وللنبى المبعوث من البيت ، وكان ذلك عام مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله فى ذلك : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل * ألم يجعل كيدهم فى تضليل . وأرسل عليهم طيراً أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصف مأكول ﴾ ، [سورة الفيل] .

ثم إن سيف بن ذى (١) يزن ذهب إلى كسرى ، وطلب منه جيشاً يغزو

---

(١) انظر سيرة هشام (١/١٠٥-١٠٧) ، والبداية والنهاية « لابن كثير (٢/١٧٧،١٧٨) وهو مقبول كما قال الحافظ فى « التقريب » أى ضعيف إلا أن يتابع وهو غير محمد بن إسحاق صاحب السيرة الذى يوحى به قول شيخ الإسلام ابن تيمية

به الحبشة ، فأرسل معه عسكراً من الفـرس المجوس ، فأخرجوا الحبشة من اليمن ، وصارت اليمن بيد العرب ، وبها نائب كسرى ، وسيف بن ذى يزن هذا ، (١) ممن بشر بالنبى صلى الله عليه وسلم قبل ظهوره ، وأخبر بذلك جده عبد المطلب لما وفد عليه .

فلما كانت اليمن مطيعة لكسرى ، لهذا أرسل إلى نائبه باليمن أن يأتيه بالنبى صلى الله عليه وسلم ؛ لأن عسكر اليمن فى العادة يقهر أهل مكة والمدينة .

قال ابن إسحاق : (٢) فبلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مزق الله ملكه » حين بلغه أنه شقق كتابه .

ثم كتب (٣) كسرى إلى باذان ، وهو على اليمن أن ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز من عندك رجلين جلدين فليأتيانى به . قال : فبعث باذان قهرمانه ، وهو بانويه . وقال غيره : فيروز الديلمى ـ وكان حاسباً كاتباً ـ وبعث معه برجل من الفرس ، وكتب معهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى ، وقال لبانويه :ويلك ، انظر ما الرجل وكلمه وائتنى بخبره .

قال : فخرجا حتى قدما إلى الطائف ، فسألا عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : هو بالمدينة واستبشروا ـ يعنى الكفار ـ وقالوا : قد نصب له كسرى كفيتم الرجل ، فخرجا حتى قدما المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكلمه بانويه ، فقال : إن شاهنشاه ملك الملوك كسرى كتب إلى الملك باذان يأمره أن

---

(١) انظر البداية والنهاية (٢/٣٢٨: ٣٤٠)

(٢) ورواه الطبرى فى « تاريخه » (٢/٦٥٥) وأبو نعيم فى « الدلائل » (٢/٤٥١)

(٣) رواه الطبرى فى « تاريخه » (٢/٦٥٥: ٦٥٧)

وأبو نعيم فى «الدلائل» (٢/٤٥١ـ ٤٥٣)

وانظر البداية والنهاية لابن كثير (٤/٢٦٩، ٢٧٠)

يبعث إليك من يأتيه بك ، وقد بعثني إليك فانطلق معى ، فإن فعلت كتبت معك إلى ملك الملوك بكتاب ينفعك ويكف عنك به ، وإن أبيت فهو من قد علمت وهو مهلكك ومهلك قومك ومخرب بلادك ، وكانا قد دخلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانا قد حلقا لحاهما ، وأبقيا شواربهما ، فكره النظر إليهما رسول الله صلى الله عليه سلم ، وقال لهما : « ويلكما من أمركما بهذا ؟ قالا : أمرنا بهذا ربنا - يعنيان كسرى - فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : لكن ربى عز وجل أمرنى بإعفاء لحيتى وبقص شاربى ، ثم قال لهما : ارجعا حتى تأتيانى الغد »

قال : وجاء الخبر من السماء ، أن الله عز وجل سلط على كسرى ولده شيرويه ، فقتله فى شهر كذا ، فى ليلة كذا، فى ساعة كذا ؛ فلما أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهما :(١) « إن ربى قتل ربكما ليلة كذا ، فى شهر كذا ، بعد ما مضى من الليل كذا ، سلط عليه ابنه شيرويه فقتله ، فقالا له : هل تدرى ما تقول ؟ إنا قد نقمنا منك ما هو أيسر من هذا فنكتب بهذا عنك ، ونخبر الملك به . قال نعم ، أخبراه ذلك عنى وقولا له : إن دينى وسلطانى سيبلغ ما بلغ ملك كسرى ، وينتهى إلى المنتهى الخف والحافر ، وقولا له : إنك إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك ، وملكتك على قومك من الأبناء » ، وأعطى رفيقه منطقة من ذهب وفضة ، كان أهداها له بعض الملوك ، فخرجا من عنده حتى قدما على باذان وأخبراه الخبر .

فقال : والله ما هذا بكلام ملك ، وإنى لأرى الرجل نبيًا كما يقول ، ولننظرن ما

---

(١) رواه أحمد (٤٣/٥) والطبرى فى تاريخه » (٦٥٦/٢)

والبيهقى فى الدلائل (٣٩٠/٤)

وأبو نعيم فى الدلائل (٤٤٩/٢)

وانظر البداية والنهاية « لابن كثير » (٢٧٠/٤)

وانظر « الصحيحة »(٤١٤/٣ : ٤١٦ ح ١٤٢٩)

قد قال ، فلئن كان ما قد قال حقًا ما بقى فيه كلام إنه لنبى مرسل ، وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا ، فلم يلبث باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه :أما بعد ، فإنى قد قتلت كسرى ولم أقتله إلا غضبًا لفارس لما كان قد استحل من قتل أشرافهم وتجهيزهم فى بعوثهم ، فإذا جاءك كتابى هذا فخذ لى الطاعة ممن قبلك ، وانظر الرجل الذى كان كسرى كتب إليك فيه ، فلا تهجه حتى يأتيك أمرى فيه فلما انتهى الكتاب - كتاب شيرويه - إلى باذان قال إن هذا الرجل لرسول الله ، وأسلم لله وأسلمت أبناء فارس من كان منهم باليمن .

وقال أبو معشر : حدثنى المقبر قال : جاء فيروز الديلمى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال إن كسرى كتب إلى باذان بلغنى أن فى أرضك رجلا تنبأ تنبؤًا فاربطه وابعث به إلى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن ربى غضب على ربك فقتله فدمه بنحره سخن الساعة » فخرج من عنده فسمع الخبر فأسلم وحسن إسلامه ، وكان رجلا صالحًا ، له فى الإسلام آثار جميلة منها : قتل الأسود العنسى الكذاب ، الذى ادعى النبوة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان الأسود جبارًا ، استدعى بأبى مسلم الخولانى فقال له : (١) أتشهد أنى رسول الله ؟ فقال أبو مسلم : ما أسمع ؛ فقال له : أتشهد أن محمدًا رسول الله ؟ قال : نعم ، فردد ذلك عليه مرارًا ، فأمر بنار عظيمة فأضرمت ، ثم أمر بإلقاء أبى مسلم فيها فلم تضره ، فأخمدها الله تعالى حين ألقى فيها ، فقيل له :أخرج هذا عنك من أرضك لئلا يفسد عليك أتباعك » فأخرجه .

فقدم أبو مسلم المدينة وقد توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستخلف أبو بكر ، فأناخ راحلته بباب المسجد ، ثم دخل المسجد فقام يصلى إلى سارية فبصر به عمر فقام إليه ، ممن الرجل ؟ قال : من أهل اليمن ، قال : ما فعل الذى حرقه الكذاب ؟ قال : ذلك عبد الله بن ثوب . قال نشدتك بالله آأنت هو ؟ قال : اللهم

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير (٢٦٦/٦، ٢٦٧) وعزاه لابن عساكر .

نعم ، فاعتنقه ثم بكى ، ثم ذهب به حتى أجلسه بينه وبين أبى بكر ، فقال : الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أرانى فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم من فعل به كما فعل بإبراهيم خليل الرحمن ، ثم خرج فيروز الديلمى على الأسود العنسى فقتله ، وجاء الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله وهو فى مرض موته ، فخرج فأخبر أصحابه بذلك ، وقال (١) « قتل الأسود العنسى الليلة ، قتله رجل صالح من قوم صالحين » وقصته مشهورة . وكذلك قصة مسيلمة الكذاب ، ونحوهما من المتنبئين الكذابين .

فصل

ولما فتح خلفاء النبى صلى الله عليه وسلم : عمر وعثمان العراق وخراسان ضربوا الجزية على المجوس ، كما ضربوها على النصارى بعد أن دعوهم إلى الإسلام ، كما دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكما ضرب النبى صلى الله عليه سلم الجزية على اليهود والنصارى والمجوس بعد أن دعاهم إلى الله عز وجل ، فإنه صلى الله عليه وسلم (٢) بعث العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن سارى العبدى صاحب هجر - وهى قرية بالبحرين - بكتابه صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام ، قال العلاء : فلما دخلت عليه قلت : يامنذر ، إنك عظيم العقل فى الدنيا ، فلا تصغرن عن الآخرة ، فإن هذه المجوسية شر دين ، ليس فيها تكرم العرب ، ولا علم أهل الكتاب ينكحون ما يستحى من نكاحه ، يأكلون ما تكرم عن أكله ، ويعبدون فى الدنيا ناراً تأكلهم يوم القيامة . ولست بعديم عقل ولا رأى ، فانظر هل ينبغى لمن لا يكذب أن تصدقه ؟ ولمن لا يخون أن تأمنه ؟ ولمن لا يخلف أن تثق به ؟ فإن كان هذا . هكذا فهذا هو النبى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمى الذى والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول : ليت ما أمره به نهى عنه ، وما نهى عنه أمر به ، أوليته

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير (٦/ ٣١٠)

(٢) ذكرها ابن إسحاق كما فى سيرة ابن هشام « ٤/ ٢٩٤)

زاد فى عفوه ، أو نقص من عقابه ، إن كل ذلك منه على أمنية أهل العقل وفكر أهل البصر .

فقال المنذر : قد نظرت فى هذا الذى فى يدى ، فوجدته للدنيا دون الآخرة ، ونظرت فى دينكم فوجدته للآخرة والدنيا ، فما يمنعنى من قبول دين فيه أمنية الحياة وراحة الممات ، ولقد عجبت أمس ممن يقبله ، وعجبت اليوم ممن يرده ، وإن من إعظام ما جاء به أن يعظم رسوله ، وسأنظر ، ثم أسلم المنذر وكتب إلى النبى صلى الله عليه وسلم بالإسلام والتصديق .

وقال عمر بن عوف : (١) بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة إلى البحرين فأتى بجزيتها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صالح أهل البحرين وأمر عليهم العلاء بن الحضرمى فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين ، فسمعت الأنصار بقدوم أبى عبيدة فوافوا صلاة الصبح مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما صلى بهم الفجر انصرف فتعرضوا له ، فتبسم النبى صلى الله عليه وسلم حين رآهم وقال : « أظنكم قد سمعتم أن أبا عبيدة قد جاء بشئ » ، قالوا : أجل يا رسول الله ، « قال : فأبشروا وأملوا ما يسركم ، فو الله لا الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتهم » .

وأخرج البخارى عن بجالة بن عبدة أنة قال : (٢) أتانا كتاب عمر بن الخطاب

---

(١) « متفق عليه »

رواه البخارى فى كتاب « الجزية » باب « الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب » (٢٩٧/٦، ٢٩٨ ح٣١٥٨) ، ورواه أيضاً برقم (٤٠١٥، ٦٤٢٥) ، ورواه مسلم فى كتاب « الزهد والرقائق » باب « (٢٢/٤، ٢٢٧٤ ح ٢٩٦١)

ورواه الترمذى فى كتاب « القيامة » باب» (١٦١/٧، ١٦٢ ح٢٥٨٠) وقال :هذا حديث صحيح

ورواه النسائى فى الكبرى فى كتاب « السير » باب « أخذ الجزية من المجوس » (٢٣٣/٥، ٢٣٤ ح٨٧٦٦) ، ورواه ابن ماجة فى كتاب « الفتن » باب « فتنة المال» (١٣٢٤/٢، ١٣٢٥ ح٣٩٩٧)

(٢) رواه البخارى فى كتاب « الجزية والموادعة » باب« الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب (٢٩٧/٦ ح٣١٥٦)

رواه أبو عبيد فى كتاب الأموال (ص ٢١ ح ٧٩) (وانظر ٨٠، ٨١)

رواه أبو عبيد الأموال (ص٢٢ ح ٨٤)

قبل موته بسنة : (فرقوا بين كل ذى محرم من المجوس) ولم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس ، حتى شهد عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها من مجوس هجر .

وقال ابن شهاب : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الجزية من مجوس هجر وأخذ عمر بن الخطاب الجزية من مجوس فارس ، وأخذها عثمان بن عفان من البربر .

قال ابن شهاب : أول من أعطى الجزية من أهل نجران فيما بلغنا ، وكانوا نصارى ، وقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الجزية من أهل البحرين وكانوا مجوساً ، ثم أدي أهل (أيله) وأهل (أذرح) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجزية فى غزوة تبوك ، وبعث خالد بن الوليد إلى أهل دومة الجندل فأسروا رئيسهم (أكيدر) فبايعوه على الجزية .

قال أبو عبيد : « الجزية مأخوذة من أهل الكتاب بالتنزيل ، ومن المجوس والبربر وغيرهم بالسنة »

فصل

وأخرج مسلم عن أنس: (١) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى كسرى وقيصر والنجاشى وإلى كل جبار ، يدعوهم إلى الله عز وجل - وليس بالنجاشى الذى نعاه لأصحابه فى اليوم الذى مات فيه وخرج بهم إلى المصلى فصف وصلى عليه - بل نجاشى آخر تملك بعده .وأخرج مسلم عن أبى هريرة أن

(١) رواه مسلم فى كتاب « الجهاد » باب « كتب النبى صلى الله عليه وسلم إلى ملوك الكفار ...» (١٣٩٧/٣ح١٧٧٤)

ورواه الترمذى فى كتاب « الاستئذان » باب « فى مكاتبة المشركين (٧ /٤٩٩ح ٢٨٥٩)

ورواه النسائى فى الكبرى فى كتاب « السير » باب«الكتاب إلى أهل الحرب » (٢٦٦/٥ح٨٨٤٧)

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (١) « فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، وأرسلت إلى الناس كافة ، وختم بى النبيون» ؟

وقال صلى الله عليه وسلم : (٢) « كان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » .

وقال تعالى: ﴿ قل ياأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعًا الذى له ملك السموات والأرض ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٥٨] .

وقال تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾ [سورة سبأ : ٢٨] .

وفى القرآن من دعوة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ومن دعوة المشركين وعباد الأوثان ، وجميع الإنس والجن ما لا يحصى إلا بكلفة ، وهذا كله معلوم بالاضطراد من دين الإسلام ، فكيف يقال : إنه لم يذكر أنه بعث إلا إلى العرب خاصة وهذه دعوته ورسله وجهاده لليهود والنصارى والمجوس بعد المشركين ،

---

(١) رواه مسلم فى « المساجد » (٣٧١ح ٥٢٣)

ورواه الترمذى فى كتاب « السير » باب « ما جاء فى الغنيمة (٥/١٦٠:١٦١ح١٥٩٤) وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح »

وروى ابن ماجة بعضه فى كتاب « الطهارة » باب « ماجاء فى السبب » (١/١٨٨ح٥٦٧) ورواه أحمد (٢/٤١٢)

(٢) متفق عليه من حديث جابر

رواه البخارى فى كتاب « التيمم » (١/٥١٩ح٣٣٥)

وأعاده فى مواضع (ح٤٣٨،٣١٢٢)ورواه مسلم فى كتاب المساجد (١/٣٧٠:٣٧١ح٥٢١)

ورواه النسائى فى كتاب « الغسل والتيمم » باب « التيمم بالصعيد » (١/٢٠٩:٢١١)

ورواه أحمد (٣/٣٠٤)

وهذه سيرته صلى الله عليه وسلم فيهم ؟ .

وأيضًا فالكتاب المتواتر عنه - وهو القرآن - يذكر فيه دعاءه لأهل الكتاب إلى الإيمان به في مواضع كثيرة جدًا ، بل يذكر الله تبارك وتعالي فيه كفر من كفر من اليهود والنصارى ، ويأمر فيه بقتالهم كقوله تعالى ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئًا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعًا ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق مايشاء والله على كل شئ قدير ﴾ [سورة المائدة : ١٧]

وقوله في هذه السورة أيضًا ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يابني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار * لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم * أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم * ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون * قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرًا ولا نفعًا والله هو السميع العليم * قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرًا وضلوا عن سواء السبيل ﴾
[سورة المائدة : ٧٢ - ٧٧]

وقال تعالى في سورة النساء : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرًا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا * لن يستنكف المسيح أن يكون عبدًا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر

فسيحشرهم إليه جميعًا * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابًا أليمًا ولا يجدون لهم من دون الله وليًا ولا نصيرًا ﴾ ، [سورة النساء : ١٧١ - ١٧٣] .

وقال تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يَدٍ وهم صاغرون ﴾ ، [سورة التوبة : ٢٩] .

وقال تعالي : ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون * اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون * يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ ، [سورة التوبة ٣٠ - ٣٢] .

فصل

فهذه الدلائل وأضعافها مما تبين أنه نفسه صلى الله عليه سلم أخبر أنه رسول الله إلى النصارى وغيرهم من أهل الكتاب ، وأنه دعاهم وجاهدهم وأمر بدعوتهم وجهادهم ، وليس هذا مما فعلته أمته بعده بدعة ابتدعوها ، كما فعلت النصارى بعد المسيح عليه السلام ، فإن المسلمين لا يجوزون لأحد بعد محمد صلى الله عليه وسلم أن يغير شيئًا من شريعته، فلا يحلل ما حرم ، ولا يحرم ما حلل ، ولا يوجب ما أسقط ، ولا يسقط ما أوجب ، بل الحلال عندهم ما حلله الله ورسوله ، والحرام ما حرمه الله ورسوله ، والدين ما شرعه الله ورسوله ، بخلاف النصارى الذين ابتدعوا بعد المسيح بدعًا لم يشرعها المسيح عليه السلام ولا نطق بها شئ من الأناجيل ولا كتب الأنبياء المتقدمة ، وزعموا أن ما شرعه أكابرهم من الدين ،فإن المسيح يمضيه لهم وهذا موضع تنازع فيه الملل الثلاث المسلمون ، واليهود ،

والنصارى ، كما تنازعوا فى المسيح عليه السلام وغير ذلك .

فاليهود : لا يجوزون لله سبحانه وتعالى أن ينسخ شيئًا شرعه .

والنصارى : يجوزون لأكابرهم أن ينسخوا شرع الله بآرائهم .

وأما المسلمون : فعندهم أن الله له الخلق والأمر ، لا شرع إلا ما شرعه الله على ألسنة رسله ، وله أن ينسخ ما شاء كما نسخ بالمسيح ما كان شرعه للأنبياء قبله ، فالنصارى تضع لهم عقائدهم وشرائعهم أكابرهم بعد المسيح كما وضع لهم الثلاث مائة وثمانية عشر الذين كانوا فى زمن قسطنطين الملك الأمانة التى اتفقوا عليها ولعنوا من خالفها من الأريوسية وغيرهم ، وفيها أمور لم ينزل الله بها كتابًا ، بل تخالف ما أنزله الله من الكتب مع مخالفتها العقل الصريح فقالوا فيها : [نؤمن بإله واحد أب ضابط الكل خالق السموات والأرض كل ما يرى و ما لا يرى ، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور نور من نور الله ، واله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق مساوى الأب فى الجوهر الذى به كان كل شئ الذى من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء ، وتجسد من روح القدس ، ومن مريم العذراء وتأنس وصلب على عهد بيلاطس البنطى وتألم وقبر ، وقام فى اليوم الثالث كما فى الكتب وصعد إلى السماء ، وجلس عن يمين الأب ، وأيضًا فسيأتى بمجده ليدين الأحياء والأموات الذى لافناء لملكه ، وبروح القدس الرب المحيى المنبثق من الأب مع الأب والابن مسجود له وبمجد الناطق فى الأنبياء ، واعتقد بكنسية واحدة جامعة مقدسة رسولية ، واعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا وإرجاء قيامة الموتى وحياة الدهر الآتى آمين] ، ووضعوا لهم من القوانين والناموس مالم يوجد فى كتب الأنبياء ولا تدل عليه ، بل يوجد بعضه فى كتب الأنبياء وزاد أكابرهم أشياء من عندهم لا توجد فى كتب الأنبياء ، وغيروا كثيرًا مما شرعه الأنبياء ، فما عند النصارى من القوانين والنواميس التى هى الشرائع

دينهم ، فبعضه منقول عن الأنبياء ، وبعضه عن الحواريين ، وكثير منه ابتداع أكابرهم مع مخالفته لشرع الأنبياء ، فدينهم من جنس دين اليهود ، قد لبسوا الحق بالباطل ، وكان المسيح عليه السلام بعث بدين الله الذى بعث به الأنبياء قبله ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، والنهى عن عبادة كل ما سواه ، وأحل لهم بعض ما حرمه الله فى التوراة ، فنسخ بعض شرع التوراة ، وكان الروم واليونان وغيرهم مشركين يعبدون الهيا كل العلوية والأصنام الأرضية فبعث المسيح عليه السلام رسله يدعونهم إلى دين الله تعالى ، فذهب بعضهم فى حياته فى الأرض ، وبعضهم بعد رفعه إلى السماء ، فدعاهم إلي دين الله تعالى ، فدخل من دخل فى دين الله ، وأقاموا على ذلك مدة ، ثم زين الشيطان لمن زين له أن يغير دين المسيح ، فابتدعوا ديناً مركباً من دين الله ورسله ، ودين المسيح عليه السلام ، ومن دين المشركين ، وكان المشركون يعبدون الأصنام المجسدة التى لها ظل ، وهذا كان دين الروم واليونان ، وهو دين الفلاسفة أهل مقدونية وأفنيته كأرسطو وأمثاله من الفلاسفة المشائين وغيرهم ، وكان أرسطو قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة ، وهو وزير الإسكندر بن فيلبس اليونانى المقدونى التى تؤرخ له التاريخ الرومى من اليهود والنصارى وهذا كان مشركا يعبد هو وقومه الأصنام ، ولم يكن يسمى ذا القرنين ولا هو ذا القرنين المذكور فى القرآن ، ولا وصل هذا المقدونى إلى أرض الترك ولا بنى السد ، وإنما إلى بلاد الفرس . ومن ظن أن أرسطو كان وزير ذى القرنين المذكور فى القرآن فقد غلطا يتبين أنه ليس بعارف بأديان هؤلاء القوم ولا بأزمانهم . فلما ظهر دين المسيح عليه السلام بعد أرسطو بنحو ثلاثمائة سنة فى بلاد الروم واليونان . كانوا علي التوحيد إلى أن ظهرت فيهم البدع فصوروا الصور المرقومة فى الحيطان ـ جعلوا هذه الصور عوضا عن تلك الصور ـ وكان أولئك يسجدون للشمس والقمر والكواكب ، فصار هؤلاء يسجدون إليها إلى جهة المشرق التى تظهر منها الشمس والقمر والكواكب . وجعلوا السجود إليها بدلا من السجود لها . ولهذا جاء خاتم الرسل ـ

صلوات الله عليه وسلامه ـ الذى ختم به الرسالة ، وأظهر به من كمال التوحيد ما لم يظهره من قبله ؛ فأمر صلى الله صلى الله عليه وسلم أن لا يتحرى أحد بصلاته طلوع الشمس ولا غروبها ، لأن المشركين يسجدون لها تلك الساعة ؛ فإذا صلى الموحدون لله عز وجل فى تلك الساعة ؛ صار فى ذلك نوع مشابهة لهم ، فيتخذ ذريعة إلى السجود لها وكان من أعظم أسباب عبادة الأصنام تصوير الصور وتعظيم القبور ففى صحيح مسلم وغيره عن أبى الهياج الأسدى قال : (١) قال لى على بن أبى طالب « ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمرنى أن لا أدع قبراً مشرفًا إلا سويته ، ولا تمثالا إلا طمسته »

وفى الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال فى مرض موته : (٢) « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما فعلوا

وفى الصحيحين أنه قال قبل موته بخمس ليال (٣) : « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد وإنى أنهاكم عن ذلك »

---

(١) « صحيح »
رواه مسلم فى كتاب « الجنائز » باب « الأمر بتسوية القبر » (٦٦٦/٢،٦٦٧ح٩٦٩)
ورواه أبو داود فى « الجنائز » باب « فى تسوية القبر » (٣٥/٩،٣٦ح٣٢٠٢)
ورواه الترمذى في كتاب « الجنائز » باب « ما جاء فى تسوية القبر» (١٥٠/٤ح١٠٥٤)
وقال : فى الباب عن جابر
ورواه النسائى فى الكبرى فى كتاب « الجنائز » باب « تسوية القبور إذا رفعت » (٦٥٣/١ح٢١٥٨)
(٢) « متفق عليه » من رواية ابن عباس وعائشة
رواه البخاري في كتاب « الصلاة» باب (٥٥)(٦٣٣/١، ٦٣٤ ح ٤٣٥ ، ٤٣٦)
وأعاده برقم (٣٤٥٢، ٣٤٥٤، ٤٤٤٣ ، ٤٤٤٤ ، ٥٨١٥ ، ٥٨١٦)
(٣) صحيح من رواية « جندب بن عبدالله البجلى
رواه مسلم فى كتاب « المساجد » باب « النهى عن بناء المساجد على القبور » (٣٧٧/١،٣٧٨ح٣٥٢)
ورواه الطبرى فى الكبير (١٦٨/٢ح١٦٨٦) [وأبو عوانة (٤٠١/١)

ولما ذكـروا له الكنيسـة بأرض الحبشة وذكـــروا مـن حسنها وتصاوير فيها ، فقال (١) « إن أولئك كـانوا إذا مـات فيـهم الرجل الصـالح بنوا على قـبره مـسجـداً وصوروا تلك التصاوير ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » .

ونهى أن يستـقبل الرجل القـبر فى الصـلاة حـتى لا يتـشبـه بالمشـركين الذين يسجدون لـلقبور . ففى الصحـيح أنه قال : (٢) « لا تجلسـوا على القبـور ولا تصلوا إليها » إلى أمـثال ذلك مما فيه تجريد التـوحيد لله رب العالمين الذى أنزل الله به كـتبه وأرسل به رسلـه . فـأين هـذا ممن يصـور صـور المخلوقـين فى الكنائس ويعـظمـهـا ويستشفع بمن صورت على صـورته ، وهل كان أصل عبادة الأصنام فى بنى آدم من عهـد نوح عليه السـلام إلا هذا ! والصلاة إلى الـشمس والقـمر والكواكـب والسـجود إليها ذريعة إلى السجودلها ، ولم يأمر أحـد من الأنبياء باتخاذ الصور والاستشفاع بأصحابها ، ولا بالسجود إلى الشمس والقمر والكواكب ، وإن كان يذكر عن بعض الأنبـياء تصـوير صورة لمصلحـة ، فإن هذا مـن الأمور التى قـد تتنوع فيـها الشـرائع

---

(١) « متفق عليـه »

رواه البخارى فى كـتاب « الصلاة » باب « هل تنبش قبور مشـركى الجاهلية ويتخذ مكانهـا مساجد (١/٦٢٤ح٤٢٧)

ورواه أيضًا برقم (١٣٤١،٤٣٤)

ورواه مسلم فى كتاب « المساجد » «باب» النهى عن بناء المساجد على القبور (١/٣٧٥،٣٧٦ح٥٢٨)

ورواه النسـائى فى الكبرى فى كـتاب « المسـاجـد » باب النهى عن اتخاذ القـبور مـساجـد (١/٢٦٠ح ٧٨٣)

(٢) «صحيحَ من رواية كَنَّاز بن الحصين »

رواه مسلم فى الجنائز « باب » النهي عن الجلوس على القبر والصلاة عليه » (٢/٦٦٨ح٩٧٢)

ورواه أبو داود فى كتاب « الجنائز » باب « فى كراهية القصور على » (٩/٤٩ح ٩٧٢)

ورواه النسائى فى الكبرى فى كتاب الصلاة « باب» «النهى عن الصلاة إلى القبر » (١/٢٧٣ح٨٣٦)

بخلاف السجود لها والاستشفاع بأصحابها ، فإن هذا لم يشرعه نبى من الأنبياء ولا أمر قط أحد من الأنبياء أن يدعى غير الله عز وجل لا عند قبره ولا فى مغيبه ؛ ولا يتشفع به فى مغيبه بعد موته بخلاف الاستشفاع بالنبى صلى الله عليه فى حياته ويوم القيامة : وبالتوسل به بدعائه والإيمان به ، فهذا من شرع الأنبياء عليهم السلام ، ولهذا قال تعالى ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ ، [سورة الزخرف : ٤٥] .

وقال تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ ، [سورة الأنبياء : ٢٥] .

وقال تعالى ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ﴾ ، [سورة النحل : ٣٩] .

وقال تعالى ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ ، [سورة يونس : ١٨] .

وقال تعالى : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين * ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فى ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار* لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾ ، [سورة الزمر : ١ - ٤] .

وذلك أن المشركين من جميع الأمم لم يكن أحد منهم يقول : إن للمخلوقات خالقين منفصلين متماثلين فى الصفات ، فإن هذا لم تقله طائفة معروفة من بنى آدم لكن التنوية من المجوس ونحوهم يقولون : إن العالم صادر عن أصلين : النور

والظلمة ، والنور عندهم : هو إله الخير المحمود . والظلمة : هى الإله الشرير المذموم .

وبعضهم يقول : إن الظلمة هى الشيطان ، وهذا ليجعلوا ما فى العالم من الشر صادراً عن المظلمة ومنهم من قال : إن الظلمة قديمة أزلية مع أنها مذمومة عندهم ليست مماثلة للنور .

ومنهم من قال : بل هى حادثة ، وأن النور فكرة رديئة فحدثت الظلمة عن تلك الفكرة الرديئة .

فقال لهم أهل التوحيد : أنتم بزعمكم كرهتم أن تضيفوا إلى الرب سبحانه وتعالى خلق ما فى العالم من الشر ، وجعلتموه خالقًا لأصل الشر ، وهؤلاء مع إثباتهم اثنين وتسمية الناس لهم بالثنوية ، فهم لا يقولون : إن الشر مماثل للخير .

وكذلك الدهرية دهرية الفلاسفة وغيرهم ، منهم ، من ينكر الصانع للعالم ، كالقول الذى أظهره فرعون لعنه الله ، ومنهم من يقر بعلة بتحرك الفلك للتشبه بها كأرسطو وأتباعه ، ومنهم من يقول بالموجب بالذات المستلزم للفلك كابن سينا والسهروردى المقتول بحلب وأمثالهما من متفلسفة الملل .

وأما مشركو العرب و أمثالهم فكانوا مقرين بالصانع ، وبأنه خلق السموات والأرض ، فكانت عقيدة مشركى العرب خيراً من عقيدة هؤلاء الفلاسفة الدهرية ؛ إذ كانوا مقرين بأن هذه السموات مخلوقة لله حادثة بعد أن لم تكن ، وهذا مذهب جماهير أهل الأرض من أهل الملل الثلاثة : المسلمين ، واليهود ، والنصارى ، ومن المجوس والمشركين وهؤلاء الدهرية من الفلاسفة وغيرهم يزعمون أن السموات أزلية قديمة لم تزل ، وكان مشركو العرب يقرون بأن الله قادر يفعل بمشيئته ويجيب دعاء الداعى إذا دعاه ، وهؤلاء المتفلسفة الدهرية عندهم أن الله لا يفعل شيئًا بمشيئته ، ولا يجيب دعاء الداعى ، بل ولا يعلم الجزئيات ، ولا يعرف هذا الداعى من هذا

الداعى ، ولا يعرف إبراهيم من موسى من محمد وغيرهم بأعيانهم من رسله ، بل منهم من ينكر علمه مطلقًا كأرسطو وأتباعه ومنهم من يقول : إنما يعلم الكليات كابن سينا وأمثاله . ومعلوم : أن كل موجود فى الخارج فهو جزء معين ، فإن لم يعلم إلا الكليات لم يعلم شيئًا من الموجودات المعينة لا الأفلاك ولا الأملاك ولاغير ذلك من الموجودات بأعيانها ، والدعاء عندهم : هو تصرف النفس القوية فى هيول العالم كما ذكر ذلك ابن سينا وأمثاله ، وزعموا أن اللوح المحفوظ : هو النفس الفلكية ، وأن حوادث الأرض كلها إنما تحدث عن حركة الفلك ، كما قد بسط الرد عليهم فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا : أن المشركين لم يكونوا يثبتون مع الله إلهًا آخر مساويًا له فى الصفات والأفعال ، بل ولا كانوا يقولون : إن الكواكب والشمس والقمر خلقت العالم ، ولا أن الأصنام تخلق شيئًا من العالم ، ومن ظن أن قوم إبراهيم الخليل كانوا يعتقدون أن النجم أو الشمس أو القمر رب العالمين ، أو أن الخليل عليه السلام لما قال : ﴿ هذا ربى﴾ (سورة الأنعام : ٧٧) أراد به رب العالم ، فقد غلط غلطًا بينًا ، بل قوم إبراهيم كانوا مقرين بالصانع ، كانوا يشركون بعبادته كأمثالهم من المشركين ،قال الله تعالى عن الخليل : ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم * إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون * قالوا نعبد أصنامًا فنظل لها عاكفين * قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعوكم أو يضرون * قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون * قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدو لى إلا رب العالمين * الذى خلقنى فهو يهدين * والذى هو يطعمنى ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذى يميتنى ثم يحيين * والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين * رب هب لى حكمًا وألحقنى بالصالحين * واجعل لى لسان صدق فى الآخرين * واجعلنى من ورثة جنة النعيم * واغفر لأبى إنه كان من الضالين * ولا تخزنى يوم يبعثون * يوم لا ينفع ما ل ولا

بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم * وأزلفت الجنة للمتقين * وبرزت الجحيم للغاوين * وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون * من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون * فكبكبوا فيها هم الغاوون * وجنود إبليس أجمعون * قالوا وهم فيها يختصمون * تالله إن كنا لفى ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين * وما أضلنا إلا المجرمون * فما لنا من شافعين * ولا صديق حميم ﴾ ، [سورة الشعراء : ٦٩ - ١٠١] .

فأخبر تعالى الخليل أنه عدو لكل ما يعبدونه إلا لرب العالمين ، وأخبر عنهم أنهم يقولون يوم القيامة: : ﴿ تالله إن كنا لفى ضلال مبين ﴾ (سورة الشعراء: ٩٧) إذ نسويكم يعنى آلهتم ﴿ برب العالمين﴾ (سورة الشعراء: ٩٨)، فلم يكونوا جاحدين للصانع ، بل عدلوا به وجعلوا له أنداداً فى العبادة والمحبة والدعاء ، كما قال تعالى فى الموضع الآخر ﴿ وإذا قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون * إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين ﴾ ، [سورة الزخرف : ٢٦ - ٢٧]

ولهذا قال : وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفًا مسلما وما أنا من المشركين ، ولم يقل : من المعطلين ، فإن قومه كانوا يشركون ولم يكونوا معطلين كفرعون اللعين ، فلم يكونوا جاحدين للصانع ، بل عدلوا به وجعلوا له أنداداً فى العبادة والمحبة والدعاء ، وهذا كما قال تعالى : ﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ ، [سورة الأنعام : ١] .

وقال تعالى ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبًا لله ﴾ ، [سورة البقرة : ١٦٥]

وقال تعالى ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهًا آخر ﴾ ، [سورة الفرقان : ٦٨] .

وقال تعالى ﴿ فلا تدع مع الله إلهًا آخر فتكون من المعذبين ﴾ ، [سورة الشعراء :

٢١٣]».

وقال تعالى : ﴿ لا تجعل مع الله إلهًا آخر فتقعد مذمومًا مخذولا ﴾ ، [سورة الإسراء : ٢٢] .

وقال تعالى فيما حكاه عن قوم نوح : ﴿ وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودًا ولا سواعًا ولا يغوث ويعوق ونسرًا * وقد أضلوا كثيرًا ﴾ ، [سورة نوح : ٢٣ - ٢٤] .

قال ابن عباس وغيره من العلماء (١) : هؤلاء كانوا قومًا صالحين فى قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ثم عبدوها ، و هكذا عند النصارى عن المسيح عليه السلام فى كتاب « سر بطرس » الذى يسمى بشمعون ،وسمعان ، والصفا ، وبطرس ، والأربعة لمسمى واحد عندهم عنه كتاب عن المسيح فيه أسرار العلوم ، وهذا فيه عندهم عن المسيح ، فالذى تفعله النصارى أصل عبادة الأوثان ، وهكذا قال عالمهم الكبير الذى يسمونه فم الذهب وهو من أكبر علمائهم لما ذكر تولد الذنوب الكبار عن الصغار قال : وهكذا هجمت عبادة الأصنام فيما سلف لما أكرم الناس أشخاصًا يعظم بعضهم بعضًا فوق المقدار الذى ينبغى ، الأحياء منهم والأموات .

وقال تعالى ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا * أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورًا ﴾ [سورة الاسراء : ٥٦ - ٥٧] .

---

(١) انظر الدر المنثور للسيوطى (٦/٢٦٩)

قالت طائفة من العلماء (١) : كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء كالعزير والمسيح وغيرهما ، فبين الله تبارك وتعالى : أن هؤلاء عباده كما أنتم عباده ، يرجون رحمته كما ترجون رحمته ، ويخافون عذابه ، كما تخافون عذابه ، ويتقربون إليه كما تتقربون إليه ، وقال تعالى : ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب الحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون * ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ [سورة آل عمران : ٧٩ ، ٨٩] .

فبين الله تعالى : أن من اتخذ الملائكة والنبيين أرباباً فهو كافر مع اعتقاده أنهم مخلوقون ، فإنه لم يقل أحد قط : ان جميع الملائكة والنبيين مشاركون لله سبحانه وتعالى في خلق العالم ، وقد قال تعالى : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ ، [سورة يوسف : ١٠٦] قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : تسألهم من خلق السموات والأرض ؟ فيقولون (٢) : الله وهم يعبدون غيره ، وقد قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ ، [سورة لقمان :٢٥] فى غير موضع فأخبر تعالى عن المشركين أنهم كانوا يقرون بأن خالق العالم واحد مع اتخاذهم آلهة يعبدونهم من دونه سبحانه يتخذونهم شفعاء إليه أو يتقربون بهم اليه .

فصل

وكذلك تعظيمهم للصليب ، واستحلالهم لحم الخنزير ، وتعبدهم بالرهبانية ، وامتناعهم من الختان ، وتركهم طهارة الحدث والخبث ، فلا يوجبون غسل جنابة ولا وضوء ، ولا يوجبون اجتناب شئ من الخبائث فى صلاتهم لا عذرة ولا بولا ولا غير ذلك من الخبائث إلى غير ذلك ، كلها شرائع أحدثوها وابتدعوها بعد المسيح عليه

(١) انظر الدر المنثور للسيوطي (١٩٠/٤)

(٢) انظر تفسير الطبرى (٥١/٢١)

السلام ، ودان بها أئمتهم وجمهورهم ، ولعنوا من خالفهم فيها ، حتى صار المتمسك فيهم بدين المسيح المحض مغلوباً مقموعاً قبل أن يبعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ، وأكثر ما هم عليه من الشرائع والدين لا يوجد منصوصاً عن المسيح عليه السلام .

وأما المسلمون : فكل ما أجمعوا عليه إجماعا ظاهراً يعرفه العامة والخاصة فهو منقول عن نبيهم صلى الله عليه وسلم ، لم يحدث ذلك أحد بعده لا باجتهاده ولا بغير اجتهاده ، بل ما قطعنا بإجماع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه يوجد مأخوذاً عن نبيهم .

وأما ما يظن فيه إجماعهم ولا يقطع به ، فمنه ما يكون ذلك الظن خطأ ويكون بينهم فيه نزاع ، ثم قد يكون نص الرسول صلى الله عليه وسلم مع هذا القول ، وقد يكون مع هذا القول ، ومنه ما يكون ظن الإجماع عليه صواباً ، ويكون فيه عن النبى صلى الله عليه وسلم أثر خفيت دلالته أو معرفته على بعض الناس ، وذلك أن الله تبارك وتعالى أكمل الدين بمحمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، وبينه وبلغه البلاغ المبين ، فلا تحتاج أمته إلى أحد بعده يغير شيئاً من دينه ، وإنما تحتاج إلى معرفة دينه الذى بعث به فقط ، وأمته لا تجتمع على ضلالة ، بل لا يزال فى أمته طائفة قائمة بالحق حتى تقوم الساعة ، فإن الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فأظهره بالحجة والبيان ، وأظهره باليد والسنان . ولا يزال فى أمته أمة ظاهرة بهذا وهذا حتى تقوم الساعة .

والمقصود هنا : أن ما أجمعت عليه الأمة إجماعاً ظاهراً تعرفه العامة والخاصة ، فهو منقول عن نبيهم صلى الله عليه وسلم ، ونحن لا نشهد بالعصمة إلا لمجموع الأمة ، وأما كثير من طوائف الأمة ، ففيهم بدع مخالفة للرسول ، وبعضها من جنس بدع اليهود والنصارى ، وفيهم فجور ومعاصى ، ولكن رسول الله صلى اله عليه

وسلم برئ من ذلك ، كما قال تعالى له :﴿ فإن عصوك فقل إنى برئ مما تعلمون ﴾ [سورة الشعراء : ٢١٦] .

وقال تعالى : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شئ ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٥٩] .

وقال صلى الله عليه وسلم : (١) « من رغب عن سنتى فليس منى » وذلك مثل إجماعهم على أن محمداً صلى الله عليه وسلم أرسل إلى جميع الأمم - أهل الكتاب وغير أهل الكتاب - فإن هذا تلقوه عن نبيهم صلى الله عليه وسلم ، وهو منقول عندهم نقلا متواتراً يعلمونه بالضرورة ، وكذلك إجماعهم على استقبال الكعبة البيت الحرام فى صلاتهم ، فإن هذا الإجماع منهم على ذلك مستند إلى النقل المتواتر عن نبيهم وهو مذكور فى كتابهم ، وكذلك الإجماع على وجوب الصلوات الخمس ، وصوم شهر رمضان ، وحج البيت العتيق الذى بناه إبراهيم خليل الرحمن ودعا الناس إلى حجه وحجته الأنبياء حتى حجه موسى بن عمران ويونس بن متى وغيرهما ، وإجماعهم على وجوب الاغتسال من الجنابة ، وتحريم الخبائث ، وإيجاب الطهارة للصلاة ، فإن هذا كله مما نقلوه عن نبيهم ، وهو منقول عنه صلى الله عليه وسلم نقلا متواتراً ، وهو مذكور فى القرآن .

وأما النصارى فليست الصلوات التى يصلونها منقولة عن المسيح عليه السلام ، ولا الصوم الذى يصومونه منقولا عن المسيح ، بل جعل أولهم الصوم أربعين يوماً ، ثم زادوا فيه عشرة أيام ونقلوه إلى الربيع ، وليس هذا منقولاً عندهم عن المسيح عليه

---

(١) « متفق عليه »

رواه البخارى فى كتاب « النكاح » باب « الترغيب فى النكاح » (٩/٥،٦ح ٥٠٦٣)

ورواه مسلم فى كتاب « النكاح » باب استحباب النكاح ...» (٢/١٠٢٠ح١٤٠١)

ورواه النسائي فى كتاب « النكاح » باب النهى عن التبتل » (٦/٦٠)

السلام ، وكذلك حجهم لقمامة ، وبيت لحم ، وكنيسة صيدنايا ، ليس شئ من ذلك منقولا عن المسيح عليه السلام ، بل وكذلك عامة أعيادهم مثل عيد القلندس ، وعيد الميلاد ، وعيد الغطاس ـ وهو القداس ـ وعيد الخميس ، وعيد الصليب الذى جعلوه فى وقت ظهور الصليب ؛ لما أظهرته هيلانة الحرانية الفندقانية أم قسطنطين بعد المسيح عليه السلام بمائتين من السنين وعيد الخميس والجمعة والسبت التى فى آخر صومهم ، وغير ذلك من أعيادهم التى رتبوها على أحوال المسيح ، والأعياد التى ابتدعوها لكبرائهم ، فإن ذلك كله من بدعهم التى ابتدعوها بلا كتاب نزل من الله تعالى ، بل هم يبنون الكنائس على اسم بعض من يعظمونه ، كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم :(١) « أنهم إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك التصاوير أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » وهذا بخلاف المساجد التى تبنى لله عز وجل ، كما قال تعالى : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ ، [سورة الجن : ٨] .

وقال تعالى ﴿ فى بيوت أذن الله أن ترفع ﴾ ، [سورة النور : ٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين ﴾ ، [سورة الأعراف : ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ ، [سورة التوبة : ١٨] . والنصارى كأشباههم من المشركين يخشون غير الله ويدعون غير الله .

---

(١) تقدم تخريجه .

فصـــل

والمقصود هنا : أن الذى يدين به المسلمون من أن محمداً صلى الله عليه وسلم بعث رسولا إلى الثقلين : الإنس والجن أهل الكتاب وغيرهم ، وأن من لم يؤمن به فهو كافر مستحق لعذاب الله مستحق للجهاد ، وهو مما أجمع أهل الإيمان بالله ورسوله عليه ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذى جاء بذلك وذكره الله فى كتابه وبينه الرسول أيضاً فى الحكمة المنزلة عليه من غير الكتاب ، فإنه تعالى أنزل عليه الكتاب والحكمة ، ولم يبتدع المسلمون شيئاً من ذلك من تلقاء أنفسهم ، كما ابتدعت النصارى كثيراً من دينهم ، بل أكثر دينهم ، وبدلوا دين المسيح وغيروه ، ولهذا كان كفر النصارى لما بعث محمد صلى الله عليه وسلم مثل كفر اليهود لما بعث المسيح عليه السلام ، فإن اليهود كانوا قد بدلوا شرع التوراة قبل مجئ المسيح فكفروا بذلك ، ولما بعث المسيح إليهم كذبوه فصاروا كفاراً بتبديل معانى الكتاب الأول وأحكامه ، وبتكذيب الكتاب الثانى ، وكذلك النصارى كانوا قد بدلوا دين المسيح قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، فابتدعوا من التثليث والاتحاد وتغيير شرائع الإنجيل أشياء لم يبعث بها المسيح عليه السلام ، بل تخالف ما بعث به ، وافترقوا فى ذلك فرقاً متعددة وكفر فيها بعضهم بعضاً ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم كذبوه ، فصاروا كفاراً بتبديل معانى الكتاب الأول وأحكامه ، وتكذيب الكتاب الثانى كما يقول علماء المسلمين ؛ إن دينهم مبدل منسوخ ، وإن كان قليل من النصارى كانوا عند مبعث محمد صلى الله عليه وسلم متمسكين بدين المسيح . كما كان الذين لم يبدلوا دين المسيح كله على الحق ، فهذا : كما أن من كان متبعاً شرع التوراة عند مبعث المسيح كان متمسكا بالحق كسائر من اتبع موسى فلما بعث المسيح صار كل من لم يؤمن به كافراً ، وكذلك لما بعث محمد صلى الله عليه وسلم صار كل من لم يؤمن به كافراً .

والمقصود فى هذا المقام : بيان ما بعث به محمد صلى الله عليه وسلم من عموم رسالته ، وأنه هو نفسه الذى أخبر أن الله تعالى أرسله إلى أهل الكتاب وغيرهم ، وأنه نفسه صلى الله عليه وسلم دعا أهل الكتاب وجاهدهم وأمر بجاهدهم ، فمن قال بعد هذا من أهل الكتاب - واليهود والنصارى - إنه لم يبعث إلينا بمعنى أنه لم يقل : إنه مبعوث إلينا ، كان مكابراً جاحداً للضرورة مفترياً على الرسول فرية ظاهرة تعرفها الخاصة والعامة ، وكان جحده لها كما لو جحد أنه جاء بالقرآن أو شرع الصلوات الخمس ، وصوم رمضان ، وحج البيت الحرام ، وجحد محمد صلى اله عليه وسلم وما تواتر عنه أعظم من جحد أتباع الحواريين للمسيح عليه السلام ، وإرساله لهم إلى الأمم ، ومجيئه بالإنجيل ، وجحد مجئ موسى عليه السلام بالتوراة ، وجحد أنه كان يسبت ، فإن النقل عن محمد صلى الله عليه وسلم وسلم مدته قريبة ، والناقلون عنه أضعاف أضعاف أضعاف أضعاف من نقل دين المسيح عنه ، وأضعاف أضعاف أضعاف من اتصل به نقل دين موسى عليه السلام ، فإن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ما زالوا كثيرين منتشرين فى مشارق الأرض ومغاربها ، ومازال فيهم من هو ظاهر بالدين منصور على الأعداء ؛ بخلاف بنى إسرائيل ، فإنهم زال ملكهم فى أثناء المدة لما خرب بيت القدس الخراب الأول بعد داود عليه السلام ، ونقص عدد من نقل دينهم ، حتى قد قيل : إنه لم يبق من يحفظ التوراة إلا واحد .

والمسيح عليه السلام لم ينقل دينه عنه إلا عدد قليل ، ولكن النصارى يزعمون أنهم رسل الله معصومون مثل : إبراهيم وموسى ، وسيأتى الكلام على هذا إن شاء الله تعالى إذا وصلنا إليه ، إذ المقصود هنا بيان من زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يقول : إنه لم يبعث إلا إلى مشركى العرب ، فإنه فى غاية الجهل والضلال ، أو غاية المكابرة والمعاندة ، فإن هذا أعظم جهلا وعناداً ممن ينكر أنه كان يأمر بالطهارة والغسل من الجنابة ، ويحرم الخمر والخنزير ، وأعظم جهلا وعناداً ممن ينكر ما تواتر

من أمر المسيح وموسى عليهما السلام ، وقد ظهر بهذا بطلان قولهم : علمنا أنه لم يأت إلينا بل إلى جاهلية العرب .

فصل

فإذا عرف هذا فاحتجاج هؤلاء بالآيات التى ظنوا دلالتها على نبوته خاصة بالعرب ، تدل على أنهم ليسوا ممن يجوز لهم الاستدلال بكلام أحد على مقصوده ومراده ، وأنهم ممن قيل فيه : ﴿ فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ﴾ ، [سورة النساء : ٧٨] . فليسوا أهلا أن يحتجوا بالتوراة والإنجيل والزبور على مراد الأنبياء ، وسائر الكلام المنقول عن الأنبياء على مراد الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بل ولا يحتجون بكلام الأطباء ، والفلاسفة ، والنحاة ، وعلم أهل الحساب ، والهيئة ، على مقاصدهم ، فإن الناس كلهم متفقون على أن لغة العرب من أنصح لغات الآدميين وأصحها ، ومتفقون على أن القرآن فى أعلى درجات البيان ، والبلاغة ، والفصاحة ، وفى القرآن من الدلالات الكثيرة على مقصود الرسول صلى الله عليه وسلم التى يذكر فيها : أن الله تعالى أرسله إلى أهل الكتاب وغيرهم مالا يحصى إلا بكلفة ثم مع ذلك من النقول المتواترة عن سيرته صلى الله عليه وسلم فى دعائه لأهل الكتاب ، وأمره لهم بالإيمان به ، وجهاده لهم إذ كفروا به مالا يخفى على من له أدنى خبرة بسيرته صلى الله عليه وسلم ، وهذا أمر قد امتلأ العالم به وسمعه القاصى والدانى ، فإذا كان الناس ـ المؤمن به وغير المؤمن به ـ يعلمون أنه كان يقول : إنه رسول الله إلى أهل الكتاب وغيرهم ، وأن ظهور مقصوده بذلك مما يعلمه بالاضطراد الخاصة والعامة ، ثم شرعوا يظنون أنه كان يقول : إنى لم أبعث إلا إلى العرب واستمر على ذلك حتى مات ، دل على فساد نظرهم وعقلهم أو على عنادهم ومكابرتهم ، وكان الواجب إذا لم يكن لهم معرفة بمعانى هذه الآيات التى استدلوا بها على خصوص رسالته ، أن يعتقدوا أحد أمرين :

إما أن لها معاني توافق ما كان يقوله . أو أنها من المنسوخ ، فقد علمت الخاصة والعامة أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يصلي بعد هجرته إلى بيت المقدس نحو سنة ونصف ، ثم أمر بالصلاة إلى الكعبة البيت الحرام ، والنصارى يوافقون على أن شرائع الأنبياء فيها ناسخ ومنسوخ ، مع أن ما ذكروه من الآيات ليس منسوخاً ، ولكن المقصود : أن المعلوم من حال الرسول صلى الله عليه وسلم ضرورياً يقينيا متواتراً لا يجوز دفعه ، فإن العلم بأنه كان يقول : إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جميع الخلق معلوم لكل من عرف أخباره صلى الله عليه وسلم ، سواء صدقه أو كذبه ، والعلم بأنه كان يقول : إنه رسول الله إلى جميع الناس ممكن قبل أن يعلم أنه نبي أو ليس بنبي . كما أن العلم بنبوته وصدقه ممكن قبل أن يعلم عموم رسالته ، فليس العلم بأحدهما موقوفاً على الآخر ، ولهذا كان كثير ممن يكذبه يعلم أنه كان يقول . إنه رسول الله إلى جميع الخلق ، وطائفة ممن يقر بنبوته وصدقه لا تقر بأنه رسول إلى جميع الخلق .

والمقصود هنا : الكلام مع هؤلاء بأن العلم بعموم دعوته لجميع الخلق - أهل الكتاب وغيرهم - هو متواتر معلوم بالاضطرار ، كالعلم بنفس مبعثه ، ودعائه الخلق إلى الإيمان به وطاعته ، كالعلم بهجرته من مكة إلى المدينة ، ومجيئه بهذا القرآن ، والصلوات الخمس ، وصوم شهر رمضان ، وحج البيت العتيق ، وإيجاب الصدق والعدل ، وتحـــــريم الظلم والفواحش ، وغير ذلك مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

فإن قيل : بل في القرآن ما يقتضي أن رسالته خاصة وفيه ما يقتضي أن رسالته عامة وهذا تناقض .

قيل : هذا يعلـــم بطلانه قبل العلم بنبوته ، فإنه من المعلوم لكل أحد آمن به أو كذبه ، أنه كان من أعظم الناس عقلا وسياسة وخبرة ، وكان مقصوده : دعوة الخلق

إلى طاعته واتباعه وكان يقرأ القرآن على جميع الناس ، ويأمر بتبليغه إلى جميع الأمم ، وكل من طلب منه أن يؤمنه حتى يقرأ عليه القرآن من الكفار وجب عليه أن يجيبه ولو كان مشركا ، فكيف إذا كان كتابياً كما قال تعالى : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ﴾ ، [سورة التوبة : ٦] .

وكان قد أظهر أنه مبعوث إلى أهل الكتاب وسائر الخلق ، وأنه رسول الله إلى الثقلين : الجن والإنس ، فيمتنع مع هذا أن يظهر ما يدل على أنه لم يبعث إليهم ، فإن هذا لا يفعله من له أدنى عقل لمناقضته لمراده ، فكيف يفعله مثل هذا الذى اتفقت عقلاء الأمم على أنه أعقل الخلق وأحسنهم سياسة وشريعة ؟

وأيضا فكان أصحابه والمقاتلون معه لعدوه ينفرون عنه ، وقد كانت عادتهم أن يستشكلوا ما هو دون هذا ، وهذا لم يستشكله أحد ، ثم بعد هذا : فلو قدر أن فى القرآن ما يدل على أنه لم يبعث إلا إلى العرب وفيه ما يدل على أنه بعث إلى سائر الخلق ، كان هذا دليلا على أنه أرسل إلى غيرهم بعد أن لم يرسل إلا إليهم ، وأن الله عم بدعوته بعد أن كانت خاصة فلا مناقضة بين هذا وهذا ، فكيف وليس فى القرآن آية واحدة تدل على اختصاص رسالته بالعرب ؟ وإنما فيه إثبات رسالته إليهم ، كما أن فيه إثبات رسالته إلى قريش ، وليس هذا مناقضاً لهذا ، وفيه إثبات رسالته إلى أهل الكتاب ، كقوله تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب آمنوا بما أنزلنا ﴾ ،[سورة النساء :٤٧] كما فيه إثبات رسالته إلى بنى إسرائيل كقوله : ﴿ يابنى إسرائيل ﴾ [سورة طه : ٨٠ ، و سورة الصف :٦] ليس هذا التخصيص لليهود منافياً لذلك التعميم وفى رسالته خطاب لليهود تارة وللنصاري تارة ، وليس خطاب لإحدى الطائفتين ودعوته لها مناقضا لخطابه للأخرى ودعوته لها ، وفى كتابه خطاب للذين آمنوا من أمته فى دعوته لهم إلى شرائع دينه ، وليس فى ذلك مناقضة بأن يخاطب أهل

الكتاب ويدعوهم وفى كتابه أمر بقتال أهل الكتاب النصارى حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

قال تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ ، [سورة التوبة : ٢٩] .

ثم لم يكن هذا مانعاً أن يأمر بقتال غيرهم من اليهود والمجوس حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، بل هذا الحكم ثابت فى المجوس بسنته واتفاق أمته .

وإن قيل : إنهم ليسوا من أهل الكتاب ، فهذا كله مما يعلم بالاضطراد من دينه قبل العلم بنبوته ، فكيف ونحن نتكلم علي تقدير نبوته والنبى لا يتناقض قوله ؟ وإذا كان العلم بعموم دعوته ورسالته معلوماً بالاضطراد قبل العلم بنبوته وبعد العلم بنبوته ، فالعلم الضرورى اليقينى لا يعارضه شئ ، ولكن هذا شأن الذين فى قلوبهم زيغ من أهل البدع النصارى وغيرهم يتبعون المتشابه ويدعون المحكم ؟ وبسبب مناظرة النصارى للنبى صلى الله عليه وسلم بالمتشابه وعدولهم عن المحكم أنزل الله تبارك وتعالى فيهم : ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ ، [سورة آل عمران : ٧] .

فالتأويل : يراد به تفسير القرآن ، ومعرفة معانيه ، وهذا يعلمه الراسخون ويراد به ما استأثر الرب بعلمه من معرفة وكنه معرفة ما وعد به ووقت الساعة ، ونحو ذلك مما لا يعلمه إلا الله .

والضلال : يذكرون آيات تشتبه عليهم معرفة معانيها ،فيتبعون تأويلها ابتغاء

الفتنة وابتغاء تأويلها ، وليسوا من الراسخين فى العلم الذين يعلمون تأويلها مع أن هذه الآيات التى ذكروها من أوضح الآيات وهذا الذى سلكوه فى القرآن هو نظير ما سلكوه فى الكتب المتقدمة وكلام الأنبياء من التوراة والإنجيل والزبور وغيرها ، فإن فيها من النصوص الكثيرة الصريحة بتوحيد الله وعبودية المسيح مالا يحصى إلا بكلفة ، وفيها كلمات قليلة فيها اشتباه فتمسكوا بالقليل المتشابه الخفى المشكل من الكتب المتقدمة ، وتركوا الكثير المحكم المبين الواضح فهم سلكوا فى القرآن ما سلكوه فى الكتب المتقدمة لكن تلك الكتب يقرون بنبوة أصحابها ومحمد صلى الله عليه وسلم هم فيه مضطربون متناقضون ، فأى قول قالوه فيه ، ظهر فساده وكذبهم فيه إذا لم يؤمنوا بجميع ما أنزل إليه ، وإن قالوا : كلامه متناقض ونحن نحتج بما يوافق قولنا ، إذ مقصودنا بيان تناقضه . قيل لهم عن هذا أجوبة .

أحدها : أنه فى الكتب المتقدمة مما يظن أنه متعارض أضعاف ما فى القرآن وأقرب إلى التناقض ، فإذا كانت تلك الكتب متفقة لا تناقض فيها وإنما يظن تناقضها من يجهل معانيها ومراد الرسل فيكون كما قيل :

وكم من غائب قولا صحيحا وآفته من الفهم السقيم

فكيف القرآن هو أفضل الكتب ؟

الثانى : أنهم متمسكون بالمتشابه فى تلك الكتب ومخالفون المحكم منها ، كما فعلوه بالقرآن وأبلغ .

الثالث : أنه إذا كان ما جاء به متناقضا لم يكن رسول الله . فإن ما جاء به من عند الله لا يكون مختلفا متناقضاً ، وإنما يتناقض ما جاء به من غير الله ، قال تعالى ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً ﴾ ، [سورة النساء : ٨٢] ، فكل كتاب ليس من عند الله لابد أن يكون فيه تناقض

وما كان من عند الله لا يتناقض ، وحينئذ فإنه كل متناقض لم يجزلهم الاحتجاج بشئ منه ، فإن ليس من عند الله ، وإن لم يكن متناقضا ثبت أن ما فيه من عموم رسالته ، وأنه رسول إليهم ليس فيه شئ يناقضه ، فإن ما جاء من عند الله لا يتناقض .

الرابع : أنا نبين أن ما فيه من عموم رسالته لا ينافى ما فيه من أنه أرسل إلى العرب كما أن ما فيه من إنذار عشيرته الأقربين ، وأمر قريش لا ينافى ما فيه من دعوة سائر العرب ، فإن تخصيص بعض العام بالذكر إذا كان له سبب يقتضى التخصيص لم يدل على أن ما سوى المذكور مخالفة ، وهذا الذى يسمى مفهوم المخالفة ودليل الخطاب ، والناس كلهم متفقون على أن التخصيص بالذكر متى كان له سبب يوجب الذكر غير الاختصاص بالحكم لم يكن لاسم اللقب مفهوم بل ولا للصفة ،كقوله تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ﴾ [سورة الإسراء : ٣١] . فإنه نهاهم عن ذلك ؛ لأنه هو الذى كانوا يفعلونه ، وقد حرم فى مواضع أخر قتل النفس بغير حق ، سواء كان ولداً أو غيره ، ولم يكن ذلك مناقضاً لتخصيص الولد بالذكر .

الخامس : أنه فى ذلك أسوة بالمسيح عليه السلام ، فإن المسيح خص أولا بالدعوة ، ثم عم ، كما قال فى الإنجيل : [ما بعثت وأرسلت إلا لبنى إسرائيل] وقال أيضاً فى الإنجيل : [ما بعثت إلا لهذا الشعب الخبيث] ثم عم فقال لتلاميذه حين أرسلهم كما فى الإنجيل [كما بعثنى أبى أبعث بكم فمن قبلكم فقد قبلنى] وقال : [قد أرسلنى أبى وأنا أرسلكم] وقال : [كما أفعل أنا بكم كذلك افعلوا أنتم بعباد الله ، فسيروا فى البلاد ، وعمدوا الناس باسم الأب والإبن وروح القدس ، ولا يكون لأحدكم ثوبان ، ولا يحمل معه فضة ولا ذهباً ، ولا عصا ولا حرابة] ونحو ذلك مما هو فى الأناجيل التى بين أيديهم من تخصيص الدعوة ثم تعميمها ، وهو صادق فى ذلك كله ، فكيف يسوغ لهم إنكار ما فى الإنجيل عن المسيح نظيره ؟ ثم يقال فى

بيان الحال : إن الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم ، كما بعث المسيح وغيره ، وإن كانت رسالته أكمل وأشمل كما يذكر في موضعه ، فأمره بتبليغ رسالته بحسب الإمكان إلى طائفه بعد طائفة . وأمر بتبليغ الأقرب منه مكاناً ونسباً ، ثم بتبليغ طائفة بعد طائفة حتى تبلغ النذارة إلى جميع أهل الإرض ، كما قال تعالى : ﴿ وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٩] - أى من بلغه القرآن - فكل من بلغه القرآن فقد أنذره محمد صلى الله عليه وسلم ، وتبين هنا أن النذارة ليست مختصة بمن شافههم بالخطاب ، بل ينذرهم به ، وينذر من بلغهم القرآن ، فأمره الله تبارك وتعالى أولا بإنذار عشيرته الأقربين وهم قريش ، فقال تعالى : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ ، [سورة الشعراء : ٢١٤] . ولما أنزل الله عليه هذه الآية انطلق صلى الله عليه وسلم إلى مكان عال فعلا عليه ، ثم جعل ينادى : (١) « يابنى عبد مناف إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يريد أهله فخشى أن يسبقوه ، فجعل يهتف : ياصباحاه ياصباحاه (٢) » .

وهذه القصة رواها ابن عباس وأبو هريرة وعائشة وغيرهم - رضى الله عنهم - فى الصحيحين وغيرهما من كتب السنة والمسانيد والتفسير.

قال ابن عباس (٣) : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ [سورة

(١) حديث من رواية قبيصة بن المخارق وزهير بن عمرو معًا رواه مسلم فى كتاب الإيمان « باب » فى قوله تعالى : وأنذر عشيرتك الأقربين (١/١٩٣ح٢٠٧) ، ورواه النسائى فى تفسيره (٢/١٤٠ح٣٩٩) ورواه أيضًا فى عمل اليوم والليلة(٦/٢٤٣:٢٤٤ح١٠٨١٥:١٠٨١٧)

(٢) قوله (ياصباحاه): كلمة يعتادونها عند وقوع أمر عظيم ، فيقولونها ليجتمعوا ويتأهبوا له . قاله النووى (٣/٨٢)

(٣) متفق عليه

رواه البخارى فى كتاب « الجنائز » باب » ذكر شرار الموتى (٣/٣٠٥ح١٣٩٤) ببعضه ، وذكره البخارى أيضًا (ح٣٥٢٥،٣٥٢٦) ، وذكره بتمامه (ح٤٧٧٠ ، ٤٨٠١، ٤٩٧١، ٤٩٧٢، ٤٩٧٣)

=

الشعراء : ٢١٤] [ورهطك منهم المخلصين] (١) خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا ، فجعل ينادى « يا بنى فهر ، يابنى عدى لبطون قريش حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطيع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو ، فاجتمعوا إليه فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك إلا صدقاً ، ما جربنا عليك كذباً ، قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » .

وقال أبو هريرة (٢) : لما نزلت هذه الآية ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ [سورة الشعراء : ٢١٤] دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً فاجتمعوا ، فعم وخص ، فقال : « يابنى كعب ابن لؤي : أنقذوا أنفسكم من النار ، يابنى مرة بن كعب : أنقذوا أنفسكم من النار ، يابنى عبد شمس : أنقذوا أنفسكم من النار ، يابنى عبد

=ورواه مسلم فى كتاب « الإيمان » (١/١٩٣:١٩٤ح٢٠٨)

ورواه النسائى فى تفسيره كما رواه أيضًا فى عمل اليوم والليلة ورواه الترمذى فى كتاب « التفسير » ، باب » ومن سورة (تبت يدا) (٩/٢٩٦:٢٩٧ح٣٤٢٢) وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح »

(١) قوله (ورهطك منهم المخلصين) قال النووى (٣/٨٢:٨٣)

كان قرآنا أنزل ثم نسخت تلاوته ، ولم تقع هذه الزيادة فى روايات البخارى »

(٢) حديث صحيح ، رواه مسلم فى كتاب « الإيمان » (١/١٩٢ح٢٠٤)

ورواه البخارى فى الأدب المفرد (١/١٢٣ح٤٨) ورواه الترمذى فى كتاب « التفسير » باب ومن سورة الشعراء (٩//٤١:٤٣ ح٣٢٣٧،٣٢٣٨) ، ورواه النسائى فى كتاب الأدب المفرد (١/١٢٣ح٤٨)

ورواه النسائى فى كتاب « الوصايا » باب » إذا أوصى لعشيرته الأقربين (٦٢٤٨:٢٤٩)

كما رواه أيضًا فى تفسيره « من سننه الكبرى » (٦/٤٢٣ح١١٣٧٧) ، وانظر المراسيل فى تحفة الأشراف (١٣/٤٠٣ح١٩٤٧)

وهناك رواه البخارى فى كتاب « الوصايا » باب » يدخل النساء والولد في الأقارب » (٥/٤٤٩ح٢٧٥٣) وأعاده فى (ح٣٠٢٧، ٤٧٧١)

ورواه مسلم فى كتاب الإيمان (١/١٩٢:١٩٣ح٢٠٦)

من الكبرى (٦/٤٣٧ح١١٤٢٦) وانظر (ح١١٣٧٨)، (ح١١٧١٤)

مناف : أنقذوا أنفسكم من النار يا بنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة بنت محمد : أنقذى نفسك من النار ، فإنى لا أملك لكم من الله شيئاً غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها » .

وقالت عائشة(١) - رضى الله عنها - لما نزلت هذه الآية ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ [سورة الشعراء : ٢١٤] قام رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصفا فقال : « يا فاطمة بنت محمد ، يا صفية عمة رسول الله ، يا عباس عم رسول الله : لا أملك لكم من الله شيئاً .

وقال ابن إسحاق : لما نزلت هذه الآية جعل النبى صلى الله عليه وسلم ينادى : « يابنى عبد المطلب ، يابنى عبد مناف ، يا بنى زهرة - حتى عدد الأفخاذ من قريش - ثم قال : إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ، وإنى لا أملك لكم من الله شيئاً ، إلا أن تقولوا لا إله إلا الله » . فقال أبو لهب : ألهذا جمعتنا ؟ تباً لك سائر اليوم ، فأنزل الله ﴿ تبت يد أبى لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب * سيصلى نارا ذات لهب * وامرأته حمالة الحطب * فى جيدها حبل من مسد ﴾ ، [سورة المسد] .

ودعا قريشاً إلى الله وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، وأنزل الله تعالى : ﴿ لإيلاف قريش * إيلافهم رحلة الشتاء والصيف * فليعبدوا رب هذا البيت ﴾ [سورة قريش : ١ - ٣] .

---

(١) رواه مسلم فى كتاب « الإيمان » باب فى قوله تعالى :
« وأنذر عشيرتك الأقربين » (١٩٢/١ح٢٠٥)
ورواه الترمذي فى كتاب « التفسير » باب « ومن سورة الشعواء (٤١٠٤/٩ح٣٢٣٦)
ورواه النسائى فى كتاب « الوصايا » باب إذا أوصى لعشيرته الأقربين (٢٥٠/٦)
« وأنذر عشيرتك الأقربين » (٤٢٣/٦ح١١٣٧٦)

وقد أنزل الله عليه في غير موضع أمر جميع الخلق بعبادته ، كقوله تعالى ﴿ يا أيها الناس اعبـــدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ ، [سورة البقرة : ٢١] وقـــوله : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ ، [سورة الذاريات : ٥٦] . وقريش هم قومه الذين كذبه جمـــهورهم أولا كما قال تعالى : ﴿ وكذب به قومك وهو الحق ﴾ ، [سورة الأنعام : ٦٦] .

كما أن جمهور بنى إسرائيل وهم قوم المسيح كذبوه أولا ، ثم أمره الله تعالى أن يدعو سائر العرب ، فكان يخرج بنفسه ومعه أبو بكر صديقه إلى قبائل العرب قبيلة قبيلة ، وكانت العرب لم تزل تحج البيت من عهد إبراهيم الخليل عليه السلام ، فكان صلى الله عليه وسلم يأتيهم فى منازلهم بمنى وعكاظ ومجنة وذى المجاز ، فلا يجد أحداً إلا دعاه إلى الله ويقول (١) : « يأيها الناس إنى رسول الله إليكم آمركم أن تعبدو الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تخلعوا ما يعبد من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بى وتصدقونى وتمنعونى حتى أبين عن الله ما بعثنى به » ، (٢) « يا أيها الناس

(١) رواه بن إسحاق كما في البداية والنهاية (١٣٨/٣) ورواه عنه الطبرى فى تاريخه (٣٤٨/٢:٣٤٩)

(٢)حديث صحيح

رواه أبو داود فى كتاب « السنة » باب فى القرآن (٥٩/١٣ح٤٧٠٨)

ورواه الترمذي فى كتاب « فضائل القرآن » «باب » ماجاء كيف كانت قراءة النبى » (٢٤٢/٨:٢٤٣ح ٣٠٩٣) وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح غريب »

ورواه النسائى فى سننه الكبرى كما فى تحفة الأشراف (١٧٥/٢ح٢٢٤١)ورواه ابن ماجه فى « المقدمة» باب « فيما أنكرت الجهمية » (٧٣/١ح٢٠١)

=رواه أحمـد فى مسنده (٣٩٠/٣)

ورواه الحاكم فى مستدركه (٦١٢/٢:٦١٣) وصححه على شروط الشيخين ، ووافقه الذهبى

وقال الهيثمى فى المجمع (٣٥/٦) ورجاله ثقات!!

وانظر الصحيحة للألبانى (٥٩٢/٤ح١٩٤٧)

إن قريشاً منعونى أن أبلغ كلام ربى ، فمن يمنعنى أن أبلغ كلام ربى ألا رجل يحملنى إلى قومه فإن قريشاً منعونى أن أبلغ كلام ربى » ، (١) « ياأيها الناس قولوا لا إلا الله تفلحوا ، وتملكوا بهـا العرب ، وتذل لكم بها العجم ، فيقولون : يامحمد أتريد أن تجعل الآلهـة إلهاً واحـداً ؟ إن أمرك هذا لعجـب » وما زال رسول الله صلى اللـه عليه وسلم يعلن دعـوته ، ويظهر رسـالته ، ويـدعو الخلق إليـها : وهم يؤذونه ويجـادلونه ويكلمونه ويردون عليه بأقبح الرد وهو صابر على أذاهم ، ويقول : « اللهم لك الحمد لو شئت لم يكونوا هكذا » فلما اشتد عليه أمر قريش خرج إلى الطائف - وهى مدينة معروفة شرق مكة بينهما نحـو ليلتين - ومعه زيد بن حارثه ومكث بها عشرة أيام ، لا يدع أحداً من أشرافهم إلا جاءه فى منزله ودعاه إلى التـوحيد : فلم يجبه أحد منهم ، وخافوا على أحداثهم ، فأغروا سفهـاءهم فجعلوا يرمونه بالحجارة إذا مشى ، حتى إن رجليه لتدميان وزيد مولاه يقيه بنفسه ، حتى ألجأوه إلى ظل كرمة فى حائط لعتبة وشيبة ابنى ربيعـة فرجع عنـه مـا كان من سـفهائهم ، فدعا فقـال : (٢)

(١) رواه ابن سعد فى الطبقات (١٤٥/١/١) مرسلاً

وانظر مسند أحمد (٤٩٢/٣) ، (٣٤٠،٦٣/٤) ، (٣٧٦،٣٧١/٥)

ومعجم الطبرى (٥٦/٥)(٣٧٦/٨) وابن خزيمة (١٢/١ح١٥٩)

وابن حبان كما فى الموارد (ص ٤٠٦ ح ١٦٨٣) والدار قطنى (٤٥/٣)

والبيهقى فى السنن (٧٦/١) وفى الدلائل (١٨٦/٢)

والمجمع (٢٢،٢١/٦)

رواه بن سعد في « الطبقات » (١١٤٥/١) مرسلاً

(٢) (حديث ضعيف)

رواه ابن إسحاق مرسلاً كما فى سيرة ابن هشام (٧٢:٦٩/٢)

كما رواه من طريقه الطبرى فى تاريخه (٣٤٤//٢: ٣٤٦)

كما رواه الطبرى مختصراً كما فى« المجمع (٣٥/٦) وقال الهيثمى :

رواه الطبرى وفيه ابن إسحق وهو مدلس ثقة ، وبقية رجاله ثقات » ورواه البيهقى فى الدلائل (٤١٦:٤١٤/٢) عن الزهرى مرسلاً من غير طريق ابن إسحاق وليس فيه الدعاء

« اللهـــم إليك أشكوا ضعف قـوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك غضـب على فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعـوذ بنور وجـهك الذى أشرقـت له الظلمـات ، وصلح عليه أمـر الدنيـا والآخرة من أن ينزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » . فلمـا رأى ابنا ربيعة ما صنع به رثيا له وقالا لغـلام لهما يقال له عـداس وكان نصـرانياً : خـذ قطفاً من عنب ثم اجـعله فى طبق ثم اذهب إلى ذلك الرجل يأكله ، ففعل عداس وأقبل به حـتى وضعه بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما وضع رسول الله صلى الله عليع وسلم يده قال : باسم الله ثم أكل فنظر عداس إلى وجهه ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أى البلاد أنت ومـا دينك ؟ فقال عداس : أنا نصرانـى ، وأنا رجل من أهل نينوى . فقـال له رسول الله صلى الله عليـه وسلم أمن قرية الرجل الصـالح يونس بن متى ؟ فقـال له عداس : وما يدريك مـا يونس ابن متى والله لقد خرجت مـن نينوى وما فيها عـشرة يعرفون متى ، مـن أين عرفت أنت متى وأنت أمى وفى أمـة أمية ؟ فـقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : هـو أخى ، كان نبياً وأنا نبى » فأكب عداس على رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه ورجليـه ، فلما رجع عداس فـقالا له : ويلك يا عـداس ومالك تقـبل رأس هذا الرجل ويديه ورجليه ، فقال : يا سيدى ما فى الأرض خير من هذا الرجل ، لقد خبرنى بأمر لا يعلمه إلا نبى . ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الطائف راجعاً إلى مكة وهو مـحـزون ، إذ لم يسـتـجب له رجـل واحـد ولا امـرأة . فـقـال له زيد بن حارثة : (١) كيف تدخل عليهم يارسول الله وقد فعلوا وفعلوا ؟ فقال « يا زيد إن الله

(١) حديث ضعيف جداً

رواه ابن سعد فى الطبقات (١٤٢/١/١) من شيخه الواقدى وهو متروك

عز وجل جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً ، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه » ثم ذكر ابن إسحاق دخوله إلى مكة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما لقى من أهل مكة والطائف ما لقى ، ودعا بالدعاء المتقدم نزل عليه جبريل ومعه ملك الجبال كما فى صحيح البخارى : (١) أن عائشة رضى الله عنها قالت للنبى صلى الله عليه وسلم : هل أتى عليك يوم أشد من أحد ؟ فقال : « لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى فلم أستفق إلا وأنا بقرب الثعالب ، فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة وقد أظلتنى فنظرت ، فإذا فيها جبريل فنادانى : إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم قال : فنادانى ملك الجبال وسلم علي ثم قال يا محمد : إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال وقد بعثنى ربى إليك لتأمرنى بأمرك إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فقال النبى صلى الله عليه وسلم . بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا شريك له » .

وأخرج مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة : (٢) أنه قيل للنبى صلى الله عليه وسلم ادع الله على المشركين . فقال : « إنى لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة » .

---

(١) متفق عليه

رواه البخارى فى كتاب « بدء الخلق » باب» إذا قال أحدكم : آمين » (٦/٣٦٠ح٣٢٣١) وأعاده برقم (٧٣٨٩)

ورواه مسلم فى كتاب « الجهاد والسير » «باب » مالقى النبى صلى الله عليه من أذنى المشركين والمنافقين(٣/١٤٢٠: ١٤٢١ح١٧٩٥)

(٢) حديث صحيح

رواه مسلم فى كتاب « البر » « باب » النهى عن لعن الدواب وغيرها » (٤/٢٠٠٦: ٢٠٠٧ح ٢٥٩٩)

وفى الصحيحين عن خباب بن الأرت أنه قال : (١) لما اشتد البلاء علينا من المشركين أتينا النبى صلى الله عليه وسلم فقلنا : ألا تدعو الله لنا ؟ ألا تستنصر الله لنا ؟ فقال : « لقد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض ، ثم يجاء بالمنشار فيجعل فوق رأسه حتى يجعل فرقتين ، ما يصرفه ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله ، ولكنكم تستعجلون » وذكر ما لقى النبى صلى الله عليه وسلم من قومه من الأذى والاستهزاء والاغراء وهو صابر محتسب ، مظهر لأمر الله بتبليغ رسالته لا تأخذه فى الله لومة لائم ، مواجهة لقومه بما يكرهون من عيب دينهم وآلهتهم ، وتضليل آبائهم ، وتسفيه أحلامهم ، وإظهار عداوته وقتاله إياهم ما بلغ مبلغ القطع .

قال عكرمة عن ابن عباس : (٢) ولما رجع النبى صلى الله عليه وسلم إلى مكة فلما حضر الموسم حج نفر من الأنصار ، فانتهى النبى صلى الله عليه وسلم إلى فريق منهم ، فقرأ عليه القرآن . ودعاهم إلى الله ، وأخبرهم بالذى آتاه الله فأيقنوا واطمأنت قلوبهم إلى دعوته ، وعرفوا ما كانوا يسمعون من أهل الكتاب من ذكرهم إياه بصفته وما يدعوهم إليه فصدقوه وآمنوا به ، وكان من أسباب الخير الذى ساق الله للأنصار

---

(١) حديث صحيح

رواه البخارى فى كتاب « المناقب » «باب » علامات النبوة فى الإسلام (٦/٧١٦ح ٣٦١٢) وأعاده فى (ح٣٨٥٢،٦٩٤٣)

ورواه أبو داود فى كتاب « الجهاد » «باب» « فى الأسير يكره على الكفر (٣٠٨/٧: ٣٠٩ح٢٦٣٢)

ورواه النسائى فى كتاب « العلم » من سننه الكبرى كما فى تحفة الأشراف (١١٧/٣ح٣٥١٩)

كما رواه مختصراً فى كتاب « الزينة » باب « لبس البرود » (٢٠٤/٨) ورواه أحمد (١١٠/٥: ١١١)،(٣٩٥/٦)

(٢) لم أقف على هذه الرواية .

إلى ما كانوا يسمعون من الأخبار فى صفته ، فلما رجعوا إلى قومهم جعلوا يدعونهم سراً ويخبرونهم بأقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذى بعثه الله به من النور والهدى والقرآن ، فأسلموا حتى قل دور من دورهم إلا أسلم فيها ناس لا محالة ، وقد ذكر الله ذلك فى القرآن وأخبر أن أهل الكتاب كانوا يخبرون به العرب ويستفتحون به عليهم ، فكان أهل الكتاب مقرين بنبوته مخبرين بها مبشرين بها قبل أن يبعث فقال تعالى فيما يخاطب به أهل الكتاب : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ، أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون * وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون * ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين * بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين * وإذ قيل لهم آمنوا بما أنزل الله ، قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ؟ ﴾ ، [سورة البقرة : ٨٧ - ٩١] .

فقد أخبر تعالى أن أهل الكتاب كانوا يستفتحون على العرب بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث ، أى يستنصرون به ، وكانوا هم والعرب يقتتلون فتغلبهم العرب ، فيقولون : سوف يبعث النبى الأمى من ولد إسماعيل فنتبعه ونقتلكم معه شر قتلة ، وكانوا ينعتونه بنعوته وأخبارهم بذلك كثيرة متواترة ، وكما قال تعالى : ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾ ، [سورة البقرة : ٨٩] .

وأخبر بما كانت عليه اليهود من أنه كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم .

كذبوا بعضهم وقتلوا بعضهم ، وأخبر أنهم باءوا بغضب على غضب فإنهم مازالوا يفعلون ما يغضب الله عليهم ، فإما أن يراد بالتثنية تأكيد غضب الله عليهم ، وإما أن يراد به مرتان ، فالغضب الأول : بتكذيبهم المسيح والإنجيل ، والغضب الثانى : لمحمد والقرآن.

فصـــل

وكان يأتيهم بالآيات الدالة على نبوته صلى الله عليه سلم ومعجزاته تزيد على ألف معجزة ، مثل انشقاق القمر وغيره من الآيات ، ومثل القرآن المعجز ، ومثل أخبار أهل الكتاب قبله وبشارة الأنبياء به ، ومثل أخبار الكهان والهواتف به ، ومثل قصة الفيل التى جعلها الله آية عام مولده وما جرى عام مولده من العجائب الدالة على نبوته ، ومثل امتلاء السماء ورميها بالشهب التى ترجم بها الشياطين ، بخلاف ما كانت العادة عليه قبل مبعثه وبعد مبعثه ومثل إخباره بالغيوب التى لا يعلمها أحد بتعليم الله عز وجل ، ومن غير أن يعلمه إياها بشر فأخبرهم بالماضى مثل قصة آدم ونوح وإبراهيم وموسى والمسيح وهود وشعيب وصالح وغيرهم وبالمستقبلات ، وكان قومه يعلمون أنه لم يتعلم من أهل الكتاب ولا غيرهم ، ولم يكن بمكة أحد من علماء أهل الكتاب ممن يتعلم هو منه ، بل ولا كان يجتمع بأحد منهم يعرف اللسان العربى ولا كان هو يحسن لسانًا غير العربى ، ولا كان يكتب كتابًا ، ولا يقرأ كتابًا مكتوبا ، ولا سافر قبل نبوته إلا سفرتين ، سفرة وهو صغير مع عمه أبى طالب لم يفارقه ولا اجتمع بأحد من أهل الكتاب ولا غيرهم . وسفرة أخرى وهو كبير مع ركب من قريش لم يفارقهم ، ولا اجتمع بأحد من أهل الكتاب ، وأخبر من كان معه بإخبار أهل الكتاب بنبوته مثل إخبار بحيرى الراهب بنبوته ؛ وما ظهر لهم منه مما دلهم على نبوته ولهذا تزوجت به خديجة بنت خويلد قبل نبوته لما أخبرت به من أحواله وهذه الأمور مبسوطة فى موضع آخر ، ولكن المقصود هنا

التنبيه بأن محمداً صلى الله عليه وسلم له معجزات كثيرة ، مثل نبع الماء من بين أصابعه غير مرة ، ومثل تكثير الطعام القليل حتى أكل منه الخلق العظيم ، وتكثير الماء القليل حتى شرب منه الخلق الكثير . وهذا قد جرى غير مرة له ولأمته من الآيات ما يطول وصفه ، فكان بعض أتباعه يحيى الله له الموتى من الناس والدواب ، وبعض أتباعه يمشى بالعسكر الكثير على البحر حتى يعبروا إلى الناحية الأخرى ، ومنهم من ألقى فى النار فصارت عليه برداً وسلاماً ، وأمثال ذلك كثيرة ، ولكن المقصود هنا ذكر بعض ما فى القرآن من أنه كان يخبرهم بالأمور الماضية خبراً مفصلا لا يعلمه أحد إلا أن يكون نبيًا أو من أخبره نبى ، وقومه يعلمون أنه لم يخبره بذلك أحد من البشر ، وهذا مما قامت به الحجة عليهم وهم مع قوة عداوتهم له وحرصهم على ما يطعنون به عليه لم يمكنهم أن يطعنوا طعنا يقبل منهم ، وكان علم سائر الأمم بأن قومه المعادين له ، المجتهدين فى الطعن عليه ، وهم يمكنهم أن يقولوا : إن هذه الغيوب علمه إياها بشر يوجب على علم جميع الخلق أن هذا لم يعلمه إياها بشر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ﴾ ، [سورة هود : ٤٩] فأخبر أنه لم يكن يعلم ذلك هو ولا قومه . وقومه تقر بذلك ولم يتعلم من أحد غير قومه ، ولهذا لما زعم بعضهم أنه تعلم من بشر ظهر كذبه لكل أحد كما قال تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم * إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون * وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون * قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين * ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين ﴾ ، [سورة النحل : ٩٨ - ١٠٣].

وكان بمكة رجل أعجمى مملوك لبعض قريش فادعى بعض الناس أن محمداً كان يتعلم من ذلك الرجل الأعجمى فبين الله أن هذا كذب ظاهر ، فإن ذلك رجل أعجمى لا يمكنه أن يتكلم بكلمة من هذا القرآن العربى ، ومحمد صلى الله عليه وسلم عربى لا يعرف شيئا من ألسنة العجم ، فمن كلمه بغير العربية لا يفقه كلامه ، فلا ذلك الرجل يحسن التكلم بالعربية ، ولا محمد صلى الله عليه وسلم يفهم كلاماً بغير العربية ، فلهذا قال تعالى : ﴿ لسان الذى يلحدون إليه ﴾ ، [سورة النحل : ١٠٣] أى يميلون إليه ويضيفون إليه أنه علم محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ أعجمى وهذا لسان عربى مبين ﴾ ، [سورة النحل ١٠٣] . وكذلك قال بعض الناس عن القرآن ﴿ إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ﴾ ،[سورة الفرقان : ٤] قال تعالى : ﴿ فقد جاءوا ظلماً وزوراً * قالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا * قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيما ﴾ ، [سورة الفرقان : ٤ -٦] .

فبين سبحانه أن قول هذا من الكذب الظاهر المعلوم لأعدائه فضلا عن أوليائه فإنهم يعلمون أنه ليس عنده أحد يعينه على ذلك ، وليس فى قومه ولا فى بلده من يحسن ذلك ليعينه عليه فلهذا قال تعالى : ﴿ فقد جاءوا ظلماً وزورا ﴾ ،[سورة الفرقان :٤] فإن جمع أهل بلده وقومه المعادين له يعلمون أن هذا ظلم له وزور ولهذا لم يقل هذا أحد من عقلائهم المعروفين ، وكذلك قولهم أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ، فإن قومه المعادين له يعلمون أنه ليس عنده من يملى عليه كتابا وقد بين ما يظهر كذبهم بقوله : ﴿ قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض ﴾ [سورة الفرقان :٦] فإن فى القرآن من الأسرار ما لا يعلمه بشر إلا بإعلام الله إياه فإن الله يعلم السر فى السموات والأرض ، ثم لما تبين بطلان قولهم هذا ، ذكر ما قدحوا به فى نبوته فقال تعالى : ﴿ وقالوا مال هذا الرسول

يأكل الطعام ويمشى فى الأسـواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معـه نذيراً * أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنـة يأكل منها ﴾ . [سورة الفرقان : ٨،٧].

فهذا كـلام المعارضين له الذين أنكروا أكله ومشيـه فى الأسواق التى يباع فيـها ما يؤكل وما يلبس ، وقالوا هلا أنزل إليـه ملك فيكون مـعه نذيراً أو يستغنى عن ذلك بكنز ينفق منه أو جنة يأكل منها . وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً .

قال تـعالى : ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾ ، [سورة الفرقان : ٩] يقول مثلوك بالكاذب وبالمسحور والناقل عن غيره ، وكل من قـال هذه الأقوال يـظهر كـذبه لكل من عـرفك ، ولهـذا قـال تعالى : ﴿ فـضلوا فـلا يستطيعون سبيلا ﴾ [سورة الفرقان ٩]والضال الجاهل العادل عن الطريق فلا يستطيع الطريق الموصلة إلى المقصود ، بل ظهر عجزهم وانقطاعهم فى المناظرة .وقال تعالى : ﴿ وقالوا لو لا يأتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى ﴾ ، [سورة طه : ١٣٣] .

فإنه أتاهم بجلية ما فى الصحف الأولى كالتوراة والإنجيل مع علمهم بأنه لم يأخذ عن أهل الكتاب شيـئا ، فإذا أخبـرهم بالغيوب التى لا يعلـمها إلا نبى أو من أخبره نبى وهم يعلمون أنه لم يعلم ذلك بخبـر أحد من الأنبياء تبين لهم أنه نبى وتبين ذلك لسائر الأمم فإنه إذا كان قـومه المعادون له وغير المعادين له مقـرين بأنه لم يجتمع بأحد يعلمه ذلك صار هذا منقولا بالتواتر وكان مما أقـربه مخالفوه مع حرصهم على الطعن لو أمكن ، فهـذه الأخبار بالغيوب المتـقدمة قامت بهـا الحجة على قومه وعـلى جميع من بلغه خبر ذلك وقد أخبر بالغيوب المستقبلة وهذه تقوم بها الحجة على من عرف تصديق ذلك الخبـر كمـا قـال تعـالى : ﴿ غـلبت الروم * فى أدنى الأرض ﴾ ،[سـورةالروم : ٢، ٣] ثم قال : ﴿ وهم من بعد غلبهم سيـغلبون * فى بضع سنين * لله الأمر من قبل ومن بـعد ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصـر الله ينصـر من يشاء ﴾،

[سورة الروم : ٢ - ٥].

وقال تعالى : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٣ - ٢٤] . فأخبر أنهم لم يفعلوا ذلك فى المستقبل وكان كما أخبر .

وقال تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾، [سورة الإسراء : ٨٨]

فأخبر أنه لا يقدر الإنس والجن إلى يوم القيامة أن يأتوا بمثل هذا القرآن وهذا الخبر قد مضى له أكثر من سبعمائة سنة (١) .، ولم يقدر أحد من الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، وقال عن الكفار وهو بمكة ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ ، [سورة القمر : ٥] . وظهر تصديق ذلك يوم بدر وغيره بعد ذلك بسنين كثيرة .

وقال تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنًا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ﴾ ، [سورة النور : ٥٥].

وكان الأمر كما وعده وظهر تصديق ذلك بعد سنين كثيرة ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدًا ﴾ [سورة الفتح : ٢٨].

فأظهر الله ما بعثه به بالآيات والبرهان واليد والسنان .

وقال تعالى : ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد ﴾ ،[سورة آل عمران : ١٢] .

---

(١) مضى الآن الف وأربعمائة وأربعة عشر عاما (الناشر)

فكان كما أخبرهم غلبوا فى الدنيا كما شاهده الناس وهذا يصدق الخبر الآخر وهو أنهم يحشرون إلى جهنم وبئس المهاد ، وقد أيده تأييدًا لا يؤيده إلا الأنبياء بل لم يؤيد أحد من الأنبياء كما أيده كما أنه بعث بأفضل الكتب إلى أفضل الأمم بأفضل الشرائع ، وجعله سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم ، فلا يعرف قط أحد ادعى النبوة وهو كاذب إلا قطع الله دابره وأذله وأظهر كذبه وفجوره وكل من أيده الله من المدعين للنبوة لم يكن إلا صادقًا كما أيد نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى وداود وسليمان ، بل وأيد شعيبًا وهودًا وصالحًا فإن سنة الله أن ينصر رسله والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد وهذا هو الواقع ، فمن كان لا يعلم ما يفعله الله إلا بالعادة فهذه عادة الله وسنته تعرف بهاما يصنع ، ومن كان يعلم ذلك بمقتضى حكمته فإنه يعلم أنه لا يؤيد من ادعى النبوة وكذب عليه تأييدًا لا يمكن أحدًا معارضته ، وهكذا أخبرت الأنبياء قبله أن الكذاب لا يتم الله أمره ولا ينصره ويؤيده فصار هذا معلومًا من هذه الجهات ولهذا أمر سبحانه أن نعتبر بما فعله فى الأمم الماضية من جعل العاقبة للأنبياء وأتباعهم ، وانتقامه ممن كذبهم وعصاهم .

وقال تعالى : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ ، [سورة غافر: ٥١] .

وقال تعالى : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ ، [سورة الصافات : ١٧١ - ١٧٣] .

وقال تعالى : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ﴾ ، [سورة غافر : ٥].

قال تعالى : ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز * الذين إن مكناهم فى

الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعـــروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور * وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود * وقوم إبراهيم وقوم لوط * وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير * فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد * أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ ، [سورة الحج : ٤٠ - ٤٦]

وقال تعالى : ﴿ أولم يسيروا فى الأرض فينظرو كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون * ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوء أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ﴾ [سورة الروم : ٩، ١٠] وقال تعالى : ﴿ ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم فى البلاد * كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ﴾ ، [سورة غافر : ٤ - ٥]

وقال تعالى : ﴿ أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشدهم منهم قوة وآثارًا فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق * ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوى شديد العقاب ﴾ ، [سورة غافر : ٢١ ، ٢٢]

وقال تعالى ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارًا فى الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون * فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به

يستهزئون * فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم بك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾ ، [سورة غافر : ٨٢ ، ٨٥].

وقال تعالى : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد * وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب * إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب ﴾ ، [سورة ص : ١٢ - ١٤].

وقال تعالى : ﴿ وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين * فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ﴾ ، [سورة الشعراء : ٥ ، ٦] .

فأخبر أن المكذبين له سيأتيهم فى المستقبل أخبار القرآن الذى استهزءوا به وبين أن ما أخبرهم به حق بوقوع الخبر مطابقًا للخبر وكان الأمر كذلك ومثله قوله : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد ﴾ ، [سورة فصلت : ٥٣]

أخبر أنه سيريهم فى أنفسهم وفى الآفاق ما يبين أن القرآن حق ، بأن يروا ما أخبر به كما أخبر به ، ثم قال : ﴿ أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد ﴾ [سورة فصلت : ٥٣] فإنه قد يشهد للقرآن بأنه حق بالآيات البينات والبراهين الدالة على صدقه التى تتبين بشهادة الرب بأنه حق فلا يحتاج مع الشهادة الحاضرة إلى انتظار الآيات المستقبلة .

وقال تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر * وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر * وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر * حكمة بالغة فما تغنى النذر ﴾ ، [سورة القمر : ١ - ٥] .

أخبر باقتراب الساعة وانشقاق القمر . وانشقاق القمر قد عاينوه وشاهدوه

وتواترت به الأخبار وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه السورة فى المجامع الكبار مثل الجمع ولأعياد ؛ ليسمع الناس ما فيها من آيات النبوة ودلائلها والاعتبار وكل الناس يقر ذلك ولا ينكره ، فعلم أن انشقاق القمر كان معلومًا عند الناس عامة . ثم ذكر حال الأنبياء ومكذبيهم فقال : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر * فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر * ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر * وحملناه على ذات ألواح ودسر * تجرى بأعيننا جزاءً لمن كان كفر * ولقد تركناها آية فهل من مدكر ﴾ [سورة القمر : ٩ - ١٥]

فأخبر أنه أبقى السفن آية على قدرة الرب وعلى ما جرى لنوح مع قومه ، ثم قال : فكيف كان عذابى لمن كذب وكفر ؟ وكذلك ذكر قصة عاد وثمود ولوط وغيرهم . يقول فى عقب كل قصة : فكيف كان عذابى ونذر ؟ ونذر إنذاره وهو ما بلغته عنه الرسل من الإنذار ، وكيف كانت عقوبته للمنذرين : والإنذار : هو الإعلام بالمخوف ، فتبين بذلك صدق ما أخبرت به الرسل من الإنذار وشدة عذابه لمن كذب رسله ، وذكر قصة فرعون فقال : ﴿ ولقد جاء آل فرعون النذر * كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر * أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر * أم يقولون نحن جميع منتصر * سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ ، [سورة القمر : ٤١ - ٤٥].

وذكر فى قصة محمد صلى الله عليه وسلم مع الناس أنواعا من ذلك فقال : ﴿ قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٣].

وقال تعالى : ﴿ هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول

الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار * ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار * ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب ﴾ ، [سورة الحشر : ٢ - ٤].

ومثل هذا كثير فى القرآن من ذكر دلائل النبوة وأعلام الرسالة ليس هذا موضع بسطه ، وإنما المقصود هنا التنبيه على جنس ذلك . وما يذكره بعض أهل الكتاب أو غيرهم من أنه نصر فرعون ونمرود وسنجاريب وجنكسخان وغيرهم من الملوك الكافرين . جوابه ظاهر ، فإن هؤلاء لم يدع منهم النبوة وأن الله أمره أن يدعو إلى عبادته وطاعته ، ومن أطاعه دخل الجنة ، ومن عصاه دخل النار : بخلاف من ادعى أن الله أرسله بذلك فإنه لا يكون إلا رسولا صادقًا ينصره الله ويؤيده وينصر أتباعه ويجعل العاقبة لهم أو يكون كذابًا فينتقم الله منه ويقطع دابره ، ويتبين أن ما جاء به ليست من الآيات والبراهين التى لا تقبل المعارضة ، بل هى من جنس مخارق السحرة والكهان والكذابين التى تقبل المعارضة ، فإن معجزات الأنبياء من خواصها أنه لا يقدر أحد أن يعارضها ويأتى بمثلها بخلاف غيرها فإن معارضتها ممكنة فتبطل بدلالتها والمسيح الدجال يدعى الألوهية ويأتى بخوارق ، ولكن نفس دعواه الألوهية دعوى ممتنعة فى نفسها ، ويرسل الله عليه المسيح ابن مريم فيقتله ويظهر كذبه ، ومعه ما يدل على كذبه من وجوه . منها أنه مكتوب بين عينيه كافر . ومنها أنه أعور والله ليس بأعور ومنها أن أحدًا لن يرى ربه حتى يموت . ويريد أن يقتل الذى قتله أولا فيعجز عن قتله فمعه من الدلائل الدالة على كذبه ما يبين أن ما معه ليس آية على صدقه ، بخلاف معجزات الأنبياء فإنه لا يمكن أحد من الإنس والجن أن يأتى بنظيرها ولا يبطلها ، مثل قلب العصا حية لموسى ، وإخراج ناقة لصالح من الأرض

وإحياء الموتى للمسيح ، وانشقاق القمر وإنزال القرآن وغير ذلك لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فإن المشركين لما سألوا النبى صلى الله عليه وسلم آية واقترحوا عليه انشقاق القمر فأراهم ذلك .

وقد أخبر الله تعالى بذلك فى القرآن فقال تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر * وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر * وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر * ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر * حكمة بالغة فما تغنى النذر * فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شئ نكر * خشعًا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر * مهطعين إلى الداع يقول الكافرين هذا يوم عسر ﴾ ، [سورة القمر : ١ - ٨] .

ثم ذكر تعالى ما جرى قبله للمكذبين مع رسلهم فذكر قصة قوم نوح وهود وصالح ولوط ثم فرعون وهذه السورة كان النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ بها فى أعظم اجتماعات الناس عنده وهى الأعياد والناس كلهم يسمعون ما يذكره من انشقاق القمر . وقول المكذبين إنه سحر ، والناس كلهم : المؤمن به والمنافق ، والنصارى بعد النسخ والتبديل ، أقرب إلى الحق فى الأمور الإلهية منهم .

وهذه الأمور مبسوطة فى موضع آخر ، ولكن نبهنا عليها لتعلقها هنا بقول هؤلاء النصارى إن صفات الرب الثلاث هى جوهرية دون غيرها ، وإنهم إن عنوا بذلك ما يعنيه هؤلاء بالذاتية ، فقولهم باطل ، مبنى على أصل باطل . فإن تفريق هؤلاء اليونان فى الصفات اللازمة بين الذاتى والعرضى اللازم للموجود، والعرضى اللازم للماهية ، والعرضى اللازم للموصوف فرق باطل ، وقد ذكروا ثلاث فروق كلها باطلة ، كما تقدم :

الأول : الوسط .

والفرق الثاني : تقدم الذاتي ذهنًا ، ووجودًا بخلاف اللازم العرضي .

والثالث : توقف الحقيقة على الذاتي .

وقد تبين بطلان هذا في غير هذا الموضع . والنصارى ليس مرادهم بالجوهرية ما يريده هؤلاء بالذاتية ، فلهذا لم نبسط الكلام عليه ، بل يقولون : إن الثلاثة جواهر ، وهؤلاء المنطقيون يفرقون بين اللازم للماهية ، واللازم لوجودها بناء على أن في الخارج شيئين : الوجود ، وما هية أخرى غير الوجود .

والكلام على هذا كله مبسوط في موضع آخر .

ومنها : أنه لوقدر أن صفات الموصوفات اللازمة لها تنقسم إلى ذاتي مقوم ، وعرضي لازم ، وأن صفات الرب سبحانه كذلك ، لم يكن تخصيص العلم بأنه ذاتي أولى من القدرة ، فليس ذكر القائم بنفسه الحي العالم بأولى من ذكر القائم بنفسه الحي القادر .

والنصارى لما كانت الأقانيم عندهم ثلاثة ، وزعموا أن الشرع المنزل دل على ذلك ، وكانوا في ذلك مخالفين للشرع المنزل إليهم ، كما قد بسط في موضعه ، صار طائفة منهم يقولون : موجود حي عالم ، وطائفة يقولون : موجود عالم قادر ، فيجعلون القادر مكان الحي ، ويجعلون روح القدس هو القدرة .وهذا القول وإن كان أحسن في المعنى ، لكن تفسير روح القدس بالقدرة في غاية البعد الذى يظهر فساده لكل أحد ، ولابد لهم من إثبات أقنوم الكلمة الذى يقولون تارة : هي العلم ، وتارة : هي الحكمة ، ويسمونها تارة : النطق ، كما سموها في كتابهم هذا ، لأن الذى اتحد بالمسيح عندهم هي أقنوم الكلمة فصاروا تارة يضمون إليها الحياة ، وتارة يضمون إليها القدرة . والأب تارة يقولون : هو الوجود ، وتارة يقولون : القائم بنفسه ، وتارة يقولون : الذات ، وتسمى القائم بنفسه بالسريانية : الكيان ، وتارة يقولون : الجود .

وكل هذا من الحيرة والضلال ، لأنهم لا يجدون ثلاث معانى هى المستحقة لأن تكون جوهرية دون غيرها من الصفات سواء فسرت الجوهرية بأنها جواهر ، أو بأنها ذاتية مقومة أو بغير ذلك .

ومنها قولهم : تجرى مجرى أسماء ، فإن أرادوا بذلك أسماء أعلام أو جامدة ، وسائرها صفات ، فاسم الحى والعالم اسم مشتق يدل على معنى العلم والحياة ، كما يدل القدير على القدرة ، وإن أرادوا أنه يسمى بها ، فلله تعالى أسماء كثيرة ، فإنه سبحانه له الأسماء الحسنى .

ومن أسماء القدير والقدرة تستلزم من قدرته على المخلوقات ما لا يدل عليه العلم ، وخلقه للمخلوقات يدل على قدرته أبلغ من دلالته على علمه ، واختصاصه بالقدرة أظهر من اختصاصه بالعلم ، حتى إن طائفة من النظار كأبى الحسن الأشعرى ، وغيره يقول : أخص وصفه القدرة على الاختراع ، فلا يوصف بذلك غيره . والجهم بن صفوان قبله يقول : ليس فى الوجود قادر غيره ، ولا لغيره قدرة ، والأشعرى وإن أثبت للمخلوق قدرة ، لكن يثبت قدرة لا تؤثر فى المقدور ، ولم يقل أحد من العقلاء إن أخص وصفه الحياة والعلم ، ولا أن غيره ليس بحى ، ولا عالم فكان جعل القدير اسما وغيره صفة إن كان الفرق حقا أولى من العكس ، فكيف إذا كان الفرق باطلا فإن أسماءه تعالى التى يعرفها الناس هى أسماء وهى صفات فى اصطلاح أهل العربية تدل على معانى ، هى صفاته القائمة به فالحى يدل على الحياة والعليم يدل على العلم والقدير يدل على القدرة هذا مذهب سلف الأمة وجماهيرها وجماهير الأمم . ومن الناس فرقة شاذة تزعم أن هذه الأسماء لا تدل على معانى كأسماء الأعلام ، وقد تنازع الناس فيما يسمى به سبحانه ، ويسمى به غيره كالحى والعليم والقدير .

فالجمهور على أنه حقيقة فيهما وقالت طائفة كأبى العباس الناشئ : إنها حقيقة

فى الرب عـزوجل مـجـاز فى المخلوق . وقـالـت طائفـة عكس هؤلاء من الجـهـمـيـة والملاحدة والمتفلسفة إنها مجـاز فى الرب عز وجل حقيقة فى المخلوق ، والأولون هى عندهم متواطئة ، وقد يـسمونها مشككة لما فيها من التفـاضل . وبعضهم يقول : هى مشتركة اشتراكا لفظيًا .

فصل فى قولهم فى تباين الصفات وتوافقها

وأما قولهم : كل صـفة منهـا غيـر الأخـرى ، فهـذا إن أرادوا به أن صفـات الرب سبحانه وتعـالى قد تباينه وتنفصل عنه ، وهو حقيقـة قولهم ، ويقولون مع ذلك إنها متـصلة به فهـو جمع بين النقـيضين ، وتمثيلهم بشعـاع الشمس تمثـيل باطل ، وهو حجة عليهم لا لهم .

فإن الـشعـاع القائم بالهـواء والأرض والجبـال والشجـر والحيطان ، ليس هو قـائم بذات الشمس .

والقائم بذات الشـمس ، ليس هو قائمًا بالهـواء والأرض . فإن قالوا : مـا يقوم به من العلم يفيض منه على قلوب الأنبياء علوم ، كمـا يفيض الشعاع من الشمس . قيل لهم : لا اختصـاص للمسيح بهذا ، بل هذا قـدر مشترك بينه وبين غيـره من الأنبياء ، وليس فى هذا حلول ذات الرب ولا وصـفتـه القائمـة به بشئ من مخلوقـاته ، ولا أن العـبد بما حل فـيه من العلم والإيمان يصير إلهـا معبودًا ، وإن أرادوا أنهـا قائمـة به ، وتسمى كل واحدة غير الأخرى .

فهنـاك نزاع لفظى : هل تسمى غيرًا أو لا تسمى غيرًا ؟ فإن من الناس من يقول : كل صفة للرب عز وجل فهى غير الأخرى ، ويقول : الغير إن ما جاز وجود أحدهما مع عدم الآخر ، أو ما جاز العلم بأحدهمـا مع الجهل بالآخر . ومنهم من يقول ليست هى الأخرى ، ولا هى هى لأن الغيـرين ما جاز وجود أحدهما مع عـدم الآخر ، أو ما

جاز مفارقة أحدهما الآخر ، بزمان أو مكان أو وجود .والذى عليه سلف الأمة وأئمتها إذا قيل لهم علم الله وكلام الله ، هل هو غير الله أم لا ؟ لم يطلقوا النفى ولا الإثبات ، فإنه إذا قيل لهم غيره أوهم أنه مباين لهم .

وإذا قال ليس غيره أوهم أنه هو ، بل يستفصل السائل ، فإن أراد بقوله غيره أنه مباين له منفصل عنه فصفات الموصوف لا تكون مباينة له منفصلة عنه ، وإن كان مخلوقًا ، فكيف بصفات الخالق ؟ وإن أراد بالغير أنها ليست هى هو ، فليست الصفة هى الموصوف ، فهى غيره بهذا الاعتبار ، واسم الرب تعالى إذا أطلق يتناول الذات المقدسة بما يستحقه من صفات الكمال ، فيمتنع وجود الذات عرية عن صفات الكمال .

فاسم الله يتناول الذات الموصوفة بصفات الكمال ، وهذه الصفات ليست زائدة على هذا المسمى ، بل هى داخلة فى المسمى ولكنها زائدة على الذات المجردة التى تثبتها نفاة الصفات ، فأولئك لما زعموا أنه ذات مجردة قال هؤلاء بل الصفات زائدة على ما أثبتموه من الذات .

وأما فى نفس الأمر ، فليس هناك ذات مجردة تكون الصفات زائدة عليها ، بل الرب تعالى هو الذات المقدسة الموصوفة بصفات الكمال ، وصفاته داخلة فى مسمى أسمائه سبحانه وتعالى ومعلوم أن فى هذه الدواب منافع غير الركوب ، وقال تعالى : ﴿ يلقى بالروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق * يوم هم بارزون ﴾ .[سورة غافر ١٥، ١٦] .

فقد أخبر أنه ينزل الملائكة بالوحى على الأنبياء لينذروا يوم القيامة وذلك لا يمنع أن يكونوا نزلوا بالبشارة للمؤمنين والأمر والنهى بالشرائع

وقال تعالى : ﴿ الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر

بينهن لتعلموا أن الله على كل شئ قدير وأن الله قد أحاط بكل شئ علما ﴾ [سورة الطلاق : ١٢] .

فأخبر تعالى أنه خلق العالم العلوى والسفلى ليعلم العباد قدرته وعلمه ومع هذا ففى خلق ذلك له من الحكمة أمور أخرى غير علم العبادة ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض وأن الله بكل شئ عليم ﴾ ، [سورة المائدة : ٩٧] .ومعلوم أن فى جعل الكعبة قياماً للناس والهدى والقلائد حكما ومنافع أخرى وقال تعالى : ﴿ ولله ما فى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ [سورة النجم : ٣١] .

ومعلوم أن فى ملك الله حكما أخرى غير جزاء المحسن والمسئ ، وكذلك قوله : ﴿ وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ ، [سورة الجاثية : ٢٢] .

وقال تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح - إلى قوله - رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ ، [سورة النساء : ١٣٦ - ١٦٥] .

ومعلوم أن فى إرسال الرسل سعادة من آمن بهم وغيرها حكم أخرى غير دفع حجة الخلق على الله وكذلك قوله تعالى : ﴿ كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم ﴾ [سورة الحج : ٣٧] .

ومعلوم أن فى تسخيرها حكماً ومنافع غير التكبير ، وقوله : ﴿ ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ﴾ ، [سورة البقرة : ١٨٥] .

وقال تعالى : ﴿ وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار *

وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار * وآتاكم من كل ما سالتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ ، [سورة إبراهيم : ٣٢ - ٣٤].

ومعلوم أن لله حكمًا فى خلق الشمس والقمر والليل والنهار ، غير انتفاع بنى آدم ، وكذلك قوله : ﴿ هو الذى جعل الليل والنهار لتسكنوا فيه ﴾ ،[سورة يونس : ٦٧] ، وقوله ﴿ وهو الذى جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكرأوأراد شكورًا ﴾ ، [سورة الفرقان : ٦٣] ، وفيهما حكم أخرى ،

وقال تعالى : ﴿ وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ [سورة البقرة :٢١٣]

وفى إنزال الكتاب من هدى من اهتدى به واتعاظه وغير ذلك مقاصدغير الحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه .

وقال تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدًا عليه حقًا ولكن أكثر الناس لا يعلمون * ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ﴾ ؛ [سورة النحل : ٣٨ ، ٣٩] .

ومعلوم أن فى بعث الخلق يوم القيامة مقاصد غير بيان المختلف فى علم هؤلاء ، ومما يبين ذلك أنه قال فى الآية التى احتجوا بها : ﴿ لتنذر قومًا ما أنذر آباؤهم ، [سورة يس : ٦] .

ومعلوم أنه لم يبعث لمجرد الإنذار بل وليبشر من آمن به ، ولأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، وتحليل الطيبات ، وتحريم الخبائث ، وغير ذلك من مقاصد الرسل كما قال تعالى ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين ﴾ ، [سورة النساء : ١٦٥]

وقوله : ﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ﴾ لا ينافى كونه لم يصفهم

فى موضع آخر إلا بالإنذار ، وقد قال : ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا * قيما لينذر بأسًا شديدًا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا حسنًا *ماكثين فيه أبدًا * وينذر الذين قالوا إتخذ الله ولدًا * مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾ ، [سورة الكهف : ١ - ٥] .

وكان المسلمون مرة صلوا صلاة العيد بحضرة حصار النصارى فقام خطيبهم فخطب بهذه الآية ولما قرأ قوله : ﴿ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ﴾ ، [سورة الكهف : ٢] أشار إلى جند الإيمان ، ولما قرأ قوله : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذا لله ولدًا ﴾ ، [سورة الكهف : ٤] أشار إلى جند الصلبان .

وقال تعالى : ﴿ وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٥] . وفى إنزال الكتاب والميزان حكم أخرى من البشارة والإنذار وغير ذلك ، وكذلك قوله عن أهل الكهف : ﴿ ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدًا ﴾ ، (سورة الكهف : ١٢] وفى بعثهم حكم أخرى بدليل قوله : ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها ، [سورة الكهف : ٢١] .

وقال تعالى : ﴿ فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدًا * ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ﴾ [سورة الجن : ٢٧ ، ٢٨] .

ومعلوم أن فى ذلك مقاصد أخرى من هداية الخلق ، وقيام الحجة على من بلغهم وغير ذلك . وقوله : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ﴾ [سورة ص : ٢٩] وفيه حكم أخرى من قيام الحجة على الخلق وضلال من ضل به ، ومثله قوله : ﴿ هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد

وليذكر أولوا الألباب ﴾ . [سورة إبراهيم : ٥٢] .

ومعلوم أن فى ذلك مقاصد أخرى من البشارة والأمر بالنهى وغير ذلك ، وكذلك قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم * لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقـــدرون على شئ من فضل الله وأن الفضل بيد الله ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٨ ، ٢٩] .

ومعلوم أن فى جزاء المؤمنين مقاصد أخرى غير علم أهل الكتاب وما معه .

وقال تعالى : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ، ولتنذر أم القرى ومن حولها ﴾ ، [سورة الأنعام : ٩٢].

ومعلوم أن فيه حكما أخرى مثل تبشير من آمن به ، والأمر ، والنهى ، وإنذار هؤلاء من العرب .

وقال تعالى : ﴿ إن هو إلا ذكر و قرآن مبين * لينذر من كان حيًا ويحق القول على على الكافرين ﴾ ، [سورة يس : ٦٩، ٧٠] .

ومعلوم أن فيه حكمة أخرى غير الإنذار .

وقال تعالى : ﴿ ومن قبله كتاب موسى إمامًا ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانًا عربيًا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين ﴾ ، [سورة الأحقاف : ١٢]

ومعلوم أن فيه حكمة أخرى من إنذار الخلق كلهم وأمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر ، وتبشيرالمؤمنين ، فقال تعالى : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقًا غليظًا * ليسأل الصادقين عن صدقهم ﴾ . [سورة الأحزاب : ٧ ،٨] . ومعلوم أن فى أخذ الميثاق حكمًا أخرى .

وقال تعالى ﴿ إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطًا مستقيما ﴾ ، [سورة الفتح : ١ ، ٢] .

وقوله : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ـ لنريه من آياتنا ﴾ ، [سورة الإسراء : ١] .

وقوله : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين ـ إلى قوله ـ لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ ، [سورة النساء : ١٢] .

وكذلك قوله : ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ .[سورة يونس :٥] : وفى ذلك كله حكم أخرى ، وكذلك قوله : ﴿ فالتقطعه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزنًا ﴾ [سورة القصص :٨] . وإن كانت هذه اللام لام العاقبة ، فليست العاقبة منحصرة فى ذلك ، بل فى ذلك من الإحسان إلى موسى وتربيته وغير ذلك حكم أخرى ، ومثل قوله ﴿ وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٣٧].

وقال تعالى : ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ﴾ ، [سورة الصف :٩] وفى إرساله حكم أخرى ، وكذلك قوله : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ﴾ [سورة النساء : ١٠٥].

وفى إنزاله تبشير وإنذار وأمر ونهى ، ووعد ووعيد ، وكذلك قوله فى عيسى ابن مريم : ﴿هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرًا مقضيًا ﴾ ، [سورة مريم :١٩] . وكذلك قوله : ﴿ الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ﴾ ، [سورة الجاثية : ١٢] وفيه حكم أخرى ، كما قال تعالى فى

الآية الأخرى : ﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحمًا طريًا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ﴾ ، [سورة النحل : ١٤] .

وقال تعالى : ﴿ وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحمًا طريًا ، وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ ، [سورة فاطر :١٢] .

وقال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً - إلى قوله - ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ماهم مقترفون ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٢٢ - ١٢٣] .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ ، [سورة البقرة : ١٤٣] . وفى كونهم وسطا حكم أخرى ، وكذلك قوله : ﴿الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ ، [سورة الملك : ٢] .

وفيهما حكم أخرى ، وكذلك قوله : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾ . [سورة الفرقان : ١]

وفى ذلك حكم أخرى من البشارة والأمر والنهى .

وقال تعالى : ﴿ وليعلم الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء - إلى قوله - وليمحص الله الذين آمنوا ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٤٠ - ١٤١]

وفى ذلك حكم أخرى ، ومثل ذلك كثير فى كلام الله عز وجل ، وغير كلام الله إذا ذكر حكمة للفعل لم يلزم أن لا تكون له حكمة أخرى ، لكن لا بد لتخصيص تلك الحكمة بالذكر فى ذلك الموضع من مناسبة ، وهذا كالمناسبة فى قوله : ﴿ لتنذر

قومًا ما أنذر آباؤهم ﴾ ، [سورة يس : ٦] . فإن هؤلاء كانوا أول المنذرين ، وأحقهم بالإنذار ، فكان فى تخصيصيهم بالذكر فائدة لا أنه خصهم لا نتفاء إنذار من سواهم .

وقال تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربى مبين ﴾ ، [سورة الشعراء : ١٩٣ - ١٩٥] .

ومعلوم أنه نزل به ليكون بشيرًا ، وليأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويحل الطيبات ، ويحرم الخبائث ، ويضع الآصار والأغلال صلى الله عليه وسلم .

فصل

وأما احتجاجهم بقوله تعالى : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ﴾ ، [سورة البقرة : ١٥١] . وقوله تعالى﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ﴾ ، [سورة آل عمران :١٦٤] فهذا كقوله تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ ، [سورة التوبة : ١٢٨] .وهذا فى عمومه نزاع ؛ فإنه إما أن يكون خطابا لجميع الناس ، ويكون المراد إنا بعثنا إليكم رسولا من البشر ، إذ كنتم لا تطيقون أن تأخذوا عن ملك من الملائكة ، فمن الله عليكم بأن أرسل إليكم رسولا بشريا .

قال تعالى : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون * ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾ ، [سورة الأنعام : ٨، ٩] .

وإما أن يكون الخطاب للعرب ، وعلى التقديرين ، فإن ما تضمن ذكر إنعامه على المخاطبين بإرساله رسولا من جنسهم ، وليس فى هذا ما يمنع أن يكون مرسلا إلى

غيرهم ، فإنه إن كان خطابا للإنس كلهم ، فهو أيضًا مرسل إلى الجن ، وليس من جنسهم ، فكيف يمنع إذا كان الخطاب خطابا للعرب بما امتن به عليهم ، أن يكون قد امتن على غيرهم بذلك ، فالعجم أقرب إلى العرب من الجن إلى الإنس ، وقد أخبر فى الكتاب العزيز أن الجن لما سمعوا القرآن آمنوا به .قال تعالى : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفرًا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه و قالوا : أنصتوا ، فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين * قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابًا أنزل من بعد موسى مصدقًا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم * ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم * ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض ﴾ ، [سورة الأحقاف : ٢٩ - ٣٢] .

وقال : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبًا * يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا * وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا * وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططًا * وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا* وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا * وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا * وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسًا شديدًا وشهبًا * وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا * وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا * وأنامنا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا * وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا * وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا * وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا * وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا * وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقًا * لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدًا * وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا * وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا

يكونون عليه لبدا * قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا * قل إنى لا أملك لكم ضراً ولا رشدا * قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً * إلا بلاغا من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا * حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً * قل إن أدرى أقريب ما توعدون أم يجعل له ربى أمداً * عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً * إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا * ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شئ عددا ﴾ ،[سورة الجن] .

ونظير هذا قوله : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ، وسوف تسألون ﴾ ، [سورة الزخرف : ٤٤] . وقومه قريش ، ولا يمنع أن يكون ذكراً لسائر العرب بل لسائر الناس ، كما قال تعالى : ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون * وما هو إلا ذكر للعالمين ﴾ ، [سورة القلم : ٥١ ، ٥٢]

وقال تعالى : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾ ،[سورة الفرقان : ١] .

وقال تعالى : ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين * إن هو إلا ذكر للعالمين * ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ ، [سورة ص : ٨٦ - ٨٨]

وقال تعالى : ﴿ إنه لقول رسول كريم * ذى قوة عند ذى العرش مكين * مطاع ثم أمين * وما صاحبكم بمجنون * ولقد رآه بالأفق المبين * وما هو على الغيب بضنين * وما هو بقول شيطان رجيم * فأين تذهبون * إن هو إلا ذكر للعالمين * لمن شاء منكم أن يستقيم * وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ ، [سورة التكوير : ١٩ - ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيداً ﴾ ، [سورة النساء : ٧٩] . وهذا على أصح القولين ، وأن المراد بقوله : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ ، وإنه ذكر لهم يذكرونه فيهتدون به . وقيل : إن المراد أنه شرف لهم وليس بشئ ، فإن القرآن هو شرف لمن آمن به من قومه وغيرهم ، وليس شرفا لجميع قومه ، بل من كذب به منهم كان أحق بالذم ، كما قال تعالى : ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب ﴾ [سورة المسد : ١]

وقال تعالى : ﴿ وكذب به قومك وهو الحق ﴾ [سورة الأنعام : ٦٦]

بخلاف كونه تذكرة وذكرى فإنه تذكرة لهم ولغيرهم ، كما قال تعالى ﴿ قل لا أسألكم عليه أجرًا إن هو إلا ذكرى للعالمين ﴾ ، [سورة الأنعام : ٩٠] .

فعم العالمين جميعهم ، فقال ﴿ وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ [سورة يوسف : ١٠٤] .

فصـــل

هذا الكلام على **الوجه الأول** ، وهو قول من يقول إنه لم يقل إنه أرسل إلا إلى العرب .

وأما الوجه الثانى ، وهو أن نقول : هو ذكر أنه رسول إلى الناس كافة كما نطق به القرآن فى غير موضع ، كقوله تعالى ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾ ، [سورة سبأ : ٢٨] . وقوله : ﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعًا الذى له ملك السموات والأرض] ، [سورة الأعراف : ١٦٨]

وقد صرح فيه بدعوة أهل الكتاب وبدعوة الجن فى غير موضع فإذ أسلموا أنه ذكر ذلك ولكن كذبوه فى ذلك ، فإما أن يقروا برسالته إلى العرب أولا يقروا . فإن أقروا بأنه رسول أرسله الله لم يكن مع ذلك ، تكذيبه كما تقدم ، بل يجب الإقرار برسالته إلى جميع الخلق كما أخبر بذلك ، كما تقدم أن من ذكر أنه رسول الله لا

يكون إلا من أفضل الخلق وأصدقهم ، أو من شر الخلق وأكذبهم ، فإنه إن كان صادقًا فهو من أفضلهم ، وإن كان كاذبًا فهو من شرهم ، وإذا كان الله قد أرسله - ولو إلى قرية كما أرسل يونس بن متى إلى أهل نينوى ، كان من أفضل الخلق ، وكان صادقًا لا يكذب على الله ، ولا يقول عليه إلا الحق ، ولو كذب على الله ولو في كلمة واحدة ، لكان من الكاذبين ، لم يكن من رسل الله الصادقين ، فإن الكاذب لا يكذب في كل شئ ، بل في البعض فمن كذب على الله في كلمة واحدة ، فقد افترى على الله الكذب ، وكان من القسم الكاذبين في دعوى الرسالة لا من الصادقين . وأيضًا فإن مقصود الرسالة تبليغ رسالات الله على وجهها ، فإذا خلط الكذب بالصدق لم يحصل مقصود الرسالة ، وأيضًا فإذا علم أنه كذب في بعضها لم يتميز ما صدق فيه مما كذب فيه إلا بدليل آخر غير رسالته ، فلا يحصل المقصود برسالته .

ولهذا أجمع أهل الملل قاطبة على أن الرسل معصومون فيما يبلغونه عن الله تبارك وتعالى لم يقل أحد قط أن من أرسله الله يكذب عليه ، وقد قال تعالى ما يبين أنه لا يقر كاذبًا عليه بقوله تعالى : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ ،[سورة الحاقة : ٤٤ - ٤٧] .

وقال تعالى : ﴿ أم يقولون افترى على الله كذبًا فإن يشإ الله يختم على قلبك ﴾ ، [سورة الشورى : ٢٤] . ثم قال تعالى : ﴿ ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته ﴾ ، [سورة الشورى : ٢٤]

فقوله تعالى : (ويمح الله الباطل ويحق الحق) كلام مستأنف ليس داخلا في جواب الشرط ، فإنه لو كان معطوفًا على جواب الشرط لقال : ويحق الحق بالكسر لالتقاء الساكنين ، كما في : (قم الليل) فلما قال : ويحق الحق بالضم دل على أنه جملة مستأنفة أخبر فيها أنه تعالى يمحو الباطل كباطل الكاذبين عليه ، ويحق الحق

كحق الصادقين عليه ، فمحو الباطل نظير إحقاق الحق ليس مما علق بالمشيئة بل لابد منه بخلاف الختم على قلبه ، فإنه معلق بالمشيئة ولا يجوز أن يعلق بالمشيئة محو الباطل كتعليق الختم ، بل يقذف بالحق على الباطل فيدمغه .

وقال تعالى فى صيانته وإحكامه لما تبلغه رسله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم * ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاق بعيد * وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ ، [سورة الحج : ٥٢ - ٥٤] .

وأيضًا : فإذا لم يكن أرسل إلا إلى العرب وقد دعا اليهود والنصارى إلى الإيمان به ، وكفرهم إذا لم يؤمنوا به ، وجاهدهم وقتل مقاتلهم وسبى ذراريهم ، كان ذلك ظلمًا لا يفعله إلا من هو من أظلم الناس ، ومن كان نبيًا قد أرسله الله فهو منزه عن هذا وهذا . فالإقرار برسالته إلى العرب دون غيرهم - مع ما ظهر من عموم دعوته للخلق كلهم - قول متناقض ظاهر الفساد وكل مادل عليه أنه رسول فإنه يستلزم رسالته إلى جميع الخلق وكل من إعترف بأنه رسول لزمه الاعتراف بأنه رسول إلى جميع الخلق ، وإلا لزم أن يكون الله أرسل رسولا يفترى عليه الكذب ، ويقول للناس : إن الله أمركم باتباعى وأمرنى بجهادكم إذا لم تفعلوا وهو كاذب فى ذلك ومعلوم أن كل مادل على أن الله أرسله ، فإنه يدل على أنه صادق فى الرسالة وإلا فلا . فالرسول الكاذب لا يحصل به مقصود الرسالة ، بل يكون من جملة المفترين على الله الكذب ، وأولئك ليسوا من رسل الله ، ولا يجوز تصديقهم فى قولهم : إن الله أرسلهم .

فصـــل

وأما إن يقروا برسالته لا إلى العرب ولا غيرهم بل قالوا فيه ما كان يقوله مشركو العرب من أنه شاعر ، أوساحر ، أو مفتر كاذب ونحو ذلك فيقال لهم على هذا التقدير فدليلكم أيضاً باطل ، ولا يجوز أن تحتجوا بتقدير تكذيبكم لمحمد صلى الله عليه وسلم بشئ من كلام الأنبياء قبله سواء صدقتم محمداً صلى الله عليه وسلم فى جميع ما يقوله أو فى بعضه أو كذبتموه فدليلكم باطل فليزم بطلان دينكم على كل تقدير ، وما ثبت بطلانه على كل تقدير ، فهو باطل فى نفس الأمر ، فيثبت أنه باطل فى نفس الأمر ، وذلك أنكم إذا كذبتم محمداً لم يبق لكم طريق تعلمون به صدق غيره من الأنبياء مع تكذيبه القول بصدق غيره ، بل من اعتقد كذبه وصدق غيره ، لم يكن عالمًا بصدق غيره بل يكون مصدقًا لهم بغير علم وإذا لم يكن عالمًا بصدقهم لم يجز إحتجاجه قط بأقوالهم بل ذلك قول منه بلاعلم ومحاجة فيما لا علم له بها فإن الدلائل الدالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم أعظم وأكثر من الدلائل الدالة على صدق موسى وعيسى ومعجزاته وأعظم من معجزات غيره ، والكتاب الذى أرسل به أشرف من الكتاب الذى بعث به غيره ، والشريعة التى جاء بها أكمل من شريعة موسى وعيسى عليهما السلام وأمته أكمل فى جميع الفضائل من أمة هذا وهذا ولا يوجد فى التوراة والإنجيل علم نافع وعمل صالح إلا وهو فى القرآن مثله وأكمل منه ، وفى القرآن من العلم النافع والعمل الصالح ما لا يوجد مثله فى التوراة والإنجيل ، فما من مطعن من مطاعن أعداء الأنبياء يطعن على محمد ص الله عليه وسلم إلا ويمكن توجيه ذلك الطعن وأعظم منه على موسى وعيسى ، وهذه جملة مبسوطة فى موضع آخر لم نبسطها هنا ؛ لأن جواب كلامهم لا يحتاج إلى ذلك فيمتنع الإقرار بنبوة موسى وعيسى عليهما السلام مع التكذيب

بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا يفعل ذلك إلا من هو من أجهل الناس وأضلهم ، أو من أعظمهم عناداً واتباعًا لهواه ، وذلك أن هؤلاء القوم احتجوا بما نقلوه عن الأنبياء ، ولم يذكروا الأدلة الدالة على صدقهم بل أخذوا ذلك مسلمًا وطلبوا أن يحتجوا بما نقلوه عن الأنبياء قبله ، وبما نقلوه عنه على صحة دينهم وهذه حجة داحضة سواء صدقوه أو كذبوه . فإن صدقوه بطل دينهم وإن كذبوه بطل دينهم ، فإنهم إن صدقوه فقد علم أنه دعاهم وجميع أهل الأرض إلى الإيمان به وطاعته كما دعا المسيح وموسى وغيرهما من الرسل ، وأنه أبطل ما هم عليه من الاتحاد وغيره وكفرهم فى غير موضع ولهذا كان مجرد التصديق بأن محمداً رسول الله ولو إلى العرب يوجب بطلان دين النصارى واليهود وكل دين يخالف دينه فإن من كان رسولا لله ، فإنه لا يكذب على الله ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم قد علم منه أنه دعا النصارى واليهود إلى الإيمان به وطاعته كما دعا غيرهم ، وأنه كفر من لم يؤمن به ووعده النار ، وهذا متواتر عنه تواترًا تعلمه العامة والخاصة وفى القرآن من ذلك ما يكثر ذكره ، كما قال تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة * رسول من الله يتلو صحفًا مطهرة * فيها كتب قيمة * وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة * وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة .* إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية * جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه ﴾ ، [سورة البينة] .

وقال تعالى : ﴿ شهد الله أنه لا إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله

إلا هو العزيز الحكيم * إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيًا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب * فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ ، [سورة آل عمران ١٨ - ٢٠]

وقد ذكر كفر اليهود والنصارى فى موضع ، كقوله تعالى عن النصارى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعًا ﴾ ، [سورة المائدة : ١٧] وقال تعالى أيضا : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار * لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم . أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم * ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون * قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرًا ولا نفعًا والله هو السميع العليم * قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرًا وضلوا عن سواء السبيل ﴾ ، [سورة المائدة ٧٢ - ٧٧] .

وقال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرًا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له

ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا * لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعًا فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابًا أليمًا * ولا يجدون لهم من دون الله وليًا ولا نصيراً * يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبينًا * فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطًا مستقيما ﴾ ، [سورة النساء : ١٧١ - ١٧٥]

وقال تعالى ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون* اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ [سورة التوبة : ٣٠ - ٣١]

وقال تعالى : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال : سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب * ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على شئ شهيد ﴾ ، [سورة المائدة : ١١٦ ، ١١٧] . فقد قال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم ﴾ فى موضعين

وقال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ ،[سورة المائدة :٧٣]

وقال تعالى : ﴿ ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم ﴾ ، [سورة النساء : ١٧١] .

وقال تعالى ﴿ وقالت النصارى المسيح ابن الله ﴾ ، [سورة التوبة : ٣٠]

فذكر الله عنهم هذه الأقوال الثلاثة ، والنصارى قالت الأقوال الثلاثة ، لكن من الناس من يظن أن هذا قول طائفة منهم: وهذا قول طائفة منهم ، وهذا قول طائفة منهم ، وقولهم : ثالث ثلاثة قول النسطورية . وقولهم : إنه ابن الله قول الملكانية . ومنهم من يقول : قوله :إن الله هو المسيح ابن مريم قول اليعقوبية . وقولهم : والابن وروح القدس .

وظن ابن جرير الطبرى أن هذه الطوائف كانوا قبل اليعقوبية والنسطورية والملكية ، كما ذكره طائفة من المفسرين كابن جرير الطبرى والثعلبى وغيرهما ثم تارة يحكون عن اليعقوبية : أن عيسى هو الله ، وعن النسطورية : إنه ابن الله ، وعن المريوسية . أنه ثالث ثلاثة ، وتارة يحكون عن النسطورية : أنه ثالث ثلاثة ، وعن الملكية : أنه الله ، ويفسرون قولهم : ثالث ثلاثة بالأب والابن ، وروح القدس.

والصواب : أن هذه الأقوال جميعها قول طوائف النصارى المشهورة : الملكية ، واليعقوبية والنسطورية ، فإن هذه الطوائف كلها تقول بالأقانيم الثلاثة : الأب والإبن وروح القدس ، فتقول : إن الله ثالث ثلاثة ، وتقول عن المسيح : إنه الله وتقول إنه ابن الله ، وهم متفقون على اتحاد اللاهوت والناسوت وأن المتحد هو الكلمة ، وهم متفقون على عقيدة إيمانهم التى تتضمن ذلك ، وهو قولهم: نؤمن بإله واحد أب ضابط الكل ، خالق السموات والأرض ، كل ما يرى وما لا يرى ، وبرب واحد يسوع المسيح بن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور ، نور من نور إله حق من إله حق مولود غير مخلوق .

وأما قوله تعالى : ﴿ ولا تقولوا ثلاثة ﴾ . وقوله : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ . فقد فسروه بالتثليث المشهور عنهم ، المذكور فى أمانتهم ، ومن الناس من يقول : إن الله هو المسيح ابن مريم قول اليعقوبية ، وقولهم : ثالث ثلاثة هو قول النصارى الذين يقولون بالأب والابن وهم قد جعلوا الله فيها ثالث ثلاثة ،

وسموا كل واحد من الثــــلاثة بالإله والرب ، وقد فسره طائفة بجعلهم عيسى وأمة إلهين يعبدان من دون الله .

قال السدى فى قوله تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ قال : قالت : النصارى : إن الله هو المسيح وأمة فذلك قوله : ﴿ أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ﴾

وقد قيل قول ثالث أغرب من ذلك عن أبى صخر . قال : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾.

قال : هو قول اليهود عزير ابن الله ، وقول النصارى المسيح ابن الله ، فجعلوا الله ثالث ثلاثة ، وهذا ضعيف ، وقد ذكر سعيد بن البطريق فى أخبار النصارى أن منهم طائفة - يقال لهم المرسية - يقولون : إن مريم إله وإن عيسى إله ، فقد يقال : إن هذا قول هؤلاء ، كما أن القول : بأن عزير ابن الله ، قول طائفة من اليهود .

وأما الأول فمتوجه ، فإن النصارى المتفقين على الأمانة ، كلهم يقولون : إن الله ثالثة ثلاثة ، والله تعالى قد نهاهم عن أن يقولوا ذلك ، فقال تعالى : ﴿ يأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم ﴾ ، [سورة النساء : ١٧١]

فذكر سبحانه فى هذه الآية التثليب والاتحاد ونهاهم عنهما ، وبين أن المسيح إنما هو رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه . وقال : ﴿ فآمنوا بالله ورسوله ﴾ ثمّ قال : ﴿ ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم ﴾ ، ولم يذكر هنا أمه . وقوله تعالى : ﴿ وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ قال معمر عن قتادة : وكلمته ألقاها إلى مريم وهو قوله : كن فكان ، وكذلك قال قتادة : ليس الكلمة صار عيسى ، ولكن

بالكلمة صار عيسى ، وكذلك قال الإمام أحمد بن حنبل فى مصنفه الذى صنفه فى كتبه فى الرد على الجهمية ، وذكره عنه الخلال والقاضى أبو يعلى . قال أحمد : ثم إن الجهم ادعى أمرًا آخر فقال : إنا وجدنا فى كتاب الله آية تدل على أن القرآن مخلوق . قلنا : أى آية ؟

قال : قول الله : ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم ﴾ ، [سورة النساء : ١٧١] . وعيسى مخلوق .فقلنا : إن الله منعكم الفهم فى القرآن ، عيسى عليه السلام تجرى عليه ألفاظ لا تجرى على القرآن ؛ لأن عيسى يجرى عليه نسمة ومولود وطفل وصبى وغلام يأكل ويشرب وهو يخاطب بالأمر والنهى ، ويجرى عليه الوعد والوعيد ، وهو من ذرية نوح ، ومن ذرية إبراهيم ، ولا يحل لنا أن نقول فى القرآن ما نقول فى عيسى . هل سمعتم الله يقول فى القرآن ما قال فى عيسى ؟ ولكن المعنى فى قوله جل ثناؤه : ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ ، فالكلمة التى ألقاها إلى مريم حين قال له : كن فكان عيسى بـ « كن » وليس عيسى هو الكن ، ولكن بالكن كان ، فالكن من الله قوله : وليس الكن مخلوقًا ، وكذبت النصارى والجهمية على الله فى أمر عيسى ، وذلك أن الجهمية قالوا : عيسى روح الله وكلمته ؛ لأن الكلمة مخلوقة .

قالت النصارى : روح الله من ذات الله ، وكلمة الله من ذات الله ، كما يقال : هذه الخرقة من هذا الثوب . وقلنا نحن : إن عيسى بالكلمة كان ، وليس عيسى هو الكلمة .

قال أحمد : وأما قوله جل ثناؤه ﴿ وروح منه ﴾ يقول من أمره كان الروح فيه كقوله : ﴿ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعًا منه ﴾ ، [سورة الجاثية : ١٣] يقول من أمره ، وتفسير روح الله إنما معناها أنها روح بكلمة الله

خلقها الله ، كما يقال : عبد الله وسماء الله ، وفى نسخة روح يملكها الله خلقها الله .

وقال الشعبى فى قوله تعالى : ﴿ وكلمته ألقاها إلى مريم ﴾ الكلمة حين قال له : كن فكان عيسى بـ « كن » وليس عيسى هو الكن ، ولكن بالكن كان وقال ليث عن مجاهد : روح منه قال : رسول منه يريد مجاهد قوله : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً * قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً * قال إنما أنا رسول ربك ﴾ ، [سورة مريم : ١٧ - ١٩].

والمعنى أن عيسى خلق من هذه الروح - وهو جبريل روح القدس - سمى روحًا كما سمى كلمة ؛ لأنه خلق بالكلمة والنصارى يقولون فى أمانتهم : تجسد من مريم ومن روح القدس ؛ لأنه جاء كذلك فى الكتب المتقدمة ، لكن ظنوا أن روح القدس هو صفة لله وجعلوها حياته وقدرته وهو رب ، وهذا غلط منهم فإنه لم يسم أحد من الأنبياء حياة الله ولا قدرته ولا شيئًا من صفاته روح القدس ، بل روح القدس فى غير موضع من كلام الأنبياء عليهم يراد بها ما ينزله الله على قلوب الأنبياء ، كالوحى ، والهدى ، والتأييد ، ويراد بها الملك ، وهكذا فى تفسير ابن السائب (١) عن أبى صالح عن ابن عباس : أن عيسى بن امريم استقبل رهطا من اليهود ، فلما رأوه قالوا : قد جاء الساحر ابن الساحرة ، والفاعل ابن الفاعلة ، فقذفوه وأمه ، فلما سمع عيسى ذلك قال : [اللهم أنت ربى ، وأنا من روحك خرجت ، وبكلمتك خلقتنى ، ولم آتهم من تلقاء نفسى] وذكر تمام الحديث :

وقد قال تعالى : ﴿ والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ ، [سورة الأنبياء : ٩١] .

---

(١) هو: محمد بن السائب الكلبى ، المفسر النسابة ، متهم بالكذب

وقال تعالى : ﴿ ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ﴾ ، [سورة التحريم : ١٢] .

فهذا يوافق قوله تعالى : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً * قالت : إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيًا * قال إنما أنا رسول ربك ﴾ وهذا مبسوط فى موضع آخر .

والمقصود هنا : أنهم سواء صدقوا محمدًا أو كذبوه ، فإنه يلزم بطلان دينهم على التقديرين ، فإنه إن كان نبيًاصادقًا ، فقد بلغ عن الله فى هذا الكتاب كفر النصارى فى غير موضع ، ودعاهم إلى الإيمان به ، وأمر بجهادهم ، فمن علم أنه نبى ولو إلى طا ئفة معينة ، فيجب تصديقه فى كل ما أخبر به ، وقد أخبر بكفر النصارى وضلالهم ، فإذا ثبت هذا لم يغن عنهم الاحتجاج بشئ من الكتب والمعقول ، بل يعلم من حيث الجملة أن كل ما يحتجون به على صحة دينهم فهو باطل ، وإن لم يبين فساد حججهم على التفصيل ؛ لأن الأنبياء لا يقولون إلا حقًا ، كما أن المسيح عليه السلام لما حكم بكفر من كذبه من اليهود ، كان كل ما يحتج به اليهود على خلاف ذلك باطلا ، فكل ما عارض قول النبى صلى الله عليه وسلم المعصوم فهو باطل ، وإن كذبوا محمدًا تكذيبًا عامًا مطلقًا وقالوا : ليس هو نبى أصلا ، ولا أرسل إلى أحد لا إلى العرب ولا إلى غيرهم ، بل كان من الكذابين ، امتنع مع هذا أن يصدقوا بنبوة غيره فإن الطريق الذى يعلم به نبوة موسى وعيسى يعلم به نبوة محمد بطريق الأولى ، فإذا قالوا : علمت نبوة موسى والمسيح بالمعجزات وعرفت المعجزات بالنقل المتواتر إلينا . قيل لهم : معجزات محمد صلى الله عليه وسلم أعظم ، وتواترها أبلغ ، والكتاب الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم أكمل ، وأمته أفضل ، وشرائع دينه أحسن ، وموسى جاء بالعدل ، وعيسى جاء بتكميلها بالفضل ، وهو صلى الله عليه وسلم قد جمع فى شريعته بين

العدل والفضل ، فإن ساغ لقائل أن يقول هو مع هذا كاذب مفتر ، كان على هذا التقدير الباطل غيره أولى أن يقال فيه ذلك ، فيبطل بتكذيبهم محمداً صلى الله عليه وسلم جميع ما معهم من النبوات إذا حكم أحد الشيئين حكم مثله ، فكيف بما هو أولى منه ؟ فلو قال قائل : إن هارون ويوشع و داود وسليمان كانوا أنبياء وموسى لم يكن نبيا . أو أن داود وسليمان ويوشع ويحيى كانوا أنبياء والمسيح لم يكن نبيا . أو قال ما يقوله السامرة : إن يوشع كان نبيا ومن بعده كداود وسليمان والمسيح لم يكونوا أنبياء . أو قال ما يقوله اليهود : إن داود وسليمان واشيعا و حبقوق ومليخا وعاموص ودانيال كانوا أنبياء ، والمسيح ابن مريم لم يكن نبيا ، كان هذا قولا متناقضاً معلوم البطلان ، فإن الذين نفى هؤلاء عنهم النبوة أحق بالنبوة وأكمل نبوة ممن أثبتوها له ودلائل نبوة الأكمل أفضل ، فكيف يجوز إثبات النبوة للنبى المفضول دون الفاضل ؟ وصار هذا كما لو قال قائل : إن زفر وابن القاسم والمزنى والأثرم كانوا فقهاء ، وأبا حنيفة ومالكا والشافعى وأحمد لم يكونوا فقهاء ، أو قال : إن الأحفش وابن الأنبارى والمبرد كانوا نحاة والخليل وسيبويه والفراء لم يكونوا نحاة أو قال : إن صاحب الملكى والمسيحى ونحوهما من كتب الطب كانوا أطباء ، وبقراط وجالينوس ونحوهما لم يكونوا أطباء . أو قال : إن كوشيار والخرقى ونحوهما كانوا يعرفون علم الهيئة . وبطليموس ونحوه لم يكن له علم بالهيئة .

ومن قال : إن داود وسليمان ومليخا وعاموص ودانيال كانوا أنبياء ، ومحمد ابن عبد الله لم يكن نبيا . فتناقضه أظهر ، وفساد قوله أبين من هذا جميعه ، بل وكذلك من قال : إن موسى وعيسى رسولان والتوراة والإنجيل كتابان منزلان من عند الله ، ومحمداً ليس برسول ، والقرآن لم ينزل من عند الله فبطلان قوله فى غاية الظهور والبيان لمن تدبر ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وما جاء به من قبله ، وتدبر كتابه والكتب التى قبله ، وآيات نبوته وآيات نبوة هؤلاء ، وشرائع دينه

وشرائع دين هؤلاء ، وهذه الجملة مفصلة مشروحة فى غير هذا الموضع ، لكن المقصود هنا : التنبيه على مجامع جوابهم ، وهؤلاء القوم لم يأتوا بدليل واحد يدل على صدق من احتجوا به من الأنبياء ، فلو ناظرهم من يكذب بهؤلاء الأنبياء كلهم من المشركين والملاحدة لم يكن فيما ذكروه حجة لهم ، ولا حجة لهم أيضاً على المسلمين الذين يقرون بنبوة هؤلاء . فإن جمهور المسلمين إنما عرفوا صدق هؤلاء الأنبياء بإخبار محمد أنهم أنبياء ، فيمتنع أن يصدقوا بالفرع مع القدح فى الأصل الذى به علموا صدقهم . وأيضاً فالطريق الذى به علمت نبوة هؤلاء بما ثبت من معجزاتهم وأخبارهم ، فكذلك تعلم نبوته بما ثبت من معجزاته وأخباره بطريق الأولى ، فيمتنع أن يصدق أحد من المسلمين بنبوة واحد من هؤلاء مع تكذيبه لمحمد فى كلمة مما جاء به .

فصل

ومما ينبغى أن يعلم : أن كثيراً من النصارى إنما يعتمدون فى النبوات على بشارة الأنبياء بمن بعدهم ، فيقولون : المسيح ـ عليه السلام ـ بشرت به الأنبياء قبله ، بخلاف محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه لم يبشر به نبى . وجواب هؤلاء من وجهين : **أحدهما** : أن يقال : بل البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم فى الكتب المتقدمة أعظم من البشارة بالمسيح عليه السلام ، وكما أن اليهود يتأولون البشارة بالمسيح على أنه ليس عيسى ابن مريم بل هو آخر ينتظرونه . وهم فى الحقيقة إنما ينتظرون المسيح. الدجال ، فإنه الذى يتبعه اليهود ، ويخرج معه سبعون ألف مطياس من يهود أصبهان (١) ويقتلهم المسلمون معه حتى يقول الشجر والحجر (٢) يامسلم

(١) «صحيح »

رواه مسلم فى كتاب « الفتن » باب « فى بقية من أحاديث الدجّال (٤/٢٢٦٦ح٢٩٤٤) .

(٢) متفق عليه من حديث ابن عمر

رواه البخارى فى كتاب « المناقب » باب رقم (٢٥)

هذا يهودى ورائى تعالى فاقتله . كما ثبت ذلك فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وثبت أيـــضًا فى الصحيح عن النبى صـــلى الله عليه وســـلم أنه قال (١) : « ينزل عيسى ابن مريم من السماء على المنارة البيضاء شرقى دمشق ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ويضع الجزية ، ويقتل مسيح الهدى عيسى ابن مريم مسيح الضلالة الأعور ، الدجال على بضع عشرة خطوة من باب لد ؛ ليتبين للناس أن البشر لا يكون إلها ، فيقتل من ادعى فيه أنه الله وهو بريىء مما ادعى فيه لمن ادعى فى نفسه أنه الله وهو دجال كذاب ، فهكذا البشارات بمحمد صلى الله عليه وسلم فى الكتب المتقدمة ، وقد يتأولها بعض أهل الكتاب على غير تأويلها ، كما قد بسط فى موضع آخر ، فإن بسط الكلام فى ذكر محمد صلى الله عليه وسلم

=(٦/٦٩٩ح٣٥٩٣)

ورواه مسلم فىْ « كتاب الفتن » باب « لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل ... »(٤/٢٢٣٨ ٢٢٣٩ح٢٩٢١)

ورواه أيضا (٤/٢٢٣٩ح٢٩٢٢)

ورواه الترمذى فى كتاب « الفتن » باب « ما جاء فى الدجال » (٦/٤٩٤ح٢٢٣٧)

ورواه ابن ماجه مطولا من رواية أبى أمامة فى كتاب « الفتن » باب « فتنه الرجال ...» (٢/٩٠٣١:١٣٦٣ح٤٠٧٧)

(١) «صحيح» من حديث « النواس بن سمعان »

رواه مسلم فى كتاب « الفتن » باب « ذكر الدجال مصنفه مامعه »

(٤/٢٢٥٠:٢٢٥٥ح٢٩٣٧)

ورواه أبو داود فى كتاب « الملاحم » باب « خروج الدجال »

(١١/٤٤٥-٤٤٧ح٤٢٩٩)

ورواه الترمذى فى كتاب « الفتن » باب « ما جاء فى فتنة الدجال »

(٦/٤٩٩-٥٠٨ح٢٣٤١)

ورواه ابن ماجه فى كتاب « الفتن » باب « فتنه الرجال وخروج عيسى » (٢/١٣٥٦:١٣٥٩ح٤٠٧٥)

فى الكتب التى بأيدى أهل الكتاب له موضع آخر .

الجواب الثانى : أن يقال : ليس من شرط النبى أن يبشر به من تقدمه ، كما أن موسى كان رسولا إلى فرعون ، ولم يتقدم لفرعون به بشارة ، وكذلك الخليل عليه السلام أرسل إلى نمرود ولم يتقدم به بشارة نبى إليه ، وكذلك نوح وهود وصالح وشعيب ولوط لم يتقدم بواحد من هؤلاء بشارة الى قومهم بهم مع كونهم أنبياء صادقين ، فإن دلائل نبوة النبى لا تنحصر فى أخبار من تقدمه ،و بل دلائل النبوة منها المعجزات ومنها غير المعجزات ، كما قد بسط فى موضع آخر ، هؤلاء النصارى إنما مستند دينهم فى التثليث والاتحاد وغير ذلك هو السمع وهو دعواهم أن الكتب الإلهية جاءت بذلك ، ليس مستندهم فيه العقل ، فإذا تبين أنهم مع تكذيبهم بمحمد صلى الله عليه وسلم يمتنع أن تثبت نبوة غيره امتنع استدلالهم بالسمعيات ، وأما العقليات فإن تشبثوا ببعضها فهم معترفون بأن حجتهم فيها ضعيفة ، وأنها على نقيض مذهبهم أدل منها على مذهبهم ، وسنبين إن شاء الله أن لا حجة لهم فى سمع ولا عقل ، بل ذلك كله حجة عليهم .

وأما تمثيلهم الكتاب بالوثيقة التى كتب الوفاء فى ظهرها فتمثيل باطل غير مطابق ؛ لأن الإقرار بالوفاء إقرار بسقوط الدين ولا مناقضة بين ثبوت الدين أولا وسقوطه آخراً بالوفاء ، بل أمكن مع هذا دعواه ، وأما من يذكر أنه رسول الله فلا يمكن أن يقر بأنه رسول الله فى بعض ما أنبأ به عن الله دون بعض ، ولا يمكن اتباع بعض كتابه الذى ذكر أنه منزل من عند الله دون بعض ، فإن كان صادقًا فى قوله : إنه رسول الله ، كان معصومًا فى كل ما يخبر به عن الله ، لا يجوز أن يكذب فى شئ منه لا عمدًا ولا خطأ ، ووجب اتباع الكتاب الذى جاء به من عند الله ولا يمكن رد شئ مما ذكر أنه جاء به من الله ، وإن كان كاذبًا فى كلمة واحدة مما أخبر به عن الله ، فهو من الكاذبين المفترين ؛ فلا يجوز أن يحتج بشئ من دينهم ولا

دين غيرهم بمجرد إخباره عن الله ، بل ولا بمجرد خبره وقوله إن لم يذكر أنه خبر عن الله كما لا يجوز مثـل ذلك فى سائر من عرف أنه كاذب فى قوله : إنى رسول الله ، كمسيلمة الحنفى ، والأسود العنسى ، وطليحة الأسدى ، والحارث الدمشقى ، وبابا الرومى وأمثالهم من الكذابين .

ولو أحد من المسلمين ، وإن كان لا يؤاخذه بالنسيان والخطأ ، بل والرسول أيضاً وإن يكن مؤاخذاً بالنسيان والخطأ فى غير ما يبلغه عن الله عند السلف والأئمة وجمهور المسلمين ، لكن ما يبلغه عن الله لا يجوز أن يستقر فيه خطأ ، فإنه لو جاز أن يبلغ عن الله ما لم يقله لله ويستقر ذلك ويأخذه الناس عنه معتقدين أن الله قاله ولم يقله الله ، كان هذا مناقضاً لمقصود الرسالة ولم يكن رسولا لله فى ذلك ، بل كان كاذبًا فى ذلك وإن لم يتعمده ، وإذا بلغ عن الله ما لم يقله وصدق فى ذلك ، كان قد صدق من قال على الله غير الحق ، ومن تقول عليه ما لم يقله ، وإن لم يكن معتمداً ويمتنع فى مثل هذا أن يصدقه الله فى كل ما يخبر به عنه أو أن يقيم له من الآيات والبراهين ما يدل على صدقه فى كل ما يخبر به عنه مع أن الأمر ليس كذلك ، ومن قامت البراهين والآيات على صدقه حتى يبلغه عن الله كان صادقًا فى كل ما يخبر به عن الله ، لا يجوز أن يكون فى خبره عن الله شئ من الكذب لا عمداً ولا خطأ ، وهذا مما اتفق عليه جميع الناس من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم يتنازعوا أنه لا يجوز أن يستقر فى خبره عن الله خطأ وإنما تنازعوا هل يجوز أن يقع من الغلط ما يستدركه ويبينه فلا ينافى مقصود الرسالة كما نقل من ذكر « تلك الغرانيق العلى ، وأن شفاعتها لترتجى » هذا فيه قولان للناس : منهم من منع ذلك أيضاً وطعن فى وقوع ذلك . ومن هؤلاء من قال : إنهم سمعوا ما لم يقله فكان الخطأ فى سمعهم ، والشيطان ألقى فى سمعهم .

ومن جوز ذلك قال : إذا حصل البيان ونسخ ما ألقى الشيطان لم يكن فى ذلك

محذور ، وكان ذلك دليلا على صدقه وأمانته وديانته ، وأنه غير متبع هواه ولا مصر على غير الحق ، كفعل طالب الرياسة المصر على خطئه .

وإذا كان نسخ ما جزء بأن الله أنزله لا محذور فيه ، فنسخ مثل هذا أولى أن لا يكون فيه محذور ، واستدل على ذلك بقوله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم * ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاق بعيد * وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ ، [سورة الحج : ٥٢ - ٥٤]

وعلى كل قول فالناس متفقون على أن من أرسله الله وأقام الآيات على صدقه فيما يبلغه عن الله : لم يكن ما يبلغه عنه إلا حقًا وإلا كانت الآيات الدالة على صدقه دلت على صدق من ليس بصادق ، وبطلان مدلول الأدلة اليقينية ممتنع .

والصدق الذى هو مدلول آيات الأنبياء وبراهينهم هو أن يكون خبره عن الله مطابقًا لمخبره لا يخالفه عمدًا ولا خطأ ، ولو قال قائل : أنا لاأسمى الخطأ كذبا ، أو قال إن المخطئ لا إثم عليه فى خطئه ، قيل له : هذا لا ينفع هنا ؛ فإن الآيات دلت على أن الله أرسله ليبلغ عنه رسالاته ، والله لا يرسل من يعلم أنه يخبر عنه بخلاف ما قال له ، كما لا يجوز إرسال من يتعمد عليه الكذب ، بل الواحد من الناس لا يرسل من يعلم أنه يبلغ خلاف ما أرسله به . ولو علم أنه يقول عليه ما لم يقل وأرسله مع ذلك؛ لكان جاهلا سفيهًا ، ليس بعليم حكيم ، فكيف يجوز ذلك على أعلم العالمين ، وأحكم الحاكمين ؟

وأيضًا : فإن الآيات والبراهين دلت على صدقه فى كل ما يبلغه عن الله ، وأن الله

مصدقه فى كل ما يبلغه عنه ، فيمتنع أن لا يكون صادقًا فى شئ من ذلك ، ويمتنع أن يصدق الله فى كل ذلك من لا يصدق فى كل ذلك ، فإن تصديق من لا يصدق كذب ، والكذب ممتنع على الله.

وإذا تبين أن من ذكــر أنه رسول الله إما أن يكون رسولا صادقًا فى جميع ما يبلغه ؛ فيمتنع مع هذا تناقض أخباره ، لأنها كلها صادقة ، وإما أن يكون غير صادق ولو فى كلمة فلا يكون رسولا لله ، فلا يحتج بشئ مما يخبر به عن الله كان تمثيل من ذكر أنه رسول الله بالمقر باستيفاء وثيقة تمثيلا باطلاً ، فإن الوثيقة الذى أقر بوفائها بعد ، كانت له حجة ثم استوفاها .

ومن ذكر أنه رسول الله إما صادق ، وإما كاذب ، وعلى التقديرين لا يجوز أن يحتج ببعض كلامه دون بعض ، وإذا قال القائل : مقصودى أن أبين أنه متناقض ، وأن نفس كلامه يبين أنه لم يرسل إلينا ، وأن ديننا حق ، كما أن نفس كلام الذى كان له الحق هو المقر بالوفاء ،قيل : إن كان كلامه متناقضًا فليس برسول ، وحينئذ فلا يجوز لك أن تحتج بشئ مما بلغه عن الله ، بخلاف المقر بالوفاء ، فإن إقراره مقبول على نفسه ، فإنه شاهد على نفسه وشهادته على نفسه مقبولة ، ولو كان كافرًا وفاسقًا . بخلاف شهادته على الله أن الله أرسله إذا كذب فى كلمة واحدة لم يكن الله أرسله فلا يقبل شئ من شهادته ، وخبره عن الله .

فمن شبه إقرار المقر على نفسه بقول الذى يقول : إنه رسول الله ، دل ذلك على غاية جهله بالقياس والاعتبار والتمثيل . فإن إقرار المقر على نفسه حجة عليه ولو كان فاسقًا معروفًا بالكذب ، وليس هو مثل شهادة الإنسان على غيره فإن شهادته على غيره لا تقبل إذا كان معروفًا بالكذب ، فكيف بمن شهد على الله بأن الله أرسله ؟ فالمقر على نفسه يمكن قبول إقراره على نفسه ولا يقبل دعواه على غيره ، وكذلك الشاهد قد تقبل شهادته فيما ليس هو خصما فيه ، ولا تقبل شهادته بما

ادعاه .

وأما من يقول : إنه رسول الله ، فلا يمكن أن يصدق في بعض ما يخبر به عن الله ، ويكذب في بعض ، بل إن كان كاذبًا فى كلمة واحدة ، فليس هو رسولا لله ، فلا يحتج بكلامه ، وإن قدر أن الكلام فى نفسه صدق لكن نسبته إلى الله أن الله أرسله به وأوحاه لا يكون صادقًا فيه إذا كذب فى كلمة واحدة ، لأن الله لا يرسل كاذبًا .

وإن لم يكن كاذبًا فى كلمة واحدة وجب تصديقه فى كل ما يخبر به فلا يمكن تصديقه فى بعض ما يخبر به عن الله دون بعض ، بخلاف المقر والشاهد .

وإن كان المقصود : بيان تناقضه ، كان هذا احتجاجا على أنه ليس برسول ، فلا ينفعهم ذلك ، مع أنه تبين أنه ليس بمتناقض .

وإن كان المقصود : إلزام المسلمين به ، فقد بينا أنه لا يلزمه من وجوه متعددة ، فهذا بيان أنه لا يجوز لهم الاحتجاج بشئ من كلام محمد صلي الله عليه وسلم سواء صدقوه أو كذبوه

ثم يقال لهم ثانيًا : فالجواب عن التمثيل بالوثيقة : إن الإقرار بالاستيفاء يناقض استيفاء الحق . وأما القرآن الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فليس فى إخباره أنه أرسل إلى قريش ، ثم إلى العرب ، ما يناقض إخباره بأنه أرسل إلى جميع الناس : أهل الكتاب وغيرهم ، كما أنه ليس فى إخباره أنه أرسل إلى بنى إسرائيل ومخاطبة الله لهم بقوله : « يابنى إسرائيل » ما يمنع أن يكون مرسلا إلى اليهود من غير بنى إسرائيل وإلى النصارى والمشركين ، وهو أنه لم يقل قط : إنى لم أرسل إلا إلى العرب ، ولا قال ما يدل على هذا ، بل ثبت عنه بالنقل المتواتر أنه قال : إنه مرسل إلى جميع الجن والإنس ، إلى أهل الكتاب وغيرهم . ولو قدر أنه قال : إنه لم يرسل إلا إلى العرب ، ثم قال : إنى أرسلت إلى أهل الكتاب ، لكان قد

أرسل إلى أهل الكتاب بعد إرساله إلى العرب ، كما قال : ﴿ قل لا أجد فى ما أوحى إلى محرمًا على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دمًا مسفوحًا أو لحم خنزير ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٤٥] . وقال أيضًا : ﴿ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ﴾ ، [سورة النحل : ١١٥] . ثم إنه بعد هذا حرم الله أشياء فلم يكن بين نفى تحريمها فى الزمن الأول ، وإثبات تحريمها فى الزمن الثانى منافاة .

ولكن نظير الدين إذا أوجب شيئا ثم نسخ إيجابه كما نسخ إيجاب الصدقة بين يدى النجوى ، ففى مثل هذا يتمسك بالنص الناسخ دون المنسوخ ، كما يتمسك بالإقرار بالوفاء الناسخ للإقرار بالدين .

فصل

وقد ذكر أنه لا يجوز أن يحتجوا بشئ من القرآن ، وما نقل عن محمد صلى الله عليه وسلم إلا مع التصديق برسالته . وأنه مع التكذيب برسالته لا يمكن الإقرار بنبوة غيره ولا الاحتجاج بشئ من كلام الأنبياء . فتكذيبهم به يستلزم تكذيبهم بغيره ، فإذا ثبتت نبوة غيره ثبتت نبوته ، و ذلك يستلزم بطلان دينهم ، فكان صحة دليلهم يستلزم بطلان المدلول ، وفساد المدلول يستلزم فساد الدليل ، فإن الدليل ملزوم للمدلول عليه ، وإذاتحقق الملزوم وتحقق اللازم ، وإذا انتفى اللازم انتفى الملزوم ، فإذا ثبت الدليل ثبت المدلول عليه ، وإذا فسد المدلول عليه لزم فساد الدليل . فإن الباطل لا يقوم عليه دليل صحيح ، فإن كان محمد صلى الله عليه وسلم رسول الله لزم بطلان دينهم ، وإذا بطل دينهم لم يجز أن يقوم دليل صحيح على صحته . وإذا لم يكن رسول لم يجز الاستدلال بقوله ، فثبت أن استدلالهم بقوله باطل على التقديرين.

ونحن نذكر هنا : أنه لا يجوز استدلالهم بقول أحد من الأنبياء أو الرسل على

صحة دينهم ، وأيضاً فإن الذين احتجوا بقولهم : مثل موسى وداود والمسيح وغيرهم ، إما أن يكونوا عرفوا أنهم أنبياء بدليل على نبوتهم ، كالاستدلال بآياتهم وبراهينهم التى تسمى بالمعجزات ، وإما أن يكونوا قد اعتقدوا ذلك بلا علم ولا دليل ، وإما أن يكونوا احتجوا بذلك على المسلمين لأنهم يسلمون بنبوة هؤلاء ، وعلى كل تقدير لا يصح استدلالهم بقولهم .

أما على الأول ؛ فلأنه : أى طريق ثبت به نبوة واحد من هؤلاء الأنبياء عليهم السلام ، فإنه تثبت نبوة محمد صلي الله عليه وسلم بمثلها وأعظم منها وحينئذ فإن لم يقروا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم مع أن كل دليل يدل على نبوة موسى وداود وعيسى وغيرهم ، يدل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لزم أن يكونوا قد نقضوا دليلهم فجعلوه قائماً مع انتفاء مدلوله ، وإذا انتقض الدليل بطلت دلالته فإنه انما يدل إذا كان مستلزماً للمدلول .

فإذا كان تارة يوجد مع المدلول وتارة لا يوجد لم يكن مستلزماً فلا يكون دليلا ، فإن من جعل المعجزات دليلا على نبوة نبى ، وقال : المعجزة هى الفعل الخارق للعادة ، المقرون بالتحدى ، السالم من المعارضة . ونحو ذلك مما يذكر فى هذا المقام وجعلوا ذلك دليلا على نبوة موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء قيل له : إن كان هذا دليلا فهو دليل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . وإن لم يكن دليلا لم يكن دليلا على نبوة موسى وعيسى ، فإنه قد ثبت عن محمد صلى الله عليه وسلم من المعجزات ما لم يثبت مثله عن غيره ، ونقل معجزاته متواتر أعظم من نقل معجزات عيسى وغيره فيمتنع التصديق بآياته مع التكذيب بآيات محمد صلى الله عليه وسلم ، وإن قالوا : معجزات محمد صلى الله عليه وسلم لم تتوافر عندنا . قيل : ليس من شرط التواتر أن تتوافر عند طائفة معينة ، بل هذا كما يقول المشركون والمجوس وغيرهم لم تتواتر عندنا معجزات موسى والمسيح عليهما السلام ، وإنما

تتواتر أخبار كل إنسان عند كل من رأى المشاهدين له أو رأى من رآهم وهلم جرا .

ومعلوم : أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم الذين رأوه ونقلوا معجزاته أضعاف أصحاب المسيح عليه السلام . والتابعين الذين نقلوا ذلك عن الصحابة كذلك فيلزم من التصديق بمعجزات المسيح عليه السلام التصديق بمعجزات محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن التكذيب بمعجزات محمد التكذيب بمعجزات المسيح ، وإن قالوا عرفت نبوة المسيح ببشارات الأنبياء قبله قيل : وفى الكتب المتقدمة من البشارات بمحمد صلى الله عليه وسلم مثل ما فيها من البشارات بالمسيح وأكثر كما سيأتى بعضها إن شاء الله تعالى ..

إن تأولوا تلك البشارات بمحمد صلى الله عليه وسلم بما يمنع دلالتها .قيل لهم : واليهود يتأولون بشارات المسيح بما يمنع دلالتها على المسيح .فإذا قالوا : تلك التأويلات باطلة من وجوه معروفة ، بينا لهم أن هذه باطلة أيضًا بمثل تلك الوجوه وأقوى ، فما من جنس من الأدلة يدل على نبوة موسى والمسيح إلا ودلالته على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أقوى وأكثر ، فيلزم من ثبوت نبوة موسى والمسيح ثبوت نبوة محمد ، ومن الطعن فى نبوة محمد الطعن فى نبوة موسى والمسيح وإن قالوا : إن المسيح إله . قيل لهم : ثبوت كونه إلهًا لو كان ممكنًا أبعد من ثبوت كونه رسولا ، فكيف إذا كان ممتنعًا ؟ وذلك أنه ليس معهم ما يدل على إلهيته إلا ما ينقلونه من أقوال الأنبياء ، أو الخوارق ، والخوارق لا تدل على الإلهية فإن الأنبياء ما زالوا يأتون بالآيات الخارقة للعادة ولم تدل على إلهية أحد منهم .

وأما أقوال الأنبياء - عليهم السلام - فلا ريب أن دلالتها على رسالته ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم أظهر من دلالتها على إلهية المسيح ، فيمتنع الاحتجاج بها على إلهية المسيح دون رسالة محمد ورسالة المسيح ، ومتى ثبت أن محمداً رسول الله بطلت إلهية المسيح ، فإنه كفر من قال : إنه الله أو ابن الله بل وكذلك

متى ثبت أن المسيح رسول الله بطل كونه إلهًا ، فإن كونه هو الله مع كونه رسول الله متناقض . وقولهم : إنه إله بلاهوته ، ورسول بناسوته ، كلام باطل من وجوه :

منها : أن الذى كان يكلم الناس ، إما أن يكون هو الله أو هو رسول الله ، فإن كان هو الله ، بطل كونه رسول الله . وإن كان هو رسول الله ، بطل كونه هو الله.

ولهذا لما كان الذى كلم موسى ـ عليه السلام ـ من الشجرة هو الله لم تنطق الكتب بأنه رسول الله ، وهذا وارد بأى وجه فسروا الاتحاد ، فإنه من المعلوم أن الناس كانوا يسمعون من المسيح كلامًا بصوته المعروف ، وصوته لم يختلف عليهم ، ولا حاله عند الكلام تغيرت ، كما يختلف الإنسان وحاله عند الكلام إذا دخل فيه الجنى ، وإذا فارقه الجنى ، فإن الجنى إذا تكلم على لسان المصروع ظهر الفرق بين ذلك المصروع وبين غيره من الناس ، بل اختلف حال المصروع وحال كلامه وسمع منه من الكلام ما يعلم يقينًا أنه لا يعرفه وغاب عقله بحيث يظهر ذلك للحاضرين واختلف صوته ونغمته ، فكيف بمن يكون رب العالمين هو الحال فيه المتحد به المتكلم بكلامه ؟ فإنه لا بد أن يكون بين كلامه وصوته وكلام سائر البشر وصوتهم من الفرق أعظم من الفرق الذى بين المصروع وغير المصروع بما لا نسبة بينهما .

يبين هذا : أى موسى لما سمع كلامه سمع صوتًا خارقًا للعادة مخالفًا لما يعهد من الأصوات ورأى من الآيات الخارقة والعجائب مايبين أن ذلك الذى نسمعه لا يقدر على التكلم به إلا الله . وأما المسيح فلم يكن بين كلامه وصوته طول عمره ، وكلام سائر الناس فرق يدل على أنه نبى فضلا عن أن يدل على أنه إله ، وإنما علم أنه نبى بأدلة منفصلة ولم يكن حاله يختلف مع أنهم يقولون : إن الاتحاد ملازم له من حين خلق ناسوته فى بطن أمه مريم وإلى الأبد لا يفارق اللاهوت لذلك الناسوت أبدًا .

وحينئذ فمن المعلوم : أن خطابه للناس إن كان خطاب رب العالمين لم يكن هو رسوله ، وإن كان خطاب رسوله ، لم يكن ذلك صوت رب العالمين .

الوجه الثاني : أن خطابه خطاب رسول ونبى ، كما ثبت ذلك عنه فى عامة المواضع .

الثالث : أن مصير الشيئين شيئًا واحدًا مع بقائهما على حالهما بدون الاستحالة والاختلاط ممتنع فى صريح العقل ، وإنما المعقول مع الاتحاد أن يستحيلا ويختلطا ، كالماء مع الخمر واللبن ، فإنهما إذا صارا شيئًا واحدًا ، استحالا واختلطا .

الرابع : أنه مع الاتحاد يصير الشيئان شيئًا واحدًا ؛ فيكون الإله هوالرسول والرسول هو الإله ، إذ هذا هو هذا ، وإن كان الإله غير الرسول ، فهما شيئان ومهما مثلوا به قولهم كتشبيهم ذلك بالنار فى الحديد والروح فى البدن ، فإنه يدل على فساد قولهم ، فإن الحديد متى طرق أو وضع فى الماء كان ذلك مصيبًا للنار ، وكذلك البدن إذا جاع أو صلب وتألم ، كان ذلك الألم مصيبًا للروح ، فيلزم أن يكون رب العالمين قد أصابه ألم الجوع والعطش ، وكذلك الضرب والصلب على قولهم وهذا شر من قول اليهود : إنه بخيل ، وإنه مسه اللغوب .

فصل

وإن كان مقصودهم الاحتجاج بذلك على المسلمين . قيل لهم أولا هذه حجة جدلية ، فما مستندكم فيما بينكم وبين الله فى تصديق شخص وتكذيب آخر ، مع أن دلالة الصدق فيهما واحدة ، بل هى فى الذى كذبتموه أظهر؟ فإن كانت حقًا لزم تصديق من كذبتموه وفسد دينكم . وإن كانت باطلة ، بطل استدلالكم بها على دينكم ، فثبت أنهم مع تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم لا يستقيم لهم الاستدلال بكلام أحد من الأنبياء عليهم السلام .

وقيل لهم ثانيًا : المسلمون إنما عرفوا صدق هؤلاء الأنبياء بما دلهم على صدق محمد صلى الله عليه وسلم فإن لم يكن محمد صادقًا لم يعرفوا صدق هؤلاء .فيبطل دليلكم ، وإن كان صادقًا بطل دين النصارى فيبطل دليل صحته فثبت بطلان دليلهم على كل تقدير .

وقيل لهم ثالثًا : المسلمون لم يصدقوا نبوة أحد من هؤلاء إلا مع نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . وإن قيل : إنهم عرفوا ذلك بطريق آخر ، فإن الدليل الذى يدل على صدق واحد منهم يدل على صدق محمد بطريق الأولى فلا يمكنهم تصديق شئ مع تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم .

وقيل لهم رابعًا : هم إنما يصدقون بموسى وعيسى اللذين بشرا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فإن كانا قد بشرا به فثبت نبوته ، وإن لم يكونا بشرا به ، فهم لا يؤمنون إلا بالمبشرين به ، وبالتوراة والإنجيل اللذين هو مكتوب فيهما ، فإن قدر عدم ذلك فهم لا يسلمون وجود موسى وعيسى وتوراة وإنجيل منزلين من الله ليس فيهما ذكره صلى الله عليه وسلم ، وإن قالوا : نحن صدقنا هؤلاء الأنبياء بلا علم لنا بصدقهم وطريق يدل على صدقهم ؛ لأن هذا دين آبائنا وجدناهم يعظمون هؤلاء ويقولون هم أنبياء فاتبعنا آباءنا فى ذلك من غير علم ، وهذا هو الواقع من أكثرهم . قيل : فإذا كان هذا قولكم فى الأنبياء وفيما شهدوا به - إن كانوا شهدوا - فيلزم أن لا يكونوا عالمين به متبعين فيه لآبائهم بغير علم بطريق الأولى ، وبهذا يحصل المقصود ، وهو أن ما أنتم عليه من اعتقاد فى النصرانية لا علم لكم به ولا دليل لكم على صحته ، بل أنتم فيه متبعون لآبائكم كاتباع اليهود والمشركين لآبائهم ، ولا ريب أن هذا حال النصارى ، ولهذا سماهم الله ضلالا فى قوله : ﴿ ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٧].

وقال تعالى : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً * مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم ﴾ ، [سورة الكهف : ٤، ٥].

وقال تعالى : ﴿ وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم ﴾ ، [سورة النساء : ١٥٧] .

وقال تعالى : ﴿ وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب ﴾ ، [سورة الشورى : ١٤] .

ولهذا كان النصارى معروفين بالجهل والضلال ، كما أن اليهود معروفون بالظلم والقسوة والعناد ، فتبين بما ذكرناه أنه لا يمكنهم مع تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم فى كلمة واحدة الاحتجاج بقول أحد من الأنبياء على شئ من دينهم ولا دين غيرهم .

فصل

وأما كون القرآن أنزل باللسان العربى وحده فعنه أجوبه :

أحدها : أن يقال : والتوراة إنما أنزلت باللسان العبرى وحده ، وموسى عليه السلام لم يكن يتكلم إلا بالعبرية ، وكذلك المسيح لم يكن يتكلم بالتوراة والإنجيل وغيرهما إلا بالعبرية ، ثم وكذلك سائر الكتب لا ينزلها الله إلا بلسان واحد ، بلسان الذى أنزلت عليه ولسان قومه الذين يخاطبهم أولا ، وسائر الأنبياء إنما يخاطبون الناس بلسان قومهم الذى يعرفونه أولا ، ثم بعد ذلك تبلغ الكتب وكلام الأنبياء لسائر الأمم إما بأن يترجم لمن لا يعرف لسان ذلك الكتاب واما بأنه يتعلم الناس لسان ذلك الكتاب فيعرفون معانيه ، وإما بأن يبين المرسل إليه معانى ما أرسل به الرسول إليه بلسانه وإن لم يعرف سائر ما أرسل به .

وقد أخبر الله فى القرآن ما قالته الرسل لقومهم وما قالوا لهم وأكثرهم لم يكونوا

عربيًا ، وأنزله الله باللسان العربى ، وحينئذ فإن شرط التكليف تمكن العباد من فهم ما أرسل به الرسول إليهم ، وذلك يحصل بأن يرسل بلسان يعرف به مراده ثم جميع الناس متمكنون من معرفة مراده بأن يعرفوا ذلك اللسان أو يعرفوا معنى الكتاب بترجمة من يترجم معناه ، وهذا مقدور للعباد ، ومن لم يمكنه فهم كلام الرسول إلا بتعلم اللغة التى أرسل بها ، وجب عليه ذلك .

فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، بخلاف ما لا يتم الوجوب إلا به ، فإنه ليس بواجب ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها ، لا فى الأصل ولا فى التمام . فلا نحتاج أن نقول ما لا يتم الواجب إلا به ، وما كان مقدوراً للمكلف فهو واجب ، فإن ما ليس مقدوراً عليه لا يكلف به العباد ، وقد يكون مقدوراً عليه ولا يكلفون به ؛ فلما كانت الاستطاعة شرطًا فى وجوب الحج لم يجب تحصيل الاستطاعة بخلاف قطع المسافة ، فإنه ليس شرطًا فى الوجوب . فلهذا يجب على الإنسان الحج من المسافة البعيدة والقريبة إذا كان مستطيعًا ، وجمهور الناس لا يعرفون معانى الكتب الإلهية : التوراة والإنجيل والقرآن إلا بمن بينها أو يفسرها لهم ، وإن كانوا يعرفون اللغة ، فهؤلاء يجب عليهم طلب علم ما يعرفون به ما أمرهم الله به ونهاهم عنه ، وهذا هو طلب العلم المفروض على الخلق ، وكذلك ما بينه الرسول صلى الله عليه وسلم من معانى الكتاب الذى أنزله الله عليه يجب على الخلق طلب علم ذلك ممن يعرفه ، إذا كان معرفة ذلك لا تحصل بمجرد اللسان .

كما يروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : تفسير القرآن على أربعة أوجه : تفسير تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى ، فمن ادعى علمه فهو كاذب ، والله تعالى قال : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ﴾ ، [سورة إبراهيم : ٤] ، لم يقل : وما أرسلنا من رسول إلا إلى قومه ،

لكن لم يرسله إلا بلسان قومه الذين خاطبهم أولا ليبين لقومه ، فإذا بين لقومه ما أراده حصل بذلك المقصود لهم ولغيرهم ، فإن قومه الذين بلغ إليهم أولا يمكنهم أن يبلغوا عنه اللفظ ، ويمكنهم أن ينقلوا عنه المعنى لمن لا يعرف اللغة ، ويمكن غيرهم أن يتعلم منهم لسانه فيعرف مراده ، فالحجة تقوم على الخلق ويحصل لهم الهدى بمن ينقل عن الرسول ، تارة المعنى وتارة اللفظ ، ولهذا يجوز نقل حديثه بالمعنى ، والقرآن تجوز ترجمة معانيه لمن لا يعرف العربية باتفاق العلماء .

وجوز بعضهم أن يقرأ بغير العربية عند العجز عن قراءته بالعربية وبعضهم جوزه مطلقًا ، وجمهور العلماء منعوا أن يقرأ بغير العربية وإن جاز أن يترجم للتفهيم بغير العربية ، كما يجوز تفسيره وبيان معانيه . وإن كان التفسير ليس قرآنا متلوا ، وكذلك الترجمة ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم (١) :

« نضر الله امرءاً سمع منا حديثًا فبلغه إلى من لم يسمعه ، فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه »

وقال أيضًا فى الحديث الصحيح (٢) : « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم ،

---

(١) « صحيح » عن زيد بن ثابت

رواه أبو داود فى كتاب « العلم » باب « فضل نشر العلم » ، (١٠/٩٤-٩٥ح٣٦٤٣)

ورواه الترمذى فى كتاب « العلم » باب « الحث على تبليغ السمع » (٧/٤١٥-٤١٦ح٢٧٩٤)

والنسائى فى « العلم » من سننه الكبرى باب « الحث على إبلاغ العلم » (٣/٤٣١ح٥٨٤٧)

وابن ماجه فى المقدمة باب « من بلغ علماً » ، (١/٨٤ح٢٣٠)

وفى الباب عن عبد الله بن مسعود وأنس بن مالك وجبير بن مطعم ومعاذ بن جبل وأبى الدرداء .

(٢) « متفق عليه »

رواه البخارى فى كتاب « العلم » « باب فضل من علم علماً » ، (١/٢١١ح٧٩)

ورواه مسلم فى كتاب « الفضائل » باب « بيان مثل ما بعث النبى صلى الله عليه وسلم من الهدى والعلم »،(٤/١٧٨٧:١٨٨ح٢٢٨٢)

ورواه النسائى فى الكبرى فى كتاب « العلم » باب « مثل من فقه فى دين الله تعالى » (٣/٤٢ح٥٨٤٣)

كمثل غيث أصاب أرضًا ، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها طائفة أمسكت الماء فنفع الله به الناس فزرعوا وسقوا ، وكانت منها طائفة إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من تفقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به من الهدى والعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به »

فدعا النبى صلى الله عليه وسلم لمن يبلغ حديثه وإن لم يتفقه وقال : (١) « رب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل إلى من هو أفقه منه » وقد كان العارفون باللغة العربية حين بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم إنما يوجدون فى جزيرة العرب وما والاها ، كأرض الحجاز واليمن وبعض الشام والعراق ، ثم انتشر فصار أكثر الساكنين فى وسط المعمورة يعرفون العربية ، حتى اليهود والنصارى الموجودون فى وسط الأرض يتكلمون بالعربية ، كما يتكلم بها أكثر المسلمين ، بل كثير من اليهود والنصارى يتكلمون بالعربية أجود مما يتكلم بها كثير من المسلمين ، وقد انتشرت هذه اللغة أكثر مما انتشرت سائر اللغات حتى إن الكتب القديمة من كتب أهل الكتاب ، ومن كتب الفرس والهند ، واليونان ، والقبط ، وغيرهم عربت بهذه اللغة . ومعرفة الكتب المصنفة بالعربية والكلام العربى أيسر علي جمهور الناس من معرفة الكتب المصنفة بغير العربية ، فإن اللسان العبرى ، والسريانى ، والرومى ، والقبطى ، وغيرها وإن عرفه طائفة من الناس ، فالذين يعرفون اللسان العربى أكثر ممن يعرف لسانا من هذه الألسنة .

وأيضًا فمعرفة ما أمر الله به عباده أمرًا عاما هو مما نقلته الأمة عن نبيها محمد صلى الله عليه وسلم نقلا متواترًا ، وأجمعت عليه مثل الأمر بشهادة أن لا إله إلا الله

---

(١) سبق تخريجه

وأن محمداً رسول الله ، وأنه أرسل إلى جميع الناس ، أميهم وغير أميهم ، وإقام الصلوات الخمس ، وإيتاة الزكاء ، وصيام شهر رمضان ، وحج البيت العتيق من استطاع إليه سبيلا ، وإيجاب الصدق وتحريم الفواحش والظلم والأمر بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت هو ما يعرفه المسلمون معرفة عامة ولا يحتاج الإنسان فى معرفة ذلك إلى أن يحفظ القرآن ، بل يمكن للإنسان معرفة ما أمر الله به على لسان رسوله وإن لم يعرف اللغة العربية ، ويكفيه أن يقرأ فاتحة الكتاب وسورامعها يصلى بهن ، وكثير من الفرس والروم والترك والهند والحبشة والبربر ، وغيرهم لا يعرفون أن يتكلموا بالعربية الكلام المعتاد ، وقد أسلموا وصاروا من أولياء الله المتقين ، ومنهم من يحفظ القرآن كله وإذا كلم الناس لا يستطيع أن يكلمهم إلا بلسانه لا بالعربية ، وإذا خوطب بالعربية لم يفقه ما قيل له .

الوجه الثانى : إن المسيح عليه السلام كان لسانه عبريا ، وكذلك ألسنة الحواريين الذين اتبعوه ، أولا، ثم إنه أرسلهم إلى الأمم يخاطبونهم ويترجمون لهم ما قاله المسيح عليه السلام ، فإن قالوا : إن رسل المسيح حولت ألسنتهم إلى ألسنة من أرسل إليهم .

قيل : هذا منقول فى رسل المسيح ، وفى رسل محمد صلى الله وسلم الذين أرسلوها إلى الأمم ، ولا ريب أن رسل رسل الله ، كرسل محمد والمسيح عليهما الصلاة والسلام إلى الأمم ، لابد أن يعرفوا لسان من أرسلهم الرسول إليهم ، أو أن يكون عند أولئك من يفهم لسانهم ولسان الرسول ليترجم لهم ، فإذا لم يكن عند من أرسل المسيح إليهم من يعرف بالعربية فلابد أن يكون رسوله ينطق بلسانهم .

وكذلك رسل النبى صلى الله عليه وسلم الذين أرسلهم إلى الأمم ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم لما رجع من الحديبية أرسل رسله إلى أهل الأرض فبعث إلى ملوك العرب باليمن والحجاز ، والشام ، والعراق ، وأرسل إلى ملوك النصارى

بالشـام ومصـر قبطهم ، ورومهم ، وعـروبهم ، وعـبرهـم ، وغيـرهم ، وأرسل إلى الفرس المجوس ملوك العراق وخراسان

قال محمد بن سعد فى الطبقات : (١) ذكر بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الرسل بكتبه إلى الملوك وغيرهم يدعـوهم ، وذكر ما كتـب به رسـول الله صلى الله وسلم لناس من العـرب وغيـرهم ثم قال : أخـبرنا مـحمد بـن عمرو الأسـلمى قال : حدثنى محمد بن معمر بن راشد ، ومـحمد بن عبد الله عن الزهرى عن عبيد الله بن عـبد الله عن ابن عـباس قـال : وعن الواقـدى : حدثنا أبو بـكر بن عـبد الله بن أبى سبرة عن المسور بن رفاعـة ، وحدثنا عبد الحميد بن جعفـر عن أبيه عن جدته الشفا ، وحدثـنا أبو بكر بن عبـد الله بن أبى سبـرة عن محـمد بن يوسف عن السـائب بن يزيد عن العلاء بن الحضرمى ، وحدثنا ابن محمـد الأنصارى عن جعفر بن عمرو بن جعفر ابن عمرو بن أمية الضمرى عن أهله عن عمرو بن أمية الضمرى دخل حديث بعضهم فى حـديث بعض قالوا (٢) : إن رسـول الله صلى الله عليـه وسلم لما رجع من الحديبية فى ذى الحجة سنة ست أرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام . وكـتب إليهم كـتبا فـقيل : يا رسـول الله إن الملوك لا يقرأون كـتـابا إلا مختـوما ، فـاتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يومـئذ خاتما من فضة فصـه منه نقشه ثلاثة أسطر محمد رسول الله وختم به الكتب فـخرج ستة نفر منهم فى يوم واحد ، وذلك فى المحرم سنة سبع ، وأصـبح كل واحد مـنهم يتكلم بلسان الـقوم الذين بعثه إليـهم ، أرسل النبى صلى الله عليه وسلم إلى هرقل : دحية بن خليفة الكلبى ، وإلى المقوقس صاحب مـصر والإسكندريـة : حـاطب بن أبى بلتـعة ، وإلى كـسرى : عبـد الله بن حذافة السهمى وأرسل إلى الحارث ابن أبى شمـر الغسانى - وكان نصرانيا بظاهر

---

(١)طبقات ابن سعد (١/٢/١٥)

(٢) المصدر السابق (١/٢/١٥:١٩) وقد اختصر المصنف الرواية هنا

دمشق - فبعث إليه شجاع بن ذهب الأسدى ، وأرسل إلى غير هؤلاء .

وقال أيضاً : أخبرنا الهيثم بن عدى قال : أخبرنا دلهم بن صالح وأبو بكر الهذلى عن عبد الله بن بريدة بن الحصيب الأسلمى قال : وحدثنا محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان والزهرى ، وحدثنا الحسن بن عمارة عن فراش عن الشعبى دخل حديث بعضهم فى حديث بعض : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه (١) « إئتونى بأجمعكم بالغداة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى الفجر يجلس فى مصلاه ليلا يسبح ويدعو ، ثم التفت إليهم فبعث عدة إلى عدة وقال صلى الله عليه وسلم : انصحوا لله فى أمر عباده ، فإن من أخبر عن شئ من أمور المسلمين ، ثم لم ينصح حرم الله عليه الجنة ، انطلقوا ولا تصنعوا كما صنعت رسل عيسى ابن مريم ، فإنهم أتو القريب وتركوا البعيد فأصبحوا - يعنى الرسل - وكل منهم يعرف بلسان القوم الذين أرسل إليهم وذكر ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال : هذا أعظم ما كان من حق الله عز وجل عليهم فى أمر عباده »

الوجه الثالث : أن النصارى فيهم عرب كثير فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، وكل من يفهم اللسان العربى ، فإنه يمكن فهمه للقرآن ، وإن كان أصل لسانه فارسيا أو روميا أو تركيا أو هنديا أوقبطيا ، وهؤلاء الذين أرسلوا هذا الكتاب من علماء النصارى قد قرأوا المصحف وفهموا منه ما فهموا وهم يفهمونه بالعربية واحتجوا بآيات من القرآن ، فكيف يسوغ لهم مع هذا أن يقولوا : كيف تقوم الحجة علينا بكتاب لم نفهمه ؟

الوجه الرابع : أن حكم أهل الكتاب فى ذلك حكم المشركين ، معلوم أن المشركين فيهم عرب وفيهم عجم - ترك وهند وغيرهما - فكما أن جميع المشركين كمشركى العرب ، وكذلك جميع أهل الكتاب كأهل الكتاب من العرب وفى اليهود

---

(٥٥٩) طبقات ابن سعد (١٩/٢/١)

والنصارى ممن يعرف لسان العرب من لا يحصيه إلا الله عز وجل .

الوجه الخامس : إنه ليس فهم كل آية من القرآن فرضاً على كل مسلم وإنما يجب على المسلم أن يعلم ما أمره الله به ، وما نهاه عنه بأى عبارة كانت وهذا ممكن لجميع الأمم ، ولهذا دخل فى الإسلام جميع أصناف العجم من الفرس ، والترك ، والهند ، والصقالبة ، والبربر ، ومن هؤلاء من يعلم اللسان العربى ، ومنهم من يعلم ما فرض الله عليه بالترجمة ، وقد قدمنا أنه يجوز ترجمة القرآن فى غير الصلاة والتعبير ، كما يجوز تفسيره باتفاق المسلمين ، وإنما تنازعوا هل يقرأ بغير العربية تلاوة كما يقرأ فى الصلاة ؟ فجمهور العلماء منعوا من ذلك ، وحينئذ فإذا قرأ الأعجمى فاتحة الكتاب وسورتين معها بالعربية أجزأه ، وكذلك التشهد وغيره من الذكر المأمور به وهذا أمر يسير يسير من أكثر الواجبات ، فكيف يمتنع أن يأمر الله تبارك وتعالى عباده بذلك ؟

وأما جمل ما أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم من الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وما حرمه الله من الشرك والفواحش والظلم وغير ذلك ، فهذا مما يمكن أن يعرفه كل أحد بتعريف من يعرفه ، إما باللسان العربى ، وإما بلسان آخر لا يتوقف تعريف ذلك على لسان العرب .

فصل

وأما قوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه قرآنا عربيًا لعلكم تعقلون ﴾ ، [سورة يوسف : ٢] وقوله : ﴿ ولو جعلناه قرآنًا أعجميًا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى ﴾ . [سورة فصلت : ٤٤] . وقوله : ﴿ إنا جعلناه قرآنًا عربيًا ﴾ [سورة الزخرف : ٣] .

فهذا يتضمن إنعام الله به على عباده ؛ لأن اللسان العربى أكمل الألسنة وأحسنها بيانا للمعانى ، فنزول الكتاب به أعظم نعمة الخلق من نزوله بغيره ، وهو إنما خوطب به أولا العرب ليفهموه ، ثم من يعلم لغتهم يفهمه كما فهموه ، ثم من لم يعلم لغتهم ترجمه له من عرف لغتهم ، وكان إقامة الحجة به على العرب أولا والإنعام به عليهم أولا لمعرفتهم بمعانيه قبل أن يعرفه غيرهم .

قال تعالى : ﴿ فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون ﴾ ، [سورة الدخان : ٥٨]وقال تعالى :﴿ فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قومًا لدا ﴾ ، [سورة مريم : ٩٧] واللد جمع الألد ، وهو الأعوج فى المناظرة الذى يروغ عن الحق ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم (١) « إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم » ، وأما قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ [سورة إبراهيم :٤] .

فهو كما قال تعالى وقوم محمد صلى الله عليه وسلم هم قريش ، بلسانهم أرسل ، وهو سبحانه لم يقل : وما أرسلنا من رسول إلا إلى قومه ، بل الرسول يبعثه الله إلى قومه وغير قومه ، كما تقول النصارى : إنه بعث المسيح عليه السلام ، أو الحواريون إلى غير بنى إسرائيل ، وليسوا من قومه ، وكذلك بعث صلى الله عليه وسلم إلى قومه وغير قومه ، ولكن إنما يبعث بلسان قومه ، ليبين لهم ثم يحصل

---

(١) « متفق عليه »

رواه البخارى فى كتاب « المظالم » باب قوله تعالى « وهو الد الخصام » (١٢٧/٥ح٢٤٥٧)

ورواه أيضاً برقم ٤٥٢٣ ,٧١٨٨)

ورواه مسلم فى كتاب « العلم » باب « فى الألد الخصم » ، (٢٠٥٤/٤ح٢٦٦٨)

ورواه الترمذى فى كتاب « التفسير » باب ومن سورة البقرة ، (٣١٨/٨ح٤٠٥٩)

ورواه النسائى فى سننه فى كتاب « أداب القضاة » « باب الألد الخصم » (٢٤٧/٨/٢٤٨)

البيان لغيرهم بتوسط البيان لهم ، إما بلغتهم ولسانهم ، وإما بالترجمة لهم ولو لم يبين لقومه أولا لم يحصل مقصود الرسالة لا لهم ولا لغيرهم ، وإذا تبين لقومه أولا حصل البيان لهم ولغيرهم بتوسطهم وقومه إليهم بعث أولا ولهم دعا أولا ، وأنذر أولا ، وليس في هذا أنه لم يرسل إلى غيرهم ، لكن إذا تبين لقومه لكونه بلسانهم ، وأمكن بعد هذا أن يعرفه غير قومه ، إما بتعلمه بلسانهم ، وإما بتعريف بلسان يفهم به ، والرجل يكتب كتاب علم في طب أو نحو أوحساب بلسان قومه ثم يترجم ذلك الكتاب ، وينقل إلى لغات أخر ، وينتفع به أقوام آخرون ، كما ترجمت كتب الطب والحساب ، التي صنعت بغير العربي ، وانتفع بها العرب ، وعرفوا مراد أصحابها ، وإن كان المصنف لها أولا إنما صنفها بلسان قومه ، وإذا كان هذا في بيان الأمور التي لا تتعلق بها سعادة الآخرة ، والنجاة من عذاب الله ، فكيف يمتنع في العلوم التي تتعلق بها سعادة الآخرة والنجاة من العذاب أن ينقل من لسان حتى يفهم أهل اللسان الثاني بها ما أراده بها المتكلم بها أولا باللسان الأول ، وأبناء فارس المسلمون لما كان لهم عناية بهذا ، ترجموا مصاحف كثيرة ، فكتبوها بالعربي ، ويكتبون الترجمة بالفارسية وكانوا قبل الإسلام أبعد عن المسلمين من الروم والنصارى ، فإذا كان الفرس المجوس قد وصل إليهم معاني القرآن بالعربي وترجمته ، فكيف لا يصل إلى أهل الكتاب وهم أقرب إلى المسلمين منهم ؟ وعامة الأصول التي يذكرها القرآن عندهم شواهدها ونظائرها في التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، وغير ذلك من النبوات ، بل كل من تدبر بنبوات الأنبياء وتدبر القرآن جزم جزمًا يقينيًا بأن محمداً رسول الله حقًا وأن موسى رسول الله صدقًا لما يرى من تصادق الكتابين : التوراة والقرآن مع العلم بأن موسى عليه السلام لم يأخذ عن محمد صلى الله عليه وسلم وأن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يأخذ عن موسى ، فإن محمداً صلى الله عليه وسلم باتفاق أهل المعرفة بحاله كان أميًا ، من قوم

أميين ، مقيما بمكة ، ولم يكن عندهم من يحفظ التوراة ، ولا الإنجيل ، ولا الزبور ، ومحمد صلى الله عليه سلم لم يخرج من بين ظهرانيهم ولم يسافر قط إلا سفرتين : إلى الشام خرج مرة مع عمه أبى طالب قبل الاحتلام ولم يكن يفارقه ، ومرة أخرى مع ميسرة فى تجارته ، وكان ابن بضع وعشرين سنة مع رفقة كانوا يعرفون جميع أحواله ولم يجتمع قط بعالم أخذ عنه شيئًا لا من علماء اليهود ولا النصارى ولا من غيرهم لا بحيرى ولا غيره ، ولكن كان بحيرى الراهب لمارآه عرفه لما كان عنده من ذكره ونعته فأخبر أهله بذلك وأمرهم بحفظه من اليهود ولم يتعلم لامن بحيرى ولا من غيره كلمة واحدة وسنبين إن شاء الله الدلائل الكثير على أنه لم يأخذ عن أحد من أهل الكتاب كلمة واحدة ، وقصة بحيرى مذكورة ذكرها أرباب السير وأصحاب المسانيد والسنن .

قال الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سودة الترمذى فى جامعه : حدثنا الفضل أبو العباس البغدادى قال : حدثنا عبد الرحمن بن غزوان أبو نوح عن يونس بن أبى إسحاق عن أبى بكر بن أبى موسى الأشعرى عن أبية قال : (١)

خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه النبى صلى الله عليه وسلم فى أشياخ من قريش : فلما أشرفوا على الراهب هبطوا فحلوا رحالهم فخرج إليهم الراهب وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت ، قال : فهم يحلون رحالهم فجعل يتخللهم الراهب حتى جاء فأخذ بيد رسول صلى الله عليه وسلم فقال : هذا سيد العالمين هذا رسول رب العالمين يبعثه الله رحمة للعالمين ، فقال له أشياخ من قريش : ما علمك ؟ فقال : إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خر

---

(١) رواه الترمذى فى كتاب « المناقب » باب « ما جاء فى بدء نبوءة النبى صلى الله عليه وسلم » (٠١/٩٠-٩٢ح٣٦٩٩) وقال : « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه »

ساجداً ، ولا يسجدون إلا لنبى وإنى أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غرضوف كتفه مثل التفاحة ثم رجع نصنع لهم طعامًا فلما أتاهم به - وكان هو فى رعية الإبل - فقال : أرسلوا إليه فأقبل وعليه غمامة تظله فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فئ الشجرة ، فلما جلس مال فئ الشجر عليه فقال : انظروا إلى فئ الشجرة مال عليه قال : فبينما هو قائم عليهم يناشدهم أن لا يذهبوا به إلى الروم ، فإن الروم إن رأوه عرفوا بالصفة فيقتلونه ، فالتفت فإذا بسبعة قد أقبلوا من الروم فاستقبلهم الراهب فقال : ما جاء بكم ؟ قالوا : جئنا لأن هذا النبى خارج فى هذا الشهر فلم يبق طريق إلا بعث إليه بأناس وأنا قد أخبرنا خبره بطريقك هذه . فقال : أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده ؟ قالوا : لا قال : فتابعوه وأقاموا معه قال : أنشدكم الله يامعشر العرب أيكم وليه ؟ فقال أبو طالب : أنا فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب وزوده الراهب من الكعك والزيت .قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ورواه البيهقى فى كتاب (١) دلائل النبوة من حديث العباس بن محمد عن قراد بن نوح . وقال العباس : لم يحدث به - يعنى بهذا الإسناد - غير قراد وسمعه يحيى وأحمد بن قراد .

قال البيهقى : أراد أنه لم يحدث بهذا الإسناد سوى هؤلاء ، فأما القصة فهى عند أهل المغازى مشهورة

قال ابن سعد فى الطبقات (٢) : حدثنا محمد بن عمر قال : حدثنى محمد بن صالح وعبد الله بن جعفر وإبراهيم بن إسماعيل بن أبى حبيبة عن داود بن الحصين قال : لما بلغ رسول صلى الله عليه وسلم اثنى عشرة سنة خرج به أبو طالب إلى الشام فى العير التى خرج فيها للتجارة ، فنزلوا بالراهب بحيرى فقال بحيرى لأبى

(١) رواه البيهقى فى « الدلائل » (٢/٢٤-٢٦)

(٢) طبقات ابن سعد (١/١/٧٦:٧٧)

طالب فى النبى صلى الله عليه وسلم ما قال ، وأمره أن يحتفظ به فرده أبو طالب معه إلى مكة وشب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبى طالب يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أمور الجاهلية ومعائبها لما يريده به من كرامته حتى بلغ أن كان رجلا أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقًا وأكرمهم مخالطة ، وأعظمهم حلمًا وأمانة ، وأصدقهم حديثًا ، وأبعدهم عن الفحش والأذى ماروّى ملاحيا ولا مماريا أحدا حتى سماه قومه الأمين لما جمع فيه من الأمور الصالحة .

وقال ابن الجوزى : (١) خرج أبو طالب إلى الشام ومعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن اثنى عشرة سنة وشهرين وعشرة أيام فنزل الركب ببصرى وبها راهب - يقال له بحيرى - فى صومعة له وكان ذا علم بالنصرانية ولم يزل فى تلك الصومعة راهب تنتهى إليه علم النصرانية صاغرا عن كابر وفيها كتب يدرسونها ، وكان كثيرا ما يمربه الركب فلا يكلمه ، حتى إذا كان فى ذلك العام نزلوا منزلا قريبا من الصومعة فصنع لهم الراهب طعاما ودعاهم . وإنما حمله على ذلك شئ رآه فلما رأى بحيرى ذلك نزل من صومعته وأمر بذلك الطعام فحضر وأرسل إلى القوم فقال : يا معشر قريش ، أحب أن تحضروا طعامى ولا يتخلف منكم أحد ، فقال : وهذا شئ تكرمونى به ، فلما حضروا عنده جعل يلاحظ النبى صلى الله عليه وسلم لحظا شديدا ، وينظر إلى جسده ، وجعل أبو طالب يخاف عليه من الراهب ، ثم قال الراهب لأبى طالب : ارجع بابن أخيك فإنه كائن له شأن عظيم فإنا نجد صفته فى كتبنا ونرويه عن آبائنا . فلما فرغوا من التجارة رجع به أبو طالب سريعًا إلى مكة ، فما خرج بعدها أبو طالب خوفًا عليه . وهذا مع أن فى القرآن من الرد على أهل الكتاب فى بعض ما حرفوه مثل دعواهم أن المسيح عليه السلام صلب ، وقول بعضهم : إنه إله وقول بعضهم : إنه ساحر وطعنهم على سليمان عليه وسلم وقولهم

---

(١) المنتظم لابن الجوزي (٢/٢٩٣:٢٩٥) باختصار وتصرف من نسخ الإسلام

: إنه كان ساحراً وأمثال ذلك مما يبين أنه لم يأخذ عنهم .

وفى القرآن من قصص الأنبياء عليهم السلام مالا يوجد فى التوراة ولا فى الإنجيل مثل قصة هود وصالح وشعيب وغير ذلك .

وفى القرآن من ذكر المعاد وتفصيله وصفة الجنة والنار والنعيم والعذاب مالا يوجد مثله فى التوراة والإنجيل ، بل التوراة ليس فيها تصريح بذكر المعاد وعامة ما فيها من الوعد والوعيد ، فهو فى الدنيا كالوعد بالرزق والنصر ، والعافية ، والوعيد بالقحط ، والأمراض ، و الأعداء ، وإن كان ذكر المعاد موجوداً فى غير التوراة من النبوات ، ولهذا كان أهل الكتاب يقرون بالمعاد ، وقيام القيامة الكبرى ، وقد قيل إن ذلك مذكور فى التوراة أيضًا لكن لم يبسط كما بسط فى غير التوراة .

فصل

فإن قالوا : إن الكتب التى عندنا من التوراة والإنجيل وغيرهما ترجمها لنا الحواريون ، وهم عندنا رسل معصومون ، وترجموها لجميع الأمم بخلاف القرآن فإنه إنما بترجمة من ليس بمعصوم ، فمن هذا أجوبة .

أحدها : أن هذا كذب بين ، فإن من العرب من النصارى من لا يحصى عدده إلا الله تعالى ، وكان فيهم نصارى كثيرون تنصروا قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان فيهم قوم على دين المسيح الذى لم يبدل وهم مؤمنون من أهل الجنة ، كسائر من كان على دين المسيح عليه السلام ، فإن كل من كان على دين المسيح الذى لم يبدل قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه مؤمن مسلم من أهل الجنة ، ومع هذا فليس على وجه الأرض توراة ولا إنجيل معرب من عهد الحواريين ، بل التوراة العبرية تنقل من اللسان العبرى أو غيره إلى العربية ، وكذلك الإنجيل ينقل

من اللسان الرومى ، أو السريانى ، أو اليونانى ، أو غيره إلى اللغة العربية ، فلو كان عند كل أمة من الأمم توراة وإنجيل ونبوات بلسانهم لكان نصارى العرب أحق بهذا من نصارى الحبشة والصقالبة والهند فإنهم جيران لبيت المقدس وهم بنو إسماعيل عليه السلام والأناجيل عندهم أربعة ، وهم يدعون أن كل واحد كتبها بلسان كتبت بلسان العبرى ، والرومى ، واليونانى ، ومع أن فى بعض الأناجيل ما ليس فى بعض . مثل قولهم : عمدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس الذى جعلوه أصل دينهم وهذا إنما هو قوله فى إنجيل متى ، وإنما كان كل واحد من الأربعة كتب إنجيلا بلسانه ، لم يكن هناك إنجيل واحد أصلى . ترجع إليه الأناجيل كلها ، ثم إنهم مع هذا يدعون أنها ترجمت باثنين وسبعين لسانا وهذا فيه من الكذب والتناقض أمور سننبه إن شاء الله على بعضها لكن غاية ما يدعون أنه ترجم باثنين وسبعين لسانًا ومعلوم أن الألسنة الموجودة فى بنى آدم فى جميع المعمورة فى زماننا وقبل زماننا أكثر من هذا ، كما يعرفه من عرف أحوال العالم ، بل اللسان الواحد كالعربى والفارسى والتركى جنس تحته أنواع مختلفة لا يفهم بعضهم لسان بعض إلا أن يتعلمه منهم ، والعرب أقرب الأمم إلى بنى إسحاق بنى إسرائيل والعيص ، فإنهم بنو إسماعيل وجيرانهم ، فإن أهل الحجاز جيران الشام ، ومكة لم تزل تحج إليها العرب ، ولم يكن قط عند العرب توراة ولا إنجيل عربيان من عهد المسيح عليه السلام بل ولا كان بمكة لا توراة ولا إنجيل لا معرب ولا غير معرب ، ولهذا قال تعالى ﴿ لتنذر قومًا ما أتاهم نذير من قبلك ﴾ ، [سورة القصص : ٤٦] . فكيف يدعى أن التوراة والإنجيل ترجمها الحواريون لكل قوم من جميع بنى آدم شرقًا وغربًا وشمالا بلسان يفهمونه به ، وهل يقول هذا إلا من هو أكذب الناس وأجهلهم ؟

الوجه الثانى : أن يقال ترجمة الكلام من لغة إلى لغة لا تحتاج إلى معصوم بل هذا أمر تعلمه الأمم ، فكل من عرف اللسانين أمكنه الترجمة ويحصل العلم بذلك إذا كان

المترجمون كثيرين متفرقين لا يتواطؤون على الكذب بقرائن تقترن بخبر أحدهم وبغير ذلك ، وهذا موجود معلوم ، بل إذا ترجمه اثنان كل منهما لا يعرف ما يقوله الآخر لم يتواطؤوا حصل بذلك المقصود فى الغالب وهم يذكرون أن التوراة ترجمها اثنان وسبعون حبراً من اليهود ولم يكونوا معصومين وأن الملك فرقهم لئلا يتواطأوا على الكذب ، واتفقوا على ترجمة واحدة ، وهذا كان بعد الخراب الأول ، فهكذا يمكن ترجمة غير التوراة وهذه التوارة فى زماننا والإنجيل والزبور يترجم باللغة العربية ، ويعرف المقصود به بلاريب فكيف بالقرآن الذى يفهم أهله معناه ويفسرونه ويترجمونه أكمل وأحسن مما يترجم أهل التوراة والإنجيل ، التوراة والإنجيل ؟

الوجه الثالث : أن دعوى العصمة فى كل واحد من الحواريين وأنهم رسل الله بمنزلة إبراهيم وموسى عليهما السلام ، دعوى ممنوعة وهى باطلة وإنما هم رسل المسيح عليه السلام بمنزلة رسل موسى ورسل إبراهيم ورسل محمد صلى الله عليه وسلم ، وأكثر النصارى أو كثير منهم أو كلهم يقولون : هم رسل الله وليسوا بأنبياء ، وكل من ليس بنبى ، فليس برسول الله وليس بمعصوم ، وإن كانت له خوارق عادات ، كأولياء الله من المسلمين وغيرهم ، فإنه وإن كانت لهم كرامات من الخوارق فليسوا معصومين من الخطأ والخوارق التى تجرى على أيدى غير الأنبياء لا تدل على أن أصحابها أولياء الله عند أكثر العلماء فضلا عن كونهم معصومين فإن ولى الله من يموت على الإيمان ، ومجرد الخوارق لا تدل على أنه يموت على الإيمان ، بل قد يتغير عن ذلك الحال ، وإذا قطعنا بأن الرجل ولى كمن أخبر النبى بأنه من أهل الجنة ، فلا يجب الإيمان بكل ما يقوله إذا لم يوافق ما قالته الأنبياء بخلاف الأنبياء - عليهم السلام - فإنهم معصومون لا يجوز أن يستقر فيما يبلغونه خطأ ، ولهذا أوجب الله الإيمان بهم ومن كفر بواحد منهم فهو كافر . ومن يسب واحداً منهم وجب قتله فى شرع الإسلام ، كما قال تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما

أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون * فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ ، [سورة البقرة : ١٣٦ ، ١٣٧] .

وقال تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٨٥] . وهذا مبسوط فى موضع آخر .

فصل

وأما قولهم : لا يلزمنا اتباعه ؛ لأننا نحن قد أتانا رسل من قبله خاطبونا بألسنتنا وأنذرونا بديننا الذى نحن متمسكون به إلى يومنا هذا وسلموا إلينا التوراة والإنجيل بلغاتنا على ما يشهد لهما الكتاب الذى أتى به هذا حيث يقول فى سورة إبراهيم : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾ [سورة إبراهيم : ٤] ، وقال فى سورة النحل : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا ﴾ ، [سورة النحل : ٣٦] ، فالجواب عنه من وجوه :

أحدها : إثبات رسول من قبله إليكم لا يمنع إتيان رسول ثان ، فإن بنى إسرائيل قد بعث الله إليهم موسى عليه السلام وكانوا على شريعة التوراة ، ثم بعث الله تبارك وتعالى إليهم المسيح عليه السلام فوجب عليهم الإيمان به ومن لم يؤمن به كان كافراً وإن قال إنى متمسك بالكتاب الذى أنزل إلى .

فكذلك إذا أرسل الله رسولا بعد المسيح وجب الإيمان به ومن لم يؤمن به كان كافراً ، كما أن من لم يؤمن بالمسيح من بنى إسرائيل كان كافراً وبنو إسرائيل أكثر اختصاصاً بموسى والتوراة من الروم وغيرهم ، فالمسيح والإنجيل فإنهم كانوا

عبرانيين والتوراة عبرانيه .

الوجه الثاني : دعواهم أنهم متمسكون فى هذا الوقت بالدين الذى نقله الحواريون عن المسيح عليه السلام كذب ظاهر ، بل هم عامة ماهم عليه من الدين عقائده وشرائعه ، كالأمانة والصلاة إلى المشرق ، واتخاذ الصور والتماثيل فى الكنائس واتخاذها وسائط والاستشفاع بأصحابها وجعل الأعياد بأسمائهم ، وبناء الكنائس على أسمائهم ، واستحلال الخنزير ، وترك الختان والرهبانية ، وجعل الصيام فى الربيع وجعله خمسين يومًا ، والصلوات والقرا بين والناموس لم ينقله الحواريون عن المسيح ولا هو موجود لا فى التوراة ولا فى الإنجيل ، وإنما هم متمسكون بقليل مما جاءت به الأنبياء . وأما كفرياتهم وبدعهم فكثيرة جدًا ، ولم ينقل أحد عن المسيح والحوراين أنهم أمروا أن يقولوا ما يقولونه فى صلاتهم السحرية : تعالوا بنا نسجد إلى المسيح إلهنا . وفى الصلاة الثانية والثالثة : يا والدة الإله مريم العذراء افتحى لنا أبواب الرحمة .

الوجه الثالث : قولهم إنهم سلموا إليهم التوراة ولإنجيل بلغاتهم إنما يستقيم إن كان صحيحًا فى بعض النصارى لا فى جميعهم ، فإن العرب من النصارى وغير العرب لم يسلم أحد إليهم توراة ولا إنجيلا بلسانهم ، وهذا أمر معروف ولا يوجد قط توراة ولا إنجيل معرب من زمن الحواريين ، وإنما عربت فى الأزمان المتأخرة فإذا كانت النصارى من العرب تقوم عليهم الحجة قبل محمد صلى الله عليه وسلم بكتاب نزل بغير لسانهم ثم عرب لهم ، فكيف لا تقوم على الروم وغيرهم الحجة بكتاب نزل بغير لسانهم ثم ترجم بلسانهم ؟

الوجه الرابع : أن يقال : الأمة إذا غيرت دين رسولها الذى أرسل إليها وبدلته أرسل الله إليها من يدعوها إلى الدين الذى يحبه الله ويرضاه . كما أن بنى إسرائيل لما غيروا دين موسى و بدلوه ، بعث الله إليهم وإلى غيرهم المسيح بالدين

الذى يحبه الله ، وكذلك النصارى لما بدلوا دين المسيح وغيره بعث الله إليهم وإلى غيرهم محمداً صلى الله عليه وسلم بالدين الذى يحبه ويرضاه .

وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (١) : « إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب » أولئك البقايا الذين كانوا متمسكين بدين المسيح قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم كانوا على دين الله عز وجل . وأما من حيث بعث محمد صلى الله عليه وسلم فمن لم يؤمن به فهو من أهل النار . كما قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح (٢) : « والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولا يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار » .

الوجه الخامس : أن يقال : دعواهم أن الرسل سلموا إليهم التوراة والإنجيل وسائر النبوات باثنين وسبعين لسانًا ، وأنها باقية إلى اليوم على لفظ واحد دعوى يعلم أن قائلها يتكلم بلا علم بل مفتر كاذب ، وذلك أن هذا يقتضى أنه الآن فى الأرض هذه الكتب باثنين وسبعين لسانًا كلها منقولة عن الحواريين وكلها متفقة غير مختلفة البتة فهذا أربع دعاوى أنها موجودة باثنين وسبعين لسانًا ، وأنها متفقة ، وأنها كلها منقولة عن الحورايين .

الرابعة : أنهم معصومون : فيقال: من الذى لو قدر أن هذه الكتب التى باثنين وسبعين لسانًا هى عن الحواريين وهى موجودة اليوم ، فمن الذى يمكنه أن يشهد بموافقة بعضها بعضًا ؟ ذلك لا يمكن إلا لمن يعلم الاثنين وسبعين لسانًا ويكون ما عنده من الكتب يعلم إنما هى مأخوذة عن الحواريين ويعلم أن كل نسخة فى العالم

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) « صحيح »
رواه مسلم فى كتاب « الإيمان » باب « وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم » (١/١٣٤ح١٥٣)

بذلك اللسان توافق النسخة التى عنده وإلا فلو جمع اثنين وسبعين نسخة باثنين وسبعين لسانًا لم يعلم أن كل نسخة من هذه هى المأخوذة عن الحواريين إن قدر أنه أخذ عنهم اثنين وسبعين لسانًا . ولا يعلم أن كل نسخة فى العالم توافق تلك النسخة ، فإن من المعلوم أنه فى زماننا وقبل زماننا لم تزل هذه الكتب تنقل من لسان إلى لسان كما يترجم من العبرانية إلى العربية ، ومن السريانية والرومية واليونانية إلى العربية وغيرها .

وحينئذ فإذا وجدت نسخة بالعربية لم يعلم أنها مما عربت بعد الحواريين أو هى من المأخوذ عن الحواريين إذا قدر أنه أخذ عنهم نسخة بالعربية ولا يمكن لأحد أن يجمع جميع النسخ المعربة ويقابل بينها . بل قد وجدنا النسخ المعربة يخالف بعضها بعضًا فى الترجمة مخالفة شديدة تمنع الثقة ببعضها ، وقد رأيت أنا بالزبور عدة نسخ معربة بينها من الاختلاف ما لا يكاد ينضبط وما يشهد بأنها مبدلة مغيرة لا يوثق بها ، ورأيت من التوراة المعربة من النسخ ما يكذب بكثير من ترجمتها طائفة من أهل الكتاب ، فكيف يمكنه أن يجمع جميع النسخ التى بالاثنين وسبعين لسانًا ويقابل بين نسخ كل لسان حتى يكون فيها النسخة القديمة المأخوذة عن الحواريين ؟ ثم يقابل بين نسخ جميع الألسنة ولا يمكن ذلك إلا لمن يكون عارفًا بالاثنين وسبعين لسانًا معرفة تامة ، وليس فى بنى آدم من يقدر على ذلك ولو قدر وجود ذلك فلم يعرف أن القادر على فعل ذلك فعل ذلك وأخبرنا باتفاقها .

ولو وجد ذلك لكان هذا خبر واحد وأن يترجم كل لسان من يعلم صحة ترجمته حتى تنتهى الترجمة إلى لسان واحد كالعربى مثلا ويعلم حينئذ اتفاقها . وإلا فإذا ترجم هذا الكتاب بلسان أو لسانين أو أكثر وترجم الآخر كذلك لم يعلم اتفاقها إن لم يعلم أن المعنى بهذا اللسان هو المعنى بهذا اللسان ، وهذا لا يكون إلا ممن يعرف اللسانين أو من ترجم له اللسانان باللسان الذى يعرفه ومعلوم أن أحدًا لم يترجم له

الاثنان وسبعون لسانًا بلسان واحد أو ألسنة يعرفها ولا يعرف أحد باثنين وسبعين لسانًا وحينئذ فالجزم باتفاق جميع الكتب المكتوبة باثنين وسبعين لسانًا أو الجزم بأن نسخ كل لسان متفقة جزم بما لا يعلم صحته لو لم يكن فى الأرض اليوم الاثنان وسبعون لسانًا منقولة عن الحواريين لم تختلط بالمترجم بعد ذلك ، فكيف وأكثر ما بأيدى الناس هو مما يترجم بعد ذلك بالعربى وغيره ؟ هذا إذا ثبت أن الحورايين سلموها باثنين وسبعين لسانًا وأنها باقية إلى اليوم وهذا أمر لا يمكن لأحد معرفته . فليس اليوم توراة ، وإنجيل ، ونبوات يشهد لها أحد أنها مترجمة باللسان العربى من عهد الحواريين بل ولا بأكثر الألسنة ، وإلا فإذا قدر أن الحواريين سلموها باثنين سلموها باثنين وسبعين لسانًا مع حصول الترجمة بعد ذلك وكثرة المترجمات أمكن وقوع التغيير فى بعض المترجمات ، وحينئذ فالعلم بأن تلك النسخ القديمة لا تتغير فيها لا يمنع وقوع التغير فى بعض ما ترجم بعدها أو فى بعض ما نسخ بعدها ولا سبيل إلى العلم باتفاقها مع كونها باثنين وسبعين لسانًا بخلاف القرآن الذى هو بلسان العرب وخط العرب ، فإن العلم باتفاق ما يوجد من نسخه ممكن وهو محفوظ فى الصدور لا يحتاج إلى حفظ فى الكتب فهو منقول بالتواتر لفظًا وخطًا .

الوجه السادس : قولهم وسلموا إلينا التوراة والإنجيل بلساننا على ما يشهد لهما الكتاب الذى أتى به هذا : فيقال لهم : ليس فى القرآن ما يشهد لكم بأن التوراة والإنجيل سلمت إليكم بلسانكم فاستشهادكم بالقرآن على هذه الدعوى من جنس استشهادكم به على أن دينكم حق .

ومن جنس استشهادكم بالنبوات على ما أحد ثتموه وغيرتم به دين المسيح عليه السلام من التثليث والاتحاد وغير ذلك وقولهم حيث يقول الله ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾ ، [سورة : إبراهيم : ٤] .و قوله تعالى ﴿ ولقد بعثنا

فى كل أمة رسولا ﴾ ، [سورة النحل : ٣٦] فيقال : لا ريب أن قوم موسى عليه السلام هم بنو إسرائيل وبلسانهم نزلت التوراة ، وكذلك بنو إسرائيل هم قوم المسيح عليه السلام ،و بلسانهم كان المسيح يتكلم فلم يخاطب واحد من الرسولين أحدا إلا باللسان العبرانى ، لم يتكلم أحد منهما لا برومية ، ولا سريانية ، ولا يونانية ، ولا قبطية ، وقوله تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا ﴾ ، [سورة النحل : ٣٦] كلام مطلق عام كقوله : ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ ، [سورة فاطر : ٢٤] . ليس فى هذا تعرض لكون التوراة والإنجيل سلمت إليهم بألسنتهم .

الوجه السابع : أن يقال عمدتهم فى هذه الحجة أنهم يقولون : الحواريون هم عندنا رسل الله كإبراهيم وموسى . والمسيح عندنا هو الله وهو أرسل هؤلاء إلينا فيجب أن يكونوا أرسلوا إلينا بلساننا ، وأن يكونوا سلموا إلينا التوراة والإنجيل بلساننا ، فيقال لهم : هب أنكم تدعون هذا وتعتقدونه ونحن سنبين إن شاء الله تعالى أن هذه دعاوى باطلة لكن أنتم فى هذا المقام تذكرون أن هذا الكتاب الذى هو القرآن الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم يشهد لكم بذلك وهذا كذب ظاهر على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى كتابه وأنتم صدرتم كتابكم بأن كتابه يشهد لكم ، ونحن نبين كذبكم وافتراءكم عليه سواء أقررتم بنبوته أولم تقروا بها : فإن من المعلوم يقينا عنه أنه لم يشهد للمسيح بأنه الله ، بل كفر من قال ذلك ولا يشهد للحوريين بأنهم رسل أرسلهم الله ، بل إنما شهد للحواريين بأنهم قالوا : إنا مؤمنون مسلمون وأنهم قالوا : نحن أنصار الله كما شهد لمن آمن به بأنهم مؤمنون مسلمون ينصرون الله ورسوله ، بل وأنهم أفضل من الحواريين لكون أمته خير الأمم كما قال تعالى : ﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ﴾

، [سـورة آل عمران : ٥٢] .

وقال تعالى : ﴿ وإذا أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا وأشهد بأننا مسلمون ﴾ ، [سورة المائدة : ١١١].

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذى آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ ، [سورة الصف : ١٤] .

وسيأتى الكلام على هذا مبسوطًا ونبين أن الرسول المذكورين فى سورة « يس » ليس هم الحواريون ولا كانوا رسلا للمسيح ، بل كان هذا الإرسال قبل المسيح وأهل القرية كذبوا أولئك الرسل فأهلكم الله ، كما قال تعالى : ﴿ وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين * إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون ﴾ ، [سورة يس : ٢٨ ، ٢٩] .

والرسل المذكورون فى سورة « يس » هم ثلاثة وكان فى القرية رجل آمن بهم وهذه وإن كانت إنطاكية فكان هذا الإرسال قبل المسيح ، والمسيح عليه السلام ذهب إلى إنطاكية اثنان من أصحابه بعد رفعه إلى السماء ولم يعززوا بثالث ولا كان حبيب النجار موجودًا إذا ذاك ، وآمن أهل إنطاكية بالمسيح عليه السلام ، وهى أول مدينة آمنت به كما بسط فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن محمدًا صلى الله عليه وسلم لم يشهد للمسيح بالألوهية ، ولا للحواريين بأنهم رسل الله ولا أنهم سلموا إليهم التوراة والإنجيل بلسانهم ولا بأنهم معصومون وما ذكروه من قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾ ، [سورة إبراهيم : ٤] إنما يتناول رسل الله لا رسل رسل الله بل رسل

رسل الله يجوز أن يبلغوا رسالات الله بلسان الرسل إذا كان هناك من يترجم لهم ذلك اللسان ، وإن لم يكن هناك من يترجم ذلك اللسان كانت رسل الرسل تخاطبهم بلسانهم لكن لا يلزم من هذا أن يكونوا قد كتبوا الكتب الإلهية بلسانهم بل يكفى أن يقرءوها بلسان الأنبياء عليهم السلام ثم يترجموها بلسان أولئك وهو سبحانه قال : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾ ، [سورة إبراهيم : ٤] ولم يقل وما أرسلنا من رسول إلا إلى قومه بل محمد أرسل بلسان قومه وهم قريش وأرسل إلى قومه وغير قومه كما يذكرون هم ذلك عن المسيح عليه السلام .

فصل

وأما قوله تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة ﴾ فتمام الآية : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليهم الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ ، [سورة النحل : ٣٦] . وهذا كقوله تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ [سورة فاطر :٢٤] وقوله ﴿ إنما أنت منذ ولكل قوم هاد ﴾ ، [سورة الرعد : ٧] - فى أصح الأقوال - أى : ولكل قوم داع يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته كما أنت هاد أى داع لمن أرسلت إليه ، والهادى : بمعنى الداعى المعلم المبلغ لابمعنى الذى يجعل الهدى فى القلوب كقوله : ﴿ وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ [سورة الشورى : ٥٢ ، ٥٣] وقوله ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ [سورة فصلت : ١٧]

ومعلوم أن بنى إسرائيل كانوا أكثر الأمم أنبياء بعث إليهم موسى وبعث إليهم بعده أنبياء كثيرون حتى قيل : إنهم ألف نبى وكلهم يأمرون بشريعة التوراة ولا

يغيرون منها شيئا ثم جاء المسيح بعد ذلك بشريعة أخرى غير فيها بعض شرع التوراة بأمر الله عز وجل ، فإذا كان إرسال موسى والأنبياء بعده إليهم لم يمنع إرسال المسيح إليهم فكيف يمتنع إرسال محمد صلى الله عليه وسلم إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى وهم من حين المسيح لم يأتهم رسول من إلله كما قال تعالى ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شئ قدير ﴾ ، [سورة المائدة : ١٩] .

هذه الفترة التى كانت بين المسيح وبين محمد صلوات الله عليهما وسلامه وهى فيما ذكره غير واحد من العلماء كسلمان الفارسى وغيره كانت ستمائة سنة وقد قيل ستمائة سنة شمسية وهى ستمائة وعشرون أو ثمانية عشر هلالية وذلك أن كل ما ئة سنة شمسية تكون مائة وثلاث سنين هلالية كما قال تعالى ﴿ ولبثوا فى كيفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا ﴾ ، [سورة الكهف : ٢٥] .

وهذه التسع وبعض العاشرة والتاريخ قد تحسب فيه التامة وتحسب فيه الناقصة ، فمن قال عشرين حسب الناقصة ، وقال ثمانية عشر حسب التامة فقط .

فصل

وأما قولهم : ونعلم أن الله عدل وليس من عدله أن يطالب أمة يوم القيامة باتباع إنسان لم يأت إليهم ولا وقفوا له على كتاب بلسانهم ولا من جهة داع من قبله ، فيقال الجواب من وجوه :

أحدها : أن هذا الكلام لا يجوز أن يقوله من كتب هذا الكتاب ولا أحد يفهم بالعربية فإن هؤلاء يفهمون هذا الكتاب بالعربية وقد قرءوه وناظروا بما فيه ، وإذا كانوا مع ذلك يفهمون بغير العربية كان ذلك أبلغ فى قيام الحجة عليهم فإنهم يمكنهم

فهم ما قال بالعربية وتفهيم ذلك لقومهم باللسان الآخر .

الوجه الثانى : أنهم يفهمون ما فى كتبهم الرومية ، والسريانية والقبطية ، وغيرها ويترجمون للعرب من النصارى بالعربية ، فإذا قامت الحجة على عرب النصارى باللسان الرومى فلأن تقوم على الروم باللسان العربى أولى فإن اللسان العربى أكثر انتشاراً فى العالم من اللسان الرومى ، والناطقون به بعد ظهور الإسلام أكثر من الناطقين بغيره وهو أكمل بيانًا وأتم تفهمًا .

وحينئذ فيكون وصول المعانى به إلى غير أهل لسانه أيسر لكمال معناه ولكثرة العارفين به . وهؤلاء علماء النصارى يقرءون كتب الطب والحساب والفلسفة وغير ذلك باللسان العربى مع أن مصنفيها كانوا عجمًا من رومى ويونانى وغير ذلك . فما المانع أن يقرأ القرآن العربى وتفسيره وحديث النبى صلى الله عليه وسلم باللسان العبرى؟ مع أنه أخذ عن الرسول بالعربى فهو أولى بأن يعرف به مراد المتكلم به .

الوجه الثالث : أن يقال : الناس لهم فى عدل الله ثلاثة أقوال ، قيل : كل ما يكون مقدوراً لله فهو عدل ، وقيل : العدل منه نظير العدل من عباده وهما قولان ضعيفان ، وقيل : من عدله أن يجرى المحسن بحسناته ولا ينقصه شيئا منها ولا يعاقبه بلا ذنب .

ومعلوم أنه إذا أمر العبد بما يقدر عليه كان جائزاً باتقان طوائف أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى وإن كان الفعل مكروه للإنسان فإن الجنة حفت بالمكاره وحفت النار بالشهوات وقد كلفت بنو إسرائيل والنصارى من الأعمال ما هو مكروه لهم وشاق عليهم فكيف يمتنع أن يأمرهم وينهاهم بلغة يبين بعض المسلمين معناها لهم والعرب الذى نزل القرآن بلسانهم طبقوا الأرض. ومنهم نصارى

لا يحصون فكل من عرف بالعربية من النصارى وأمكنه فهم ما يقال بالعربى ومن كان منهم روميًا كان له أسوة من أسلم من سائر طوائف الأعاجم كالفرس والترك ، الهند و البربر ، والحبشة وغيرهم وهو متمكن من معرفة ما أمره الله به والعمل به كما يمكن هؤلاء كلهم ، بل الروم أقدر على ذلك من غيرهم فلأى وجه يمتنع أن يأمرهم الله بذلك ؟ وما لا يتم الواجب إلا به إذا كان مقدورًا للعبد ، فعليه أن يفعله باتفاق أهل الملل المسلمين واليهود والنصارى .

وأن ما تنازع الناس فيه هل يسمى واجبًا ؟ فقيل يسمى واجبًا ، وقيل لا يسمى واجبا . فإن الآمر لم يقصده بالأمر وقد لا يخطر بباله إذا كان الأمر مخلوقا قال : ولأن الواجب ما يذم تاركه شرعًا أو يعاقب تاركه شرعا ،أو ما يستحق تاركه الذم و العقاب ، أو ما يكون تركه سببًا للذم أو العقاب ، قالوا : ومالا يتم الواجب إلا به لا يستحق تاركه الذم والعقاب . فإن الحج إذا وجب على شخصين أحدهما بعيد والآخر قريب ولم يفعلاه لم تكن عقوبة القريب على الترك أعظم من عقوبة البعيد مع أن المسافة التى لابد له من قطعها أكثر ، وكذلك من وجب عليه قضاء دينه من غير احتياج إلى شئ من ماله ليست عقوبته على الترك بأقل من عقوبة من يحتاج إلى بيع مال ليقضى به دينه ، وفصل الخطاب أن مالا يتم الواجب إلا به هو من لوازم وجود الواجب . ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع فالمأمور به لا يمكن فعله إلا بلوازمه والمنهى عنه لا يمكن تركه إلا بترك ملزوماته ، ولكن هذا الملزوم لزوم عقلى أو عادى فوجوبه وجوب عقلى عادى لا أن الأمر نفسه قصد إيجابه والذم والعقاب على تركه وتنازع الناس ، هل يقال ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، سواء كان وجوبه به شرعيًا أو عقليًا أو يحتاج أن يقال ما لا يتم الواجب الا به وكان مقدورًا للمكلف فهو واجب ؟ فالجمهور أطلقوا العبارة ، وبعض المتأخرين قيدوها بالمقدور ولا حاجة إلى ذلك فإن ما لم يكن مقدورًا ينتفى الوجوب مع انتفائه فيكون شرطًا فى والجوب

لا فى الواجب والجمهور قالوا : ما لا يتم الواجب إلا به فإنه يجب .

والمقصود هنا : أن الله إذا أوجب على العباد شيئًا واحتاج أداء الواجب إلى تعلم شئ من العلم كما تعلموه واجبًا فإذا كان معرفة العبد لما أمره الله به تتوقف على أن يعرف معنى كلام تكلم به بغير لغته وهو قادر على تعلم معنى تلك الألفاظ التى ليست بلغته أو على معرفة ترجمتها بلغته وجب عليه تعلم ذلك .

ولو جاءت رسالة من ملك إلى ملك بغير لسانه ، لطلب من يترجم مقصود الملك المرسل ولم يجز أن يقول أنت لم تبعث إلى من يخاطبنى بلغتى مع قدرته على أن يفهم مراده بالترجمة فكيف يجوزأن يقال ذلك لرب العالمين ولو أمر بعض الملوك بعض رعاياه وجنوده بلغته وهم قادرون على معرفة ما أمرهم به إما بتعلم لغته وإما بمن يترجم لهم ما قاله لم يكن ذلك ظلما ، فكيف يكون ظلمًا من رب العالمين مع أنه ليس بظلم من المخلوقين ؟

ولو وجب لبعض الرعية حق على بعض و ظلم بعضهم بعضًا لوجب على الملك أن ينصف المظلوم ويرسل إلى الظالم يأمره بالعدل والإنصاف ويعاقبه إذا لم ينصف إذا كان الظالم متكمنًا من معرفة أمر الملك بالترجمة أو غيرها وهذا هو العدل ، وليس العدل أن يترك الناس ظالمين فى حق عباده والله تعالى أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط كما قال تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ ، [سورة الحديد: ٢٥] فليس لأحد ممن أرسل إليه رسول وهو قادر على معرفة ما أرسل به إليه بالترجمة أو غير الترجمة أن يمتنع من شرع الله الذى أنزله ، وهو القسط الذى بعث به رسوله لكون الرسول ليس لغته لغتـه ، مع قدرته على أن يعرف مراده بطرق متعددة ، والناس فى مصالح دنياهم يتوسل أحدهم إلى معرفة مراد الآخر بالترجمة وغيرها فيتبايعون ، و بينهم ترجمان يبلغ بعضهم عن بعض ، ويتراسلون فى عمارة بلادهم ، وأغراض نفوسهم بالتراجم

الذين يترجمون لهم وأمر الدين أعظم من أمر الدنيا ، فكيف لا يتوسلون إلى معرفة مراد بعضهم من بعض ! وكيف يكون أمر الدنيا أهم من أمر الدين إلا عند من أغفل الله قلبه عن ذكر ربه واتبع هواه وأعرض عن ذكر ربه ، ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم .

قال تعالى : ﴿ فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴾ [سورة النجم : ٢٩]

وقال تعالى : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطًا ﴾ ، [سورة الكهف : ٢٨] .

الوجه الرابع : أنه من العجب أن تعد النصارى مثل هذا ظلمًا خارجًا عن العدل ، وهم قد نسبوا إلى الله من الظلم العظيم على هذا الأصل ما لم ينسبه إليه أحد من الأمم كما سبوه وشتموه ، مسبة ماسبه إياها أحد من الأمم فهم من أبعد الأمم عن توحيده وتمجيده ، و حمده والثناء عليه ، وذلك أنهم يزعمون أن آدم لما أكل من الشجرة غضب الرب وعاقبه ، وإن تلك العقوبة بقيت فى ذريته إلى أن جاء المسيح وصلب ، وأنه كانت الذرية فى حبس إبليس ، فمن مات منهم ذهبت روحه إلى جهنم فى حبس إبليس حتى قالوا ذلك فى الأنبياء نوح وإبراهيم ، موسى ، وداود ، وسليمان ، غيرهم .

ومعلوم أن إبراهيم كان أبوه كافرًا ولم يؤاخذه الله بذنب أبيه ، فكيف يؤاخذه بذنب آدم وهو أبوه الأبعد ؟ هذا لوقدر أن آدم لم يتب ، فكيف وقد أخبر الله عنه بالتوبة ؟ ثم يزعمون أن الصلب الذى هو من أعظم الذنوب والخطايا به خلص الله آدم وذريته من عذاب الجحيم ، وبه عاقب إبليس مع أن إبليس ما زال عاصيًا لله مستحقا

للعقاب من حين امتنع من السجود لآدم ووسوس لآدم إلى حين مبعث المسيح والرب قادر على عقوبته ، وبنو آدم لا عقوبة عليهم فى ذنب أبيهم ، فمن كان قولهم مثل هذه الخرافات التى هى مضاحك العقلاء والتى لا تصلح أن تضاف إلى أجهل الملوك وأظلمهم ، فكيف يدعون مع هذا أنهم يصفون الله بالعدل ، ويجعلون من عدله أنه لا يأمر الإنسان بتعليم ما يقدر على تعلمه ، وفيه صلاح معاشه ومعاده ويجعلون مثل هذا موجبا لتكذيب كتابه ورسله ، والإصرار على تبديل الكتاب الأول ، وتكذيب الكتاب الآخر وعلى أنه يتضمن مخالفة موسى وعيسى وسائر الإنبياء والرسل؟

والنصارى يقولون : إن المسيح الذى هو عندهم اللاهوت والناسوت جميعا إنما مكن الكفار من صلبه ليحتال بذلك على عقوبة إبليس ، قالوا فأخفى نفسه عن إبليس لئلا يعلم ، قالوا : ومكن أعداءه من أخذه وضربه ، والبصاق فى وجهه ، ووضع الشوك على رأسه وصلبه ، وأظهر الجزع من الموت وصار يقول : يا إلهى لما سلطت أعدائى على ليخفى بذلك عن إبليس ، فلا يعرف إبليس أنه الله أو ابن الله ويريد إبليس أن يأخذ روحه إلى الجحيم كما أخذ أرواح نوح ، وإبراهيم وموسى ، وغيرهم من الأنبياء والمؤمنين فيحتج عليه الرب حينئذ ويقول بماذا استحللت يا إبليس أن تأخذ روحى؟ فيقول ابليس : بخطيئتك ، فيقول ناسوتى : لا خطيئة له كنواسيت الأنبياء ، فإنه كان لهم خطايا استحقوا بها أن تأخذ أرواحهم إلى جهنم ، وأنا لا خطيئة لى قالوا : فلما أقام الله الحجة على إبليس جاز للرب حينئذ أن يأخذ إبليس ويعاقبه ويخلص ذرية آدم من إذهابهم إلى الجحيم ، وهذا الكلام فيه من الباطل ونسبة الظلم إلى الله ما يطول وصفه .، فمن هذا قوله : فقد قدح فى علم الرب وحكمته وعدله قدحًا ما قدحه فيه أحد ، وذلك من وجوه :

أحدها : أن يقال إبليس إن كان أخذ الذرية بذنب أبيهم فلافرق بين ناسوت

المسيح وغيره ، وإن كان بخطاياهم فلا يأخذ بذنب أبيهم ، وهم قالوا إنما أخذهم بذنب آدم ؟!

الثانى : أن يقال من خلق بعد المسيح من الذرية كمن خلق قبله فكيف جاز أن يمكن إبليس من الذرية المتقدمين دون المتأخرين ، وكلهم بالنسبة إلى آدم سواء ، وهم أيضاً يخطئون أعظم من خطايا الأنبياء المتقدمين ، فكيف جاز تمكين إبليس من عقوبة الأنبياء المتقدمين ، ولم يمكن من عقوبة الكفار والجبابرة الذين كانوا بعد المسيح ؟

الوجه الثالث : أن يقال أخذ إبليس لذرية آدم وإدخالهم جهنم . إما أن يكون ظلما من إبليس . وإما يكون عدلا . فإن كان عدلا فلا لوم على إبليس ، ولا يجوز أن يحتال عليه ليمتنع من العدل الذى يستحقه بل يجب تمكينه من المتقدمين والمتأخرين . وإن كان ظلما فلم لا يمنعه الرب من قبل المسيح ؟ فإن قيل : لم يقدر فقد نسبوه إلى العجز . وإن قيل : قدر على دفع ظلم إبليس ولم يفعله فلا فرق بين دفعه فى زمان دون زمان ، أو جاز ذلك جاز فى كل زمان وإن امتنع امتنع فى كل زمان .

الوجه الرابع : أن إبليس إن كان معذوراً قبل المسيح فلا حاجة إلى عقوبته ولا لوم عليه . وإن لم يكن معذوراً استحق العقوبة ولا حاجة أن يحتال عليه بحيلة تقام بها الحجة عليه .

الوجه الخامس : إنه بتقدير أنه لم يقم عليه حجة قبل الصلب فلم يقم عليه بالصلب فإنه يمكنه أن يقول أنا ما علمت أن هذا الناسوت هو ناسوت الرب ، وأنت يا رب قد أذنت لى أن آخذ جميع ذرية آدم فأؤديهم إلى الجحيم ، وهذا واحد منهم ، وما علمت أنك أو ابنك اتحد به ، ولو علمت ذلك لعظمته فأنا معذور فى ذلك فلا يجوز أن تظلمنى.

الوجه السادس : أن نقول : إن إبليس يقول حينئذ يا رب فهذا الناسوت الواحد

أخطأت فى أخذ روحه لكن سائر بنى آدم الذين بعده لى أن أحبس أرواحهم فى جهنم كما حبست أرواح الذين كانوا قبل المسيح ، إما بذنب أبيهم ، وإما بخطاياهم أنفسهم ، وحينئذ فإن كان ما يقوله النصارى حقا فلا حجة لله على إبليس .

الوجه السابع : أن يقال هب أن آدم أذنب وبنوه أذنبوا بتزيين الشيطان فعقوبة بنى آدم على ذنوبهم هى إلى الله أو إلى إبليس ؟ فهل يقول عاقل أن إبليس له أن يغوى بنى آدم يغوى بنى آدم بتزيينه لهم ثم له أن يعاقبهم جميعا بغير إذن من الله له فى ذلك ، وهل هذا القول إلا من قول المجوس الثنوية يقولون إن كل ما فى العالم من الشر من الذنوب والعقاب وغير ذلك وهو من فعل إبليس لم يفعل الله شيئًا من ذلك ، ولا عاقب الله أحدًا على ذنب ؟ ولا ريب أن هذا القول سرى إلى النصارى من المجوس ولهذا لا ينقلون هذا القول فى كتاب منزل ولا عن أحد من الحواريين ولهذا كان المانوية دينهم مركبا من دين النصارى والمجوس ، وكان رأسهم مانى نصرانيًا مجوسيا فالنسب بين النصارى ، والمجوس ، بل وسائر المشركين نسب معروف .

الوجه الثامن : أن يقال إبليس عاقب بنى آدم وأدخلهم جهنم بإذن الله أو بغير إذنه ؟ إن قالوا بإذنه . فلا ذنب له ولا يستحق أن يحتال عليه ليعاقب ويمتنع وإن كان بغير إذنه ؟ فهل جاز فى عدل الله أن يمكنه من ذلك أم لم يجز ؟ فإن جاز ذلك فى زمان جاز فى جميع الأزمنة ، وإن لم يجز فى زمان لم يجز فى جميع الأمنة ، فلا فرق بين ما قبل المسيح وما بعده .

الوجه التاسع : أن يقال هل كان الله قادرًا على منع إبليس وعقوبته بدون هذه الحيلة وكان ذلك عدلا منه لو فعله أم لا ؟ فإن كان ذلك مقدورًا له ، وهو عدل منه لم يحتج أن يحتال على إبليس ولا يصلب نفسه أو ابنه ، ثم إن كان هذا العدل واجبًا عليه وجب منع إبليس وإن لم يكن واجبًا جاز تمكينه فى كل زمان فلا فرق بين زمان وزمان وإن قيل : لم يكن قادرًا على منع إبليس فهو تعجيز للرب على منع

إبليس ، وهذا من أعظم الكفر باتفاق أهل الملل من جنس قول الثنوية الذين يقولون : لم يكن يقدر النور أن يمنع العالم من الشر ، ومن جنس قول ديمقراطيس والحنانين الذين يقولون : لم يكن واجب الوجود الذى يمنع النفس عن ملابسة الهيولى بل تعلقت النفس بها بغير اختياره .

الوجه العاشر : أن ما فعله به الكفار اليهود الذين صلبوه قد كان طاعة لله أو معصية ؟ فإن كان طاعة لله : استحق اليهود الذين صلبوه أن يثيبهم ويكرمهم على طاعته كما يثيب سائر المطيعين له ، والنصارى متفقون على أن أولئك من أعظم الناس إثمًا - وهم من شر الخلق - وهم يستحلون دمهم ولعنتهم مالا يستحلونه من غيرهم ، بل يبالغون فى طلب اليهود ، وعقوبتهم فى آخر صومهم الأيام التى تشبه أيام الصليب ، وإن كان أولئك اليهود عصاة لله فهل كان قادراً على منعهم من هذه المعصية أم لا ؟ فإن لم يكن قادراً لم يكن قادراً على منع إبليس من ظلم الذرية فى الزمن المستقبل ، وإن كان قادراً على منعهم من المعاصى ولم يمنعهم كان قادراً على منع إبليس بدون هذه الحيلة ، وإن كان حسنًا منه تمكينهم من هذه المعصية كان حسنا منه تمكين إبليس من ظلم الذرية فى الماضى والمستقبل فلا حاجة إلى الحيلة عليه .

واعلم : أن الوجوه الدالة على فساد دين النصارى كثيرة جدًا وكلما تصور العاقل مذهبهم ، وتصور لوازمه ، تبين له فساده ، لكن المقصود هنا بيان تناقضهم فى أنهم يقيمون عذر أنفسهم فى ترك الإيمان بكتابه ورسوله ودينه لكونه سبحانه عدلا لا يأمر الناس بما يعجزون عنه ، وهو سبحانه لم يأمرهم إلا بما يقدرون عليه وقد نسبوا إليه من الظلم ما لم ينسبه إليه أحد من بنى آدم يوضح هذا .

الوجه الحادى عشر : وهو إما أن نقول فى الظلم كما تقول الجهمية المجبرة الذين يفعل ما يشاء بلا حكمة ولا سبب ولا مراعاة عدل ، وإما أن يقال بقول

القدرية إنه يجب عليه العدل الذى يجب على المخلوقين ، وإما أن يقال هو عادل منزه عن الظلم ولكن ليس عدله كعدل المخلوقين فهذه أقوال الناس الثلاثة

فإن قيل بالأول : جاز أن يسلط إبليس على جميع الذرية بلا ذنب وأن يعاقبهم جميعًا بلا ذنب ، ولا حاجة حينئذ إلى الحيلة على إبليس .

وإن قيل بالثانى : فمعلوم أن الواحد من الناس لو علم أن بعض مماليكه أمره غيره بذنب يكرهه السيد ففعله كان العدل منه أن يعاقب الآمر والمأمور جميعًا .

وأما تسليطه للآمر على عقوبة المأمور فليس من العدل وكذلك تسليط الآمر الظالم على جميع ذرية المأمور الذين لم يذنبوا ذنب أبيهم ليس من العدل .

وإن قيل : بل هو استحق أن يستعبدهم لكون أبيهم أطاعه قيل فحينئذ يستحق أن يأسر الأولين والآخرين فلا يجوز أن يمنع من حقه بالاحتيال عليه .

وإن قيل : إنما يستحق أخذهم بخطاياهم ، **قيل** : فله أن يأخذ الأولين والآخرين .

وإن قيل : هو لما طلب أخذ روح ناسوت المسيح منع بهذا الذنب ؟ قيل : هذا إن كان ذنبًا فهو أخف ذنوبه فإنه لم يعلم أنه ناسوت الإله فإذا استحق الرجل أن يسترق أولاد غيره فطلب رجلا ليسترقه لظنه أنه منهم ، ولم يكن منهم لم يكن هذا ذنبًا يمنع استرقاق الباقين .

وإن قيل : إن عدل الرب ليس كعدل المخلوقين بل من عدله أن لا ينقص أحدًا من حسناته ولا يعاقبه إلا بذنبه لم يجز حينئذ أن يعاقب ذرية آدم بذنب أبيهم ، ولم يجز أن يعاقب الأنبياء الذين ليس لهم ذنب إلا ذنب تابوا منه بذنب غيرهم بأن الأنبياء معصومون أن يقروا على ذنب ، فكل من مات منهم مات وليس له ذنب يستحق عليه العقوبة ، فكيف يعاقبون بعد الموت بذنب أبيهم إن قدر أنه مات مصرًا على الذنب مع أن هذا تقدير باطل ، ولو قدر أن الأنبياء لهم خطايا يستحقون بها العقوبة

بعد الموت وتسليط إبليس على عقوبتهم مع أن هذا تقدير باطل ، فمن بعد المسيح من غير الأنبياء أولى بذلك : فكيف يجوز فى العدل الذى يوجب التسوية بين المتماثلين عقوبة الأنبياء ومنع عقوبة من هو دونهم بل من هو من الكفار ؟

الوجه الثانى عشر : أن الرب إذا قصد بهذا دفع ظلم إبليس فهلا اتحد بناسوت بعض أولاد آدم ليحتال على إبليس فيمنعه من ظلم من تقدم ، فإن المنع من الشر الكثير أولى من المنع من الشر القليل ، أتراه ما كان يعلم أن إبليس يعمل هذا الشر كله فهذا تجهيل له ، أو كان يعترف وعجز عن دفعه فهذا تعجيز له ، ثم ما الفرق بين زمان وزمان ؟ أم كان ترك منعه عدلا منه فهو عدل فى كل زمان ؟

فصــل

وأما تفسيرهم لقوله تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨٥] . بأن مراده قومه كما قالوا .

وأما قوله تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الرسلام دينًا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ [سورة آل عمران : ٨٥] يريد بحسب مقتضى العدل قومه الذين آتاهم بلغتهم لا غيرهم ممن لم يأتهم بما جاء به ، فيقال لهم من فسر مراد متكلم ، أى : متكلم كان بما يعلم الناس أنه خلاف مراده فهو كاذب مفتر عليه ، وإن كان المتكلم من آحاد العامة ، ولو كان المتكلم من المتنبئين الكذابين ، فإن من عرف كذبه إذا تكلم بكلام وعرف مراده به لم يجز أن يكذب عليه ، فيقال : أراد كذا وكذا فإن الكذب حرام قبيح على كل أحد سواء كان صادقًا أو كاذبًا فكيف بمن يفسر مراد الله ورسوله بما يعلم كل من خبر حاله علما ضروريًا أنه لم يرد ذلك بل يعلم علما ضروريًا أنه أراد العموم ؟ فإن قوله تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا ﴾ [سورة آل عمران : ٨٥] صيغة عامة وصيغة « من » الشرطية من أبلغ صيغ العموم كقوله

تعالى: ﴿ فمن يعمــــل مثقــال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ ، [سورة الزلزلة : ٧، ٨].

ثم إن سياق الكلام يدل على أنه أراد أهل الكتاب وغيرهم فإن هذا فى سورة آل عمران فى أثناء مخاطبته لأهل الكتاب ومناظرته للنصارى ، فإنها نزلت لما قدم على النبى صلى الله عليه وسلم وفد نجران النصارى ، وروى أنهم كانوا ستين راكباً ، وفيهم السيد ، والأيهم . والعاقب ، وقصتهم مشهورة معروفة كما تقدم ذكرها .

وقد قال قبل هذا الكلام بذم دين النصارى الذى ابتدعوه وغيروا به دين المسيح ولبسوا الحق الذى بعث به المسيح بالباطل الذى ابتدعوه حتى صار دينهم مركباً من حق وباطل ، واختلط أحدهما بالآخر فلا يكاد يوجد معه من يعرف ما نسخه المسيح من شريعة التوراة مما أقره والمسيح قرر أكثر شرع التوراة ، وغير المعنى ، وعامة النصارى لا يميزون ما قرره مما غيره فلا يعرف دين المسيح .

قال تعالى: ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون * ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذا أنتم مسلمون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٧٩ ، ٨٠] .

فقد بين أن من اتخذ الملائكة والنبيين أرباباً فهو كافر ، فمن اتخذ من دونهم أرباباً كان أولى بالكفر ، وقد ذكر أن النصارى اتخذوا من هو دونهم أرباباً بقوله تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ ، [سورة التوبة : ٣١] . ثم قال تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم

وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا : أقررنا ، قال :فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ ، [سورة آل عمران :٨١] .

قال ابن عباس وغيره من السلف : (١) ما بعث الله نبيًا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه ، والآية تدل على ما قالوا ، فإن قوله تعالى : ﴿ وإذا اخذ الله ميثاق النبيين ـ يتناول ـ جميع النبيين ـ لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ﴾، [سورة آل عمران : ٨١] . وهذه اللام الأولى تسمى الام الموطئة للقسم .واللام الثانية تسمى : لام جواب القسم ، والكلام إذا اجتمع فيه شرط وقسم وقدم القسم سد جواب القسم مسد جواب الشرط ، والقسم كقوله تعالى : ﴿ لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا الا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون ﴾ ، [سورة الحشر : ١٢] ومنه قوله تعالى : ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ﴾ ، [سورة التوبة :٧٥] . وقوله : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٠٩] . وقوله : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل لا تقسموا طاعة معروفة ﴾ ، [سورة النور : ٥٣] وقوله : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ﴾ [سورة فاطر : ٤٢) ومنه قوله تعالى ﴿ لئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ ، [سورة لقمان : ٢٥] . وقوله : ﴿ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب ﴾ ، [سورة التوبة : ٦٥] وقوله : ﴿ لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٤٩] وقوله : ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى

---

(١) انظر هذه الأقوال في « الدر المنثور» للسيوطي (٢/٤٧ ، ٤٨)

المدينة لنغرينك بهم ﴾ ، [سورة الأحزاب : ٦٠] . وقوله :﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ﴾ ، [سورة الإسراء : ٨٦] وقوله : ﴿ وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٣] . وقوله ﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾ ، [سورة يوسف : ٣٢] وقوله : ﴿ ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون﴾ ، [سورة الروم : ٥٨] ، وقوله : ﴿ ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم ﴾ [سورة العنكبوت : ١] ، وقوله : ﴿ ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه ﴾ ، [سورة هود : ٨] .

ومثل هذا كثير وحيث لم يذكر القسم فهو محذوف مراد تقدير الكلام « ـ والله ـ لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ـ والله ـ ولئن قوتلوا لا ينصرونهم » [سورة الحشر : ١٢] ، ومن محاسن لغة العرب أنها تحذف من الكلام ما يدل المذكور عليه اختصاراً وإيجازاً ،لا سيما فيما يكثر استعماله كالقسم ، وقوله : ﴿ لما آتيتكم من كتاب وحكمة ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨١] . . هى ما الشرطية والتقدير ، أى شئ أعطيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، ولا تكتموا بما عندكم عما جاء به ولا يحملنكم ما آتيتكم من كتاب وحكمة على أن تتركوا متابعته ، بل عليكم أن تؤمنوا به وتنصروه ، وإن كان معكم من قبله من كتاب وحكمة فلا تستغنوا بما آتيتكم عما جاء به فإن ذلك لا ينجيكم من عذاب الله .

فدل ذلك على أن من أدرك محمداً من الأنبياء وأتباعهم وإن كان معه كتاب وحكمة فعليه أن يؤمن بمحمد وينصره كما قال :﴿ لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، ﴾ [سورة آل عمران : ٨١] . وقد أقر الأنبياء بهذا الميثاق وشهد الله عليهم به كما قال تعالى ﴿ أأقررتم وأخذتم

على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨١] . ثم قال تعالي : ﴿ فمن تولى منكم بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨٢] ثم قال تعالى : ﴿ أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرهًا وإليه يرجعون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨٣] . ثم قال تعالى ﴿ قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨٤] . ثم قال تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨٥] .

قالت طائفة من السلف : (١) لما أنزل الله هذه الآية قال من قال من اليهود والنصارى نحن مسلمون . فقال تعالى: ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ﴾ ، [سورة آل عمران : ٩٧] . فقالوا لانحج . فقال تعالى : ﴿ ومن كفر فإن الله غنى العالمين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٩٧] .

فكل من لم ير حج البيت واجبًا عليه مع الاستطاعة فهو كافر باتفاق المسلمين كما دل عليه القرآن . واليهود ، والنصارى لا يرونه واجبًا عليهم فهم من الكفار حتى أنه روى فى حديث مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم : (٢) « من ملك زادًا وراحلة

---

(١) انظر « الدر المنثور » للسيوطى (٥٧/٢)

(٢) « ضعيف » عن « على بن أبى طالب »

رواه الترمذى فى كتاب « الحج » باب « ما جاء من التغليظ فى ترك الحج » (٥٤١،٥٤٠/٣ ح٨٠٩) وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وفى إسناده مقال وهلال بن عبد الله مجهول والحارث يضعف فى الحديث » ، ورواه ابن جرير فى « تفسيره » (١٢/٤)

ورواه ابن أبى حاتم فى « تفسيره » (من آل عمران ص ٤٢١ ح١٠١٦)

وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (٥٦/٢) أيضاً إلى البيهقى فى الشعب وابن مردويه .

تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فليمت إن شاء الله يهوديًا وإن شاء نصرانيًا . وهو محفوظ من قول عمر بن الخطاب ،(١) ، وقد اتفق المسلمون على أن من جحد وجوب مباني الإسلام الخمس : الشهادتين ، والصلوات الخمس ، والزكاة ،وصيام شهر رمضان ، وحج البيت فإنه كافر .

وأيضًا فقد قال تعالى فى أول سورة آل عمران : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائمًا بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم * إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيًا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب * فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٨ - ٢٠] . فقد أمره تعالى بعد قوله : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ [سورة آل عمران : ١٩] . أن يقول أسلمت وجهى لله ، ومن اتبعن . وأن يقول للذين أوتوا الكتاب ، وهم اليهود والنصارى ، والأميين ، وهم الذين لا كتاب لهم من العرب وغيرهم أأسلمتم فالعرب الأميون يدخلون فى لفظ الأميين باتفاق الناس .

وأما من سواهم : فإما أن يشمله هذا اللفظ أو يدخل فى معناه بغيره من الألفاظ المبينة أنه أرسل إلى جميع الناس .

قال تعالى : ﴿ فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير

= وضعفه الألبانى فى كما فى « ضعيف سنن الترمذى » (ص ٩٣ ح١٣٢) قلت: الحديث فيه « هلال بن عبد الله الباهلى » قال عنه ابن حجر فى « التقريب » (رقم ٧٣٤٣) : « متروك من السابعة »

« الحارث بن عبد الله الأعور » قال عنه ابن حجر فى التقريب (رقم ١٠٢٩) : « صاحب على ، كذبه الشعبى فى رأيه ورمى بالرفض وفى حديثه ضعف »

(١) عزاه السيوطى فى « الدر المنثور » (٥٦/٢) لابن أبى شيبة وسعيد بن منصور.

بالعباد ﴾ ، [سورة آل عمران : ٢٠] . فقد أمر أهل الكتاب بالإسلام كما أمر به الأميين وجعلهم إذا أسلموا مهتدين ، وإن لم يسلموا فقد قال : إنما عليك البلاغ . أى : تبلغهم رسالات ربك إليهم والله هو الذى يحاسبهم ، فدل بهذا كله على أنه عليه أن يبلغ أهل الكتاب ما أمرهم به من الإسلام كما يبلغ الأميين ، وأن الله يحاسبهم على ترك الإسلام كما يحاسب الأميين .

وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الكتاب الذى كتبه إلى هرقل ملك النصارى : (١) « من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين » ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٦٤] .

وأبلغ من ذلك أن الله تعالى أخبر فى كتابه أن الإسلام دين الأنبياء كنوح وإبراهيم ، ويعقوب ، وأتباعهم إلى الحواريين ، وهذا تحقيق لقوله تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨٥] . وإن الدين عند الله الإسلام فى كل زمان ومكان .

قال تعالى عن نوح أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض : ﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه ياقوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلى ولا تنظرون * فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ ، [سورة يونس : ٧١ ، ٧٣] .

(١) « متفق عليه » وسبق تخريجه

فهـذا نوح الذى غرق الله أهل الأرض بدعـوته ، وجعل جـميع الآدميين من ذريته يذكر أنه أمر أن يكون من المسلمين .

وأما الخليل فقال تعـالى : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القـواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السـميع العليم * ربنا واجـعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مـسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾ ، [سورة البقرة : ١٢٧ ، ١٢٨] ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين * إذ قال له ربه أسلم قـال أسلمت لرب العالمين * ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ ، [سورة البقرة : ١٣٠ ، ١٣٢] .

فقد أخبر تعالى أنه أمر الخليل بالإسلام ، وأنه قال أسلمت لرب العالمين وأن إبراهيم وصى بنيه ، ويعقوب وصى بنيه أن لا تموتن إلا وهم مـسلمون وقال تعالى : ﴿ ما كان إبراهيم يهوديًا ولا نصرانيًا ولكن كان حنيـفًا مسلمًا وما كان من المشركين * إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولـــى المؤمنين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٦٧ ، ٦٨] .

وقال تعـالى عن يوسف الصديق بن يعقوب أنه قال :﴿ رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى مـن تأويل الأحاديث فاطر السـموات والأرض أنت ولي فى الدنيـا والآخرة توفنى مـسلمًا وألحقنى بالـصالحين ﴾ ، [سـورة يوسـف : ١٠١] . وقال تعـالى عن موسى : ﴿ وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ [سورة يونس : ٨٤]

وقال عن السـحرة الذين آمنوا بموسى : ﴿ قـالوا لا ضير إنا إلى ربنا منـقلبون * إنا نطمع أن يغفـر لنا ربنا خطـــايانا أن كـــنا أول المؤمنين ﴾ ، [سورة الشـعراء :

٥٠، ٥١] .

وقال تعالى : ﴿ وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٢٦] .

قال تعالى فى قصة سليمان : ﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم * ألا تعلوا على وأتونى مسلمين ﴾ ، [سورة النمل : ٣٠، ٣١] . ،و ﴿ قال أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ﴾ ، [سورة النمل : ٣٨] .

وقال تعالى : ﴿ وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ﴾ ، [سورة النمل : ٤٢)

وقال تعالى عن بلقيس التى آمنت بسليمان : ﴿ رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾، [سورة النمل : ٤٤] .

وقال ـ عن أنبياء بنى إسرائيل ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٤] .

وقال تعالى عن الحواريين : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾ ، [سورة المائدة : ١١١] .

وقال تعالى : ﴿ ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ [سورة آل عمران : ٥٣]

فهؤلاء الأنبياء كلهم وأتباعهم ، كلهم يذكر الله تعالى أنهم كانوا مسلمين وهذا مما يبين أن قوله تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨٥] . وقوله : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٩] . ولا يختص بمن بعث إليه محمد صلى الله عليه وسلم ، بل هو حكم عام فى الأولين والآخرين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله

إبراهيم خليلا ﴾ [سورة النساء : ١٢٥] .

وقال تعالى : ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين * بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ، [سورة البقرة : ١١١، ١١٢].

فصل

قولهم : ثم وجدنا فى هذا الكتاب من تعظيم السيد المسيح وأمه حيث يقول فى سورة الأنبياء هذا ﴿ والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ ، [سورة الأنبياء : ٩١] .

وقال فى سورة آل عمران : ﴿ وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك علي نساء العالمين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٤٢] مع الشهادات للسيد المسيح بالمعجزات ، وأنه حبلت به أمه من غير مباضعة رجل لبشارة ملائكة الله لأمه ، وأنه تكلم فى المهد ، وإحياء الميت ، وإبراء الأكمه ، ونقى الأبرص ، وأنه خلق من الطين كهيئة الطير فنفخ فيه فكان طيرًا بإذن الله أى : بإذن اللاهوت الذى هو كلمة الله المتحدة فى الناسوت . ووجدنا أيضًا فى الكتاب أن الله رفعه إليه .

وقال فى سورة النساء : ﴿ وما قتلوه يقينًا * بل رفعه الله إليه ﴾ ، [سورة النساء : ١٥٧ ، ١٥٨] . وفى سورة آل عمران : ﴿ إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴾ ، [سورة آل عمران : ٥٥] .

وقال فى سورة البقرة : ﴿ وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾ ، [سورة البقرة : ٨٧]

وقال فى سورة الحديد : ﴿ وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٧] .

وقال فى سورة آل عمران : ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾ ، [سورة آل عمران : ١١٣، ١١٤] .

ثم وجدناه يعظم إنجيلنا . الجواب : أما تعظيم المسيح وأمه فهو حق ، وكذلك مدح من كان على دينه الذى لم يبدل قبل أن انبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، أو بقى على ذلك إلى أن بعث محمد صلى الله عليه وسلم فآمن به ، فإن هؤلاء مؤمنون مسلمون مهتدون ، وكذلك من كان على دين موسى الذى لم يبدل إلى أن بعث المسيح فآمن به . فهؤلاء مؤمنون مسلمون مهتدون ، وقد قدمنا أن المسلمين هم عدل متوسطون لا ينحرفون لا إلى غلو ، ولا إلى تقصير .

وأما اليهود والنصارى : فهم على طرفى نقيض . هؤلاء ينحرفون إلى جهة ، وهؤلاء إلى الجهة التى تقابلها كما ذكرنا تقابلهم فى النسخ ، وكذلك تقابلهم في التحريم ، والتحليل ، والطهارة ، والنجاسة . فإن اليهود حرمت عليهم الطيبات وهم يبالغون فى اجتناب النجاسات حتى أن الحائض لا يؤاكلونها ، ولا يشاربونها ، ولا يجامعونها ، وكانوا لا يرون إزالة النجاسة من الثوب بل يقرض موضعها ، ويستخرجون الدم من العروق إلى غير ذلك من الآصار ، والأغلال التى كانت عليهم .

وأما النصارى : ففى مقابلتهم تجد عامتهم لا يرون شيئًا حرامًا ولا نجسًا إلا ما كرهه الإنسان بطبعه ، ويصلون مع الجنابة ، والحدث ، وحمل النجاسات ، ويأكلون الخبائث : كالدم ، والميتة ، ولحم الخنزير ، إلا من كره منهم شيئًا فتركه ، والمسلمون وسط كما قال تعالى فيهم : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ ، [سورة البقرة : ١٤٣] أى : عدلا خياراً ، كما قال تعالى : ﴿ ورحمتى وسعت كل شئ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به ، عزروه ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٥٦، ١٥٧] .

ولهذا كان من انحرف من المسلمين إلى شبه اليهود والنصارى ، مأموراً بترك ذلك الانحراف ، واتباع الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، وحسن أولئك رفيقًا ، غير المغضوب عليهم كاليهود ولا الضالين كالنصارى . وذلك مثل من بالغ فى اجتناب النجاسات فينجس ما لم ينجسه الله ورسوله ، ويحرم ما لم يحرمه الله ورسوله ، ويأخذه الوسواس فى اجتناب النجاسات ، و تحرم الطيبات التى أحلها الله للمسلمين ، مثل : من يرى أن القياس أن النجاسة لا تزول لا بماء ولا غيره. أو يرى أنها وإن زالت فلم يبق لها أثر فالمحل نجس إذا لم تزل بما يشترطه هو من الماء أو غيره . أو يرى أن الطيبات التى أحلها الله حرام خبيثة لأنها مستحيلة عن المحرم مع أن الخل حلال ، وإن كان قد كان خمرا باتفاق المسلمين إذا بدا إلى حالته ، أو يرى أن الماء الطيب ، والمائعات الطيبة التى ليس فيها أثر من الخبيث حرام لكون الخبيث لاقاها استهلك

فيها مع أنها من الطيبات لا من الخبائث أو يرى تحريم ما سوى موضع الدم الذى هو أذى إلى غير ذلك من أقوال قالها بعض العلماء ، ولكن غيرهم نازعهم فى ذلك واتبع ما دل عليه الكتاب والسنة . وأعظم من ذلك من يكفر من خالفه من المسلمين ، ويرى نجاسة الكفار كما دل عليه كثير من أهل البدع من الرافضة والخوارج وغيرهم ، فإذا أكل غيرهم من وعائهم نجسه عندهم . وأما ما يفعله كثير من الناس من غير أن يقوله عالم مثل من يغسل يديه ، وثيابه ، وحصر بيته بتوهم نجاستها ، أو يأمر الحائض إذا طهرت أن تبدل ثيابها الأول أو تغسلها ، أو يمنع الجنب أن يأكل أو يشرب حتى يغتسل ، فهذا كثير فيمن يشبه اليهود بل يشبه سامرة اليهود .

وأما من يشبه النصارى : فمثل من يحسن الظن بمن لا يتطهر ، ولا يصلى من المنسوبين إلى الفقر والزهد والعبادة ، مثل من يكون فى مواضع الشياطين والنجاسات ، كالحمام والأتانين ، والمزابل وهو ملوث بالبول والعذرة ويباشر الكلاب ولا يتوضأ ولا يغتسل من الجنابة بل ولا يصلى أو و يصلى بلا وضوء ، وقد علم بالاضطراد من دين الإسلام أن الصلوات الخمس فرض على كل أحد ، وأن الوضوء من الحدث ، والاغتسال من الجنابة فرض ولا يصلى إلا به مع القدرة ، وأن لا يتيمم مع القدرة فمن أنكر وجوب ذلك فهو كافر باتفاق المسلمين ومن جعل الزاهد العابد الذى له نوع من الخوارق مثل نوع من الكشف والتصرف الذى يكون من الشياطين ، والجهال يظنون أنه من كرامات أولياء الله إذا لم يكن يصلى الصلوات الخمس ويتوضأ ويغتسل من الجنابة من المؤمنين ، أو من أولياء الله فهو كافر باتفاق المسلمين ، ومن لم يحرم الخبائث التى حرمها الله ورسوله كالبول والعذرة والدم والميتة ولحم الخنزير والخمر فهو كافر باتفاق المسلمين ، ومن جعل مستحل ذلك مع العلم بمخالفته لدين الرسول وليًا لله فهو كافر باتفاق المسلمين ، وكذلك فيمن ينتحل الإسلام ويذم أهل الكتاب من يكون منافقًا فى الدرك الأسفل من النار ،

ويكون كثير من اليهود والنصارى أخف عذابا فى الآخرة منه . قال تعالى : ﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجدلهم نصيراً * إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً ﴾ ، [سورة النساء : ١٤٥ ، ١٤٦] . وكذلك المسلمون وأهل السنة في المسلمين فى التوحيد ، فإن اليهود شبهوا الخالق بالمخلوق فيما يختص بالمخلوق ، وهو صفات النقص الذى يجب تنزيه الرب عنها . والنصارى شبهوا المخلوق بالخالق فيما يختص بالخالق ، وهو صفات الكمال التى لا يستحقها إلا الله تبارك وتعالى : فقال من قال من اليهود : ﴿ إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٨١] وقالوا : ﴿ يد الله مغلولة ﴾ ، [سورة المائدة : ٦٤] وهو بخيل ؛ وقالوا إنه خلق العالم فتعب فاستراح .

وحكى عن بعضهم أنه قال : بكى على الطوفان حتى رمد وعادته الملائكة ، وأنه ناح على بعض من أهلكه من عباده كما ينوح المصاب على ميته وأمثال ذلك مما يتعالى الله عنه ويتقدس سبحانه وتعالى . وأيضاً فهم يستكبرون عن عبادة الله وطاعة رسله ، ويعصون أمره ويتعدون حدوده ، ولا يجوزون له أن ينسخ ما شرعه بل يحجرون عليه . والنصارى يصفون المخلوق بما يتصف به الخالق فيجعلونه رب العالمين خالق كل شئ ومليكه الذى هو بكل شئ عليم ، وعلى كل شى قدير ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ، واتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً من دون الله ، وصوروا تماثيل المخلوقات واتخذوهم شفعاء يشفعون لهم عند الله كما فعلت عباد الأوثان كما قال تعالى ﴿ ويعبدون من دون الله مالايضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ﴾ [سورة يونس : ٢١٨] .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون ﴾ ، [سورة الأنعام : ٥١] .

وقال تعالى ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع ﴾ ، [سورة السجدة : ٤] والمسلمون وسط يصفون الله بما وصف به نفسه ،ووصفه به رسله من غير تحريف ولا تعطيل ، ولا تكييف ، ولا تمثيل ، يصفونه بصفات الكمال ، وينزهونه عن النقائص التى تمتنع على الخالق ولا يتصف بها المخلوق ، فيصفونه بالحياة ، والقدرة ، والرحمة والعدل ، والإحسان وينزهونه عن الموت ، والنوم ، والجهل ، والعجز والظلم والفناء ، ويعلمون مع ذلك أنه لا له فى شئ من صفات الكمال فلا أحد يعلم كعلمه ، ولا يقدر كقدرته ، ولا يرحم كرحمته ، ، ولا يسمع كسمعه ، ولا يبصر كبصره ، ولا يخلق كخلقه ، ولا يستوى كاستوائه ، ولا يأتى كإتيانه ، ولا ينزل كنزوله كما قال تعالى : ﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفوًا أحد ﴾ ، [سورة الإخلاص] ولا يصفون أحدًا من المخلوقين بخصائص الخالق جل جلاله ، بل كل ما سواه من الملائكة والأنبياء وسائر الخلق فقير إليه عبد له ، وهو الصمد الذى يحتاج إليه كل شئ ، ويسأله كل أحد ، وهو غنى بنفسه لا يحتاج إلى أحد فى شئ من الأنبياء كما قال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدًا * لقد جئتم شيئًا إدا * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًا * أن دعوا للرحمن ولدًا * وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدًا * إن كل من فى السموات الأرض إلا آتى الرحمن عبدًا * لقد أحصاهم وعدهم عدًا * وكلهم آتيه يوم القيامة فردًا ﴾ ، [سورة مريم : ٨٨ ، ٩٥] .

وقال تعالى ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله

ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله اله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا * لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعًا * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابًا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليًا ولا نصيراً ﴾ [سورة النساء : ١٧١ - ١٧٣] .

وكذلك هم فى المسيح . فالنصارى يقولون : هو الله ، ويقولون : أيضًا : ابن الله وهو إله تام وإنسان تام . واليهود يقولون : هو ولد زنا وهو ابن يوسف النجار ، ويقولون عن مريم : إنها بغى بعيسى كما قال تعالى : ﴿ وقولهم على مريم بهتانًا عظيما ﴾ ، [سورة النساء : ١٥٦] . ويقولون عنه هو ساحر كذاب .

وأما المسلمون فيقولون : هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول وروح منه ، وهو وجيه فى الدنيا والآخرة ، ومن المقربين ، ويصفونه بما وصفه الله به فى كتابه لا يغلون فيه غلو النصارى ، ولا يقصرون فى حقه تقصير اليهود ، وكذلك قولهم فى سائر الأنبياء والمرسلين : وفى أولياء الله . فاليهود قتلوا النبيين والذين يأمرون بالقسط من الناس . والنصارى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا لا إله هو سبحانه عما يشركون ، ومع هذا فقد شارك النصارى اليهود فى نقص حق كثير من الأنبياء فيقولون إن سليمان لم يكن نبيًا ، ويقولون : إن الحورايين مثل موسى وإبراهيم ، ويقولون : إن من عمل بوصايا الله من غير الأنبياء صار مثل الأنبياء ، وكان له أن يشرع شريعة ، وبعض اليهود غلوا فى العزيرحتى قالوا : إنه ابن الله .

ولهذا قال نبينا صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح (١) « لا تطرونى كما

(١) « صحيح »

أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد الله فقولوا عبد الله ورسوله » . والله تعالى ذكر فى القرآن في سورة « كهيعص » قصة ابنى الخالة يحيى وعيسى .ويحيى يسمونه النصارى يوحنا المعمدانى عندهم فقال تعالى بعد أن ذكر قصة يحيى ﴿ واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانًا شرقيًا * فاتخذت من دونهم حجابًا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرًا سويا * قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيًا * قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلامًا زكيًا * قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيًا * قال كذلك قال ربك هو هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرًا مقضيا * . فحملته فانتبذت به مكانًا قصيا * فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيا * فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا * وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا * فكلى واشربى وقرى عينًا فإما ترين من البشر أحدًا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا * فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئًا فريا * يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا * قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيًا * وجعلنى مباركًا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا وبرًا بوالدتى ولم يجعلنى جبارًا شقيًا * والسلام على يوم

=رواه البخارى فى كتاب « أحاديث الأنبياء » باب قوله تعالى : ﴿ واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها ﴾ ، (٦/٥٥١ح٣٤٤٥)

وقد رواه فى مواضع أخرى دون ذكر الشاهد ، ورواه الترمذى فى « الشمائل » باب « ما جاء فى تواضع رسول الله صلى الله عليه وسلم » (ص ٢٦٢ح٣١٢)

وهذا الحديث طرف من حديث السقيفة الذى رواه الجماعة ولكن دون ذكر الشاهد .

ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ﴾ ، [سورة مريم : ١٧ ــ ٣٣] . ثم قال الله تعالى : ﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون * وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم * فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم *أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين ﴾ [سورة مريم : ٣٤ - ٣٨] .

فذكر سبحانه قصة مريم والمسيح فى هذه السورة المكية التى أنزلها فى أول الأمر بمكة فى السور التى ذكر فيها أصول الدين التى اتفق عليها الأنبياء ، ثم ذكرها فى سورة آل عمران ، وهى من السور المدنية التى يخاطب فيها من اتبع الأنبياء من أهل الكتاب والمؤمنين ، لما قدم عليه نصارى نجران فكان فيها الخطاب لأهل الكتاب فقال تعالى : ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين * ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم * إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررًا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم * فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ ، [سورة آل عمران : ٣٣ - ٣٦] .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : (١) « ما من مولود إلا يمسه الشيطان فيستهل صارخًا من الشيطان إلا مريم

(١) « متفق عليه »

رواه البخارى فى كتاب « التفسير » باب قوله تعالى : ﴿ وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾

(٦٠/٨ ح٤٥٤٨)

ورواه مسلم فى كتاب الفضائل « باب فضائل عيسى عليه السلام »

(١٨٣٨/٤ ح٢٣٦٦)

وابنها ». ثم يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم ﴿ وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ .[سورة آل عمران ٣٦] قال تعالى : ﴿ فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتًا حسنًا وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقًا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ ،[سورة آل عمران : ٣٧] . ثم ذكر قصة زكريا ويحيى ثم قال : ﴿ هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء * فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقًا بكلمة من الله وسيدًا وحصورًا ونبيًا من الصالحين * قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء * قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزًا واذكر ربك كثيرًا وسبح بالعشى والإبكار * وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين * يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين * ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون * إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهًا فى الدنيا والآخرة ومن المقربين * ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين * قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون * ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل * ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين * ومصدقًا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون * إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط

مستقيم * فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون * ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين .* ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين * إذا قال الله يا عيسى إنى متوفيك وافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون * فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابًا شديدًا فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين * وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين * ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم * إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون * الحق من ربك فلا تكن من الممترين * فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين * إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم * فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين * قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون * يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون * ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون * ما كان إبراهيم يهوديًا ولا نصرانيًا ولكن كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين * إن أولى الناس بإبرهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٣٨ - ٦٨] .

فهو سبحانه قد ذكر قصة مريم والمسيح فى هاتين السورتين . إحداهما : مكية نزلت فى أول الأمر مع السور الممهدة لأصول الدين ، وهى سورة كهيعص .والثانية

: مدنيـة نزلت بعد أن أمر بالهـجرة والجهـاد .، ولهذا تضمنت مناظرة أهل الكتاب ومباهلتهم ، كما نزلـت في « براءة » مجاهدتهم . فأخـبر في السور المكيـة أنها لما انفردت لـلعبادة أرسل الـله إليها روحـه فتـمثل لهـا بشرا سـويا فقالـت :﴿ إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيًا ﴾ ،[سورة مريم : ١٨] .

قال أبو وائل : علمت أن المتقى ذو نهـية ، أى : تقواه تنهاه عن الفاحـشة ، وأنها خافت مـــنه أن يكون قصده الفاحـشة ، فقالت : ﴿ أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيًا ﴾ ،[ســورة مريم :١٨] ، أى : تتقى الله ،و مـا يقول بعض الجهال من أنه كان فيهم رجل فاجر إسمه تقى من نوع الهذيان وهو من الكذب الظاهر الذى لا يقوله إلا جاهل ، ثم قال : ﴿ إنما أنا رسول ربك لأهب لك غـلامًا زكيًا ﴾ [سورة مريم : ١٩] وفى القراءة الأخـرى : ﴿ ولأهب لك غلامًا زكـيًا﴾ ، فأخبـر هذا الروح الذى تمثل لهـا بشـراً سـويًا أنه رسـول بهـا ، فـدل الكـلام على أن هذا الروح عين قـائمـة بنفسها ليـست صفة لغيرها ، وأنه رسول من الله ليس صفـة من صفات الله، ولهذا قال جـماهير العلماء : إنه جـبريل عليه السـلام ، فإن الله سماه الروح الأمين وسـماه روح القدس ، وسماه جبريل ، وهكذا عند أهل الكتاب أنه تجسد من مريم ومن روح القدس ، لكن ضلالهم حيث يظنون أن روح الـقدس حياة الله وأنه إله يخلق ويرزق ويعبد ، وليس فى شئ من الكتب الإلهـية ولا فى كلام الأنبياء أن الله سـمى صفته القائمة به روح القـدس ، ولا سمى كلامه ، ولا شيئًا من صفـاته ابنًا ، وهذا أحد ما تبين به ضــــلال النصارى ، وأنهم حرفوا كلام الأنبياء وتأولوه على غير ما أرادت به الأنبـياء ، فـإن أصل تثليثـهم مـبنى على مافى أحـد الأناجـيل من أن المسيح عليـه السلام قال لهم : [عـمدوا الناس باسم الإب والابن وروح القدس] . فيـقال لهم هذا إذا كان قد قاله المسيح ، وليس فى لغة المسيح ولا لغة أحد من الأنبياء ، أنهم يسمون صفة الله القائمة به لا كلمته ولا حياته لا ابنا ولا روح قدس ، ولا يسمون كلمته ابنا

، ولا يسمونه نفسه إبنًا ، ولا روح قدس ، ولكن يوجد فيما ينقلونه عنهم أنهم يسمون المصطفى المكرم ابنًا ، وهذا موجود فى حق المسيح وغيره كما يذكرون أنه قال تعالى لإسرائيل : أنت ابنى بكرى . أى : بنى إسرائيل . وروح القدس : يراد به الروح تنزل على الأنبياء كمانزلت على داود وغيره ، فإن فى كتبهم أن روح القدس كانت فى داود وغيره ، وأن المسيح قال لهم : أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم فسماه أبا للجميع ، لم يكن المسيح مخصوصًا عندهم باسم الابن ، ولا يوجد عندهم لفظ الابن إلا اسما للمصطفى المكرم لا اسما لشئ من صفات الله القديمة حتى يكون الابن صفة الله تولدت منه ، وإذا كان كذلك كان فى هذا ما يبين أنه ليس المراد بالابن كلمة الله القديمة الأزلية التى يقولون إنها تولدت من الله عندهم مع كونها أزلية ، ولا بروح القدس حياة الله ، بل المراد بالابن ناسوت المسيح ،و بروح القدس ما أنزل عليه من الوحى والملك الذى نزل به فيكون قد أمرهم بالإيمان بالله وبرسوله ، وبما أنزله على رسوله ، والملك الذى نزل به ، وبهذا الذى نزل به ، وبهذا أمرت الأنبياء كلهم وليس للمسيح خاصة استحق بها أن يكون فيه شئ من اللاهوت ، لكن ظهر فيه نور الله وكلام الله وروح الله كما ظهر فى غيره من الأنبياء والرسل .

ومعلوم أن غيره أيضًا فيما ينقلونه عن الأنبياء يسمى ابنا وروح القدس حلت فيه ، وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع ، والمقصود هنا : التنبيه على أن كلام الأنبياء عليهم السلام يصدق بعضه بعضًا ، وأنه ليس من النصارى حجة سمعية ولا عقلية توافق ما ابتدعوه ، ولكن فسروا كلام الأنبياء بمالا يدل عليه ، وعندهم فى الإنجيل أنه قال : [إن الساعة لا يعلمها الملائكة ولا الابن وإنما يعلمها الأب وحده] فبين أن الابن لا يعلم الساعة فعلم أن الابن ليس هو القديم الأزلى وإنما هو المحدث الزمانى .

فصـــل

والمضاف إلى الله نوعان : فإن المضاف إما أن يكون صفة لا تقوم بنفسها كالعلم ، والقدرة ، والكلام ، والحياة . وإما أن يكون عينًا قائمة بنفسها ،

فالأول إضافة صفة كقوله : ﴿ ولا يحيطون بشئ من علمه ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٥٥] وقوله :﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ [سورة الذاريات : ٥٨] ، وقوله: ﴿ أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ﴾ ، [سورة فصلت : ١٥] .

وقول النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح حديث الاستخارة (١) « إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل : اللهم إنى أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسالك من فضلك » وقوله تعالى :﴿ وتمت كلمت ربك صدقًا وعدلا ﴾ ، [سورة الأنعام : ١١٥] . وقوله : ﴿ ذلك حكم الله يحكم بينكم ﴾ ، [سورة الممتحنة : ١] ، وقوله : ﴿ ذلك أمر الله أنزله إليكم ﴾ ، [سورة الطلاق :٥]

(١)« صحيح»
رواه البخارى فى كتاب « التهجد » باب« ما جاء فى التطوع مثنى مثنى » (٣/٥٨ح١١٦٦)
ورواه أيضاً برقم (٦٣٨٢ ، ٧٣٩٠)
ورواه أبو داود فى كتاب « الوتر » « ما جاء فى صلاة الاستخارة » ، (٤/٣٩٦:٣٩٨ح١٥٢٤)
ورواه الترمذى فى كتاب « الوتر » باب « ما جاء فى صلاة الاستخارة » (٢/٥٩١:٥٩٣ح٤٧٨)
ورواه النسائى فى « النظام » باب « كيف الاستخارة » ، (٦/٨٠ ، ٨١)
ورواه فى الكبرى فى كتاب « النعوت » باب « علام الغيوب» (٤/٤١٢ح٧٧٢٩)
ورواه أيضاً فى عمل اليوم والليلة »
باب « ما يقول إذا اهم بالأمر » (٦/١٢٨ح١٠٣٣٢)
ورواه ابن ماجه فى كتاب « الصلاة » باب« ما جاء فى صلاة الاستخارة » (١/٤٤٠ح١٣٨٣)

والثانى : إضافة عين كقوله تعالى : ﴿ وطهر بيتى للطائفين ﴾ ،[سورة الحج : ٢٦] . وقوله : ﴿ ناقة الله وسقياها ﴾ ، [سورة الشمس : ١٣] وقوله : ﴿ عيناً يشرب بها عباد الله ﴾ ، [سورة الإنسان : ٩]

فالمضاف فى الأول : صفة لله قائمة به ليست مخلوقا له بائن عنه والمضاف فى الثانى : مملوك لله مخلوق له بائن عنه . لكنه مفضل مشرف لما خصه الله به من الصفات التى اقتضت إضافته إلى الله تبارك وتعالى ، كما خص ناقة صالح من بين النوق ، : كما خص بيته بمكة من بين البيوت ، كما خص عباده الصالحين من بين الخلق ، ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا ﴾ ، [سورة مريم : ١٧] . فإنه وصف هذا الروح بأن تمثل لها بشراً سويًا ، وأنها استعاذت بالله منه إن كان تقيا وأنه قال : « إنما أنا رسول ربك » وهذا كله يدل على أنها عين قائمة بنفسها ، وهى التى تسمى فى اصطلاح النظائر جوهراً ، وقد تسمي جسما إذا كانت مشاراً إليها مع اختلاف الناس فى الجسم . هل هو مركب من الجواهر المفردة ، أم من المادة والصورة ، أم ليس مركبًا لا من هذا ولا من هذا ؟ وإذا كان الله قد بين أن المضاف هنا ليس من الصفات القائمة بغيرها بل من الأعيان القائمة بنفسها على أن المضاف مملوك لله مخلوق له ، لكن إضافته إلى الله تدل على تخصيص الله له من الاصطفاء والإكرام بما أوجب التخصيص بالإضافة ، وقد ذكرت فيما كنت كتبته قبل هذا من الرد على النصارى ، الكلام فى ذلك وغيره وبينت أن المضافات إلى الله نوعان : أعيان وصفات . فالصفات إذا أضيفت إليه كالعلم والقدرة والكلام والحياة والرضا والغضب ونحو ذلك دلت الإضافة على أنها إضافة وصف له قائم به ليست مخلوقة ، لأن الصفة لا تقوم بنفسها فلا بد لها من موصوف تقوم به فإذا أضيفت إليه علم أنها صفة له لكن قد يعبر باسم الصفة عن المفعول بها يسمى المقدور قدرة والمخلوق بالكلمة كلاما والمعلوم علمًا ، والمرحوم به رحمة كقول النبى صلى

الله عليه وسلم : (١) « إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة » وقوله تعالى فيما يروى عن نبيه أنه قال للجنة :(٢) (أنت رحمتى أرحم بك من أشاء) . ويقال للمطر والسحاب : هذه قدرة قادر ، وهذه قدرة عظيمة . ويقال فى الدعاء : غفر الله لك علمه فيك ، أى : معلومه .

وأما الأعيان إذا أضيفت إلى الله تعالى فإما أن تضاف بالجهة العامة التى يشترك فيها المخلوق مثل كونها مخلوقة ومملوكة له ومقدورة ، ونحو ذلك . فهذه إضافة عامة مشتركة كقوله : ﴿ هذا خلق الله ﴾ وقد يضاف لمعنى يختص بها يميز به المضاف عن غيره مثل بيت الله وناقة الله ، وعبد الله ، وروح الله ، فمن المعلوم اختصاص ناقة صالح بما تميزت به عن سائر النياق ، وكذلك اختصاص الكعبة ، واختصاص العبد الصالح الذى عبد الله وأطاع أمره ، وكذلك الروح المقدسة التى

---

(١) « متفقه عليه »

رواه البخارى فى كتاب « الرقاق » باب « الرجاء مع الخوف » (١١/٣٠٧ح٦٤٦٩) ورواه أيضاً برقم (٦٠٠٠) ، ورواه مسلم فى كتاب « التوبة » باب « فى سعة رحمة الله ...» ، (٤/٢١٠٨ ، ٢١٠٩ح٢٧٥٢)

ورواه الترمذى فى كتاب « الدعوات » باب (١٠٧) (٩/٥٢٦ح٣٦٠٩)

ورواه ابن ماجة فى كتاب « الزهد » باب « ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة » (٢/١٤٣٥ح٤٢٩٣)

وفى الباب عن سلمان وجندب عبد الله بن سفيان البجلى وأبى سعيد

(٢) « متفق عليه »

رواه البخارى فى كتاب « التفسير » باب قوله تعالى : ﴿ وتقول هل من مزيد ﴾ (٨/٤٦٠ح٤٨٥٠)

ورواه مسلم فى كتاب « الجنه وصفة نعيمها وأهلها » (٤/٢١٨٦،٢١٨٧ح٢٨٤٦)

ورواه الترمذى فى كتاب « صفة الجنة » باب « ما جاء فى احتجاج الجنة والنار» (٧/٢٨٢ ، ٢٨٣ح٢٦٨٦)

ورواه النسائى فى الكبرى فى كتاب التفسير » باب قوله تعالى : ﴿ يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد ﴾ (٦/٤٦٨ح١١٥٢٢)

امتازت بما فارقت به غيرها من الأرواح . فإن المخلوقات اشتركت فى كونها مخلوقة مملوكة مربوبة لله يجرى عليها حكمه وقضاؤه وقدره ، وهذه الإضافة لا اختصاص فيها ، ولا فضيلة للمضاف على غيره ، وامتاز بعضها بأن الله يحبه ويرضاه ويصطفيه وبقربه إليه ، ويأمر به ، أو يعظمه ويحبه فهذه الإضافة يختص بها بعض المخلوقات كإضافة البيت ، والناقة ، والروح ، وعباد الله من هذا الباب .

وقال تعالى فى سورة الأنبياء : ﴿ والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ ،[سورة الأنبياء ٩١]وقال فى سورة التحريم : ﴿ وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتًا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين * ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴾ ، [سورة التحريم : ١١ ، ١٢] .

فذكر امرأة فرعون التى ربت موسى بن عمران ، وجمعت بينه وبين أمه حتى أرضعته أمه عندها وذكرت مريم أم المسيح التى ولدته وربته فهاتان المرأتان ربتا هذين الرسولين الكريمين ، فلما قال هنا : ﴿ فنفخنا فيها ﴾ أى : فى المرأة وفيه ، أى فى فرجها من روحنا وقال هنا : فأرسلنا إليها روحنا ـ إلى قوله ﴿ إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلامًا زكيًا ﴾ ، دل على أن قوله : روحنا ليس المراد به أنه صفة لله لا الحياة ، ولا غيرها ، ولا هو رب خالق فلا هو الرب الخالق ، ولا صفة الرب الخالق ، بل هو روح من الأرواح التى اصطفاها الله وأكرمها كما تقدم في قوله : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا ﴾ وأن الأكثرين على أنه جبريل ، وهذا الأصل الذى ذكرناه من الفرق فيما يضاف إلى الله من صفاته ، وبين مملوكاته أصل عظيم ضل فيه كثير من أهل الأرض من أهل الملل كلهم ، فإن كتب الأنبياء :التوراة والإنجيل والقرآن وغيرها أضافت إلى الله أشياء على هذا الوجه . وأشياء على هذا الوجه :

فاختلف الناس فى هذه الإضافة فقالت المعطلة ـ نفاة الصفات من أهل الملل : إن الجميع إضافة ملك وليس لله حياة قائمة به ولا علم قائم به ، ولا قدرة قائمة به ، ولا كلام قائم به ولا حب ، ولا بغض ولا غضب ، ولا رضى ، بل جميع ذلك مخلوق من مخلوقاته ، وهذا أول ما ابتدعه فى الإسلام الجهمية وإنما ابتدعوه بعد انقراض عصر الصحابة ، وأكابر التابعين لهم بإحسان وكان مقدمهم رجل يقال له : الجهم ابن صفوان : فنسبت الجهمية إليه ، نفوا الأسماء والصفات ، واتبعهم المعتزلة وغيرهم فنفوا الصفات دون الأسماء ، ووافقهم طائفة من الفلاسفة أتباع أرسطو .وقالت الحلولية : بل ما يضاف إلي الله قد يكون هوصفة له وإن كان بائنا عنه ، بل قالوا : هو قديم أزلى ، فقالوا : روح الله قديمة أزلية صفة لله حتى قال كثير منهم : إن أرواح بنى آدم قديمة أزلية صفة لله وقالوا : إن ما يسمعه الناس من أصوات القراء ومداد المصاحف قديم أزلى ، وهو صفة لله .

وقال حذاق هؤلاء بل غضبه ، ورضاه وحبه وبغضه ، وإرادته لما يخلقه قديم أزلى ، كلامه الذى سمعه موسى قديم أزلى ، وأنه لم يزل راضيًا محبًا لمن علم أنه يطيعه قبل أن يخلق ، ولم يزل غضبانًا ساخطًا على من علم أنه يكفر قبل أن يخلق ، ولم يزل ولا يزال قائلا : يا آدم ، يانوح ، ياإبراهيم قبل أن يوجدوا وبعد موتهم ، ولم يزل ولا يزال يقول : يا معشر الجن والإنس ، قبل أن يخلقوا وبعد ما يدخلون الجنة والنار .

وأما سلف المسلمين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وأئمة المسلمين المشهورون بالإمامة فيها كالأربعة وغيرهم ، وأهل العلم بالكتاب والسنة ، فيفرقون بين مملوكاته ، وبين صفاته فيعلمون أن العباد مخلوقون وصفات العباد مخلوقة وأجسادهم وأرواحهم ، وأصواتهم وكلامهم بالكتب الإلهية وغيرها ومدادهم ، وأوراقهم ، والملائكة والأنبياء وغيرها . ويعلمون أن صفات الله القائمة به ليست

مخلوقة كعلمه ، وقدرته وكلامه ، وإرادته ، وحياته وسمعه ، وبصره ، ورضاه ، وغضبه ، وحبه وبغضه ، بل هو موصوف بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكيف ولا تمثيل ، فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ، ولا بما وصفه به رسله ، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ولا يتأولون كلام الله بغير ما أراده ، ولا يمثلون صفات الخالق بصفات المخلوق ، بل يعلمون ، أن الله سبحانه ليس كمثله شئ لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله بل هو موصوف بصفات الكمال ، منزه عن النقائص ، وليس له مثل فى شئ من صفاته ، ويقولون : إنه لم ، ولا يزل موصوفًا بصفات الكمال لم يزل متكلما إذا شاء بمشيئته وقدرته ، ولم يزل عالمًا ، ولم يزل قادراً ولم يزل حيًا سميعًا بصيراً ولم يزل مريدًا ، فكل كمال لا نقص فيه يمكن اتصافه به فهو موصوف به لم يزل ولا يزال متصفًا بصفات الكمال منعوتًا بنعوت الجلال والإكرام سبحانه وتعالي ، والنصارى من أعظم الناس اضطرابا فى هذا الأصل ، فتارة : يجعلون كلامه الذى تكلم به كالتوراة والإنجيل مخلوقا منفصلا عنه وينفون عنه الصفات . وتارة يجعلون كلمته قديمة أزلية متولدة عنه لم تزل ولا تزال ، ثم يقولون هذه الكلمة هى ابنه ، ويجعلون هذه الكلمة عنه ، أو حكمته ويقولون : إن هذه الكلمة هى إله خالق وهو الذى خلق السموات والأرض ويقولون : هذه الكلمة هى المسيح والمسيح إله خالق العالم .

ويقولون : مع هذا إن هذه الكلمة ليست هى الأب الذى خلق السموات والأرض فيجعلون كلمته صفة قديمة أزلية ويجعلونها ابنًا له ويجعلون الصفة إلها خالقًا ، ويجعلون المسيح هو الإله الخالق . ويقولون مع هذا : هو إله حق من إله حق من جوهر أبيه ، ولهم فى كلام الله وصفاته من التناقض والاضطراب ، ومخالفة كلام الأنبياء ، وتفسيره بغير ما أراده و مخالفة صريح المعقول وصحيح المنقول ما

سنذكر إن شاء الله تعالى منه ما يسره الله ، إذ بيان فساد دين النصارى بالاستقصاء لا يتسع له هذا الكتاب ، ولما قص الله تعالى قصة المسيح قال ﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ﴾ ، [سورة مريم : ٣٤] . أى : يشكون ويتمارون كتمارى اليهود والنصارى . ثم قال تعالى ﴿ فاختلفت الأحزاب من بينهم ﴾ ، [سورة الزخرف : ٦٥] فاختلفت اليهود والنصارى فيه ، ثم اختلفت النصارى فيه وصاروا أحزابًا كثيرة جداً ، كالنسطورية ، واليعقوبية ، والملكية ، والبارونية ، والمريمانية ، والسمياطية . وأمثال هذه الطوائف ، كما سنذكر إن شاء الله تعالى كثيراً من طوائفهم واختلافهم فى مجامعهم ، كما حكى ذلك عنهم أحد أكابر سعيد بن البطريق وغيره فإنه ليس فى الآمم أكثر اختلافا في رب العالمين منهم ، فويل للذين كفروا من هذه الطوائف كلها من مشهد يوم عظيم ﴿ أسمع بهم وأبصِر يوم يأتوننا ﴾ ، [سورة مريم : ٣٨] يقول تعالى : ما أسمعهم وما أبصرهم يوم يأتوننا . لكن الظالمون اليوم كالنصارى الذين ظلموا بإفكهم وشركهم في ضلال مبين ضلوا عن الحق فى المسيح ، وقد وصف الله النصارى بالضلال فى مثل قوله تعالي : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾ [سورة المائدة : ٧٧] .

وقال تعالى : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً * ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبًا ﴾ ، [سورة الكهف :٤، ٥] ، لأن الغالب عليهم الجهل بالدين وأنهم يتكلمون بكلام لا يعقلون معناه ليس منقولا عن الأنبياء حتى يسلم لقائله بل هم ابتدعوه ، وإذا سألتهم عن معناه قالوا : هذا لا يعرف بالعقول فيبتدعون كلاما يعرفون بأنهم لا يعقلونه ، وهو كلام متناقض ينقض أوله آخره ، ولهذا لا تجدهم يتفقون على قول واحد فى معبودهم

حتى قال بعض الناس : لوا اجتمع عشرة نصارى افترقوا علي أحد عشر قولا .

وقال الربيعي : النصارى أشد الناس اختلافا فى مذاهبهم ، وأقلهم تحصيلا لها ، لا يمكن أن يعرف لهم مذهب ، ولو سألت قسًا من أقسائهم عن مذهبهم فى المسيح ، وسألت أباه وأمه لا ختلفوا عليك الثلاثة ، ولقال كل واحد منهم قولا لا يشبه قول الآخر .

وقال بعض النظار : ما من قول يقوله طائفة من العقلاء إلا إذا تأملته لم تصورت منه معنى معقولا وإن كان باطلا . إلا قول النصارى فإنك كلما تأملته تتصور له حقيقة تعقل لكن غايتهم أن يحفظوا الأمانة وغيرها ، وإذا طولبوا بتفسير ذلك فسره كل منهم بتفسير يكفر به الآخر كما يكفر اليعقوبية ، والملكانية ، والنسطورية بعضهم بعضًا لا ختلافهم في أصل التوحيد والرسالة إذ كان قولهم فى التوحيد والرسالة من أفسد الأقوال وأعظمها تناقضًا كما بين فى موضع آخر .

فصــل

وأما قولهم : فكان طيـرًا بإذن الله . أى : بإذن اللاهوت الذى هو كلمة الله المتحدة في الناسوت ، فهذا إذا قالوه علي أنه مذهبهم من غير أن يقولوا إن محمداً أراده ، تكلمنا معهم فى ذلك وبينا فساد ذلك عقلا ونقلا .

وأما قولهم : إن محمداً صلي الله عليه وسلم كان يقول : إن المراد إذن الاهوت الذى هو كلمة الله المتحدة في الناسوت فهذا من البهتان الظاهر علي محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو من جنس قولهم فى قوله : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ ، [سورة الفاتحة : ٦ ، ٧] . أراد به : النصارى ومن جنس قولهم إن قوله : ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينًا ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨٥] أراد به : العرب ، ومن جنس قولهم : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ﴾ ، [سورة الحديد :

٢٥] أراد بهم : الحواريين ، ومن جنس قولهم : ﴿ الم * ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين ﴾ ، [سورة البقرة : ١، ٢] أراد به الإنجيل فهذه المواضع التى فسروا بها القرآن وزعموا أن محمداً صلي الله عليه وسلم الذى بين للناس ما أنزل إليهم ، كان يريد بها ما يتلوه من القرآن هذه المعانى التى ذكروها وهى من الكذب الظاهر الذى يدل على غاية جهل قائلها ، أو غاية معاندته ولكن مثل هذا التأويل غير مستنكر من النصارى فإنهم قد فسروا مواضع كثيرة من التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والنبوات بنحو هذه التفاسير التي حرفوا فيها الكلام الذي جاءت به الأ نبياء عن مواضعه تحريفًا ظاهراً ، فبدلوا بذلك كتب الله ودين الله وضاهوا بذلك اليهود الذين حرفوا وبدلوا وإن اختلفت جهة التحريف والتبديل ، فتحريفهم للقرآن من جنس تحريفهم للتوراة والإنجيل وهم من الذين يدعون المحكم ويتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويلهِ ، لكن فى هذه المواضع حرفوا المحكم الذى معناه ظاهر لا يحتمل إلا معنى واحداً فكانوا من الجهل والمعاندة أبعد عن الصواب ممن حرف معنى المتشابه ، وذلك . وأنه قد علم بالاضطراد من دين محمد صلى الله عليه وسلم :أنه كان يقول: « إن المسيح عبد الله مخلوق كسائر المرسلين وأنه يكفر النصارى الذين يقولون : هو الله وابن الله » قال تعالى ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئًا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعًا ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شئ قدير ﴾، [سورة المائدة : ١٧] .

وقال تعالى : ﴿ لقد كفرالذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم و قال المسيح : يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار * لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم * أفلا

يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم * ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمة صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون * قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو المسيع العليم * قل ياأهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٢ - ٧٧].

فقد ذكر كفر النصارى فى قولهم : هو الله مرتين ، وذكر أنه ليس المسيح إلا رسول قد خلت من قبله الرسل فغايته الرسالة كما قال فى محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وما محمد إلا رسول قدخلت من قبله الرسل ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٤٤].

وغاية أمه أن تكون صديقة ودل بهذا أنها ليست بنبية ، ثم قال: ﴿ كانا يأكلان الطعام﴾ . وهذا من أظهر الصفات النافية للإلهية لحاجة الأكل إلى ما يدخل فى جوفه ولما يخرج منه مع ذلك من الفضلات والرب تعالى أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

والنصارى تقول : إنه يلد ، وإنه يولد ، وإن له كفوا كما قد بين فى موضع آخر ، وقد أخبر بعبودية المسيح فى غير موضع كقوله تعالى : ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون * وقالوا آلهتنا خير أم هو ماضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون * إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل ﴾ ، [سورة الزخرف : ٥٧ - ٥٩]

وأخبر تعالى أن أول شئ نطق به المسيح قوله : ﴿ إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيًا ﴾

وقال تعالى : ﴿ وإذا قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته - الآيات إلى قوله - شهيد﴾ ، [سورة المائدة : ١١٦]

وقال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم ﴾ ، [سورة النساء : ١٧١] . الآيات كلها فإذا كان قد علم بالاضطراد من دين محمد صلى الله عليه وسلم ، وبالنقل المتواتر عنه وبإجماع أمته إجماعًا يستندون فيه إلى النقل عنه ، وبكتابه المنزل عليه وسنته المعروفة عنه أنه كان يقول : إن المسيح عبد الله ورسوله ليس هو إلا رسول ، وأنه يكفر النصارى الذين يقولون : هو الله وهو ابن الله ، والذين يقولون : ثالث ثلاثة وأمثال ذلك ، كان بعد هذا تفسيرهم لقول الله الذى بلغه نبيه محمد صلى الله عليه وسلم فيكون طيراً بإذن الله أى : بإذن اللاهوت الذى هو كلمة الله المتحدة بالناسوت كذبًا ظاهراً على محمد صلى الله عليه وسلم .

،وهذا مما يعرف كذبهم فيه على محمد صلى الله عليه وسلم جميع أهل الأرض العالم بحال محمد صلى الله عليه وسلم ، سواء أقروا بنبوته أو أنكروها .

والمقصود فى هذا المقام : أن هؤلاء كذبوا على محمد صلى الله عليه وسلم كذبًا ظاهراً معلومًا للخلق المؤمنين به والمكذبين له ليس هو كذبًا خفيا .

وإن قدر أن ما قالوه يكون ممكنًا معقولا . فكيف إذا كان ممتنعًا فى سرائح العقول ؟ بل هو قول غير معقول . أى : غير معقول ثبوته فى الخارج ، وإن كان يعقل ما يختلفون ويعلم به فساد عقولهم لمن قال سائر الأقوال المتناقضة الفاسدة التى يمتنع ثبوتها فى الخارج ، وذلك كما قد بسط فى موضع آخر ، فإن قولهم : بإذن اللاهوت الذى هوكلمة الله المتحدة فى الناسوت باطل من وجوه :

منها : أن تلك الكلمة إما أن تكون هى الله أوصفة لذاته . أو لا هى ذاته ولا هى

صفة له ، أو الذات والصفة جميعًا ، فإن لم تكن هى ذات الله ولا صفته ، ولا الذات والصفة كانت بائنة عنه مخلوقة له ، ولم يكن لا هوتا بل ولا خالقه ، وحينئذ فلم يتحد بالمسيح لا هوت ، بل لم يتحد به إن كان اتحد به إلا مخلوق .وإن كانت الكلمة هى الذات أو الذات والصفة فهى رب العالمين ، وهى الأب عندهم ، وهم متفقون على أن المسيح ليس هو الأب ، ولم يتحد به الأب بل الابن .

وإن كانت الكلمة صفة لله عز وجل ، فصفة الله ليست هى الإله الخالق والمسيح عندهم هو الإله الخالق ، وأيضًا فصفة الله قائمة بذاته لا تفارق ذاته وتحل بغيره وتتحد به وكلمة الله عندهم اتحدت بالمسيح .

وإن قالوا : قولنا هذا كما يقول طائفة من المسلمين : إن القرآن أو التوراة أو الإنجيل حل فى القراء أو اتحدبهم ، وإن القديم حل فى المخلوق أو اتحد به ونحو ذلك .قيل لو كان قول هؤلاء ، صوابًا لم يكن لهم فيه حجة فإنه على هذا التقدير لا فرق بين المسيح وبين سائر من يقرأ التوراة ، والإنجيل ، والزبور والقرآن ، وأنتم تدعون أن المسيح هو الله أو ابن الله مخصوصًا بذلك دون غيره ، وأيضًا فهولاء وجميع الأمم متفقون على أن قراء القرآن ، وسائر الكتب الإلهية ليس واحد منهم هو الله ، ولا هو ابن الله ، ولا أنه خالق للعالم ، فإذا جعلتم قولكم مثل قول هؤلاء لزمكم أن لا يكون المسيح هو الله ، ولا ابن الله ، ولا ربا للعالم ، وأيضًا فلم تعلم أحدًا من هؤلاء قال : إن اللاهوت اتحد بالناسوت ، ولا أن القديم اتحد بالمحدث ، ولا أن كلام الله صار هو والمخلوق شيئًا واحدًا ، فالاتحاد باطل باتفاق هؤلاء وغيرهم ، ولكن طائفة منهم أطلقت لفظ الحلول . وطائفة أنكرت لفظ الحلول ، وقالوا : إنما نقول ظهر القديم فى المحدث لا حل فيه ، لكل قالوا ما يستلزم الحلول ، وسلف المسلمين وجمهورهم يخطئون هؤلاء ، ويبنون خطأهم عقلا ونقلا ، وقولهم ليس هو قول أحد من أئمة المسلمين ، ولا قول طائفة مشهورة من طوائف المسلمين

كالمالكية ، والشافعية ، والحنيفية ، والحنبلية ، والثورية ، والداودية والإسحاقية وغيرهم ، ولا قول طائفة من طوائف المتكلمين من المسلمين لا المتسببن إلى السنة كالأشعرية ، والكرامية ولا غيرهم كالمعتزلة والشيعة ، وأمثالهم . وإنما قال ذلك طائفة قليلة انتسبت إلى بعض علماء المسلمين مثل قليل من المالكية ، والشافعية ، والحنبلية ، وهؤلاء غايتهم أن يقولوا بحلول صفة من صفات الله ، وكذلك من قال بحلول الرب واتحاده فى العبد من طوائف الغلاة المتسببين إلى التشيع ، والتصوف أو غيرهم ، فهم ضلال كالنصارى مع أنه لا حجة للنصارى على هؤلاء ، إذ كان ما يقولونه لا يختص به المسيح ، بل هو مشترك بينه وبين غيره من الأنبياء ، والصالحين

والنصارى تدعى اختصاص المسيح بالاتحاد مع أن المتحد بالناسوت صار هو والناسوت شيئًا واحدًا ، ومع الاتحاد فيمتنع أن يكون لأحدهما فعل أوصفة خارج عن الآخر والنصارى يدعون الاتحاد ثم يتناقضون .

فمنهم من يقول : جوهر واحد ومنهم من يقول : جوهران ومنهم من يقول : مشيئة واحدة.ومنهم من يقول : مشيئتان كما سيأتى الكلام إن شاء الله تعالى على ذلك .

فصل

وأما قوله تعالى ﴿ ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴾ ، [سورة آل عمران : ٥٥] .

فهذا حق كما أخبر الله به ، فمن اتبع المسيح عليه السلام جعله الله فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، وكان الذين اتبعوه على دينه الذى لم يبدل قد جعلهم الله فوق اليهود والذين كفروا به إلى يوم القيامة .

أما المسلمون فهم مؤمنون به ليسوا كافرين به ، بل لما بدل النصارى دينه وبعث

الله محمداً صلى الله عليه وسلم بدين الله الذى بعث به المسيح وغيره من الأنبياء جعل الله محمداً وأمته فوق النصارى إلى يوم القيامة ، كما فى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :(١) « إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد وإن أولى الناس بابن مريم لأنا ؛ لأنه ليس بينى وبينه نبى »

وقال تعالى ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ﴾ ، [سورة الشورى : ١٣]

وقال تعالى ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا إنى بما تعملون عليم * وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون * فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ ، [سورة المؤمنون : ٥١ - ٥٣] فكل من كان أتم إيمانًا بالله ورسله ، كان أحق بنصر الله تعالى ، فإن الله تعالى يقول فى كتابه ﴿ انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ ، [سورة غافر : ٥]

وقال في كتابه : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ ، [سورة الصافات : ١٧١ - ١٧٣] . واليهود كذبوا المسيح ومحمداً صلى الله عليهما وسلم ، كما قال الله فيهم ﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيًا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب ﴾ ، [سورة البقرة : ٩٠]

فالغضب الأول : تكذيبهم المسيح ، والثانى : محمداً صلى الله عليه سلم والنصاري لم يكذبوا المسيح وكانوا منصورين على اليهود ؛ والمسلمون منصورون على اليهود والنصارى ، فإنهم آمنوا بجميع كتب الله ورسله ، ولم يكذبوا بشئ من

(١) سبق تخريجه ، وهو حديث متفق عليه .

كتبه ولا كذبوا أحداً من رسله ، بل اتبعو ما قال الله لهم حيث قال : ﴿ قولو ا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلي إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ ، [سورة البقرة : ١٣٦] :

وقال تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٨٥] .

ولما كان المسلمون هم المتبعون لرسل الله كلهم المسيح وغيره ، وكان الله قد وعد الرسل وأتباعهم قال النبى صلي الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح (١) « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرة على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة » .وقال أيضاً : (٢) « سألت ربى لا يسلط على أمتى عدواً فى غيرهم فيجتاحهم فأعطانيها » الحديث ... فكان ما احتجوا به حجة عليهم لا لهم .

---

(١) « متفق عليه » «عن المغيرة بن شعبة » ، رواه البخاري فى كتاب « المناقب » باب (٢٨)(٣٧/٦ح ٣٦٤٠،) ، ورواه أيضا برقم (٧٣١١، ٧٤٥٩)

ورواه مسلم في كتاب (الإمارة) باب قوله صلي الله عليه وسلم « لا تزال طائفة من أمتي ... » (١٥٢٣/٣ ح ١٩٢١) وفي الباب عن معاوية « متفق عليه » أيضاً وثوبان وجابر .

(٢) صحيح عن خباب بن الأرت

رواه الترمذى فى كتاب « الفتن » باب « سؤال النبى صلي الله عليه وسلم ثلاثا فى أمته » (٣٩٧/٦٠ ، ٣٩٨ح٢٢٦٦) ، وقال : هذا حديث حسن صحيح وفي الباب عن سعد وابن عمر ومعاذ بن جبل وقد ورد عن ثوبان عند « مسلم » بلفظ « أن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ... » رواه في كتاب « الفتن » باب « هلاك هذه الأمة .. » (٢٢١٥/٤ ، ٢٢١٦ ح٢٨٨٩)

ورواه أبو داود فى كتاب « الفتن » باب « ذكر الفتن ودلائلها » (٣٢٢/١١ : ٣٢٤ح٤٢٣٢)

فصـــل

وأما قولهم : وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس فهذا حق كما قال تعالى ، وقد ذكر تعالى تأييد عيسى ابن مريم بروح القدس في عدة مواضع ، فقال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾ ،[سورة البقرة ٨٧].

وقال تعالى : ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر و لو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٣] .

وقال تعالى ﴿ يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذنى ﴾، [سورة المائدة : ١١٠] وقد قال تعالي في القرآن : ﴿ وإذ بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون * قل نزله روح القدس من ربك بالحق ﴾ ، [سورة النحل : ١٠١ - ١٠٢].

وقال تعالى ﴿ نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ ، [سورة الشعراء : ١٩٣ - ١٩٤]وقال تعالى ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله علي قلبك بإذن الله ﴾ [سورة البقرة : ٩٧]

فروح القدس الذى نزل بالقرآن من الله هو الروح الأمين وهو جبريل وثبت فى الصحيح عن أبى هريرة أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول لحسان ابن

ثابت : (١) « أجب عنى اللهم أيده بروح القدس » وفى صحيح مسلم وغيره عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول لحسان بن ثابت (٢) « إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله » .

وفى الصحيحين عن البراء بن عازب قال : سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول (٣) لحسان بن ثابت « اهجهم أو هاجهم وجبريل معك » فهذا حسان ابن ثابت واحد من المؤمنين لما نافح عن الله ورسوله ، وهجا المشركين الذين يكذبون الرسول أيده الله بروح القدس وهو جبريل عليه السلام وأهل الأرض يعلمون

---

(١)« متفق عليه » ، رواه البخارى فى كتاب « الصلاة » باب « الشعر فى المسجد »(١/٦٥٢ح٤٥٣)
ورواه أيضاً برقم (٣٢١٢، ٦١٥٢)
ورواه مسلم فى كتاب « فضائل الصحابة » باب « فضائل حسان بن ثابت رضى الله عنه » (٤/١٩٣٢، ١٩٣٣ح٢٤٨٥) ، ورواه أبوداود فى كتاب « الأدب » باب « ما جاء فى الشعر »
(١٣/٣٥٦ح٤٩٩٣) ، ورواه النسائى فى الكبرى فى كتاب « المساجد » باب « الرخصة فى إنشاء الشعر الحسن فى المسجد »(١/٢٦٢ح٧٩٥)

(٢) « صحيح »
رواه مسلم فى كتاب « فضائل الصحابه » باب « فضائل حسان بن ثابت رضى الله عنه » (٤/١٩٣٣ ، ١٩٣٤ح٢٤٨٧)
ورواه أبو داود فى كتاب «الأدب » باب « ما جاء فى الشعر » (١٣/٣٥٧ ، ٣٥٨ح٤٩٩٤)

(٣) « متفق عليه»
رواه البخارى فى كتاب « بدء الخلق » باب « ذكر الملائكة » (٦/٣٥١ح٣٢١٣)
ورواه أيضاً برقم (٤١٢٣، ٤١٢٤، ٦١٥٣)
ورواه مسلم فى كتاب « فضائل الصحابة » باب « فضائل حسان بن ثابت رضى الله عنه » (٤/١٩٣٣ح٢٤٨٦)
ورواه النسائي فى الكبرى فى كتاب « المناقب » باب « حسان بن ثابت النسائى رضى الله عنه (٥/٨٠ح٨٢٩٤،٨٢٩٥)

أن محمداً صلي الله عليه وسلم لم يكن بجعل اللاهوت متحداً بناسوت حسان ابن ثابت ، فعلم أن إخباره بأن الله أيده بروح القدس لا يقتضى اتحاد اللاهوت بالناسوت ، فعلم أن التأييد بروح القدس ليس من خصائص المسيح ، وأهل الكتاب يقرون بذلك وأن غيره من الأنبياء كان مؤيداً بروح القدس . كداود وغيره بل يقولون : إن الحواريين كانت فيهم روح القدس ، وقد ثبت باتفاق المسلمين واليهود والنصارى أن روح القدس يكون فى غير المسيح ، بل فى غير الأنبياء كما سيأتى إن شاء الله تعالى .

وإنما المقصود فى هذا المقام ، بيان كذبهم على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا التأييد نظير قوله تعالى : ﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾ ، [سورة المجادلة : ٢٢] .

فهذا التأييد بروح منه عام لكل من لم يحب اعطاء الرسل وإن كانوا أقاربه ، بل يحب من يؤمن بالرسل وإن كانوا أجانب ، ويبغض من لم يؤمن بالرسل وإن كانوا أقارب ، وهذه ملة إبرهيم .قال تعالى : ﴿ قد كانت لكم أسوة فى إبرهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدًا حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ ، [سورة الممتحنة : ٤] وقال تعالي : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون * إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين * وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون ﴾ ، [سورة الزخرف : ٢٦ - ٢٨] .

وقال تعالى : ﴿ فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴾ [سورة التوبة : ١٤] وهذا التأييد بروح القدس لمن ينصر الرسل عام فى كل من نصرهم على من خالفهم من المشركين وأهل الكتاب كما تقدم وليس فى القرآن ولا فى إنجيل ، ولا غير ذلك من

كتب الأنبياء أن روح القدس الذى أيد به المسيح هو صفة الله قائمة به وهى حياته ، ولا أن روح القدس يخلق ويرزق فليس روح القدس هى الله ، ولا صفة من صفات الله ، بل ليس فى شئ من كلام الأنبياء أن صفة الله القائمة به تسمى ابنا ، ولا روح القدس.

فإذا تأول النصارى قول المسيح عمدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس على أن الابن صفته التى هى العلم ، وروح القدس صفته التى هى الحياة ، كان هذا كذبًا بينًا على المسيح ، ولا يوجد قط في كلامه ولا كلام غيره من الأنبياء تسمية الله ، ولا شئ من صفاته ابنًا ؛ ولا حياته روح القدس .

وأيضًا : فهم يذكرون فى الأمانة أن المسيح تجسد من مريم ومن وروح القدس ، وهذا يوافق ما أخبر به من أنه أرسل روحه الذى هو جبريل ، وهو روح القدس ، فنفخ في مريم فحملت بالمسيح ، فكان المسيح متجسداً مخلوقا من أمه من ذلك الروح ، وهذا الروح ليس صفة الله ، لا حياته ولا غيرها ، بل روح القدس قدجاء ذكرها كثيراً فى كلام الأنبياء ، ويراد بها إما الملك وإما ما يجعله الله فى قلوب أنبيائه وأوليائه من الهدى والتأييد ونحو ذلك كما قال تعالى : ﴿ أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾ ،[سورة المجادلة : ٢٢] .

وقال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ﴾ [سورة الشورى : ٥٢] .

وقال تعالي: ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ [سورة النحل : ٢] .

وقال تعالى : ﴿ يلقى الروح من أمره على يشاء من عباده لينذر يوم التلاق ﴾ ،

[سورة غافر : ١٥] .

فسمى الملك روحا وسمى ما ينزل به الملك روحا وهما متلازمان ، و المسيح عليه السلام مؤيد بهذا وهذا .

ولهذا قال كثير من المفسرين : إنه جبريل ، قال بعضهم : إنه الوحى : وهذا كلفظ الناموس يراد به صاحب الخير كما يراد بالجاسوس صاحب سر الشر فيكون الناموس جبريل ، ويراد به الكتاب الذى نزل به وما فيه من الأمر والنهى والشرح ، ولما قال ورقة بن نوفل للنبى صلى الله عليه وسلم : هذا (١) هو الناموس الذى كان يأتى موسى ، فسر الناموس بهذا وهذا وهما متلازمان

فصل

وأما قوله تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز * ولقد أرسلنا نوحًا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون * ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٥ - ٢٧] .

فهو حق كما قال تعالي وليس فى ذلك مدح للرهبانية ولا لمن بدل دين المسيح ، وإنما فيه مدح لمن اتبعه بما جعل الله فى قلوبهم من الرحمة والرأفة

(١) سبق تخريجه

حيث يقـــول : ﴿ وجعلنا فى قـــلوب الذين اتبعوه رأفة ورحـــمـــة ﴾ ثم قال ﴿ ورهبانيـة ابتدعوها ما كتبناها علـيهم ﴾ . أى وابتدعوا رهبانية مـا كتبناها عليهم ، وهذه الرهبـانية لم يشرعـها الله ولم يجعلهـا مشروعـة لهم ، بل نفى جعله عنهـا كما نفـى ذلك عما ابتدعه المشـركون بقـوله ﴿ ما جـعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصلية ولا حام ﴾ ، [سورة المائدة : ١٠٣] .

وهذا الجعل المنفى عن البدع هـو الجعل الذى أثبته للمشـروع بقوله تعالى ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجًا ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٨]

وقوله : ﴿ لكل أمة جعلنا منسكًاهم ناسكوه ﴾ [سـورة الحج : ٦٧] فالرهبانية ابتـدعوها لم يشـرعهـا الله ، وللناس في قـوله « رهبانيـة » قولان : أحـدهما : إنهـا منصوبة . يعنى ابتدعوها إمـا بفعل مضمر يفسره ما بعـده * أو يقال هذا الفعل يعمل فى المضمـر والمظهرَ كما هو قـول الكوفيين . حكاه عنهم ابن جرير وثعلب وغـيرهما ونظيره قوله : ﴿ يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعدلهم عذابًا أليما ﴾ [سورة الإنسـان : ٣١] ، وقوله : ﴿ فـريقًا هدى وفـريقًا حق عليـهم الضلالة ﴾ ، [سـورة الأعراف : ٣٠]

وعلى هذا القــول : فـلا تكون الرهبانيـة معطوفـة على الرأفة ، والرحـمة .فـالقول الثانى : أنها معطوفة عليها فيكون الله قـد جعل فى قلوبهم الرأفة والرحمة والرهبانية المتبدعة ، ويـكون هذا جعـلا خلقيـا كونيـا ، والجعل الكونى يتنـاول الخير والـشر كقوله تعالى : ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ﴾ [سورة القصص : ٤١] .

وعلى هذا القول : فلا مـدح للرهبانية لأنها فى القلوب فثبت أنه على التقديرين ليس فى القرآن مـدح ثم قال ﴿إلا ابتغاء رضوان الـله ﴾ [سورة الحديد : ٢٧]أى لم يكتب عليهم إلا ابتـغاء رضوان الله ، وابتـغاء رضوان الله بفعل مـا أمربه لا بما

يبتدع . وهذا يسمى استثناء منقطعًا كما في قوله : ﴿ ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ﴾ ، [سورة النساء : ١٥٧] وقوله ﴿ ياأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ﴾ ، [سورة النساء : ٢٩] .وقوله تعالى ﴿ لا يذوقون الموت إلا الموتة الأولى ﴾ ، [سورة الدخان : ٥٦ ﴾ . وقوله ﴿ فما لهم لا يؤمنون * وإذ قرئ عليهم القرآن لا يسجدون * بل الذين كفروا يكذبون * والله أعلم بما يوعون * فبشرهم بعذاب أليم * إلا الذين آمنوا وعلموا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴾ ، [سورة الانشاق : ٢٠ - ٢٥] ، وقوله تعالى : ﴿ لا يسمعون فيها لغوًا ولا تأثيما * إلا قيلا سلامًا ﴾ ، [سورة الواقعة : ٢٥ - ٢٦] . وقوله : ﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنًا إلا خطأً ﴾ [سورة النساء : ٩٢] .

وهذا أصح الأقوال في هذه الآية كما هو مبسوط في موضع آخر وذكر أنهم ابتدعوا الرهبانية ولا يجوز أن يكون المعنى أن الله كتبها عليهم ابتغاء رضوان الله فإن الله لا يفعل شيئًا ابتغاء رضوان نفسه ، ولا أن المعنى أنهم ابتدعوها ابتغاء رضوانه كما يظن هذا وهذا بعض الغالطين ، كما قد بسط في موضع آخر وذكر أنهم ابتدعوا الرهبانية ، وما رعوها حق رعايتها ، وليس في ذلك مدح لهم بل هو ذم ، وقال تعالي : ﴿ فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ﴾ [سورة الحديد ٢٧] وهم الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وكثير منهم فاسقون ، ولو أريد الذين آمنوا بالمسيح أيضًا فالمراد من اتبعه على دينه الذى لم يبدل ، والآن فكلهم يقولون : إنهم مؤمنون بالمسيح وبكل حال فلم يمدح سبحانه إلا من اتبع المسيح على دينه الذى يبدل ، ومن آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم لم يمدح النصارى الذين بدلوا دين المسيح ولا الذين لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم

فإن قيل : قد قال بعض الناس : إن قوله تعالى : ﴿ ورهبانية ابتدعوها ﴾ عطف

على رأفة ورحمة ، وأن المعنى أن الله جعل فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها وجعلوا الجعل شرعيًا ممدوحًا . قيل : هذا غلط لوجوه : منها : أن الرهبانية لم تكن فى كل من اتبعه . بل الذين صحبوه كالحواريين لم يكن فيهم راهب ، وإنما ابتدعت الرهبانية بعد ذلك بخلاف الرأفة والرحمة فإنها جعلت فى قلب كل من اتبعه .

ومنها : أنه أخبر أنهم ابتدعوا الرهبانية بخلاف الرأفة والرحمة ، فإنهم لم يبتدعوها ، وإذا كانوا ابتدعوها لم يكن قد شرعها لهم ، فإن كان المراد هو الجعل الشرعى الدينى لا الجعل الكونى القدرى فلم تدخل الرهبانية فى ذلك ، وإن كان المراد الجعل الخلقى الكونى فلا مدح للرهبانية فى ذلك .

ومنها : أن الرأفة والرحمة جعلها فى القلوب والرهبانية لا تختص بالقلوب ، بل الرهبانية تتضمن ترك المباحات من النكاح واللحم وغير ذلك ، وقد كان طائفة من الصحابة - رضوان الله عليهم - هموا بالترهب ، فأنزل الله تعالى نهيهم عن ذلك بقوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ ، [سورة المائدة : ٨٧] .

وثبت فى الصحيحين : (١) : أن نفرًا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قال أحدهم : أما أنا فأصوم ولا أفطر وقال الآخر : أما أنا فأقوم لا أنام . وقال الآخر : أما أنا فلا أتزوج النساء وقال الآخر : أما أنا فلا آكل اللحم .فقام النبى صلى الله عليه وسلم خطيبًا فقال : « ما بال رجال يقول أحدهم كذا وكذا لكنى أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء ، وآكل اللحم فمن رغب عن سنتى فليس منى »

---

(١) متفق عليه وسبق تخريجه .

وفي صحيح البخاري (١) أن النبي صلى الله وسلم رأى رجلا قائمًا في الشمس فقال : ما هذا ؟ قالوا هذا أبو إسرائيل نذر أن يقوم في الشمس ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم فقال « مروه فليجلس وليستظل وليتكلم وليتم صومه »

وثبت في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول في خطبته (٢) : « خير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة »

وفي السنن عن العرباض بن سارية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (٣) : « علكيم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، تمسكوا بها

---

(١) « صحيح »

رواه البخاري في كتاب « الأيمان والنذور » باب النذر فيما لا يملك وفي معصيتة « (٥٩٤/١١ح٦٧٠٤) ، ورواه أبو داود في كتاب « الأيمان والنذور » باب « النذر فيما لا يملك و في معصية » (١١٣/٩، ١١٤ح٣٢٦٦) ، ورواه ابن ماجه في كتاب « الكفارات » باب « من خلط في نذره طاعة بمعصية » (٦٩٠/١ح٢١٣٦)

(٢) « صحيح »

رواه مسلم في كتاب « الجمعة » باب « تخفيف الصلاة والخطبة » (٥٩٢/٢، ٥٩٣ح٨٦٧)

ورواه النسائي في كتاب « العيدين » باب « كيف الخطبة » (١٨٨/٣ ، ١٨٩)

ورواه ابن ماجة في « المقدمة » باب « اجتناب البدع والجدل » (١/١ح٤٥)

(٣) « صحيح » من حديث العرباض بن سارية

رواه أبو داود في كتاب « السنة » باب « في لزوم السنة » (٣٥٨/١٢: ٣٦٠ح٤٥٨٣)

ورواه الترمذي في كتاب « العلم » باب » الأخذ بالسنة واجتناب البدعة » (٤٣٨/٧: ٤٤١ح٢٨١٥ ، ٢٨١٦)

وقال : هذا حديث حسن « صحيح » قد روى ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن عبد الرحمن بن عمرو السلمي عن العرباض بن سارية عن النبي صلى الله عليه وسلم نحو هذا .»

ورواه ابن ماجه في « المقدمة » باب « اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين » (١٥/١، ١٦ح٤٢، ٤٣)

وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة »

قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

وقد بينت النصوص الصحيحة أن الرهبانية بدعة وضلالة ، وما كان بدعة وضلالة لم يكن هدى ، ولم يكن الله جعلها بمعنى أنه شرعها ، كما لم يجعل الله ما شرعه المشركون من البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام . فإن قيل : قد قال طائفة : معناها ما فعلوها إلا ابتغاء رضوان الله ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله .

وقالت طائفة : ما فعلوها أوما ابتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله . قيل : كلا القولين خطأ، فإن الرهبانية لم يكتبها الله عليهم ، بل لم يشرعها لا إيجاباً ولا استحباباً ، ولكن ذهبت طائفة إلى أنهم لما ابتدعوها كتب عليهم إتمامها وليس فى الآية ما يدل على ذلك فإنه قال : ﴿ ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٧] فلم يذكر أنه كتب عليهم نفس الرهبانية ولا إتمامها ولا رعايتها ، بل أخبر أنهم ابتدعوا بدعة ، وأن تلك البدعة لم يرعوها رعايتها . فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ فما رعوها حق رعايتها ﴾ [سورة الحديد ٢٧] يدل على أنهم لو رعوها حق رعايتها لكانوا ممدوحين . قيل : ليس فى الكلام ما يدل على ذلك ، بل يدل على أنهم - مع عدم الرعاية - يستحقون من الذم ما لا يستحقونه بدون ذلك ، فيكون ذم من ابتدع البدعة ولم يرعها حق رعايتها أعظم من ذم من رعاها ، وإن لم يكن واحد منهما محموداً ، بل مذموماً مثل نصارى بني تغلب ونحوها ممن دخل فى النصرانية ولم يقوموا بواجباتها ، بل أخذوا منها ما وافق أهواءهم فكان كفرهم وذمهم أغلظ ممن هو أقل شراً منهم ، والنار دركات كما أن الجنة درجات ، وأيضاً : فالله تعالي إذا كتب شيئاً على عباده لم يكتب ابتغاء رضوانه ، بل العباد يفعلون ما يفعلون ابتغاء رضوان الله ، وأيضاً فتخصيص الرهبانية بأنه كتبها ابتغاء رضوان الله دون غيرها تخصيص بغير موجب فإن ما كتبه

ابتداء لم يذكر أنه كتبه ابتغاء رضوانه فكيف بالرهبانية ؟ وأما قول من قال : ما فعلوها إلا ابتغاء رضوان الله ، فهذا المعنى لو دل عليه الكلام لم يكن فى ذلك مدح للرهبانية ، فإن من فعل ما لم يأمر الله به ، بل نهاه عنه مع حسن مقصده ، وغايته أن يثاب على قصده لا يثاب على مانهى عنه ، ولا على ما ليس بواجب ، ولا مستحب ، فكيف والكلام لا يدل عليه فإنه قال : ﴿ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله﴾ [سورة الحديد : ٢٧] لم يقل ما فعلوها إلا ابتغاء رضوان الله ، ولا قال : ما ابتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله ، ولو كان المراد ما فعلوها أوما ابتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله لكان منصوباً على المفعولية ، ولم يتقدم لفظ الفعل ليعمل فيه ولا نفى ابتداع ، بل أثبته لهم وإنما تقدم لفظ الكتابة فعلم أن القول الذى ذكرناه هو الصواب وأنه استثناء منقطع فتقديره وابتدعوا رهبانية ما كتبناها عليهم ، لكن كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله ، فإن إرضاء الله واجب مكتوب على الخلق ، وذلك يكون بفعل المأمور وبترك المحظور ، لا بفعل ما لم يأمر بفعله وبترك ما لم ينه عن تركه ، الرهبانية فيها فعل ما لم يأمر به وترك ما لم ينه عنه

فصل

وأما قوله تعالى ﴿ ومن أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾ [سورة آل عمران : ١١٣ - ١١٤] فهذه الآية لا اختصاص فيها للنصارى ، بل هى مذكورة بعد قوله تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون * لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون * ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلابحبل من الله وحبل من الناس ﴿وباءوا بغضب﴾ من الله وضربت

عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ ،[سورة آل عمران : ١١٠ ، ١١٢] ثم قال : ﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة ﴾ [سورة آل عمران : ١١٣] ومعلوم أن الصفة المذكورة في قوله ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ﴾ [سورة آل عمران ١١٢] صفة لليهود ، وكذلك قوله ﴿ ضربت عليهم الذلة والمسكنة ﴾ .

فقوله : عقب ذلك ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة ﴾ [سورة آل عمران ١٢٣] لا بد أن يكون متناولا لليهود ، ثم قد اتفق المسلمون والنصارى على أن اليهود مع كفرهم بالمسيح ومحمد صلى الله عليهما وسلم ليس فيهم مؤمن ، وهذا معلوم بالاضطراد من دين محمد صلى الله عليه وسلم . والآية إذا تناولت النصارى كان حكمهم في ذلك حكم اليهود . والله تعالي إنما أثنى على من آمن من أهل الكتاب ،كما قال تعالى: ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٩٩] . وقد ذكر أكثر العلماء أن هذه الآية الأخرى في آل عمران نزلت في النجاشي ونحوه ممن آمن بالنبى صلى الله عليه وسلم لكنه لم تمكنه الهجرة إلى النبى عليه وسلم ، ولا العمل بشرائع الإسلام لكون أهل بلده نصارى لا يوافقونه على إظهار شرائع الإسلام ، وقد قيل : إن النبى صلى الله عليه وسلم إنما صلى عليه لما مات ؛ لأجل هذا فإنه لم يكن هناك من يظهر الصلاة عليه في جماعة كثيرة ظاهرة ، كما يصلى المسلمون على جنائزهم

ولهذا جعل من أهل الكتاب مع كونه آمن بالنبي صلى الله عليه سلم بمنزلة من يؤمن بالنبى صلى الله عليه سلم في بلاد الحرب ولا يتمكن من الهجرة إلى دار الإسلام ، ولا يمكنه العمل بشرائع الإسلام الظاهرة ، بل يعمل ما يمكنه ويسقط عنه م

يعجز عنه ، كما قال تعالي ﴿ فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ [سورة النساء : ٩٢] . فقد يكون الرجل فى الظاهر من الكفار ، وهو فى الباطن مؤمن كما كان مؤمن آل فرعون .

قال تعالى : ﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبًا فعليه كذبه وإن يك صادقًا يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب * ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون : ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد * وقال الذى آمن : ياقوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب * مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلمًا للعباد * وياقوم إنى أخاف عليكم يوم التناد * يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد * ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب * الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتًا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار * وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحًا لعلى أبلغ الأسباب * أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبًا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب * وقال الذى آمن ياقوم اتبعونى أهدكم سبيل الرشاد * ياقوم إنما هذه الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار * من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب * وياقوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار* تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار * لا جرم أن ماتدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين

هم أصحاب النار * فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد * فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب * النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ ، [سورة غافر : ٢٨ - ٤٦] . فقد أخبر سبحانه وتعالى أنه حاق بآل فرعون سوء العذاب وأخبر أنه كان من آل فرعون رجل مؤمن يكتم إيمانه وأنه خاطبهم بالخطاب الذى ذكره فهو من آل فرعون باعتبار النسب والجنس والظاهر وليس هو من آل فرعون الذين يدخلون أشد العذاب ، وكذلك امرأة فرعون ليست من آل فرعون هؤلاء قال تعالى : ﴿ وضرب الله مثلاً الذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتًا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين ﴾ [سورة التحريم : ١١] . وامرأة الرجل من آله بدليل قوله ﴿ إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين * إلا امرأته قدرناها أنها لمن الغابرين ﴾ ، [سورة الحجر : ٥٩، ٦٠] وهكذا أهل الكتاب فيهم من هو فى الظاهر منهم ، وهو فى الباطن يؤمن بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ويعمل بما يقدر عليه ويسقط عنه ما يعجز عنه علماً وعملا ﴿ ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ [سورة البقرة ٢٨٦] وهو عاجز عن الهجرة إلى دار الإسلام ، كعجز النجاشى ، وكما أن الذين يظهرون الإسلام فيهم من هم فى الظاهر مسلمون ، وفيهم من هو منافق كافر فى الباطن إما يهودى . وإما نصرانى . وإما مشرك وإما معطل .

كذلك فى أهل الكتاب والمشركين ، من هو فى الظاهر منهم ، وهو فى الباطن من أهل الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، يفعل ما يقدر على علمه وعمله ، ويسقط عنه ما يعجز عنه من ذلك .

وفى حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال : (١) لما مات النجاشى قال

(١) رواه البزار كما فى كشف الأستار ، لا /٣٩٢ح٨٣٢)

وقال الهيثمى فى « المجمع » (٣٨/٣) : « رواه البزار والطبرانى فى الأوسط ، ورجال الطبرانى ثقات »

وعزاه السيوطى فى الدر المنثور ، (١١٣/٢) للبزار وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه .

النبى صلى الله عليه وسلم : « استغفروا لأخيكم » فقال بعض القوم : تأمرنا أن نستغفر لهذا العلج ، ويموت بأرض الحبشة . فنزلت :﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٩٩] وذكره ابن أبى حاتم وغيره بأسانيدهم ، وذكره حماد بن سلمة عن ثابت عن الحسن البصرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (١) : « استغفروا لأخيكم النجاشى » فذكر مثله . وكذلك ذكر طائفة من المفسرين عن جابر وابن عباس وأنس وقتادة أنهم قالوا (٢) : نزلت هذه الآية فى النجاشى ملك الحبشة ، واسمه أصحمة . وهو بالعربية عطية وذلك أنه لما مات نعاه جبريل للنبى صلى الله عليه وسلم فى اليوم الذى مات فيه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم . فقالوا : ومن هو ؟ قال : النجاشى » فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البقيع . وزاد بعضهم : وكشف له من المدينة إلى أرض الحبشة ، فأبصر سرير النجاشى وصلى عليه ، وكبر أربع تكبيرات ، واستغفر له ، وقال لأصحابه : « استغفروا له » فقال المنافقون : أبصروا إلى هذا يصلى على علج حبشى نصرانى لم يره قط : وليس على دينه . فأنزل الله تعالى : ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليهم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٩٩] .

وقد ذهبت طائفة من العلماء (٣) إلى أنها نزلت فيمن كان على دين المسيح عليه السلام إلى أن بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم فآمن به ، كما نقل ذلك عن

---

(١) عزاه السيوطى فى « الدر المنثور » (١١٣/٢) لعبد بن حميد .

(٢) روى ابن جرير هذه الأقوال فى تفسيره (١٤٦/٤)

وعزاها السيوطى فى الدر المنثور » (١١٣/٢) لعبد بن حميد وابن جرير .

(٣) ذكرت بعض هذه الأقوال فى « الدر المنثور » (١١٣/٢) ، وابن جرير فى تفسيره » (١٤٧،١٤٦/٤)

عطاء . وذهبت طائفة إلى أنها نزلت فى مؤمنى أهل الكتاب كلهم .

والقول الأول أجود . فإن من آمن بمحمد صلى عليه وسلم ، وأظهر الإيمان به ، وهو من أهل دار الإسلام ، يعمل بما يعمله المسلمون ظاهراً وباطنا فهذا من المؤمنين ، وإن كان قبل ذلك مشركا يعبد الأوثان ، فكيف إذا كان كتابيًا ؟ وهذا مثل عبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسى وغيرهم ، وهؤلاء لا يقال : إنهم من أهل الكتاب ، كما لا يقال فى المهاجرين والأنصار : إنهم من المشركين وعباد الأوثان ، ولا ينكر أحد من المنافقين ، ولا غيرهم ، أن يصلى على واحد منهم ، بخلاف من هو فى الظاهر منهم ، وفى الباطن من المؤمنين وفى بلاد النصارى من هذا النوع خلق كثير ، يكتمون إيمانهم . إما مطلقا وإما يكتمونه عن العامة ويظهرونه لخاصتهم ، وهؤلاء قد يتناولهم قوله تعالي : ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله ﴾ [سورة آل عمران :١٩٩] ـ فهؤلاء لا يدعون الإيمان بكتاب الله ورسوله لأجل مال يأخذونه ، كما يفعل كثير من الأحبار والرهبان ، الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدونهم عن سبيل الله ، فيمنعونهم من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم .

وأمـــا قوله : ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾ ، [سورة آل عمران : ١١٣ – ١١٤] فهذه الآية تتناول اليهود أقوى مما تتناول النصارى ، ونظيره قوله تعالى ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٥٩] هذا مدح مطلق لمن تمسك بالتوراة ، ليس فى ذلك مدح لمن كذب المسيح ، ولا فيها مدح لمن كذب محمداً صلى الله عليه وسلم .

وهذا الكلام تفسيره سياق الكلام ، فإنه قال تعالى: ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ـ ثم قال تعالي : ﴿ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾ ، [سورة آل عمران : ١١٠] فقد جعلهم نوعين : نوعًا مؤمنين ونوعًا فاسقين وهم أكثرهم لقوله

تعالى : ﴿ منهم المؤمنون ﴾ يتناول من كان مومنا قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، كما يتناولهم قوله تعالي : ﴿ وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة - إلى قوله - وكثير منهم فاسقون ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٧] . وكـــذلك قوله تعالى ﴿ ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٦]

وقوله عن إبراهيم الخليل ﴿ وباركنا عليه وعلي إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ ، [سورة الصافات : ١١٣] . ثم لما قال ﴿ وأكثرهم الفاسقون ﴾ [سورة آل عمران : ١١٠] قال ﴿ لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون * ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكـانوا يعتدون ﴾ ، [سورة آل عمران : ١١١ - ١١٢] . وضرب الذلة عليهم أينما ثقفوا ومباؤهم بغضب من الله - الآية وما ذكر معه من قتل الأنبياء بغير حق وعصيانهم واعتدائهم كان اليهود متصفين به قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى في سورة البقرة ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال : أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بإنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ - ثم قال بعد ذلك - ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى و الصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ، [سورة البقرة : ٦١ ، ٦٢] .

فتناولت هذه الآية من كان من أهل الملل الأربع متمسكا بها قبل النسخ

تبديل ، كذلك آية آل عمران لما وصف أهل الكتاب بما كانوا متصفا به أكثرهم قبل محمد صلى الله عليه وسلم من الكفر ، قال : ﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾ [سورة آل عمران : ١١٣ - ١١٤]

وهذا يتناول من كان متصفا منهم بهذا قبل النسخ ، فإنهم كانوا على الدين الحق الذى لم يبدل ولم ينسخ ، كما قال فى الأعراف : (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون - رلى قوله - وقطعناهم فى الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون * فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون * والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٥٩ - ١٧٠] .

وقد قال تعالى مطلقا : ﴿ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾، [سورة الأعراف : ١٨١] .

فهذا خبر من الله عمن كان متصفا بهذا الوصف قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن أدرك من هؤلاء محمداً صلى الله عليه وسلم . فآمن به كان له أجره مرتين

فصل

قالوا ثم وجدناه يعظم إنجيلنا ، ويقدم صوامعنا ، ويشرف مساجدنا ويشهد بأن الله يذكر فيها كثيراً ، وذلك مثل قوله : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ﴾ ، [سورة الحج : ٤٠] .

والجـواب : أن فيـها ذكر الصـوامع والبيع ، وأما قـوله : ﴿ ويذكر فيـها اسم الله كثيرا ﴾ [سورة الحج : ٤٠] فإنما ذكره عقب ذكر المساجد ، والمساجد للمسلمين وليس المراد بها كنائس النـصارى ، فإنما هى البيع . ثم قـوله : ﴿ يذكر فيـها اسم الله كثيراً﴾ [سـورة الحج : ٤٠] إما أن يكون مختصا بالمسـاجد ، فلا يكون فى ذلك إخبار بأن اسم الله يذكر كثيراً فى الصوامع والبيع . وإما أن يكون ذكر اسم الله فى الجميع ، فلا ريب أن الصوامع والبيع قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم كان فيهـامن يتبع دين المسيح الذى لم يبـدل ويذكر فيهـا اسم الله كثيراً . وقد قـيل . إنها بعد النسخ والتبديل يذكر فيها اسم الله كثيراً وإن الله يحب أن يذكر اسمه .

قال الضحاك : إن الله يحب أن يذكر اسمه وإن كان يشرك به يعنى :أن المشرك به خير من المعطل الجاحد الذى لا يذكر اسم الله بحال .

وأهل الكتـاب خيـر من المشـركين ، وقـد ذكـرنا أنه لما اقـتـتل فـارس والروم وانتصـرت الفرس ، سـاء ذلك أصحاب رسـول الله صلى الله عليه وسـلم وكرهوا انتصـار الفرس على النصـارى ؛ لأن النصارى أقرب إلى دين الـله من المجوس والرسل بعثوا بتحـصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، وتقـدم خير الخيرين على أدناهما حـسب الإمكان ، ودفع شر الشرين بخيـرهما ، فهدم صـوامع النصارى وبيعـهم فساد إذا هدمهـا المجوس والمشركون . وأمـا إذا هدمها المسلمون وجـعلوا أما كنها مسـاجد يذكر فيها اسم الله كـثيراً ، فهذا خيـر وصلاح وهذه الآية ذكرت فى سيـاق الإذن المسلمين بالجهاد بقـوله تعالى : ﴿ أذن للذين يقاتـلون بأنهم ظلموا وأن الله على نـصـرهم لقـدير ﴾ ، [سـورة الحج : ٣٩] . وهذه الآيـة أول آية نزلت فى الجـهــــاد ، ولهـذا قـــال : ﴿ الذين أخــرجـوا من ديارهـــم بغيـر حق إلا أن يقـــولوا ربنـــا الله ﴾ [ســورة الحج : ٤٠] . ثم قـــال : ﴿ ولــــولا دفـــع الله الناس بعضهم ببعـــض ﴾ ، [سورة الحج : ٤٠] ، فيـدفـع بالمؤمنين

الكفار ويدفع شر الطائفتين بخيرهما ، كما دفع المجوس بالروم والنصارى ، ثم دفع النصارى بالمؤمنين أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا كما قال فى سورة البقرة : ﴿ وقتل داوود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٥١] .

وأما التقديم فى اللفظ ، ، فإنه يكون للانتقال من الأدنى إلى الأعلى ، كقوله تعالى : ﴿ قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ ، [سورة الأعراف : ٣٣] . وقوله : ﴿ يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه ﴾ ، [سورة عبس ٣٤ - ٣٦] . وقوله : ﴿ و الذاريات ذرواً * فالحاملات وقراً * فالجاريات يسراً* فالمقسمات أمراً ﴾ ، [سورة الذاريات : ١ - ٤] ونظائره متعددة . وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ﴾ ، [سورة الحج : ٤٠]

بين سبحانه أنه لولا دفع الناس بعضهم ببعض لهدمت مواضع العبادات ،وهدمها فساد إذ هدمها من لا يبدلها بخير منها وأدناها هى الصوامع فإن الصومعة تكون لواحد أو طائفة قليلة فبدأ بأدنى المعابد ، وختم بأشرفها وهى المساجد التى يذكر فيها اسم الله كثيراً ففى الجملة حكم هذه المعابد حكم أهلها ، وأهلها قبل النسخ والتبديل مؤمنون مسلمون ، وهدم معابد المؤمنين المسلمين فساد ، وبعد النسخ والتبديل إذا غلب أهل الكتاب من هو شر منهم ، كالمجوس والمشركين ، وهدموا معابدهم وكان ذلك فساداً وإذا هدمها من هو خير منهم كأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأبدلوها مساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولا يشرك به ويذكر فيها الإيمان بجميع كتبه ورسله ، كان ذلك صلاحا لا فساداً ، ولهذا أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن

يتخذ المساجد مواضع معابد الكفار ، كما كان لثقيف أهل الطائف معبد يعبدون فيه اللات ، التي قال الله فيها ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ﴾ [سورة النجم : ١٩] فأمر النبي صلى اله عليه وسلم أن يهدم ذلك المعبد ، ويتخذ مكانه المسجد الذى يعبد الله وحده فيه ، فإن المساجد هى بيوت الله فى الأرض قال تعالى : ﴿ قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأ كم تعودون ﴾ [سورة الأعراف : ٢٩]

وقال تعالى : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ [سورة الجن : ١٨]

وقال تعالى : ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم - الآية إلى قوله - المهتدين ﴾ ، [سورة التوبة : ١٧ - ١٨] .

وقال تعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره - الآية إلى قوله - بغير حساب ﴾ ، [سورة النور : ٣٥ - ٣٨] ، ثم لما ذكر المؤمنين ذكر الكفار من أهل الكتاب والمشركين ، فذكر أهل الجهل المركب والبسيط ، فقال تعالى : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب * أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ ، [سورة النور : ٣٩ ، ٤٠] .

فقد تبين أنه ليس لهم حجة فى شئ مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، بل ما جاء به حجة عليهم من وجوه متعددة .

فصل

قالوا : وهذا وغيره أوجب لنا من التمسك بديننا ، وأن لا نهمل ما معنا ، ولا

نرفض مذهبنا ، ولا نتبع غير السيد المسيح ، كلمة الله ، وروحه وحوارييه الذين أرسلهم إلينا . والجواب : أنهم احتجوا بحجتين باطلتين .

أحدهما : أن محمداً لم يرسل إليهم بل إلى العرب ؛ وقد تبين أن الاحتجاج بها من أعظم الكذب والافتراء على محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه لم يقل قط : إنى لم أرسل إلى أهل الكتاب ، ولا قال قط : إنى لم أرسل إلا إلى العرب ، بل نصوصه المتواترة عنه وأفعاله تبين أنه مرسل إلى جميع أهل الأرض ، أميهم وكتابيهم .

والحجة الثانية : قولهم : إن محمداً صلى الله عليه وسلم أثنى على دين النصارى بعد التبديل والنسخ ، وهى أيضاً أعظم كذباً عليه من التى قبلها ، فكيف يثنى عليهم وهو يكفرهم فى غير موضع من كتابه ، ويأمر بجهادهم وقتالهم ، ويذم المتخلفين عن جهادهم غاية الذم ، ويصف من لم ير طاعته فى قتالهم بالنفاق والكفر ، ويذكر أنه يدخل جهنم ، وهذا كله يخبر به عن الله عز وجل ويذكره تبليغاً لرسالة ربه ، وإنما يضاف إليه لأنه بلغه وأداه ، لا لأنه أنشأه وابتداه ، كما قال تعالى : ﴿ إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون * تنزيل من رب العالمين * ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين * وإنه لتذكرة للمتقين * وإنا لنعلم أن منكم مكذبين * وأنه لحسرة على الكافرين * وإنه لحق اليقين * فسبح باسم ربك العظيم ﴾ ، [سورة الحاقة : ٤٠ - ٥٢] .

وأما ثناء الله ورسوله على المسيح وعلى من اتبعه ، وكان على دينه الذى لم يبدل ، فهذا حق وهو لا ينافى وجوب اتباع محمد صلى الله عليه وسلم على من بعث إليه ، فلو قدر أن شريعة المسيح لم تبدل ، وأن محمداً أثنى على كل من اتبعها ، وقال مع ذلك إن الله أرسلنى إليكم ، لم يكن متناقضاً ، وإذا كفر من لم يؤمن به لم يناقض ذلك ثناؤه عليهم قبل أن يكذبوه .

فكيف وهو إنما مدح من اتبع ديناً لم يبدل ؟ وأما الذين بدلوا دين المسيح فلم يمدحهم بل ذمهم ، كما قال : ﴿ ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون ﴾ ، [سورة المائدة : ١٤] .

وقد قدمنا أن النصارى كفروا كما كفرت اليهود ، كفروا بتبديلهم ما فى الكتاب الأول وكفروا بتكذيبهم بالكتاب الثانى . وأما من لم يبدل الكتاب أو أدرك محمداً فآمن به ، فهولاء مؤمنون ، ومما يبين ذلك : أن تعظيم المسيح للتوراة واتباعه لها ، وعمله بشرائعها أعظم من تعظيم محمد صلى عليه وسلم للإنجيل ، ومع هذا فلم يكن ذلك مسقطاً عن اليهود وجوب اتباعهم للمسيح ، فكيف يكون تعظيم محمد صلى الله عليه وسلم للانجيل مسقطاً عن النصارى وجوب اتباعه ؟

فصل

وأما قولهم : وحوارييه الذين أرسلهم إلينا أنذرونا بلغاتنا ، وسلموا إلينا ديننا الذين قد عظموا فى هذا الكتاب ، بقوله فى سورة الحديد : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٥] .

وقال فى سورة البقرة : ﴿ فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ ، [سورة البقرة : ١٢٣] . فأعنى بقوله أنبياءه المبشرين ورسله ينحو بذلك الحواريين الذين داروا فى سبعة أقاليم العالم ، وبشروا بالكتاب الواحد ، الذى هو الإنجيل الطاهر ؛ لأنه لو عنى عن إبراهيم وداود ، وموسى ، ومحمد ، لكان قال : معهم الكتب ، لأن كل واحد منهم جاء بكتاب دون غيره ، ولم يقل : إلا الكتاب الواحد ، لأنه ما أتى جماعة مبشرين

بكتاب واحد غير الحواريين الذين أتوا بالإنجيل الطاهر . وجاء أيضاً فى الكتاب : ﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ [سورة يس : ٢٠] - يعنى الحواريين - لم يقل : رسول ، إنما قال : المرسلين ، والجواب من وجوه :

أحدها : أنه ليس فيما ذكروا ولا فى غيره ما يوجب تكذيب الرسول الذى أرسل إليكم أو إلى غيركم وتمسككم بدين مبدل منسوخ . كما أنه ليس فيما يعظم به موسى والتوارة ومن اتبع موسى ما يوجب اليهود تكذيب الرسول الذى أرسل إليهم ، وتمسكهم بدين مبدل منسوخ .

الثانى : أن قولهم : ولا تتبع غير المسيح وحوارييه ، قول باطل ، فإنهم ليسوا متبعين ، لا للمسيح ولا لحوارييه ، لوجهين :

أحدهما : أن دينهم مبدل ليس كله عن المسيح والحواريين . بل أكثر شرائعهم أو كثير منها ليست عن المسيح والحواريين .

الثانى : أن المسيح بشر بأحمد ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا قال عيسى ابن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾ . [سورة الصف : ٦] ، فإذا لم يتبعوا أحمد كانوا مكذبين للمسيح ، وعندهم من البشارات عن المسيح وغيره من الأنبياء بأحمد ، ما هو مبسوط فى موضع آخر ، كما سيأتى إن شاء الله .

وإنما المقصود هنا منع احتجاجهم بشئ مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وبيان أنه حجة عليهم لا لهم ، إذ زعموا أن فى بعضه حجة لهم .

الثالث : أن قولهم عن الحواريين : إنهم الرسل الذين عظموا فى هذا الكتاب قول باطل ، فسروا به القرآن تفسيراً باطلا من جنس تفسيرهم ﴿ الذين أنعمت عليهم ﴾

بالنصارى . وتفسيرهم ﴿ بإذنى ﴾ أى : ينفخ فيه فيكون طيراً بإذن اللاهوت الذى هو كلمة الله المتحدة فى الناسوت ، وتفسيرهم ﴿آلم ذلك الكتاب ﴾ [سورة البقرة : ١ ، ٢]بالإنجيل ، وتفسيرهم ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ ، [سورة البقرة : ٣] . هم النصارى ، وتفسيرهم قوله : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ﴾ ، [سورة العنكبوت : ٤٦] . هم النصارى . ﴿ إلا الذين ظلموا ﴾ هم اليهود . وأمثال ذلك من تفسيرهم القرآن ، بمثل ما يفسرون به التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، من التفاسير التى هى من تحريف الكم عن مواضعه والإلحاد فى ايات الله ، والكذب على أنبيائه بما يظهر أنه كذب على الأنبياء لكل من تدبر ذلك . وبطلان ذلك يظهر من وجوه .

أحدها : أن الله قال : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد و منافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز ﴾ [سورة الحديد : ٢٥] .

وقوله تعالى : ﴿ لقد أرسلنا ﴾ اسم جمع مضاف ، يعم جميع من أرسله الله تعالى .

الثانى : أن أحق الرسل بهذا الحكم الرسل الذين سماهم الله تعالى فى القرآن كما قال تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً * ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما * رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما ﴾ [سورة النساء : ١٦٣ - ١٦٥].

وقال تعالى فى سورة الشعراء : ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين * إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وماأسالكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين * فاتقوا الله وأطيعون ﴾ ، [سورة الشعراء : ١٠٥ - ١١٠] .

وقوله : ﴿ كذبت عاد المرسلين * إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ ، [سورة الشعراء : ١٢٣ - ١٢] .

وقوله : ﴿ كذبت ثمود المرسلين * إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ ، [سورة الشعراء : ١٤١ - ١٤٥] .

وقوله : ﴿ كذبت قوم لوط المرسلين * إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العلمين ﴾ ، [سورة الشعراء : ١٦٠ - ١٦٤] .

وقوله : ﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين * إذ قال لهم شعيب ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العلمين ﴾ ، [سورة الشعراء : ١٧٦ - ١٨٠] .

وقال تعالى : ﴿ إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً ﴾ ، [سورة المزمل : ١٥ ، ١٦] .

وقال تعالى : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة سولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ﴾

[سورة غافر : ٥].

وقال تعالى : ﴿ لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ ، [سورة المؤمنون : ٢٣] . وذكر قصته ثم قال من بعد ذلك : ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين * فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ ، [سورة المؤمنون : ٣١ - ٣٢] . ثم لما قضى قصته قال تعالى : ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين * ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون * ثم أرسلنا رسلنا تترا كل ما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون * ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوماً عالين ﴾ ، [سورة المؤمنون : ٤٢ - ٤٦] .

فذكر إرسال رسله تترى - أى متواترة - ثم ذكر إرسال موسى ، وهارون ، وإرسال موسى وهارون قبل إرسال المسيح بمدة طويلة .

وقال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الإرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ ، [سورة النحل : ٣٦] . فهذا إخبار منه سبحانه وتعالى بأنه بعث فى كل أمة رسولا يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وقال تعالى فى المسيح صلوات الله عليه : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٥] فأخبر أن المسيح رسول من هولاء الرسل ﴿ قد خلت من قبله الرسل ﴾ وقبله قد بعث فى كل أمة رسولا . وقد روى فى حديث أبى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم (١) « أن الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألف

---

(١) رواه أحمد (٥/٢٦٥ ، ٢٦٦)

نبى ، وأن الرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر » .وبعض الناس يصحح هذا الحديث وبعضهم يضعفه ، فإن كان صحيحاً ، فالرسل ثلثمائة وثلاثة عشر ، وإن لم تعرف صحته أمكن أن يكونوا بقدر ذلك وأن يكونوا أكثر ، كما يمكن أن يكونوا أقل ، فإن الله أخبر أنه بعث فى كل أمة رسولا، وقال تعالى : ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وإن من أمة الا خلا فيها نذير ﴾ [سورة فاطر : ٢٤] .

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (١) : « أنتم توفون سبعين أمة أنتم أكرمها وأفضلها على الله » وهو حديث جيد ، وقال تعالى فى سورة الزمر : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا ؛ بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ ، [سورة الزمر : ٧١] .

وقال تعالى فى سورة تبارك : ﴿ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ﴾ ، [سورة الملك : ٦] .

وقال تعالى : ﴿ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا : بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شئ إن أنتم إلا فى ضلال كبير ﴾ [سورة الملك : ٨ - ٩] .

---

(١) رواه أحمد (٤٤/٤)، (٣/٥)

والحاكم (٨٤/٤٠) وقال : هذا حديث « صحيح » الإسناد ولم يخرجاه ، وقد تابع سعيد بن إياس الجريرى بهذا فى رواية عن حكيم بن معاوية وأتى بزيادة فى المتن » ووافقه الذهبى .

ورواه الطبرانى فى « الكبير » (٤١٩/١٩ ح١٠١٢)

ورواه أيضاً برقم (١٠٢٣ ، ١٠٣٠ ، ١٠٣٦)

وقال الهيثمى فى « المجمع » (١٠، ٤٠٣) : « رواه الطبرانى وفيه حماد بن عيسى الجهنى وهو ضعيف »

فهذا إخبار منه بأن كل فوج يلقى فى النار ، وقد جاءهم نذير كما قال تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ ، [سورة الإسراء : ١٥] . وقد قال ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ ، [سورة النساء : ١٦٥] .

وقال تعالى : ﴿ يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم إنهم كانوا كافرين ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٣٠] .

فقد أرسل الله قبل المسيح رسلا كثيرين إلى جميع الأمم ، فكيف يجوز أن يدعى أن المراد بقوله : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ﴾ هم الحواريون فقط ، الذين أرسلهم المسيح ، مع أن الحواريين رسل المسيح بمنزلة رسل موسى ، وإبراهيم ، ورسل محمد صلى الله عليه وسلم . ومن أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبت على الناس طاعته فيما يبلغه عن رسول الله ، كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : (١) « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ، ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن عصى أميرى فقد عصانى » .فبين أن أميره إنما

---

(١) « متفق عليه» عن «أبى هريرة »

رواه البخارى فى كتاب « الجهاد والسير » باب « يقاتل من وراء الأمير ويتقى به » (٦/١٣٥ح٢٩٥٧)

ورواه أيضاً برقم (٧١٣٧)

ورواه مسلم فى كتاب « الإمارة » باب « وجوب طاعة الأمراء ... »

(٣/١٤٦٦،١٤٦٧ح١٨٣٥)

ورواه النسائى فى كتاب « البيعة » باب «الترغيب فى طاعة الإمام » (٧/١٥٤)

ورواه أيضاً فى الكبرى فى كتاب « السير » باب « تأويل قوله جل ثناؤه وأولى الأمر منكم » (٥/٢٢٢ح٨٧٢٦،٨٧٢٧)

ورواه ابن ماجة فى كتاب « الجهاد » باب « طاعة الإمام » (٢/٩٥٤ح٢٨٥٩)

تجب طاعته فى المعروف الذى أمر به رسوله . لا فى كل ما يأمر به ، ففى الصحيحين عن على عليه السلام :(١) « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث جيشاً ، وأمر عليهم رجلا ، وأمرهم أن يسمعوا ويطيعوا فأغضبوه . فقال : اجمعوا لى حطباً فجمعوا له . ثم قال : أوقدوا ، نارا ، فأوقدوا نارا ، ثم قال : الم يأمركم رسول الله أن تسمعوا لى وتطيعوا ؟ قالوا : بلى . قال : فادخلوها ، فنظر بعضهم إلى بعض فقالوا إنما فررنا إلى رسول الله من النار ، فكانوا كذلك حتى سكن غضبه ، فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ، وقال : لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً ، وقال : لا طاعة فى معصية الله ، إنما الطاعة فى المعروف » وفى الصحيحين عن عبد الله بن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (٢) : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما

---

(١) « متفق عليه »
رواه البخارى فى كتاب « المغازى » باب « سرية عبد الله بن حذافة ...» (٦٥٥/٧ح٤٣٤٠)
ورواه أيضاً برقم (٧١٤٥،٧٢٥٧)
ورواه مسلم فى كتاب « الإمارة » باب وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية ..» (١٤٦٩/٣، ١٤٧٠ح١٨٤٠).
ورواه أبو داود فى كتاب « الجهاد » باب «فى الطاعة » (٢٨٩/٧ح٢٦٠٨)
ورواه النسائى فى « البيعة » باب « جزاء من مر بمعصية فأطاع » (١٥٩/٧ ، ١٦٠) ورواه أيضاً فى الكبرى فى كتاب « السير » « الطاعة فى المعروف » (٢٢١/٥ح٨٧٢١)

(٢) « متفق عليه »
ورواه البخارى فى كتاب « الجهاد » باب « السمع والطاعة للإمام » (١٣٥/٦ح٢٩٥٥) ورواه أيضاً برقم (٧١٤٤) ، ورواه مسلم فى كتاب « الإمارة » باب « وجوب طاعة الأمراء (١٤٦٩/٣ح١٨٣٩) ورواه أبو داود فى كتاب « الجهاد » باب « ما جاء لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » (٣٦٥/٥ح١٧٥٩) ، وقال : « وفى الباب عن على وعمران بن حصين والحكم بن عمرو الغفارى » هذا حديث حسن صحيح » ،ورواه النسائى فى كتاب « البيعة » باب« جزاء من أمر بمعصية فأطاع » (١٦٠/٧) ورواه أيضاً فى الكبرى فى كتاب « السير » باب« الطاعة فى المعروف » (٢٢٠/٥ح٨٧٢٠) ، ورواه ابن ماجة فى كتاب « الجهاد » باب « لا طاعة فى معصية الله » (٩٥٦/٢ح٢٨٦٤)

أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية فلا سمع وطاعة » . وفى مسلم عن أم الحصين سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع يقول : (١) « ولو استعمل عليكم عبد أسود يقودكم بكتاب الله فأستمعوا وأطيعوا » . وفى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال (٢) : « فليبلغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أوعى له من سامع » وفى صحيح البخارى عن عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (٣) : « بلغوا عنى ولو آية وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا

(١) « صحيح »
ورواه مسلم فى كتاب « الإمارة » باب « وجوب طاعة الأمراء ...»(٣/١٤٦٨ح١٨٣٨)
ورواه أيضاً برقم (١٢٩٨)
ورواه النسائى فى كتاب « البيعة » باب « الحصن على طاعة الإمام » (٧/١٥٤)
ورواه ابن ماجة فى كتاب « الجهاد » باب « فى طاعة الإمام» (٢/٩٥٥ح٢٨٦١)

(٢) « متفق عليه »
ورواه البخارى فى كتاب « العلم » باب قول النبى صلى الله عليه وسلم رب مبلغ أوعى له من سامع »
(١/١٩٠ح٦٧)
ورواه أيضاً برقم (١٠٥، ١٧٤١، ٣١٩٧، ٤٤٠٦، ٤٦٦٢، ٥٥٥٠، ٧٠٧٨، ٧٤٤٧)
ورواه مسلم فى كتاب « الحج » باب « تحريم مكة وصيدها ...»
(٢/٩٨٧، ٩٨٨ح١٣٥٤)
ورواه أيضاً برقم (١٦٧٩)
ورواه النسائى فى الكبرى كتاب « الحج » باب « الخطبة يوم النحر» (٢/٤٤٢، ٤٤٣ح٤٠٩٣)
ورواه ابن ماجه فى « المقدمة » باب « من بلغ علماً » (١/٨٥ح٢٣٣)

(٣) « صحيح »
رواه البخارى فى كتاب « أحاديث الأنبياء » باب « ما ذكر عن بنى إسرائيل » (٦/٥٧٢ح٣٤٦١)
ورواه الترمذى فى كتاب « العلم » باب « ما جاء فى الحديث عن بنى إسرائيل » (٧/٤٣١، ٤٣٢ح٢٨٠٦)

حرج ، ومن كذب على متعمدا فليتبوء مقعده من النار » وفى السنن عنه أنه قال (١) : « نصر الله امرأ استمع فسمع منا حديثا ويبلغه إلى من لم يسمعه ، فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » .

فالحواريون تبليغهم عن المسيح كسائر أصحاب الأنبياء فى تبليغهم عنهم ، وقال الله تعالى فى كتابه: ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ [سورة النساء : ٥٩] وأولوا الأمر هم العلماء والأمراء فإذا أمروا بما أمر الله به ورسوله ، وجبت طاعتهم ، وإن تنازع الناس فى شئ وجب رده إلى الله والرسول ولا يرد إلى أحد دون الرسل الذين أرسلهم الله ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ [سورة البقرة : ٢١٣] والكتاب اسم جنس لكل كتاب أنزله الله وليس المراد به كتاباً معيناً ، كما قال الله تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾ ، [سورة البقرة : ١٧٧] . ولم يرد بهذا أن يؤمن بكتاب معين واحد ، بل هذا يتضمن الإيمان بالتوراة والإنجيل والقرآن وكل ما أنزله الله من كتاب ، كما قال فى سورة الشورى : ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم ﴾ . [سورة الشورى : ١٥] . فأمره الله تعالى أن يؤمن بكل ما أنزله الله

---

(١) سبق تخريجه .

من كتاب ، وأن يعدل بين من بلغتهم رسالته ، كما قال : ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ ،[سورة الأنعام : ١٩] .

وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (١) « بلغوا عنى ولو آية » فكل من بلغه القرآن ، فهو مخاطب به يتناوله خطاب القرآن . وقال تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٨٥] . وفى القراءة الأخرى وكتابه ورسله وكلا القراءتين موافقة للأخرى وقوله تعالى : ﴿ كان الناس أمة واحدة ﴾ ، [سورة البقرة : ٢١٣] . أى فاختلفوا بعد ذلك كما قال فى السورة الأخرى : ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا فلما اختلف بنو آدم بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب ﴾ .

وذلك يتناول كل كتاب أنزله الله ليحكم الله ويحكم كتابه بين الناس بالحق فالحاكم بين الناس هو الله تعالى وحكمه فى كتبه المنزلة ، فلهذا أمر الله المؤمنين إذا تنازعوا فى شئ أن يردوه إلى الله والرسول . والرد إلى الله هو الرد إلى كتابه ، فأمرهم بالرد إلى كتابه ورسوله . وقد ذم تعالى من لم يتحاكم إلى كتابه ورسوله . فقال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً * وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً * فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً *أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغاً * وما أرسلنا من رسول إلا

---

(١) سبق تخريجه .

ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما * فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ ، [سورة النساء : ٦٠ - ٦٤] .

فقد تبين أن الرسل الذين ذكرهم الله فى قوله : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ﴾ يتناول الرسل الذين أرسلهم الله كلهم ، ومن أحقهم بذلك الرسل الذين أخبر فى القرآن أنه أرسلهم إلى عباده ؛ فظهر بطلان قولهم أنهم الحواريون .

الوجه الثالث : أنه قال : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٥] . فذكر أنه أنزل الحديد أيضاً ليتبين من يجاهد فى سبيل الله بالحديد . والنصارى يزعمون أن الحواريين والنصارى لم يؤمروا بقتال أحد بالحديد .

الوجه الرابع : أنه قال بعد ذلك : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون * ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٦- ٢٧] . وإخباره بإرسال نوح وإبراهيم بعد قوله لقد أرسلنا رسلنا بالبينات من باب ذكر الخاص بعد العام ، وبيان ما اختص به الخاص من الأحكام التى امتاز بها عن غيره مما دخل فى العام كما يأمر السلطان العسكر بالجهاد ويأمر فلاناً وفلاناً بأن يفعلوا كذا وكذا ، ومثل أن أرسل رسله إلى فلان وفلان ، وأرسل إليهم فلاناً وأمره بكذا وكذا ، قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب ﴾ . فنوح هو أبو الآدميين الذين حدثوا بعد الطوفان ، فإن الله أغرق ولد آدم إلا أهل السفينة ، وقال فى نوح :

﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ وإبراهيم جعل الأنبياء بعده من ذريته ، كما قال تعالى فى إبراهيم ﴿ ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ [سورة العنكبوت : ٢٧] ثم قال بعد أن ذكر إرسال نوح وإبراهيم وإنه جعل فى ذريتهما النبوة والكتاب ﴿ ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل ﴾ [سورة الحديد : ٢٧] فأخبر أنه قفى على آثارهم برسله وقفى بعيسى ابن مريم ، وآتاه الإنجيل ، وهؤلاء رسل قبل المسيح ، وآخرهم المسيح ولم يذكر أنه أرسل أحداً من أتباع المسيح ، بل إنه جعل فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ، فكيف يجوز أن يقال : إن مراده بالرسل الذين أرسلهم بالبينات ، وأنزل معهم الكتاب والميزان ، هم الحواريون ، دون الرسل الذين ذكرهم وأرسلهم قبل المسيح .

الوجه الخامس : أنه ليس فى القرآن آية تنطق بأن الحواريين هم رسل الله ، بل ولا صرح فى القرآن بأنه أرسلهم ، لكن قال فى سورة يس : ﴿ واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون * إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شئ إن أنتم إلا تكذبون * قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون * وما علينا إلا البلاغ المبين * قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم * قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون * وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون * ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون * أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون * إنى إذاً لفى ضلال مبين إنى آمنت بربكم فاسمعون * قيل ادخل الجنة قال ياليت قومى يعلمون * بما غفر لى ربى وجعلنى من الكرمين * وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين .* إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا

هم خامدون * ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾ [سورة يس : ١٣ - ٣٠] .

فهذا كلام الله ليس فيه ذكر أن هؤلاء المرسلين كانوا من الحواريين ، ولا أن الذين أرسل إليهم آمنوا بهم ، وفيه أن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم هؤلاء الثلاثة ، أنزل عليهم صيحة واحدة ، فإذا هم خامدون .

وقد ذكر طائفة من المفسرين ، أن هؤلاء كانوا من الحواريين وأن القرية إنطاكية ، وأن هذا الرجل اسمه حبيب النجار ، ثم إن بعضهم يقول : إن المسيح أرسلهم فى حياته ، لكن المعروف عند النصارى ، أن أهل إنطاكية آمنوا بالحواريين واتبعوهم لم يهلك الله أهل إنطاكية .

والقرآن يدل على أن الله أهلك قوم هذا الرجل الذى آمن بالرسل . وأيضاً فالنصارى يقولون : إنما جاءوا إلى أهل إنطاكية بعد رفع المسيح وأن الذين جاءوا كانوا اثنين لم يكن لهما ثالث ، قيل : أحدهما : شمعون الصفا . والاخر : بولص . ويقولون : إن أهل إنطاكية آمنوا بهم ، ولا يذكرون حبيب النجار ، ولا مجئ رجل من أقصى المدينة ، بل يقولون : إن شمعون وبولص ، دعوا الله حتى أحيا ابن الملك ، فالأمر المنقول عند النصارى ، أن هؤلاء الرسل المذكورين فى القرآن ليسوا من الحواريين ، وهذا أصل القولين عند علماء المسلمين ، وأئمة المفسرين ذكروا أن المذكورين فى القرآن فى سورة يس . ليسوا من الحواريين ، بل كانوا قبل المسيح ، وسموهم بأسماء غير أسماء الحواريين ، كما ذكر محمد بن إسحق . قال سلمة بن الفضل : كان من حيث صاحب يس فيما حدثنى محمد بن إسحق عن ابن عباس وعن كعب بن منبه ، أنه كان رجل من أهل إناكية وكان اسمه حبيبا (كان يعمل بالحرث ، وكان رجلا سقيما قد أسرع فيه الجذام ، وكان منزله عند باب من أبواب المدينة ، يتأخر ، وكان مؤمنا ذا صدقة ، يجمع كسبه إذا أمسي فيما يذكرون فيقسمه

نصفين ، فيطعم نصفه عياله ، ويتصدق بنصفه وكان بالمدينة التى هو بها ،مدينة إنطاكية ، فرعون من الفراعنه ، ويقال له : إنطخسر بن أنطنجس ، يعبد الأصنام ، صاحب شرك ، فبعث الله إليه المرسلين وهم ثلاثة ، صادق ، وصدوق وسلوم ، فقدم الله إليه وإلى أهل المدينة منهم اثنين فكذبوهما ، ثم عزز الله بالثالث .

وروى الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله : ﴿ واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون * إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ﴾ ، [سورة يس : ١٣ ، ١٤] .(١) لكى تكون الحجة عليهم أشد ، فأتوا أهل القرية فدعوهم إلى الله وحده ، وعبادته لا شريك له ، فكذبوهم (٢) ، فأتوا على رجل فى ناحية القرية فى زرع له فسألهم الرجل : ما أنتم ؟ قالوا : نحن رسل رب العالمين أرسلنا إلى أهل هذه القرية ندعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له . قال لهم : أتسألون على ذلك أجراً ؟ قالوا : لا . قال : فألقى ما فى يده ثم أتى أهل المدينة فقال : ﴿ ياقوم اتبعوا المرسلين * اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون ﴾ ، [سورة يس : ٢٠ ، ٢١] .

وهذا القول هو الصواب ، وأن هؤلاء المرسلين كانوا رسلا لله قبل المسيح وإن كانوا قد أرسلوا إلى إنطاكية وآمن بهم حبيب النجار ، فهم كانوا قبل المسيح ، ولم تؤمن أهل القرية بالرسل . بل أهلكهم الله تعالى كما أخبر فى القرآن ثم بعد هذا عمرت إنطاكية ، وكان أهلها مشركين حتى جاءهم من جاءهم من الحواريين فآمنوا بالمسيح علي أيديهم . ودخلوا فى دين المسيح .

---

(١) عزاه السيوطى فى « الدر المنثور » (٥ ، ٢٦١) لابن أبى حاتم .

(٢) رواه ابن جرير فى « تفسيره » (١٠٣/٢٢) عزاه السيوطى فى الدر المنثور (٢٦١/٥) لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة .

ويقال : إن إنطاكية أول المدائن الكبار الذين آمنوا بالمسيح عليه السلام وذلك بعد رفعه إلى السماء . ولكن ظن من ظن من المفسرين أن المذكورين فى القرآن هم رسل المسيح وهم من الحواريين فهذا غلط لوجوه :

منها : أن الله قد ذكر في كتابه أنه أهلك الذين جاءتهم الرسل ، وأهل إنطاكية لما جاءهم من دعاهم إلى دين المسيح آمنوا ولم يهلكوا .

ومنها : أن الرسل فى القرآن ثلاثة ، وجاءهم رجل من أهل المدينة يسعى والذين جاءوا من أتباع المسيح كانوا اثنين ، ولم يأتيهم رجل يسعى .لا حبيب ولا غيره .

ومنها : أن هؤلاء جاءوا بعد المسيح فلم يكن الله أرسلهم ، وهذا كما أن الله ذكر فى القرآن أنه أهلك أهل مدين بالظلة لما جاءهم شعيب . وذكر فى القرآن أن موسى أتاها وتزوج ببنت واحد منها فظن بعض الناس أنه شعيب النبى ، وهذا غلط عند علماء المسلمين مثل ابن عباس ، والحسن البصرى وابن جريج وغيرهم كلهم ذكروا أن الذى صاهره موسى ليس هو شعيباً النبى ، وحكى أنه شعيب عمن لا يعرف ولم يثبت ذلك عن أحد من الصحابة والتابعين ، كما قد بسطناه فى موضع آخر .

وأهل الكتاب يقرون بأن الذى صاهره موسى ليس هو شعيباً بل رجل من أهل مدين ، ومنهم من يقول : إنها غير مدين التى أهلك الله أهلها والله أعلم

وكذلك ذكر المفسرون فى المرسلين هل أرسلهم الله أو أرسلهم المسيح ؟قولين :

أحدهما : أن الله هو الذى أرسلهم .

قال أبو الفرج ابن الجوزى : وهذا ظاهر القرآن وهو مروى عن ابن عباس وكعب ، ووهب بن منبه . قال : وقال المفسرون في قوله تعالى : ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة ﴾ ، [سورة يس : ٢٩] . أخذ جبريل بعضادتى باب المدينة ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم ميتون لا يسمع لهم حس كالنار إذا أطفئت وذلك

قوله : ﴿ فإذا هم خامدون ﴾ ، [سورة يس : ٢٩] . أى ساكتون كهيئة الرماد الخامد .

ومعلوم عند الناس أن أهل إنطاكية لم يصبهم ذلك بعد مبعث المسيح بل آمنوا به قبل أن يبدل دينه وكانوا مسلمين مؤمنين به على دينه إلى أن تبدل دينه بعد ذلك . ومما يبين ذلك أن المعروف عند أهل العلم أنه بعد نزول التوراة لم يهلك الله مكذبى الأمم بعذاب سماوى يعمهم : كما أهلك قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وفرعون وغيرهم ، بل أمر المومنين بجهاد الكفار ، كما أمر بنى أسرائيل على لسان موسى بقتال الجبابرة وهذه القرية أهلك الله أهلها بعذاب من السماء فدل ذلك على أن هؤلاء الرسل المذكورين فى يس كانوا قبل موسى عليه السلام ، وأيضاً فإن الله لم يذكر فى القرآن رسولا أرسله غيره ، وإنما ذكر الرسل الذين أرسلهم هو ، وأيضاً فإنه قال : ﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ﴾ ، [سورة يس : ١٤] . فأخبر أنه أرسلهم ، كما أخبر أنه أرسل نوحاً وموسى وغيرهما ، وفى الآية : ﴿ قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شئ ﴾ ، [سورة يس : ١٥] . ومثل هذا هو خطاب المشركين لمن قال : إن الله أرسله وأنزل عليه الوحى لا من جاء رسولا من عند رسول ، وقد قال بعد هذا : ﴿ ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون ﴾ ، [سورة يس : ٣٠] . وهذا إنما هو فى الرسل الذين جاءوهم من عند الله لا من عند رسله . وأيضاً : فإن الله ضرب هذا مثلا لمن أرسل إليه محمداً صلى الله عليه وسلم يحذرهم أن ينتقم الله منهم ، كما انتقم من هؤلاء ، ومحمد إنما يضرب له المثل برسول نظيره لا بمن أصحابه أفضل منهم ، فإن أبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلياً أفضل من الحواريين باتفاق علماء المسلمين ، ولم يبعث الله بعد المسيح رسولا بل جعل ذلك الزمان زمان فترة كقوله : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل ﴾ ، [سورة المائدة : ١٩] وأيضاً فإنه قال تعالى : ﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا

إليكم مرسلون قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ ، [سورة يس : ١٤ - ١٥] ولو كانوا رسل رسول لكان التكذيب لمن أرسلهم ، ولم يكن فى قولهم : إن أنتم إلا بشر مثلنا شبهة ، فإن أحداً لا ينكر أن يكون رسل الله بشراً ، وإنما أنكروا أن يكون رسول الله بشراً ، وأيضاً فلو كان التكذيب لهما وهما رسل الرسول لأمكنهما أن يقولا : فأرسلوا إلى من أرسلنا ، أو إلى أصحابه فإنهم يعلمون صدقنا فى البلاغ عنه ، بخلاف ما إذا كانا رسل الله ، وأيضاً فقوله : ﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين ﴾ صريح فى أن الله هو المرسل ومن أرسلهم غيره إنما أرسلهم ذلك لم يرسلهم الله كما لا يقال لمن أرسله محمد بن عبد الله إنهم رسل الله فلا يقال لدحية بن خليفة الكلبى أن الله أرسله ، ولا يقال ذلك للمغيرة بن شعبة ، وعبد الله بن حذافة وأمثالهم ممن أرسلهم الرسول وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم أرسل رسله إلى ملوك الأرض ، كما أرسل دحية بن خليفة إلى قيصر وأرسل عبد الله بن حذافة إلى كسرى ، وأرسل حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس ، كما تقدم ذكر ذلك .

ومعلوم أنه لا يقال فى هؤلاء إن الله أرسلهم ، ولا يسمون عند المسلمين رسل الله ولا يجوز باتفاق المسلمين أن يقال هؤلاء داخلون فى قوله : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٥] .

فإذا كانت رسل محمد صلى الله عليه وسلم لم يتناولهم اسم رسل الله فى الكتاب الذى جاء به . فكيف يجوز أن يقال : أن هذا الاسم يتناول رسل رسول غيره ، والمقصود هنا بيان معانى القرآن وما أراده الله تبارك وتعالى بقوله : ﴿ إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم اثنين ﴾ ، [سورة يس : ١٤] . هل مراد الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم من أرسلهم الله ، أو من أرسلهم رسوله ، وقد علم يقيناً أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يدخل فى مثل هذا فمن قال : إن محمداً أراد بذلك من أرسله رسولا فقد كذب على محمد صلى الله عليه وسلم عمداً أو خطـأ .

فصـــل

وقد تبين بما ذكرناه فساد قولهم فى تفسير آية البقرة ، فإنهم قالوا : وقال فى سورة البقرة : ﴿ فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ ، [سورة البقرة : ٢١٣] . قالوا : فأعنى بقوله أنبياءه المبشرين ورسله بنحو بذلك عن الحواريين الذين داروا فى سبعة أقاليم العالم وبشروا بالكتاب الواحد الذى هو الإنجيل الطاهر لأنه لو كان أعنى إبراهيم وموسى وداود ومحمد لكان قال : ومعهم الكتب لأن كل واحد منهم جاء بكتاب دون غيره ولم يقل إلا الكتاب الواحد لأنه ما أتى جماعة مبشرين بكتاب واحد غير الحواريين الذين أتوا بالإنجيل الطاهر . فيقال لهم قد تقدم بعض ما يدل على فساد هذا التفسير وأيضاً فإنه قال تعالى : ﴿ كان الناس أمة واحدة ﴾ أى : فاختلفوا ﴿ فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ﴾.

والحواريون ليسوا من النبيين ، وإن كان المسيح أرسلهم ولا يلزم من إرساله لهم أن يكونوا أنبياء كمن أرسلهم موسى ومحمد وغيرهم ولهذا تسميهم عامة النصارى رسلا ولا يسمونهم أنبياء ، وأيضاً فإنه قال : ﴿ وأنزل معهم الكتاب ﴾ [سورة البقرة :٢١٣]، والحواريون لم ينزل معهم الكتاب إنما أنزل الكتاب مع المسيح ولكن الأنبياء أنزل معهم جنس الكتاب فإن الكتاب اسم جنس فيدخل فيه الكتب المنزلة كلها كما فى قوله : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾ ، [سورة البقرة : ١٧٧] . وفى قوله : ﴿ كل آمن بالله وملائكته وكتبه ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٨٥] . وفى القراءة الأخرى وكتابه ورسله ، وكذلك قوله عن مريم : ﴿ وصدقت بكلمات ربها وكتبه ﴾ [سورة التحريم : ١٢] وفى القراءة الأخرى : وكتابه ، وأيضاً قال تعالى : ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ﴾ [سورة البقرة : ٢١٣] .

وقال تعالى فى سورة يونس : ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ﴾ وهذا يدل أنه لما اختلفت بنو آدم بعث الله النبيين ، وكان اختلافهم قبل المسيح بل قبل موسى ، بل قبل الخليل ، بل قبل نوح ، كما قال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ثم حدث فيهم الشرك والاختلاف على وجهين . تارة يختلفون فيؤمن بعضهم ويكفر بعضهم ، كما قال تعالى : ﴿ ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٥٣] .

وقال تعالي : ﴿ هذان خصمان اختصموا فى ربهم ﴾ ، [سورة الحج : ١٩] يعنى : أهل الإيمان والكفر ، وقد يكون المختلفون كلهم على باطل ، كقوله : ﴿ وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد ﴾ ، [سورة مريم : ٣٤] .وقوله : ﴿ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ﴾ ، [سورة هود : ١١٩]

وأيضاً : فالإنجيل ليس فيه حكم بين الناس فيما اختلفوا فيه بل عامته مواعظ ووصايا وأخبار المسيح . بخلاف التوراة والقرآن فإن فيهما من الحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ما ليس فى الإنجيل ، وأيضاً فإنه قال : ﴿ وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ﴾ ، [سورة البقرة : ٢١٣]. وذلك يقتضى أن الله هدى الذين آمنوا بعد اختلاف الذين أوتوا الكتاب بغياً بينهم لما اختلفوا فيه من الحق ، وهذا ذم لمن أوتوا الكتاب فاختلفوا والنصارى داخلون فى هذا الذم ولو كان المراد بالإنجيل كانوا هم المذمومين دون غيرهم ، وليس كذلك ، بل اليهود وغيرهم من المختلفين مذمومون أيضاً ، وإنما الممدوح هم المؤمنون الذين هداهم الله لما اختلف أولئك فيه من الحق بإذنه . وهذا يتناول أمة محمد صلى الله عليه وسلم قطعاً ، وقد يتناول كل من آمن من الأمم المتقدمة ، كالذين كانوا على دين موسى والمسيح ، وإبراهيم الخليل ، كما

قال تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ، [سورة البقرة : ٦٢] .

وأما أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن الله هداهم لما اختلف فيه الأمم قبلهم من الحق بإذنه وهذا بين إنهم على الحق والعدل وسط بين طرفى الباطل ، وهذا ظاهر فى اتباعهم الحق الذى اختلف فيه اليهود والنصارى فى التوحيد والأنبياء والأخبار ، والتشريع ، والنسخ ، والحلال والحرام ، والتصديق والتكذيب ، وغير ذلك .

أما التوحيد فإن اليهود شبهوا الخالق بالمخلوق فوصفوا الرب سبحانه بصفات النقص الذى يختص بها المخلوق ، فقالوا : إنه فقير وبخيل ، وإنه يتعب وغير ذلك .

والنصارى وصفوا المخلوق بصفات الخالق صفات الكمال التى يختص بها الخالق فقالوا عن المسيح : إنه خالق السموات والأرض القديم الأزلى علام الغيوب القادر على كل شئ واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله .

والمسلمون هداهم الله لما اختلف فيه من الحق فلم يشبهوا الخالق بالمخلوق ولا المخلوق بالخالق ، بل أثبتوا لله ما يستحقه من صفات الكمال ، ونزهوه عن النقائص وأقروا بأنه أحد ليس كمثله شئ وليس له كفواً أحد فى شئ من صفات الكمال فنزهوه عن النقائص خلافاً لليهود وعن مماثلة المخلوق خلافاً للنصارى .

وأما الأنبياء عليهم السلام فإن اليهود قتلوا بعضًا وكذبوا بعضا كما قال تعالى : ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾ [سورة البقرة : ٨٧] . والنصارى أشركوا بهم وبمن هو دونهم فعبدوا المسيح بل اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، وجعلوا الحواريين رسلا لله وزعموا أن الإنسان بطاعته يصير بمنزلة الأنبياء ، وصوروا تماثيل الأنبياء

والصالحين وصاروا يدعونهم ويستشفعون بهم بعد موتهم وإذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تماثيلهم .

وفى الصحيحين (١) أن النبى صلى الله عليه وسلم ذكر له كنيسة بأرض الحبشة وذكر من حسنها وتصاوير فيها ، فقال أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ، وصوروا فيه تلك التصاوير ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة .

وأما المسلمون فهداهم الله لما اختلف فيه من الحق بإذنه ، فآمنوا بأنبياء الله كلهم ولم يفرقوا بين أحد منهم ولم يغلوا فيهم غلو النصارى ولا قصروا فى حقهم تقصير اليهود وكذلك قتل اليهود الذين يأمرون بالقسط من الناس والنصارى يطيعون من يأمر بالشرك . وإن الشرك لظلم عظيم ، ويطيعون من يحرم الحلال ويحلل الحرام ، والمسلمون يطيعون من يأمر بطاعة الله ، ولا يطيعون من يأمر بمعصية الله . والنصارى فيهم الشرك بالله . واليهود فيهم الاستكبار عن عبادة الله كما قال تعالى فى النصارى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ ، [سورة التوبة : ٣١] : وقال فى اليهود : ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾ [سورة البقرة : ٨٧] .

والإسلام هو أن يستسلم العبد لله وحده فيعبده وحده بما أمره به . فمن استسلم له ولغيره كان مشركا . والله لا يغفر أن يشرك به ، ومن لم يستسلم له بل استكبر عن عبادته كان ممن قيل فيه ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ [سورة غافر : ٦٠] فلهذا كان جميع الأنبياء وأممهم مسلمين لله يعبدونه وحده بما أمرهم به وإن تنوعت شرائعهم . فالمسيح لم يزل مسلماً لما كان متبعاً لشرع التوراة ولما نسخ الله ما نسخه منها .

---

(١) سبق تخريجه .

ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يزل مسلماً لما كان يصلى إلى بيت المقدس ثم لما صلى إلى الكعبة ولما بعثه الله إلى الخلق كانوا كلهم مأمورين بطاعته وكانت عبادة الله طاعته فمن لم يطعه لم يكن عابداً لله فلم يكن مسلماً .

وأما التشريع فإن اليهود زعموا أن ما أمر الله به يمتنع منه أن ينسخه .

والنصارى زعموا أن ما أمر الله به يسوغ لأكابرهم أن ينسخوه فهدى الله المؤمنين لما اختلفوا فيه من الحق ، فقالوا : إن الله سبحانه له أن ينسخ ما شرعه خلافاً لليهود ، وليس لمخلوق أن يغير شيئاً من شرع الخالق خلافاً للنصارى .

وأما الحلال والحرام والطهارة والنجاسة فإن اليهود حرمت عليهم الطيبات وشدد عليهم أمر النجاسات ، فمنعوا من مؤاكلة الحائض ، والجلوس معها فى بيت ، ومن إزالة النجاسة ، وحرم عليهم شحم الترب والكليتين ، وكل ذى ظفر وغير ذلك .

والمسيح عليه السلام أحل لهم بعض الذى حرم عليهم فقابلهم النصارى ، فقالوا : ليس شئ محرم ، لا الخنزير ولا غيره . بل ولا شئ نجس ، ولا البول ولا غيره وزعموا أن بعض أكابرهم رأى ملآة صور له فيها الحيوان وقيل له : كل ما طابت نفسك ودع ما تكره وأنه أبيح لهم جميع الحيوان ونسخوا شرع التوراة بمجرد ذلك . فالحلال عندهم ما اشتهته أنفسهم . والحرام عندهم ما كرهته أنفسهم . فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق فأحل الله لهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث وأزال عنهم الآصار والأغلال التى كانت على بنى إسرائيل خلافاً لليهود وأمرهم بالطهارة طهارة الحدث والخبث خلافاً للنصارى . والمسيح عليه السلام جعلته اليهود ولد زنا كذاباً ساحراً ، وجعلته النصارى هو الله خالق السموات والأرض ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلف فيه من الحق بإذنه فشهدوا أنه عبد الله مخلوق خلافاً للنصارى وأنه رسول الله وجيه فى الدنيا والآخرة ومن المقربين خلافاً لليهود ، وأما التصديق والتكذيب فإن اليهود من شأنهم التكذيب بالحق والنصارى من شأنهم

التصديف بالباطل فإنه اليهود كذبوا من كذبوه من الأنبياء وقد جاءوا بالحق كما قال تعالى : ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾ ، [سورة البقرة : ٨٧] .

والنصارى يصدقون بمحالات العقول والشرائع كما صدقوا بالتثليث والاتحاد ونحوهما من الممتنعات .

فصل

قالوا عن القرآن إنه شهد لهم أنهم أنصار الله حيث يقول كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله قال الحواريون : ﴿ نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ ، [سورة الصف : ١٤] . فيقال هذا حق والحواريون مؤمنون مسلمون وهم أنصار الله لكن ليس فى هذا أنهم رسل الله ولا فى هذا أن كل ما أنتم عليه من الدين مأخوذ عنهم ولا فى هذا أن لواحد من الحواريين معصوم من الغلط بل يأمر الله المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم أن يكونوا أنصار الله كما طلب المسيح ذلك بقوله : ﴿ من أنصارى إلى الله ﴾ ،[سورة الصف : ١٩] وقد وصف الله المؤمنين أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم من أهل المدينة النبوية بأنهم أنصار بقوله تعالى : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ ، [سورة التوبة : ١٠٠] . والمهاجرون أفضل من الأنصار ، وهم أيضاً من أنصار الله نصروه كما نصره الأنصار ، لكن لما كان لهم يخصهم هم المهاجرون وهو أفضل الإسمين خص الأنصار بهذا الاسم والمهاجرون والأنصار، أفضل ممن آمن بموسى ومن آمن بعيسى عند المسلمين .

ومع هذا فليس عندهم نبى ولا رسول لله ، ولكن فيهم رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما .

فصـــل

قالوا وأما تعظيمه لإنجيلنا وكتبنا التى فى أيدينا فيقول : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٨] ، وقال فى سورة آل عمران : ﴿ آلم ٭ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ٭ نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل ٭ من قبل هدى للناس ﴾ ، [سورة آل عمران : ١ - ٤] .

وقال فى سورة البقرة : ﴿ آلم ٭ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ٭ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ٭ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ٭ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ ، [سورة البقرة : ١ - ٥] .

فعنى بالكتاب الإنجيل والذين يؤمنون بالغيب نحن النصارى الذين آمنا بالسيد المسيح وما رأيناه ثم أتبع بالقول والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، فعنى بهم المسلمين الذين آمنوا بما أتى به وما أتى من قبله وقال فى سورة المائدة : ﴿ وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين ٭ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٦ - ٤٧].

وقال فى سورة آل عمران : ﴿ فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٨٤] . فعنى أيضاً بالكتاب المنير الذى هو الإنجيل المقدس .

وقال أيضاً : ﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴾ ، [سورة يونس : ٩٤] . فثبت بهذا ما معناه ونفى عن إنجيلنا وكتبنا التي في أيدينا التهم والتبديل والتغيير لما فيها بتصديقه إياها .

والجواب : بعد أن تعرف أن لفظ الآية الأولى من سورة المائدة ثم أنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه أن يقال : أما تصديق خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم لما أنزل الله قبله من الكتب ولمن جاء قبله من الأنبياء فهذا معلوم بالاضطراد من دينه متواتراً تواتراً ظاهراً كتواتر إرساله إلى الخلق كلهم وهذا من أصول الإيمان .

قال تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون * فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ ، [سورة البقرة : ١٣٦ ، ١٣٧] .

وقال تعالى : ﴿ قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون * ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨٤ ، ٨٥] .

وقال تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة

والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ ، [سورة البقرة : ١٧٧] .

وقال تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير * لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ [سورة البقرة : ٢٨٥ : ٢٨٦] . وتصديقه للتوراة والإنجيل مذكور فى مواضع من القرآن ، وقد قال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ﴾ [سورة المائدة : ٤٨] .

وقال تعالى : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين - إلى آخر الآية - ﴾ ، [سورة الزمر : ٢٣] .

وقال تعالى : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ [سورة يوسف : ٣] . فبين أنه أنزل هذا القرآن مهيمناً على ما بين يديه من الكتب والمهيمن الشاهد المؤتمن الحاكم ، فشهد بما فيها من الحق ، ويبين ما حرف فيها ويحكم بإقرار ما أقره الله من أحكامها ، وينسخ ما نسخه الله منها وهو مؤتمن فى ذلك عليها وأخبر أنه أحسن الحديث وأحسن القصص ، وهذا يتضمن أنه كل من كان متمسكا بالتوراة قبل النسخ من غير تبديل شئ من أحكامها فإنه من أهل الايمان والهدى ، وكذلك من كان متمسكا بالإنجيل من غير تبديل شئ من أحكامه قبل النسخ ، فهو من أهل الإيمان والهدى . وليس فى ذلك مدح لمن تمسك بشرع مبدل ، فضلا عمن تمسك بشرع مبدل منسوخ ولم يؤمن بما أرسل الله إليه من الرسل وما أنزل إليه من الكتب بل قد بين سبحانه كفر اليهود والنصارى بتبديل الكتاب الأول

وبترك الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم فى غير موضع .

وأما تأويلهم قوله : ﴿ ذلك الكتاب ﴾ ، إنه الإنجيل . ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ [سورة البقرة : ٣] عنى بهم النصارى فهو من تحريف الكلم عن مواضعه ، وتبديل كلام الله كما فعلوه فى قوله : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً ﴾ [آل عمران : ٨٥] وفى قوله : ﴿ بإذنى ﴾ [سورة المائدة : ١١٠] . أى بإذن اللاهوت ، وفى قوله : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ [سورة الفاتحة : ٧] . وفى غير ذلك مما ذكروه وتأولوه من القرآن على غير المعنى الذى أراد الله به ، وهذا مما يؤيد أنهم فعلوا كذلك بالتوراة والإنجيل ، فإنه إذا كان القرآن الذى قد عرف تفسيره ، والمراد به : العام والخاص ، ونقل ذلك عن الرسول نقلا متواتراً حتى عرف معناه علماً يقينياً اضطرارياً فيبدلون معناه ويحرفون الكلم عن مواضعه فماذا يصنعون بالتوراة والإنجيل ، ولم ينقل لفظ ذلك ومعناه كما نقل القرآن وليس فى أهل تلك الكتب من يذب عن لفظها ومعناها كما يذب المسلمون عن لفظ القرآن ومعناه وهؤلاء غرهم قوله : ﴿ ذلك الكتاب ﴾ [سورة البقرة :٢] فظنوا أن لفظ « ذلك » لما كان يشار بها إلى الغائب أشير بها إلى الإنجيل . فيقال لهم هذا كقوله : ﴿ ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم ﴾ ، [سورة آل عمران : ٥٨]

وأشار بذلك إلى ما تلاه قبل هذه الآية ، وقوله : ﴿ واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم ﴾ ، [سورة الممتحنة : ١٠] وقوله ﴿ فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوى عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ ،[سورة الطلاق : ٢] ومثله قوله تعالى بعد أن ذكر خبر يوسف الصديق : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ﴾ [سورة يوسف : ١٠٢] .وقال أيضاً لما ذكر خبر مريم :

﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم ﴾ ، [سورة آل عمران: ٤٤] . كما قال لما ذكر آيات يخبر فيها عن نوح : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ﴾ ، [سورة هود : ٤٩] ، وقال : ﴿ آلر تلك آيات الكتاب المبين * إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ [سورة يوسف : ٢.١]

و« وتلك » فى المؤنث مثل « ذلك » فى المذكر ، ومع هذا فأشار إلى القرآن ومنه قوله : ﴿ آلر * تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ﴾ [سورة الحجر : ١] ، وقوله : ﴿ طس * تلك آيات القرآن وكتاب مبين ﴾ [سورة النمل : ١] . ومنه قوله : ﴿ طسم * تلك آيات الكتاب المبين ﴾ ، [سورة القصص : ١ ، ٢] .ومنه قوله : ﴿ حم * عسق * كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ﴾ ، [سورة الشورى : ١ - ٣] . وقوله : ﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً ﴾ ، [سورة الشورى : ٧] وقوله : ﴿ آلمر تلك آيات الكتاب والذى أنزل من ربك الحق ﴾ ، [سورة الرعد : ١] ومثل هذا كثير ، وذلك أنه لما أنزل قوله : ﴿ ذلك الكتاب ﴾ [سورة البقرة : ٢] ﴿ تلك آيات الكتاب ﴾ [سورة الحجر : ١] ونحو ذلك لم يكن الكتاب المشار إليه قد أنزل تلك الساعة ، وإنما كان قد أنزل قبل ذلك فصار كالغائب الذى يشار إليه كما يشار إلى الحاضر ، كما قال تعالى : ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه ﴾ [سورة الأنبياء : ٥٠] .

ولهذا قال غير واحد من السلف « ذلك الكتاب » أى هذا الكتاب ، يقولون : المراد هذا الكتاب ، وإن كانت الإشارة تكون تارة إشارة غائب ، وتارة إشارة حاضر ، وقد وقال : ﴿ هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ﴾ ، [سورة البقرة : ٢ ، ٣] . وقد وصف النصارى بأنهم لا يؤمنون بالله ، ولا باليوم الآخر ، وأنهم كافرون ظالمون ، فكيف يجعلهم المتقين الذين يؤمنون بالغيب .

قال تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدنيون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ ، [سورة التوبة : ١٩] .

وأول التقوى تقوى الشرك ، وقد وصف النصارى بالشرك فى قوله : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباًمن دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ ، [سورة التوبة : ٣١] .

وقال تعالى لما ذكر المسيح : ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم * أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين ﴾ ، [سورة مريم : ٣٧ ، ٣٨].

وقال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٢] . ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ [سورة المائدة : ٧٣] ونهى عن موالاتهم فقال : ﴿ ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ ، [سورة المائدة : ٥١] . وقد أخبر أن الله ولى المتقين فقال : ﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون * إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين ﴾ ، [سورة الجاثية : ١٨ ، ١٩] . فلو كانوا من المتقين فضلا عن أن يكونوا هم المتقين لكان الله وليهم ولكانت موالاتهم واجبة على المؤمنين ، وهو قد نهى عن موالاتهم وجعل من متولاهم ظالما ، وجعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض ، والكفار بعضهم أولياء بعض ، ولهذا لما قطع الله الموالاة بين المؤمنين وبين الكافرين .

قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح :(١) « لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم » واتفق المسلمون على أن اليهودى والنصرانى لا يرث مسلماً ولو كان ابنه وأباه لأن الله قطع الموالاة بينهما ، وقد قال تعالى : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾ ، [سورة المجادلة : ٢٢] ، وأيضًا فإنه قال تعالى : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ﴾ ، [سورة البقرة : ٣] وهى الصلاة التى أمر بها فى قوله : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ ، [سورة الإسراء : ٧٨] .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : (٢) « لا يقبل الله صلاة بغير طهور » والنصارى

---

(١) « متفق عليه » عن أسامة بن زيد
رواه البخارى فى كتاب « المغازى » باب « أين ركز النبى صلى الله عليه وسلم الراية يوم الفتح » (٦٠٦/٧ح٤٢٨٣)ورواه أيضاً برقم (٦٧٦٤)
ورواه مسلم فى كتاب « الفرائض » باب « كتاب الفرائض » (١٢٣٣/٣ح١٦١٤)
ورواه أبو داود فى كتاب « الفرائض » باب « هل يرث المسلم الكافر » (١٢٠/٨ح٢٨٩٢)
ورواه الترمذى فى كتاب « الفرائض » باب « ما جاء فى إبطال الميراث بين المسلم والكافر » (٢٨٦/٦، ٢٨٧ح٢١٨٩) ورواه أيضاً برقم (٢١٩٠) وقال : وفى الباب عن جابر وعبد الله ابن عمرو »
ورواه النسائى فى الكبرى فى كتاب « الفرائض » باب « فى الموارثة بين المسلمين والمشركين » (٨٠/٤ح٦٣٧٠، ٦٣٧١) ورواه ابن ماجه فى كتاب « الفرائض » باب « ميراث أهل الإسلام من أهل الشرك»(٩١١/٢ح٢٧٢٩)
(٢) « صحيح » عن ابن عمر
رواه مسلم فى كتاب « الطهارة » باب « وجوب الطهارة للصلاة » (٢٠٤/١ح٢٢٤)
ورواه الترمذى فى كتاب « الطهارة » باب« ما جاء لا تقبل صلاة بغير طهور » (١٩/١-٢٤ح١) وقال : « هذا الحديث أصح شئ فى هذا الباب وأحسن »
وفى الباب عن أبى المليح عن أبيه وأبى هريرة وأنس.
ورواه ابن ماجه فى كتاب « الطهارة » باب « لا يقبل الله صلاة بغير طهور » (١٠٠/١ح٢٧٢)

يصلون بغير طهور . وقد قال صلى الله عليه وسلم : (١) « لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب » وهم لا يقرءونها . والصلاة التى فرضها وأثنى عليها مشتملة على استقبال الكعبة وعلى ركوع وسجدتين فى كل ركعة ، وغير ذلك مما لا يفعله النصارى فكيف يمدحهم بإقام الصلاة وهم لا يقيمون الصلاة التى أمر بإقامتها ، ثم لو قال اليهودى المراد بقوله ﴿ ذلك الكتاب ﴾ [سورة البقرة : ٢] التوراة ﴿ وبالمتقين ﴾ اليهود لكان هذا - مع بطلانه - أقرب من قول القائل : إن المراد بالكتاب الإنجيل . لأن التوراة أحق بذلك من الإنجيل فإنها الأصل والله تعالى يقرن بينها وبين القرآن فى غير موضع كقوله : ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة ﴾ ، [سورة هود : ١٧] . وقوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ ، [سورة الأحقاف : ١٠]. وقد قالت الجن لما سمعت القرآن : ﴿ ياقومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما

---

(١) « متفق عليه » عن « عبادة بن الصامت »

رواه البخارى فى كتاب « الصلاة » باب « وجوب القراءة للإمام والمأموم .....» (٢/٢٧٦ح٧٥٦)

ورواه مسلم فى كتاب « الصلاة » باب « وجوب قراءة الفاتحة فى كل ركعة ...» (١/٢٩٥.٢٩٥ح٣٩٤)

رواه أبو داود فى كتاب « الصلاة » باب « ما من ترك القراءة فى صلاته بفاتحة الكتاب » (٣/٤٢ح٨٠٧)

ورواه الترمذى فى كتاب « الصلاة » باب « ما جاء أنه لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب » (٢/٥٩ح٢٤٧) وقال : « وفى الباب عن أبى هريرة وعائشة وأنس وأبى قتادة وعبد الله ابن عمرو « ثم قال : وحديث عبادة بن الصامت حسن صحيح »

ورواه النسائى فى كتاب « افتتاح الصلاة » باب « إيجاب قراءة فاتحة الكتاب فى الصلاة » (٢/١٣٧)

ورواه ابن ماجة فى كتاب « الصلاة » باب « القراءة خلف الإمام » (١/٢٧٣ح٨٣٧)

بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ﴾ ، [سورة الأحقاف : ٣٠] .

وقال النجاشى - لما سمع القرآن - : (١) إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة وكذلك ورقة بن نوفل قال : (٢) هذا هو الناموس الذى كان ينزل على موسى بن عمران .

وقال تعالى : ﴿ قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا ﴾ [سورة القصص : ٤٨] . أى : التوراة والقرآن . وقالوا : ساحران تظاهرا ، أى موسى ومحمد . وقالوا : إنا بكل كافرون .

قال الله تعالى : ﴿ قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ﴾ ، [سورة القصص : ٤٩] . فقد بين أنه لم يأت من عند الله كتاب أهدى من التوراة والقرآن .

وقال تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شئ قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى ﴾ ، [سورة الأنعام : ٩١] .أى الله هو الذى ﴿ أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون * وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وعلى صلاتهم يحافظون ﴾ ، [سورة الأنعام : ٩١ ، ٩٢] .

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) سبق تخريجه .

وأما قوله تعالى : ﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴾ [سورة البقرة : ٤] . فهى صفة ثانية للذين يؤمنون بالغيب وصفهم بالإيمان بالغيب مجملا ، ثم وصفهم بإيمان مفصلا بما أنزل إليه ، وما أنزل من قبله والعطف بالواو يكون لتغاير الذوات ويكون لتغاير الصفات كقوله تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى * الذى خلق فسوى * والذى قدر فهدى * والذى أخرج المرعى * فجعله غثاء أحوى ﴾ ، [سورة الأعلى : ١ - ٥] والذى خلق فسوى هو الذى قدر فهدى وهو الذى أخرج المرعى ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم * الذى الذى جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون * نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون * والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ﴾ [سورة الزخرف : ٩ - ١٢] ومثله قوله : ﴿ قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغي وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ ، [سورة المؤمنون : ١ - ١١] فهم صنف واحد وصفهم بهذه الصفات بحرف الواو ، وكذلك فى قوله : ﴿ إن الإنسان خلق هلوعا * إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا * إلا المصلين * الذين هم على صلاتهم دائمون * والذين فى أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم * والذين يصدقون بيوم الدين * والذين هم من عذاب ربهم مشفقون * إن عذاب ربهم غير مأمون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أوما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم

وعهدهم راعون * والذين هم بشهاداتهم قائمون * والذين هم على صلاتهم يحافظون * أولئك فى جنات مكرمون ﴾ ، [سورة المعارج : ١٩ - ٢٥).

وقد فسر قبل قوله يؤمنون بالغيب ، صفة المؤمنين من غير أهل الكتاب كمشركى العرب ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك صفة من آمن به من أهل الكتاب .

وعلى هذا القول : هؤلاء غير هؤلاء ، لكن هذا ضعيف فإنه ولا بد فى المؤمنين من غير أهل الكتاب أن يؤمنوا بما أنزل إليه . وما أنزل من قبله ، لابد فى مؤمن أهل الكتاب أن يؤمن بالغيب . فكل من الإيمانين واجب على كل واحد ، ولا يكون أحد على هدى من ربه مفلحًا إلا بهذا وهذا .

وأما قول النصارى : نحن الذين آمنا بالسيد المسيح وما رأيناه . فهكذا اليهود آمنوا بموسى عليه السلام وما رأوه والمسلمون آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وما رأوه بل المسلمون آمنوا بموسى وعيسى وسائر النبيين ، وما رأوهم بخلاف اليهود والنصارى الذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض . ثم ليس المراد به صورة النبى عليه السلام فإن صورة النبى ليست من الغيب فإن الناس يرونها وليس فى رؤيتها ما يوجب إيمانًا ولا كفرًا ، ولكن الغيب ما غاب عن مشاهدة الخلق وهو ما أخبرت به الأنبياء من الغيب فيدخل فيه الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وهو الإيمان بأنهم رسل الله وسواء رؤيت أبدانهم أو لم تر ، فقد يراهم من لم يؤمن برسالتهم وقد يؤمن برسالتهم من لم يرهم .

والمقصود الإيمان برسالتهم لا بنفس صورهم حتى يقول القائل : آمنا بنبى ولم نره ، وقد يعلم من دلائل نبوته من دلائل نبوته وإعلام رسالته من لم يره أكثر مما يعلمها من رآه .

فصـــل

وأما قوله فى سورة المائدة : ﴿ وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقًا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقًا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين * وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٦ ، ٤٧] .

فهذا ثناء منه على المسيح والإنجيل وأمر للنصارى بالحكم بما أنزل فيه ، كما أثنى على موسى والتوراة بأعظم مما عظم به المسيح والإنجيل فقال تعالى : ﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ﴾ ، [سورة المائدة : ٤١] . أى : قائلون للكذب مصدقون مستجيبون مطيعون لقوم آخرين لم يأتوك فهم مصدقون للكذب مطيعون لما يخالفك وأنت رسول الله .

فكل من تصديق الكذب والطاعة لمن خالف رسول الله من أعظم الذنوب ولفظ « السميع » يراد به الاحساس بالصوت ويراد به فهم المعنى ويراد به قبوله فيقال : فلان سمع ما يقول فلان . أى : يصدقه أويطيعه ويقبل منه بقوله : سماعون للكذب . أى : مصدقون به وإلا مجرد سماع صوت الكاذب وفهم كلامه ليس مذمومًا على الإطلاق ، وكذلك سماعون لقوم آخرين لم يأتوك . أى : مستجيبون لهم مطيعون لهم كما قال فى حق المنافقين وفيكم سماعون لهم أى : مستجيبون مطيعون لهم ، ومن قال : إن المراد به الجاسوس فهو غالط كغلط من قال سماعون لهم : هم الجواسيس ، فإن الجاسوس إنما ينقل خبر القوم إلى من لا يعرفه ، ومعلوم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان ما يذكره ويأمر به ويفعله يراه ويسمعه كل من بالمدينة مؤمنهم ومنافقهم ، ولم يكن يقصد أن يكتم يهود المدينة ما يقوله ويفعله ، خلاف من كان يأتيهم من اليهود وهم يصدقون الكذب ويطيعون لليهود الآخرين الذين لم

يأتوه ، والله نهى نبيـه صلى الله عليه وسلم أن يحزنه المسارعون فى الكفر من هاتين الطائفتين المنافقتين الذين أظهروا الإيمان به ولم تؤمن قلوبهم ، ومن أهل الكتاب الذين يطلبون أن يحكم بينهم وليس مقصودهم أن يطيعوه ويتبعوا حكمه بل إن حكم بما يهوونه قبلوه . وإن حكم بخلاف ذلك لم يقبلوه لكونهم مطيعين لقوم آخرين لم يأتوه .

قال تعالى : ﴿ سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ﴾ ، [سورة البقرة : ٢١٣]. أى : لم يأتك أولئك القوم الآخرين يقولون : أى : يقول السماعون : ﴿ إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تأتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئًا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ﴾ ، [سورة المائدة : ٤١].

والحكم يفتقر إلى الصدق والعدل فلابد أن يكون الشاهد صادقًا والحاكم عادلا وهؤلاء يصدقون الكاذبين من الشهود ويتبعون حكم المخالفين للرسل الذين يحكمون بغير ما أنزل الله وإذا لم يكن قصدهم اتباع الصدق والعدل فليس عليك أن تحكم بينهم ، بل إن شئت فاحكم بينهم وإن شئت فلاتحكم .

ولكن إذا حكمت فلا تحكم إلا بما أنزل إليك ، إذ هو العدل .

قال تعالى :﴿ سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين ﴾ [سورة المائدة : ٤١].

وقال تعالى : ﴿ سماعون للكذب أكالون للسحت فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئًا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٢] ثم قال : ﴿ وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين * إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلمواللذين هادوا والربانيون

والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمنًا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون * وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ . [سورة المائدة : ٤٣ - ٤٥] .

فهذا ثناؤه على التوراة ، وإخباره أن فيها حكم الله ، وأنه أنزل التوراة ، وفيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا وقال عقب ذكرها ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ ،[سورة المائدة :٤٤]. وهذا أعظم مما ذكره في الأنجيل فإنه قال في الإنجيل : ﴿ وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ﴾ ،[سورة المائدة :٤٦] وقال فيه : ﴿ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ .[سورة المائدة :٤٧]

وقال في التوراة : ﴿ يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ﴾ [سورة المائدة ٤٤] وقال عقب ذكرها ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ [سورة المائدة :٤٤] فهو سبحانه مع إخباره بإنزال الكتابين يصف التوراة بأعظم مما يصف به الإنجيل .

كما قال تعالى : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ﴾ [سورة المائدة : ٤٤] .

وإذا كان ما ذكروه من مدح موسى والتوراة لم يوجب ذلك مدح اليهود الذين كذبوا المسيح ومحمداً صلى الله عليهما وسلم تسليما ، وليس فيه ثناء على دين اليهود المبدل المنسوخ باتفاق المسلمين والنصارى ، فكذلك أيضًا ما ذكره من مدح المسيح والإنجيل ليس فيه مدح النصارى الذين كذبوا محمداً صلى الله عليه

وسلم وبدلوا أحكام التوراة واتبعوا المبدل المنسوخ واليهود توافق المسلمين على أنه ليس فيما ذكر مدح للنصارى ، والنصارى توافق المسلمين على أنه ليس فيما ذكر مدح لليهود بعد النسخ والتبديل فعلم اتفاق أهل الملل كلها المسلمون واليهود والنصارى على أنه ليس فيما ذكر فى القرآن من ذكر التوراة والإنجيل وموسى وعيسى مدح لأهل الكتاب الذين كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم ، ولا مدح لدينهم المبدل قبل مبعثه فليس فى ذلك مدح لمن تمسك بدين مبدل ، ولا بدين منسوخ ، فكيف بمن تمسك بدين مبدل منسوخ ؟

فصل

وهذا أصل لابد من ثباته وهو أنه قد دلت النصوص على أن الله لا يعذب إلا من أرسل إليه رسولا تقوم به الحجة عليه .

قال تعالى : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً * فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ ،[سورة الإسراء : ١٣ - ١٥] .

وقال تعالى : ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ ، [سورة النساء : ١٦٥] .

وقال تعالى عن أهل النار : ﴿ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شئ إن أنتم إلا فى ضلال كبير ﴾ ، [سورة الملك : ٨، ٩]

قال تعالى : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاء وها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم

لقاء يومكم هـذا قالوا بلى ولكن حقت كلمـة العذاب على الكافـرين ﴾ ، [سورة الزمر : ٧١]

وقال تعالى: ﴿ يا معشـر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شـهدنا على أنفسنا وغرتهم الحيـاة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٣٠] .

وقال تـعالي: ﴿ ومـا كان ربك مـهلك القرى حتى يبعث فى أمـها رسـولا يتلوا عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ ،[سورة القصص : ٥٩]

وقـال تعالى :﴿ ولولا أن تصـيبهم مـصـيبة بما قـدمت أيديهم فيـقـولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسـولا ـ إلى قوله ـ فلمـا جاءهم الحق من عندنا قـالوا لولا أوتى مـثل ما أوتى موسى أولـم يكفـروا بما أوتى موسى من قبل قالوا سحـران تظاهرا وقالوا إنابكل كافرون ﴾ ، [سورة القصص : ٤٧ ، ٤٨] .

وقال تعالى :﴿ يا أهل الـكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم عـلى فترة من الرسل أن تقولوا مـا جاءنا من بشـــيـر ولا نذير فقـد جاءكم بشيـر ونذير والله على كل شئ قدير ﴾ ، [سورة المائدة : ١٩] .

وإذا كان كذلك فمعـــلوم أن الحجـة إنما تقـــوم بالــــقرآن على من بلغـــه كقوله ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ [سـورة الأنعـام ١٩] فـمن بلغـه بعض القـرآن دون بعض قامت الحجة عليه بما بلغه دون مالم يبلغه ، فإذا اشتبه معنى بعض الآيات ، وتنازع الناس فى تأويل الآية ، وجب رد ما تنازعوا فيه إلى الله والرسول ، فإذا اجتهد الناس فى فهم مـا أراده الرسل فالمصيب له أجـران والمخطئ له أجر واحد ، فـلا يمتنع أن يقال ذلك فى أهل الكتاب قبلنا فمن لم يبلغه جـميع نصوص الكتاب قبلنا ، لم تقم عليه الحجة بما بلغه فيما خفى عليهم معناه منه فـاجتهد فى معرفته فإن أصاب فله أجران ،

وإن أخطأ فله أجر وخطؤه محطوط عنه فأما من تعمد تحريف الكتاب لفظه أو معناه وعرف ما جاء به الرسول فعانده فهذا مستحق للعقاب وكذلك من فرط فى طلب الحق واتباعه متبعًا لهواه مشتغلا عن ذلك بدنياه .

وعلى هذا فإذا كان بعض أهل الكتاب قد حرفوا بعض الكتاب وفيهم آخرون لم يعلموا ذلك وهم مجتهدون فى اتباع ما جاء به الرسول لم يجب أن يجعل هؤلاء من المستوجبين للوعيد ، فإذا جاز أن يكون فى أهل الكتاب من لم يعرف جميع ما جاء به المسيح ، بل خفى عليه بعض ما جاء به أو بعض معانيه فاجتهد لم يعاقب على ما لم يبلغه . وقد تحمل أخبار اليهود الذين كانوا مع - تبع - والذين كانوا ينتظرون الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم من أهل المدينة كابن الهتيان وغيره على هذا ، وأنهم لم يكونوا مكذبين للمسيح تكذيب غيرهم من اليهود ، وقد تنازع الناس هل يمكن مع الاجتهاد واستفراغ الوسع أن لا يبين للمناظر المستدل صدق الرسول أولا .

وإذا لم يبين له ذلك هل يستحق العقوبة فى الآخرة أم لا يستحقها . بل وتنازع بعض الناس فى المقلد منهم أيضًا والكلام فى مقامين :

المقام الأول : فى شأن خطأ المخالف للحق وضلاله . وهذا مما يعلم بطرق متعددة عقلية وسمعية ، وقد يعرف الخطأ فى أقوال كثيرة من أهل القبلة المخالفين للحق ، وغير أهل القبلة بأنواع متعددة من الدلائل .

والمقام الثانى : الكلام فى كفرهم واستحقاق الوعيد فى الآخرة .

فهذا فيه ثلاثة أقوال للناس من أصحاب الأئمة المشهورين مالك والشافعى وأحمد لهم الأقوال الثلاثة .

قيل : إنه يعذب فى النار من لم يؤمن وإن لم يرسل إليه رسول لقيام الحجة عليه

بالعقل وهذا قول كثير ممن يقول بالحكم العقلى من أهل الكلام والفقه من أصحاب أبي حنيفة وغيرهم وهو اختيار أبى الخطاب .

وقيل : لا حجة عليه بالعقل بل لا يجوز أن يعذب من لم يقم عليه حجة لا بالشرع ، ولا بالعقل ، وهذا قولة من يجوز تعذيب أطفال الكفار ومجانينهم وهذا قول كثير من أهل الكلام كالجهم ، و كأبى الحسن الأشعرى ، وأصحابه ، والقاضى أبى يعلى ، وابن عقيل وغيرهم

والقول الثالث : وعليه السلف والأئمة : أنه لا يعذب إلا من بلغته الرسالة ، ولا يعذب إلا من خالف الرسل كما دل عليه الكتاب والسنة .

قال تعالى لإبليس : ﴿ لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ ، [سورة ص : ٨٥] وإذا كان كذلك فهو كما تناظر فيه أهل الكتاب متقدميهم ومتأخريهم ، تارة تتكلم فى المقام الأول ؛ وهو بيان مخالفتهم للحق وجهلهم وضلالهم ، فهذا تنبيه لجميع الأدلة الشرعية والعقلية وتبين كفرهم الذى يستحقون به العذاب فى الدنيا والآخرة ، فهذا أمره إلى الله ورسوله لا يتكلم فيه إلا بما أخبرت به الرسل ، كما إنا أيضاً لانشهد بالإيمان والجنة إلا لمن شهدت له الرسل ومن لم تقم عليه الحجة فى الدنيا بالرسالة كالأطفال والمجانين وأهل الفترات ، فهؤلاء فيهم أقوال أظهرها ما جاءت به الآثار أنهم يمتحنون يوم القيامة فيبعث إليهم من يأمرهم بطاعته ، فإن أطاعوه استحقوا الثواب وإن عصوه استحقوا العذاب

وإذا كان كذلك فنحن نشهد لمن كان مؤمناً بموسى متبعاً بأنه مؤمن مسلم مستحق للثواب .

وكذلك من كان مؤمناً بالمسيح متبعاً له . ونشهد لمن قامت عليه الحجة بموسى فلم يتبعه كآل فرعون أنهم من أهل النار .

وكذلك لمن قامت عليه الحجة بالمسيح الذين قال الله فيهم : ﴿ إنى منزلها عليكم فمن يكـــفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين ﴾ [سورة المائدة : ١١٥] : والذين قال فيهم :﴿ يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون * فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابًا شديدًا فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين * وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين ﴾ ، [سورة آل عمران ٥٥ ـ ٥٧] .

وأما من بعد عهده بالمسيح وبلغته بعض أخباره دون بعض ، أو بموسى وبلغته بعض أخباره دون بعض ، فهؤلاء قامت عليهم الحجة بما بلغتهم من أخبارهم دون ما لم يبلغهم من أخبارهم . وإذا اختلفوا فى تأويل بعض التوراة والإنجيل فمن قصد الحق واجتهد فى طلبه لم يجب أن يعذب ، وإن كان مخطئًا للحق جاهلا به ضالا عنه ، كالمجتهد فى طلب الحق من أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وعلى هذا فإذا قيل : إن الحواريين ، أو بعضهم ، أو كثيرًا من أهل الكتاب ، أو أكثرهم كانوا يعتقدون أن المسيح نفسه صلب . كانوا مخطئين فى ذلك ولم يكن هذا الخطأ مما يقدح فى إيمانهم بالمسيح إذا آمنوا بما جاء به ، ولا يوجب لهم النار فإن الأناجيل التى بأيدى أهل الكتاب فيها ذكر صلب المسيح وعندهم أنها مأخوذة عن الأربعة : مرقس ، ولوقا ، يوحنا ، ومتى ولم يكن فى الأربعة من شهد صلب المسيح ، ولا من الحواريين ، بل ولا فى أتباعه من شهد الصلب ، وإنما الذين شهدوا الصلب طائفة من اليهود فمن الناس من يقول : إنهم علموا أن المصلوب غيره وتعمدوا الكذب فى أنهم صلبوه وشبه صلبه على من أخبروهم . وهذا قول طائفة من أهل الكلام ، المعتزلة وغيرهم وهو قول ابن حزم وغيره . ومنهم من يقول : بل اشتبه على الذين صلبوه ، هذا قول أكثر الناس ، والأولون يقولون : ﴿ وما قتلوه

وما صلبوه ولكن شبه لهم ﴾ [سورة النساء :١٥٧]. أى : شبه للناس الذين أخبرهم أولئك بصلبه .

والجمهور يقولون : بل شبه للذين يقولون صلبوه كما قد ذكرت القصة فى غير هذا الموضع والمقصود هنا أن الناس فى هذا المقام على طرفين ووسط

وأما الطرف الواحد : فهم الغلاة من النصارى الذين يدعون أن الحواريين كانوا معصومين فيما يقولونه ، ويروونه ، ويرونه ، وكذلك يقولون بتصويب علماء النصارى فيما يقولونه من تأويل الإنجيل .

والطرف الآخر يقول : بل كل من غلط وأخطأ فى شئ من ذلك فإنه يستحق الوعيد بل كافر .

والثالث ، الوسط : أنهم لا يعصمون ، ولا يؤثمون بل قد يكونون مخطئين خطأ مغفوراً لهم إذا كانوا مجتهدين فى معرفة الحق واتباعه بحسب وسعهم وطاقتهم ، وعلى هذا تصح الأدلة الصحيحة وكتب الله تدل على ذم الضال والجاحد ومقته مع أنه لا يعاقب إلا بعد إنذاره.

وقد ثبت فى الصحيح عن عياض بن حماد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : (١) « إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب » فأخبر أنه مقتهم إلا هؤلاء البقايا . والمقت هو البغض بل أشد البغض ومع

---

(١) « صحيح »

رواه مسلم فى كتاب « الجنة وصفة نعيمها وأهلها » باب « الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل= = الجنة وأهل النار »

(٢١٩٧/٤ :٢١٩٩ ح٢٨٦٥)

ورواه النسائى فى الكبرى فى كتاب « فضائل القرآن » باب « قراءة القرآن على كل الأحوال »

(٢٦/٥ ح٨٠٧٠)،(٢٦/٥ :٢٧ ح٨٠٧١)

هذا فقد أخبر في القرآن إنه لم يكن ليعذبهم حتى يبعث إليهم رسولا ، فقال : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ [سورة الإسراء : ١٥] .و قال ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾ ، [سورة طه : ١٣٤]

وقال تعالى : ﴿ ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين ﴾ ، [سورة القصص : ٤٧] فدل ذلك على أن المقتضى لعذابهم قائم ولكن شرط العذاب هو بعد بلوغ الرسالة ، ولهذا قال ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ [سورة النساء : ١٦٥].

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (١) « ما أحد أحب إليه العذر من الله عز وجل : من أجل ذلك ، أرسل الرسل ، وأنزل الكتب » وفي رواية : « من أجل ذلك : بعث الرسل مبشرين ومنذرين ، وما أحد أحب إليه المدح من الله ، من أجل ذلك مدح نفسه ، وما من أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » وقد تنازع الناس في حسن الأقوال وقبحها كحسن العدل والتوحيد ، والصدق ، وقبح الظلم ، والشرك ، والكذب هل يعلم بالعقل أم لا يعلم إلا بالسمع ، وإذا قيل : إنه يعلم بالعقل فهل يعاقب من فعل ذلك قبل أن يأتيه رسول ؟ على ثلاثة أقوال معروفة في أصحاب الأئمة الأربعة وغيرهم وهي ثلاثة أقوال لأصحاب الإمام أحمد وغيرهم . فقال طائفة لا يعرف ذلك إلا بالشرع لا بالعقل ، وهذا قول نظار المجبرة كالجهم بن صفوان وأمثاله ، وهو قول أبي الحسن

---

(١) « متفق عليه »

رواه البخاري في كتاب « التوحيد » باب قول النبي صلى الله عليه وسلم « لا شخص أغير من الله » (٤١١/١٣ح٧٤١٦)

ورواه مسلم في كتاب « اللعان » باب « ١» (١١٣٦/٣ح١٤٩٩).

الأشعرى وأتباعه من أصحاب الأئمة الأربعة كالقاضى أبى بكر بن الطيب ، وأبى عبد الله بن حامد ، والقاضى أبى يعلى ، وأبى المعالى ، وأبى الوفاء ابن عقيل وغيرهم وقيل : بل قد يعلم حسن الأقوال وقبحها بالعقل .

وقال أبو الخطاب محفوظ بن أحمد : وهذا قول أكثر الفقهاء والمتكلمين ، وهذا هو المنقول عن أبى حنيفة نفسه ، وعليه عامة أصحابه ، وكثير من أصحاب مالك والشافعى ، وأحمد ، وأهل الحديث كأبى حسن التميمى ، وأبى الخطاب ، وأبى بكر القفال وأبى نصر السجزى ، وأبى القاسم سعد بن على الريحانى ، وهو قول الكرامية وغيرهم من نظار المثبتة للقدر ، وهو قول المعتزلة وغيرهم من نظار القدرية ، ثم هؤلاء على قولين :

منهم من يقول : يستحقون عذاب الآخرة بمجرد مخالفتهم للعقل كقول : المعتزلة والحنفية ، و أبى الخطاب ، وقول هؤلاء مخالف للكتاب والسنة .ومنهم من يقول : لا يعذبون حتى يبعث إليهم رسول كما دل عليه الكتاب والسنة . لكن أفعالهم تكون مذمومة ممقوتة يذمها الله ويبغضها ويوصفون بالكفر الذى يذمه الله ويبغضه ، وإن كان لا يعذبهم حتى يبعث إليهم رسولا ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح كما تقدم : (١) « إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب ، وإن ربى قال لى : قم فى قريش فأنذرهم . قلت : إذا يثلغوا رأسى حتى يدعوه خبزة . قال : إنى مبتليك ومبتل بك ومنزل عليك كتابًا لا يغسله الماء تقرأه نائمًا ويقظان فابعث جندًا أبعث مثليهم ، قاتل بمن أطاعك من عصاك وأنفق أنفق عليك . وقال : إنى خلقت عبادى حنفاء فاجتالتهم الشياطين . وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به

---

(١) تقدم تخريجه

سلطانًا »

وقال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث : (١) « كل مولود يولد على الفطرة » وفى رواية « على هذه الملة فأبواه يهودانه وينصرانه و يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسنون فيها من جدعاء » ثم يقول أبو هريرة رضى الله عنه (٢) « اقرءوا إن شئتم : فطرة الله التى فطر الناس عليها . قيل : يا رسول الله أرأيت من يموت صغير . قال : الله أعلم بما كانوا عاملين » ومع مقت الله لهم ، فقد أخبر أنه لم يكن ليعذبهم حتى يبعث إليهم رسولا . وهذا يدل على إبطال قول من قال إنهم لم يكونوا مسيئين ، ولا مرتكبين لقبيح حتى جاء السمع . وقول من قال : إنهم كانوا معذبين بدون السمع إما لقيام الحجة بالعقل كما يقوله من يقوله من القدرية وإما

---

(١) « متفق عليه » عن أبى هريرة

رواه البخارى فى كتاب « الجنائز » باب « ما قيل فى أولاد المشركين » (٣/٢٩٠ح١٣٨٥)ورواه أيضاً برقم(٤٧٧٥، ٦٥٩٩)

ورواه مسلم فى كتاب « القدر » باب « معنى كل مولود يولد على الفطرة ...» (٤/٢٠٤٧-٢٠٤٩ح٢٦٥٨)

ورواه أبو داود فى كتاب « السنة » باب « فى ذرارى المشركين » (١٢/٤٨٧، ٤٨٨ح٤٦٨٩)

ورواه الترمذى فى كتاب « القدر » باب « ماجاء فى كل مولود يولد على الفطرة » (٦/٣٤٤ح٢٢٢٣، ٢٢٢٤)

وقال : « هذا حديث حسن صحيح »

وقد رواه شعبة وغيره عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فقال « يولد على الفطرة »

(٢) « متفق عليه »

رواه البخارى فى كتاب « التفسير » باب « لا تبديل لخلق الله » (٨/٣٧٢ح٤٧٧٥)

رواه مسلم فى كتاب « القدر » باب « معنى كل مولود يولد على الفطرة ...» (٤/٢٠٤٧:٢٠٤٨ح٢٦٥٨رقم خاص(٢٢)

المحض وإما لمحض المشيئة ، كما يقوله المجبرة .

قال تعالى : ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلوا عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ ، [سورة القصص : ٥٩] .

وقال تعالى : ﴿ ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين ﴾ ،[سورة القصص : ٤٧] .

وقال تعالى ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾ ، [سورة طه: ١٣٤]

فهذا يبين أنه لم يكن ليعذب الكفار حتى يبعث إليهم رسولا ، وبين أنهم كانوا قبل الرسول قد اكتسبوا الأعمال التى توجب المقت والذم وهى سبب للعذاب لكن شرط العذاب قيام الحجة عليهم بالرسالة .

فصل

ومما ينبغى أن يعلم أن سبب ضلال النصارى وأمثالهم من الغالية كغالية العباد والشيعة وغيرهم ثلاثة أشياء :

أحدها : ألفاظ متشابهة مجملة مشكلة منقولة عن الأنبياء وعدلوا عن الألفاظ الصريحة المحكمة وتمسكوا بها ، وهم كلما سمعوا لفظًا لهم فيه شبهة تمسكوا به وحملوه على مذهبهم ، وإن لم يكن دليلا على ذلك . والألفاظ الصريحة المخالفة لذلك إما أن يفوضوها ، وإما أن يتأولوها كما يصنع أهل الضلال ؛ يتبعون المتشابه من الأدلة العقلية السمعية ويعدلون عن المحكم الصريح من القسمين .

والثانى : خوارق ظنوها من الآيات وهى من أحوال الشياطين ، وهذا مما ضل به كثير من الضلال المشركين وغيرهم مثل دخول الشياطين فى الأصنام وتكليمهم

للناس . ومثل إخبار الشياطين للكهان بأمور غائبة ، ولابد لهم مع ذلك من كذب .
مثل تصرفات تقع من الشياطين

والثالث : أخبار منقولة إليهم ظنوها صدقا وهى كذب . وإلا فليس مع النصارى ولا غيرهم من أهل الضلال على باطلهم لا معقول صريح ولا منقول صحيح ، ولا آية من آيات الأنبياء . وإن تكلموا بمعقول تكلموا بألفاظ متشابهة مجملة فإذا استفسروا عن معانى تلك الكلمات وفرق بين حقها وباطلها تبين ما فيها من التلبيس والاشتباه ، وإن تكلموا بمنقول . فإما أن يكون صحيحًا ولا يدل علي باطلهم ، وإما أن يكون غير ثابت بل مكذوب ، وكذلك ما يذكرونه من خوارق العادات ، وإما أن يكون صحيحًا قد ظهر على يد نبى كمعجزات المسيح من قبله كإلياس واليسع وغيرهما من الأنبياء ، وكمعجزات موسى صلى الله عليه وسلم فهذه حق . وإما أن تكون ظهرت على يد بعض الصالحين ، كالحواريين ، وذلك لا يستلزم أن يكونوا معصومين كالأنبياء فإن الأنبياء معصومون فيما يبلغونه لا يتصور أن يقولوا على الله إلا الحق ، ولا يستقر فى كلامهم باطل ،لا عمدا ولا خطأ .

وإما الصالحون : فقد يغلط أحدهم ويخطئ مع ظهور الخوارق على يديه ، وذلك لا يخرجه عن كونه رجلا صالحًا ، ولا يوجب أن يكون معصوما إذا كان هو لم يدع العصمة ، ولم يأت بالآيات الدالة على ذلك ، ولو ادعى العصمة وليس بنبى لكان كاذبًا لا بد أن يظهر كذبه فتقترن به الشياطين فتضله ويدخل فى قوله تعالى ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين * تنزل على كل أفاك أثيم ﴾ ، [سورة الشعراء : ٢٢١ . ٢٢٢] .

والنصارى عندهم منقول فى الأناجيل أن الذى صلب ودفن فى القبر رآه بعض الحواريين وغيرهم بعد أن دفن ، قام من قبره مرتين أو ثلاثا ، وأراهم موضع المسامير

، وقال : لا تظنوا أنى شيطان وهذا إذا كان صحيحاً فذاك شيطان ادعى أنه المسيح ، والتبس على أولئك ، ومثل هذا قد جرى لخلق كثير فى زماننا ، وقبل زماننا ، كناس كانوا ب « تدمر » فرأوا شخصاً عظيما طائراً فى الهواء ، وظهرلهم مرات بأنواع من اللباس ، قال لهم : أنا المسيح ابن مريم ، وأمرهم بأمور يمتنع أن يأمر بها المسيح ، وحضروا إلى عند الناس وبينوا أن ذلك هو شيطان أراد أن يضلهم

وآخرون يأتى أحدهم إلى قبر من يعظمه ويحسن به الظن من الصالحين وغيرهم ، فتارة القبر انشق وخرج منه إنسان على صورة ذلك الرجل ، وتارة يرى ذلك الإنسان قد دخل فى القبر و تارة يراه إما راكباً وإما ماشيا داخلا إلى مكان ذلك الميت كالقبة المبينة على القبر ، وتارة يراه خارجا من ذلك المكان ويظن أن ذلك هو ذلك الرجل الصالح ، وقد يظن أن قوماً استغاثوا به فذهب إليهم ويكون ذلك شيطانا تصور بصورته . وهذا جرى لغير واحد مما أعرفهم ، وتارة يستغيث أقوام بشخص يحسنون به الظن إما ميت غائب ، فيرونه بعيونهم قد جاء ، وقد يكلمهم وقد يقضى بعض حوائجهم ، فيظنونه ذلك الشخص الميت ، وإنما هو شيطان زعم أنه هو ، وليس هو إياه ، وكثيراً ما يأتى الشخص بعد الموت فى صورة الميت ، فيحدثهم ويقضى ديونا ، ويرد ودائع ويخبرهم عن الموت ، ويظنون أنه هو الميت نفسه قد جاء إليهم ، وإنما هو شيطان تصور بصورته .

وهذا كثير جداً لا سيما فى بلاد الشرك ، كبلاد الهند ونحوها ، ومن هؤلاء من تراه أنت تحت سريره آخذ بيد ابنه فى الجنازة ، ومنهم من يقول : إذا مت فلا تدعوا أحداً يغسلنى فأنا آتى من هذه الناحية أغسل نفسى ، فيأتى بعد الموت شخص فى الهواء على صورته يغسله هو ، والذى أوصاه ، ويظن ذلك أنه جاء ، وإنما هو شيطان تصور بصورته ، وتارة يرى أحدهم شخصاً إما طائراً فى الهواء وإما عظيم الخلقة ، وإما أن يخبره بأشياء غائبة ونحو ذلك ، ويقول له : أنا الخضر ، ويكون

ذلك شيطانًا كذب على ذلك الشخص ، وقد يكون الرائى من أهل الدين والزهد والعبادة وقد جرى هذا لغير واحد ، وتارة يرى عند قبر نبى أو غيره ، أن الميت قد خرج إما من حجرته ، وإما من قبره وعانق ذلك الزائر وسلم عليه ، ويكون شيطانًا تصور بصورته ، وتارة يجئ من يجئ إلى عند قبر ذلك الشخص فيستأذنه فى أشياء : يسأله عن أمور فيخاطبه شخص يراه أو يسمع صوتًا أو يرى شخصًا ، ويكون ذلك شيطانًا أضله .

وقد يرى أشخاصًا في اليقظة ، وإما ركبانا ، و إما غير ركبان ، ويقولون : هذا فلان النبى ، إبراهيم ، وإما المسيح ، وإما محمد ، وهذا فلان الصديق إما أبا بكر ، وإما بعض الحواريين وهذا فلان لبعض من يعتقد فيه الصلاح إما جرجس ، وإما غيره ممن تعظمه النصارى .وإما بعض شيوخ المسلمين ، ويكون ذلك شيطانًا ادعى أنه ذلك النبى ، أو ذلك الشيخ ، أو الصديق ، أو القديس .ومثل هذا يجرى كثيرًا لكثير من المشركين والنصارى ، وكثير من المسلمين ، ويرى أحدهم شيئ يحسن به الظن ويقول : أنا الشيخ فلا ، ويكون شيطانًا وأعرف من هذا شيئًا كثيرًا وأعرف غير واحد ممن يستغيث ببعض الشيوخ الغائبين ، الموتى ، يراه قد أتاه فى اليقظة وأعانه .

وقد جرى مثل هذا لى ولغيرى ممن أعرفه ، ذكر غير واحد أنه استغاث بى من بلاد بعيدة ، وأنه رآنى قد جئته ومنهم من قال : رأيتك راكبا بثيابك وصورتك ، ومنهم من قال : رأيتك على جبل ، ومنهم من قال : غير ذلك فأخبرتهم أنى لم أغثهم ، وإنما ذلك شيطان تصور بصورتى ليضلهم لما أشركوا بالله ، ودعوا غير الله .

وكذلك غير واحد ممن أعرفه من أصحابنا استغاث به بعض من يحسن به الظن ، فرآه قد جاء وقضى حاجته : قال صاحبى : أنا لا أعلم بذلك ، ومن هؤلاء الشيوخ

من يقول : أنه يسمع صوت ذلك الشخص المستغيث به ويجبه ، وتكون الشياطين أسمعته صوتًا يشبه صوت المستغيث به ، فأجابه الشيخ بصوته فأسمعت المستغيث صوتًا يشبه الشيخ ، فيظن أنه صوت الشيخ .

وهذا جرى لمن أعرفه فأخبر بذلك عن نفسه ، وقال : بقى الجنى الذى يحدثنى يبلغنى مثل صوت المستغيثين بى ، ويبلغهم مثل صوتى ، ويرينى فى شئ أبيض نظير ما أسأل عنه ، فأخبر به الناس أنى رأيته ، وأنه سيأتى ، ولا أكون قد رأيته ، وإنما رأيت شبهه .

وهكذا تفعل الجن بمن يعزم عليهم ويقسم عليهم .

وكذلك ما رآه قسطنطين من الصليب الذى رآه من نجوم ، والصليب الذى رآه مرة أخرى وهو ما مثله الشياطين ، و أراهم ذلك ليضلهم به ، كما فعلت الشياطين ما هو أعظم من ذلك لعباد الأوثان .

وكذلك من ذكر أن المسيح جاءه فى اليقظة وقال : إنه المسيح ، إنما هو شيطان من الشياطين ، كما جرى مثل ذلك لغير واحد .

والشيطان إنما يضل الناس ويغويهم بما يظن أنهم يطيعونه فيه فيخاطب النصارى بما يوافق دينهم ويخاطب من يخاطب من ضلال المسلمين بما يوافق اعتقاده وينقله إلى ما يستحب لهم فيه بحسب اعتقادهم

ولهذا يتمثل لمن يستغيث من النصارى بجرجس فى صورة جرجس ، أو بصورة من يستغيث به من النصارى من أكابر دينهم ، إما بعض البتاركة وإما بعض المطارنة وإما بعض الرهبان . ويتمثل لمن يستغيث به من ضلال المسلمين بشيخ من الشيوخ فى صورة ذلك الشيخ ، كما يتمثل لجماعة ممن أعرفه فى صورتى وفى صورة جماعة من الشيوخ الذين ذكروا فى ذلك ، ويتمثل كثيرًا فى صورة بعض

الموتى : تارة يقول : أنا الشيخ عبد القادر وتارة يقول : أنا الشيخ أبو الحجاج الأقصرى ، وتارة يقول : أنا الشيخ عدى ، وتارة يقول : أنا أحمد ابن الرفاعى وتارة يقول : أنا أبو مدين المغربى ، وإذا كان يقول : أنا المسيح ، أو إبراهيم ، أو محمد ؛ فغيرهم بطريق الأولى ، والنبى صلى الله عليه وسلم قال : (١) « من رآنى فى المنام فقد رآنى حقًا ، فإن الشيطان لا يتمثل فى صورتى »

وفى رواية « فى صورة الأنبياء »

فرؤيا الأنبياء فى المنام حق . وأما رؤية الميت فى اليقظة فهذا جنى تمثل فى صورته .

وبعض الناس يسمى هذا روحانية الشيخ ، وبعض الناس يقول . هى رفيقه وكثير من هؤلاء من يقوم من مكانه ويدع فى مكانه صورة مثل صورته وكثير من هؤلاء ومن هؤلاء يرى فى مكانين ويرى واقفا بعرفات . وهو فى بلده لم يذهب ، فيبقى الناس الذين لا يعرفون حائرين .

---

(١) « متفق عليه » عن أبى هريرة

رواه البخارى فى كتاب « تعبير الرؤيا » باب « من رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام » (٣٩٧/١٢ح٦٩٩٣)

ورواه مسلم فى كتاب « الرؤيا » باب « قول النبى صلى الله عليه وسلم : من رآنى فى المنام فقد رآنى »(١٧٧٥/٤ح٢٢٦٦)

ورواه أبو داود فى كتاب « الأدب » باب « فى الرؤيا »
(٣٦٦/١٣ح٥٠٠٢)

ورواه الترمذى فى « الشمائل » باب « ما جاء فى رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم (ص٣١٩ح٣٩٠) وأيضاً (ص ٣٢١ح٣٩٢)

وفى الباب عن وهب بن عبد الله وجابر بن عبد الله وعبد الله بن عباس وسعد بن مالك وأنس بن مالك وأبى قتادة .

فإن العقل الصريح يعلم أن الجسم الواحد لا يكون فى الوقت الواحد فى مكانين .

والصادقون قد رأوا ذلك عيانًا لا يشكون فيه ، ولهذا يقع النزاع كثيراً بين هؤلاء وهؤلاء ، كما جرى ذلك غير مرة .

وهذا صادق فيما رأى وشاهد ، وهذا صادق فيما دل عليه الصريح

لكن ذلك المرئى ، كان جنيًا تمثل فى صورة الإنسان والحسيات إن لم يكن معها عقليات تكشف حقائقها وإلا وقع فيها غلط كثير .

وهذا القسم المشهود فى الخارج عبر ما يتخيله الإنسان فى نفسه ، فإن هذا يعرفه جميع الناس ، ويعرفه جميع العقلاء ، ويتخيلون أشياء فى أنفسهم كما يتخيله النائم فى منامه ، وتكون تلك الصورة موجودة فى الخيال لا فى الخارج .

والفلاسفة وجميع العقلاء يعترفون بهذا ، لكن كثيراً من الفلاسفة يظن أن ما رأته الأنبياء من الملائكة . وما سمعته من الكلام كان من هذا النوع ، ويظنون أن ما يرى من الجن هو من هذا النوع ، وهؤلاء جهال غالطون فى هذا ، كما جهلوا وغلطوا فى ظنهم أن خوارق العادات سببها قوى نفسانية أو طبيعية ، أو قوى فلكية ، وأن الفرق بين النبى والساحر ، وإنما هو حسن قصد هذا : وفساد قصد ظن الآخر ، وإلا فكلاهما خوارق سببها قوى نفسانية أو فلكية ، وهذا النفى باطل ، كما قد بسطنا الكلام عليه وبينا جهل هؤلاء وضلالهم فى ذلك فى غير هذا الموضع .

والذين شاهدوا ذلك فى الخارج وثبت عندهم بالأخبار الصادقة المتواترة وجود ذلك فى الخارج يعلمون أن هؤلاء جاهلون ضالون ويعلمون أن الملائكة تظهر فى صورة البشر ، كما ظهرت لإبراهيم ، ولوط ، ومريم فى صورة البشر ، وكما كان جبريل يظهر للنبى صلى الله عليه وسلم تارة فى صورة دحية الكلبى ، وتارة فى صورة أعرابى ، ويراه كثير من الناس عيانًا وما فى خيال الإنسان لا يراه غيره ،

وكذلك لما ظهر الشيطان للمشركين فى صورة الشيخ النجدى ، وغيره ، وظهر لهم يوم بدر فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم ، فلما رأى الملائكة هرب .

قال تعالى : ﴿ وإذ زين الشيطان لهم أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جارلكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنى برئ منكم إنى أرى مالا ترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب ﴾ [سورة الأنفال : ٤٨] .

وروى عن ابن عباس وغيره ، قال (١) : تبدى إبليس فى جند من الشياطين ومعه راية فى صورة رجال من مدلج والشيطان فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم ، فقال : لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جارلكم وأقبل جبريل عليه السلام على إبليس فلما رآه وكانت يده فى يد رجل من المشركين نزع إبليس يده وولى مدبراً هو وشعبه ، فقال الرجل : ياسراقة أتزعم أنك لنا جار فقال إنى أرى مالا ترون ، وإنى أخاف الله، والله شديد العقاب .

قال ابن عباس : وذلك لما رأى الملائكة ، قال الضحاك : سار الشيطان معهم برايته وجنوده وألقى فى قلوب المشركين أن أحداً لن يغلبكم وأنتم تقاتلون على دينكم ودين آبائكم .

وكثير من الناس تحمله الجن إلى مكان بعيد فتنقل كثيراً من الناس إلى عرفات وغير عرفات ، وإذا رأى واحد من هؤلاء فى غير بلد يكون تارة محمولا وتارة قد حملته الجن وتارة قد تصورت على صورته ، ولا يكون هذا من أولياء الله المتقين

---

(١) انظر هذه الأقوال فى « تفسير » ابن جرير (١٠/١٤)

ورواه أيضاً البيهقى فى الدلائل » (٣/٧٨،٧٩)

وعزاها السيوطى فى الدر المنثور (٣/١٩٠) لابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل »

الذين لهم كرامات ، بل قد يكون من الكافرين ، أو الفاسقين ، وأعرف من ذلك قصصاً كثيرة ليس تفصيلها فى هذا الموضع .

وعند المشركين والنصارى من ذلك شئ كثير يظنونه من جنس الآيات التى للأنبياء ، وإنما هى من جنس ما للسحرة والكهان ، ومن لم يفرق بين أولياء الرحمن ، وأولياء الشيطان . ويفرق بين معجزات الأنبياء ، وكرامات الصالحين ، وبين خوارق السحرة والكهان ، ومن يقترن بهم الشياطين ، وإلا التبس عليه الحق بالباطل فإما أن يكذب بالحق الذى جاء به الأنبياء الصادقون وإما أن يصدق بالباطل الذى يقوله الكافرون والغالطون .

وهذه الأمور مبسوطة فى موضع آخر ، والمقصود هنا التنبيه على هذا الأصل وعلماء النصارى يسلمون هذا وعندهم من ذلك أخبار كثيرة من حكايات أولياء الشيطان الذين عارضهم أولياء الرحمن وأبطلوا أحوالهم كما أبطل موسى ما عارضه به السحرة من الخوارق ، كما ذكر فى التوراة وكما يذكرونه عن فلان وفلان مثل حكاية سيمون الساحر مع الحواريين وغير ذلك فإذا كان هذا معلوما كان ما يذكرونه من هذا الجنس ، إذا كان مخالفاً لما ثبت عن الأنبياء من الشيطان ، فلا يجوز أن يحتج على ما يخالف شرائع الأنبياء الثابتة عنهم ، بل هؤلاء من جنس الدجال الكبير الذى أنذرت به الأنبياء كلهم حتى نوح أنذر قومه . وقال خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم : (١) « مامن نبى إلا قد أنذر أمته حتى نوح أنذر قومه وسأقول لكم فيه

---

(١) « متفق عليه » عن ابن عمر

رواه البخارى فى كتاب « أحاديث الأنبياء » باب قوله تعالى : « ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه » (٤٢٧/٦ ح٣٣٣٧) ، ورواه أيضاً برقم (٦١٧٥، ٧١٢٧)

ورواه مسلم فى كتاب « الفتن » باب « ذكر ابن صياد » ، (٢٢٤٥/٤ حرقم خاص ١٦٩)

ورواه أبو داود فى كتاب « السنة » باب « فى الدجال » (١٠١/١٣ ح٤٧٣١)

ورواه الترمذى فى كتاب « الفتن » باب « ماجاء فى الدجال » (٤٩٢/٦، ٤٩٣ ح٢٢٣٦)

قولا لم يقله نبى لأمته : إنه أعور وأن ربكم ليس بأعور ، مكتوب بين عينيه كافـــر « ك ف ر » يقرؤه كل مؤمن قارئ وغير قارئ . وقال :(١) واعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت » وقد أخبر أن (٢)« المسيح عيسى ابن مـريم مسيح الهدى ينزل إلى الأرض على المنارة البيضاء شرقى دمشق ، فيقتل مسيح الضلالة ، وهذا هو الذى تنتظره اليهود ويجحدون المسيح عيسى ابن مـريم ويقولون : هذا هو الذى بشرت به الأنبياء » ويتبعه (٣) من يهود أصبهان سبعون ألفًا مطيلسين » (٤) ويقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم شر قتله حتى يقول الشجر والحجـر : يا مسلم هذا يهودى ورائى تعالى اقتله » وكل هذا ثابت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم . ولـهذا أمر أمته أن يستعيذوا بالله من فتنته فقال (٥) « إذا قعد أحدكم فى التشهد فى الصلاة فليتعوذ بالله من أربع : من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال »

والأنبياء كلهم أنذروا بالكذابين الذين يتشبهون بالأنبياء ، ولكن من الناس من

---

(١) ورواه مسلم فى كتاب « الفتن » باب « ذكر ابن صياد » (٢٢٤٥/٤حرقم خاص ١٦٩)
ورواه الترمذى فى كتاب « الفتن » باب « ماجاء فى الدجال » (٤٩٢/٦، ٤٩٣ح ٢٢٣٦)
ورواه البخاري في كتاب « الفتن » باب «ذكر الدجال» (٩٦/١٣ ، ٩٧ ح ٧١٢٧) دون ذكر الشاهد .
(٢) ، (٣) ، (٤) سبق تخريجه
(٥) « متفق عليه » عن أبي هريرة . رواه البخاري في كتاب « الآذان » باب الدعاء قبل السلام (٣٦٩/٢ ، ٣٧٠ ح ٨٣٢)
ورواه أيضا برقم (٨٣٣ ، ٢٣٩٧ ، ٦٣٦٨ ، ٦٣٧٥ ، ٦٣٧٦ ، ٦٣٧٧٧ ، ٧١٢٩)
ورواه مسلم فى كتاب « المساجد » باب « ما يستعاذ منه فى الصلاة » (٤١٢/١ :٤١٣ح٥٨٨)
ورواه أبو داود فى كتاب « الصلاة » باب « ما يقول بعد التشهد » (٢٧٣/٣ :٢٧٤ح٩٦٨)
ورواه النسائى فى كتاب « السهو» باب نوع آخر من الذكر »
(٥٨/٣) ورواه أيضاً (١٠٣/٤) وأيضاً (٢٧٥/٨، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨)
وفى الباب عن عائشة ، وابن عباس وكثير من الصحابة.

يتعمد الكذب ، وكثير منهم لا يتعمد ، بل يلتبس عليه فيغلط فيخبر بما يظنه حقًا ، ولا يكون كذلك ، يرى في اليقظة ما يظنه فلانًا الولي أو النبي أو الخضر ، ولا يكون كذلك الغلط جائز على كل أحد إلا الأنبياء عليهم السلام ، فأنهم معصومون لا يقرون علي خطأ : فمن لم يزن علومه وأعماله وأقواله وأفعاله بالمعلوم عن الأنبياء وإلا كان ضالا . نسأل الله العظيم أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم من النبين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا.

فصــل

والخوارق التى يضل بها الشياطين لبنى آدم مثل تصور الشيطان بصورة شخص غائب أو ميت ، ونحو ذلك ضل بها كثير من الناس من المنتسبين إلى المسلمين ، أو إلى أهل الكتاب وغيرهم بنوا ذلك على مقدمتين :

أحدهما : أن من ظهرت هذه على يديه فهو ولى لله وبلغة النصارى هو قديس عظيم .

الثاني : أن من يكون كذلك فهو معصوم وكل ما يخبر به حق وكل ما يأمر به فهو عدل ، وقد لا يكون ظهرت على يديه خوارق ، لا رحمانية ولا شيطانية ، ولكن صنع حيلة من حيل أهل الكذب والفجور . وحيل أهل الكذب والفجور كثيرة جداً ، فيظن أن ذلك من العجائب الخارقة للعادة ، ولا يكون كذلك مثل الحيل المذكورة عن الرهبان .

وقد صنف بعض الناس مصنفًا فى حيل الرهبان ، مثل الحيلة المحكية عن أحدهم فى جعل الماء زيتا بأن يكون الزيت فى جوف منارة ، فإذا نقص صب فيها ماء فيطفو الزيت على الماء ، فيظن الحاضرون أن نفس الماء انقلب زيتًا ومثل الحيلة المحكية عنهم في ارتفاع النخلة ، وهو أن بعضهم مر بدير راهب وأسفل منه نخلة

فرأوا النخلة صعدت شيئًا حتى حاذت الدير فأخذ من رطبها ثم نزلت حتى عادت كما كانت فكشف الرجل الحيلة فوجد النخلة فى سفينة فى مكان منخفض إذا أرسل عليه الماء امتلاء حتى تصعد السفينة وإذا صرف الماء إلى موضع آخر هبطت السفينة .

ومثل الحيلة المحكية عنهم فى التكحل بدموع السيدة العذراءوهو أنهم يضعون كحلا فى ماء متحرك حركة لطيفة فيسيل حتى ينزل من تلك الصورة فيخرج من عينها فيظن أنه دموع .

ومثل الحيلة التى صنعوها بالصورة التى يسمعونها القونة بصيدنايا وهى أعظم مزاراتهم بعد القيامة وبيت لحم ، حيث ولد المسيح وحيث قبر ، فإن هذه هى صورة السيدة مريم ، وأصلها حشة نخلة سقيت بالأدهان حتى سمنت وصار الدهن يخرج منها مصنوعًا يظن أنه من بركة الصورة ، ومن حيلهم الكثيرة النار التى يظن عوامهم أنها تنزل من السماء فى عيدهم قمامة وهى حيلة شهدها غير واحد من المسلمين والنصارى ورأوها بعيونهم أنها نار مصنوعة يصلون بها عوامهم يظنون أنها نزلت من السماء ويتبركون بها وإنما هى صنعة صاحب محال وتلبيس .

ومثل ذلك كثير من حيل النصارى فجميع ما عند النصارى المبدلين لدين المسيح من الخوارق . إما حال شيطانى . وإما محال بهتانى ليس فيه شئ من كرامات الصالحين .

وكذلك أهل الإلحاد المبدلين لدين محمد صلى الله عليه وسلم الذين يتخذون دينًا لم يشرعه الله ورسوله ويجعلونه طريقًا إلى الله ، وقد يختارونه على الطريق الذى شرعه الله ورسوله ، مثل أن يختاروا سماع الدفوف والشبابات على سماع كتاب الله تعالى ، فقد يحصل لأحدهم من الوجد والغرام الشيطانى ما يلبسه معه

الشيطان حتى يتكلم على لسان أحدهم بكلام لا يعرفه ذلك الشخص ، وإذا أفاق كما يتكلم الجنى على لسان المصروع ، وقد يخبر بعض الحاضرين بما فى نفسه ويكون ذلك من الشيطان فإذا فارق ذلك الشخص لم يدر ماقال .ومنهم من يحمله الشيطان ويصعد به قدام الناس فى الهواء .

ومنهم من يشير إلى بعض الحاضرين فيموت أو يمرض أو يصير مثل الخشبة

ومنهم من يشير إلى بعض الحاضرين فيلبسه الشيطان ويزول عقله حتى يبقى دائراً زمانًا طويلا بغير اختياره.

ومنهم من يدخل النار ويأكلها ويبقى لهبها فى بدنه وشعره .

ومنهم من تحضر له الشياطين طعامًا أو شيئًا من لادن أو سكر أو زعفران أو ماء ورد ومنهم من تأتيه بدراهم تسرقها الشياطين من بعض المواضع .

ثم من هؤلاء إذا فرق الدراهم على الحاضرين أخذت منهم ، فلا يمكنون من التصرف فيها إلى أمور يطول وصفها وآخرون ليس لهم من يعينهم على ذلك من الشياطين ، فيصنعون حيلا ومخاريق .

فالملحدون المبدلون لدين الرسل ، ودين المسيح ، وأودين محمد صلى الله عليه وسلم كأمثالهم من أهل الإلحاد والضلال والكفار ، المرتدين المشركين وغيرهم كمسيلمة الكذاب ، والأسود العنسى ، والحارث الدمشقى ، وبابا الرومى وغيرهم ممن لهم خوارق شيطانية .

وأما أهل الحيل فيكثرون ، وهؤلاء ليسوا أولياء لله ، بل خوارقهم إذا كانت شيطانية من جنس خوارق الكهنة والسحرة ، لم يكن لهم حال شيطانى بل محال بهتانى . فهم متعمدون الكذب والتلبيس ، بخلاف من يقترن به الشياطين فإن فيهم من يلبس عليه ، فيظن أن هذا من جنس كرامات الصالحين ، كما أن فيهم من يعرف

أن ذلك من الشياطين ، ويفعله لتحصيل أغراضه ، فالمقصود أنه كثير من الخوارق ، ما يكون من الشياطين . أو يكون حيلا ومخاريق ، ويظن أنها من كرامات الصالحين فإن ما يكون سببه الشرك أو الفجور ، وإنما يكون من الشياطين ، مثل أن يشرك الرجل بالله فيدعو الكواكب أو يدعو مخلوقا من البشر ميتًا أو غائبًا أو يعزم أو يقسم بأسماء مجهولة لا يعرف معناها ، أو يعرف أنها أسماء الشياطين ، أو يستعين بالفواحش والظلم ، فإن ما كان هذا سببه من الخوارق فهو من الشيطان ، كما قد بسط الكلام على ذلك فى غير هذا الموضع .

والصالحون لهم كرامات مثل كرامات صالحى هذه الأمة ، ومثل كرامات الحواريين وغيرهم ممن كان على دين المسيح ، لكن وجود الكرامات على أيدى الصالحين لا توجب أن يكونوا معصومين كالأنبياء ، بل يكون الرجل صالحًا وليًا لله وله كرامات ، ومع هذا فقد يغلط ويخطئ فيما يظنه ، أو فيما يسمعه ويرويه ، أو فيما يراه ، أو فيما يفهمه من الكتب ، ولهذا كان كل من سوى الأنبياء يؤخذ من قولهم ويترك ، بخلاف الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، فإنه يجب تصديقهم فى كل ما أخبروا به من الغيب وطاعتهم فى كل ما أمروا به ، لهذا أوجب الله الإيمان بكل ما أتوه ، ولم يوجب الإيمان بجميع ما يأتى به غيرهم .

قال تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ ، [سورة البقرة : ١٣٦] .

وقال تعالى ﴿ ليس البرأن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب و لكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾ . [سورة البقرة : ١٧٧] .

ولهذا اتفق المسلمون على أن من كذب نبيًا معلوم النبوة فهو كافر مرتد ومن سب نبيًا وجب قتله بل يجب الإيمان بجميع ما أوتيه النبييون كلهم ، وأن لا يفرق بين

أحد منهم ، فيؤمن ببعض ، ويكفر ببعض . قال تعالى ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا * أولئك هم الكافرون حقًا وأعتدنا للكافرين عذابًا مهينًا ﴾ ، [سورة النساء : ١٥٠ ، ١٥١] وليس هذا لأحد غير الأنبياء ، ولو كان من رسل الأنبياء ، وكانوا من أعظم الصديقين المقدمين .

فصل

فضلال الضلال من هؤلاء مبنى على مقدمتين .

إحداهما : أن هذا له كرامة فيكون وليًا لله.

والثانية : أن ولى الله لا يجوز أن يخطئ ، بل يجب تصديقه فى كل ما أخبر وطاعته فى كل ما أمر ، وليس لأحد من البشر أن يصدق فى كل ما أخبر به ، ويطاع فى كل ما أمر إلا أن يكون نبيًا .

والمقدمتان المذكورتان ، قد تكون إحداهما باطلة وقد يكون كلاهما باطلا فالرجل المعين ، قد لا يكون من أولياء الله وتكون خوارقه من الشياطين ، وقد يكون من أولياء الله ولكن ليس بمعصوم ، بل يجوز عليه الخطأ . وقد لا يكون من أولياء الله ولا يكون له خوارقه ولكن له محاولات وأكاذيب .

والمسلمون وأهل الكتاب متفقون على إثبات مسيحين ، مسيح هدى من ولد داود ومسيح ضلال . يقول أهل الكتاب : إنه من ولد يوسف ومتفقون على أن مسيح الهدى سوف يأتى كما يأتى مسيح الضلالة ، لكن المسلمين والنصارى يقولون : مسيح الهدى هو عيسى ابن مريم ، وإن الله أرسله ثم يأتى مرة ثانية ، ولكن المسلمون يقولون : إنه ينزل قبل يوم القيامة فيقتل مسيح الضلالة ، ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ولا يبقى دينًا إلا دين الإسلام ؛ ويؤمن به أهل الكتاب

اليهود والنصارى . كما قال تعالى : ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾ ، [سورة النساء : ١٥٩] .

والقول الصحيح الذى عليه الجمهور قبل موت المسيح ، وقال تعالى : ﴿وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها ﴾ [سورة الزخرف : ٦١]

وأما النصارى فينظنون أنه الله وأنه يأتى يوم القيامة لحساب الخلائق وجزائهم ، وهذا مما ضلوا فيه . واليهود تعترف بمجئ مسيح هدى يأتى . لكن يزعمون أن عيسى عليه السلام لم يكن مسيح هدى ، لزعهم أنه جاء بدين النصارى المبدل ، ومن جاء به فهو كاذب ، وهم ينتظرون المسيحين .

فصل

قالوا : وقال فى سورة آل عمران : ﴿ فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير ﴾ [سورة آل عمران : ١٨٤] .

فعنى أيضاً بالكتاب المنير ، الذى هو الإنجيل المقدس .

فيقال : قد تقدم أن الرسل يتناول قطعاً الرسل الذين ذكرهم الله فى القرآن لا سيما أولى العزم كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ، فإن هؤلاء مع محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبين صلوات الله عليهم وسلامه ، خصهم الله وفضلهم بقوله تعالى : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً * ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذاباًأليما ﴾ ، [سورة الأحزاب : ٧ ، ٨] .

وفى قوله تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ [سورة الشورى : ١٣] ، فالدين دين رسل الله ، دين واحد كما بينه الله فى كتابه وكما

ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : (١) « إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد وأنا أولى الناس بابن مريم لأنه ليس بينى وبينه نبى »

ويتناول أيضًا اسم الرسل من لم يسمهم بأعيانهم فى القرآن . قال تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داوود زبوراً * ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما * رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزًا حكيمًا ﴾ [سورة النساء : ١٦٣ - ١٦٥] .

وقال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ ، [سورة غافر : ٧٨] .

وأما الحواريون فإن الله تعالى ذكرهم فى القرآن ، ووصفهم بالإسلام واتباع الرسول والإيمان بالله ، كما أنزل فى قوله تعالى ﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون * ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٥٢ ، ٥٣] .

وقال تعالى : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى و برسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾ ، [سورة المائدة : ١١١]

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بنى

---

(١) سبق تخريجه .

إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ [سورة الصف : ١٤] ولم يذكر الله تعالى في القرآن أنه أرسلهم البتة . بل ذكر أنه ألهمهم الإيمان به وبرسوله أنهم أمروا باتباع رسوله وقوله ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين ﴾ [سورة المائدة :١١١] لا يدل على النبوة فإنه قال تعالى﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾ ، [سورة القصص : ٧] . وأم موسى لم تكن نبية ، بل ليس في النساء نبية كما تقوله عامة علماء النصاري والمسلمين . وقد ذكر إجماعهم على غير واحد ، مثل القاضيين أبي بكر بن الطيب وأبي يعلى ابن أبي الفرا ، والأستاذ أبي المعالي الجويني وغيرهم . ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى ﴾ ، [سورة يوسف : ١٠٩] .

وقوله تعالى ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد دخلت من قبله الرسل وأمه صديقة ، [سورة المائدة : ٥٧] فجعل غاية مريم الصديقة كما جعل غاية المسيح الرسالة .

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (١) « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربعة : مريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم »

---

(١) رواه البخاري في كتاب « أحاديث الأنبياء » باب قوله تعالى « وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون ...الآية » (٥١٤/٦ح٣٤١١) ، ورواه أيضاً برقم (٣٤٣٣، ٣٧٦٩، ٥٤١٨)

ورواه مسلم في كتاب « فضائل الصحابة » باب « فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها » (١٨٨٦/٤، ١٨٨٧ح٢٤٣١)

ورواه الترمذي في كتاب «الأطعمة » باب « ما جاء في فضل الثريد » (٥٦٣/٥، ٥٦٤ح١٨٩٤)

وقال : وفي الباب عن عائشة وأنس

ورواه النسائي في الكبرى في كتاب « المناقب » باب مناقب مريم بنت عمران » (٩٣/٥ح٨٣٥٣)

ورواه ابن ماجه في كتاب « الأطعمة » باب « فضل الثريد على الطعام » (١٠٩١/٢ح٣٢٨٠)

يعنى من نسـاء الأمم قبلنا ، وهذا يدل عـلى أن أم موسى ليـست ممن كمل من النسـاء فكيف تكون نبية ؟ وقوله تعـالى : ﴿ جـاءوا بالبينات والزبر والكتـاب المنير ﴾ [سورة آل عمران : ١٨٤] . والكتاب اسم جنس كـما تقدم يتناول كل كتاب أنزله الله تعـالى . وقـال الله تعالى ﴿ ومن الناس يجـادل فى الله بغيـر علم ولا هدى ولا كـتاب منير ﴾ ، [سورة الحج : ٨] وقـوله : ولا كـتاب منيـر ، نكرة فى سيـاق النفى ، نعم كل كـتـاب منيـر ، ولو لم يكن إلا الإنجـيل ؛ لقيل ولا الكـتاب المنيـر . وأيضًا فـالتـوراة أعظم من الإنجـيـل وقد بين الله أنه لـم ينزل كتـابًا أهدى من التـوراة والقـرآن . فقال تـعالى ﴿ قـالوالولا أوتى مثل مـا أوتى موسى أولم يكفـروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران ـ وقـرئ « ساحران » ـ تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون * قل فأتوا بكتاب مـن عند الله هو أهدى منهما أتبعـه إن كنتم صادقين ﴾ ، [سورة القـصص : ٤٨ ، ٤٩] وهذا تعجيز لـهـــم أن يأتوا بكتـاب من عند الله هو أهدى منهمـــا كقـــوله : ﴿ أم يقـولون افتراه قل فـأتوا بسورة مثـله ﴾ ، [سورة يونس : ٣٨] . وهذا يبين أنه ليس الإنجيل ولا الزبور أهدى من التوراة والقرآن فكيف يجعل الكتـاب المنيـر هو الإنجيل دون التـوراة والزبور ؟ وأيـضًا فإن الـله تعـالى إنما يخص بالذكر من الكتب المتقدمة التوراة دون غيرها ، فهى التى يقرنها بالقرآن كقوله تعالى ﴿ ومـا قـدروا الله حق قـدره إذ قـالـوا مـا أنزل الله على بشـر مـن شئ قل من أنزل الكتاب الذى جـاء به موسى نورًا وهدى للناس تجـعلونه قراطيس تبـدونها وتخـفون كثيـرًا وعلمتم مالم تعلمـوا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون * وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخـرة يؤمنون به وهم على صـلاتهم يحـافظون ﴾ ، [سـورة الأنعـام : ٩١ ، ٩٢] .

وقد وصف التـوراة بأن فيها نورًا وهدى للناس ، فكيف يجـعل النور فى الإنجيل

دونها ؟ وقال تعالى : ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب تمامًا على الذى أحسن وتفصيلا لكل شئ وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون * وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون * أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٥٤ - ١٥٦] فقد ذكر التوراة والقرآن ، وقولهم أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا فبين الكتاب اسم جنس يتناول هنا التوراة والأنجيل كقوله تعالى ﴿ يا أهل الكتاب ﴾ وقوله : ﴿ وطعام الذين أوتو الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ﴾ ، [سورة المائدة : ٥]

فذكر الكتاب بلفظ المفرد ، ومعلوم أنه أراد بالذين أوتو الكتاب من قبلنا اليهود والنصارى لا تختص ذلك بالنصاري كما قال ﴿ أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ﴾ [سورة الأنعام ١٦٦] ، وقد تبين بطلان قول هؤلاء الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويفسرون كلام الله ورسوله بما يعلم كل من عرف حاله من مؤمن وكافر أنه لم يرده . وبين أن الله لم يرد بالكتاب الإنجيل وحدة ، كما لم يرد بالرسل الحواريين ، بل أراد بالكتاب المنير ما أنزله الله من الكتب كالتوراة والإنجيل ، كما أراد بالرسل من أرسله الله مطلقًا كنوح وإبراهيم وموسى والمسيح ابن مريم صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين

فصل

قالوا وقال أيضًا : ﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴾ ، [سورة يونس : ٩٤] ، فيقال لهم : من المعلوم بالاضطرار أنه ليس المراد بهذا النصارى فقط كما تقدم ، بل اليهود يقرءون الكتاب من قبلنا ، والنصارى يقرءون الكتاب من قبلنا ، والكتاب اسم جنس كما تقدم نظائره في قوله : ﴿ أن تقولوا إنما أنزل الكتاب

علي طائفتين من قبلنا ﴾ [سورة الأنعام : ١٦٦] وقوله : ﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب ﴾ ، [سورة المائدة : ٥] وقوله : ﴿ يا أهل الكتاب ﴾ ،[سورة آل عمران : ٦٤] في غير موضع وقوله ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ﴾ ، [سورة البينة : ١].

وقوله تعالى : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائمًا بالقسط لا إلا هو العزيز الحكيم * إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيًا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب * فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتو الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٨ - ٢٠] .

وقد قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين أوتو الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقًا لما معكم من قبل أن نطمس وجوهًا فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا ﴾ ، [سورة النساء : ٤٧] .

وتناول لفظ أهل الكتاب هنا لليهود ، وأظهر من تناوله للنصارى لذكره لعنة أصحاب السبت وكذلك قوله تعالى : ﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٧٢] فهذا خبر عن طائفة من اليهود قالوا ذلك وقال تعالي : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقًا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٠٠] . وسبب نزولها ، أراد طائفة من اليهود إلقاء الفتنة بين المسلمين فهم داخلون قطعًا وإن كان الخطاب مطلقًا يتناول الطائفتين وأمره تعالى بسؤال الذين يقرءون الكتاب من قبله على تقدير الشك ، لا يقتضى أن يكون الرسول شك ولا سأل ، وإن قيل الخطاب له وإن قيل لغيره فهو أولى وأحرى .

فإن تعليق الحكم بالشرط لا يدل على تحقيق الشرط . بل قد يتعلق بشرط ممتنع لبيان حكمة قال تعالى : ﴿ ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين وإسماعيل واليسع ويونس ولوطًا وكلا فضلنا على العالمين * ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم * ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾ ، [سورة الأنعام : ٨٤ - ٨٨] فأخبر أنهم لو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ، مع انتفاء الشرك عنهم بل مع إمتناعه لأنهم قد ماتو ، ولأن الإنبياء معصومون من الشرك . وقال تعالى ﴿ قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون * ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين * بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ [سورة الزمر : ٦٤ - ٦٥] .

فهذا خطاب للجميع . وذكر هنا لفظ « إن » لأنه خطاب لموجود وهناك خبر عن ميت وكذلك قوله ﴿ فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل ﴾ ، [سورة يونس : ٩٤]لا يدل على وقوع الشك ، ولا السؤال . بل النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن شاكا ولا سأل احدًا منهم . بل روى عنه أنه قال : (١) « والله لا أشك ولا أسأل » ولكن المقصود بيان أن أهل الكتاب عندهم ما يصدقك فيما كذبك فيه الكافرون . كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ ، [سورة الرعد : ٤٣] .

وقال تعالى ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ ،

---

(١) ذكر هذا عن « قتادة » كما رواه ابن جرير الطبرى فى « تفسيره » (١١/١١٦)
وعزاه السيوطى فى « الدر المنثور » (٣/٣١٧) ، لعبد الرزاق وابن جرير .

[سورةالأحقاف : ١٩] .

وقال تعالى : ﴿ أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل ﴾ ، [سورة الشعراء : ١٩٧] .

وقال تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ﴾ ، [سورة القصص : ٥٢ ، ٥٣] ، وقال ﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً * ويقولون سبحانه ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا * ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا ﴾ [سورة الإسراء : ١٠٧ ، ١٠٩] .

وقال تعالى : ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ ، [سورة المائدة : ٨٣]

وقال تعالى : ﴿ لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك ﴾ ، [سورة النساء : ١٦٢] .

وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ ، [سورة الأنبياء : ٧] .

وقال تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناهم ﴾ ، [سورة الأنعام : ٢٠]

فالمقصود : بيان أن أهل الكتاب عندهم ما يصدقك فيما كذبك فيه الكافرون وذلك من وجوه :

أحدها : أن الكتب المتقدمة تنطق بأن موسى وغيره دعوا إلى عبادة الله وحده ونهوا عن الشرك فكان فى هذا حجة على من ظن أن الشرك دين . ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة

يعبدون ﴾ ، [سورة الزخرف : ٤٥] .

وقوله تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ ، [سورة النحل : ٣٦] .

الوجه الثانى : أن أهل الكتاب يعلمون أن الله إنما أرسل إلى الناس بشراً مثلهم ، لم يرسل ملكا ، فإن من الكفار من كان يزعم أن الله لا يرسل إلا ملكا أو بشراً معه ملك ويتعجبون من إرسال بشر ليس معه ملك ظاهر ، كما قال تعالى ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا * قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾ ، [سورة الإسراء : ٩٤ ، ٩٥] .

وقال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون * فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين * إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين ﴾ . [سورة المؤمنون : ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥] .

وقال تعالى : ﴿ كذبت ثمود بالنذر * فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذاً لفى ضلال وسعر ﴾ ، [سورة القمر : ٢٣ ، ٢٤] ، وكذلك قال الذين من بعدهم : ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون * ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون ﴾ ، [سورة المؤمنون : ٣٣ ، ٣٤] .

وكذلك قال فرعون لموسى وهارون : ﴿ أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ﴾ [سورة المومنون : ٤٧] . وقال فرعون : ﴿ أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين * فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة

مقترنين ﴾ ، [سورة الزخرف : ٥٢ ، ٥٣] وكذلك قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم قال تعالى : ﴿ آلر تلك آيات الكتاب الحكيم * أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾ ، [سورة يونس : ١ ، ٢] .

وقال تعالى : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون * ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾ ، [سورة الأنعام : ٨ ، ٩] .

فبين سبحانه أنكم لا تطيقون التلقى عن الملك ، فلو أنزلناه ملكا لجعلناه فى صورة بشر . وحينئذ كنتم تظنونه بشراً فيجعل اللبس عليكم . فأمر الله تعالى بسؤال أهل الكتاب عمن أرسل إليهم أكان بشراً أم كان ملكا ليقيم الحجة بذلك على من أنكر إرسال بشر ، كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون * وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين * ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين ﴾ [سورة الأنبياء : ٧ - ٩]

وأهل الذكر هم أهل الذكر الذى أنزله الله تعالى .

الوجه الثالث : أنهم يسألون أهل الكتاب عما جرى للرسل مع أممهم ، وكيف كان عاقبة المؤمنين بهم ، وعاقبة المكذبين لهم

الوجه الرابع : يسألون أهل الكتاب عن الدين الذى بعث الله به رسله وهو دين الإسلام الذى اتفقت عليه الرسل ، كالأمر بالتوحيد ، والتصديق والعدل ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والنهى عن الشرك ، والظلم والفواحش .

الوجه الخامس : يسألونه عما وصفت به الرسل ربهم ، هل هو موافق لما وصفه

به محمد أم لا ؟ وهذه الأمور المسئول عنها متواترة عند أهل الكتاب معلومة لهم ليست مما يشكون فيه ، وليس إذا كان مثل هذا معلوما لهم بالتواتر فيسألون عنه يجب أن يكون كل ما يقولونه معلوماً لهم بالتواتر . وأيضاً فإنهم يسألون أيضاً عما عندهم من الشهادات والبشارات بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقد أخبر الله بذلك فى القرآن فقال تعالى : ﴿ ورحمتى وسعت كل شئ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ﴾ [الأعراف : ١٥٦ ، ١٥٧] .

وقال تعالى : ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾ ، [سورة الصف : ٦] .

فقد أخبر عن عيسى أنه صدق بالرسول والكتاب الذى قبله وهو التوراة وبشر بالرسول الذى يأتى بعده وهو أحمد . قال تعالى : ﴿ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون ﴾ إلى قوله : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ ، [سورة البقرة : ١٤٤ - ١٤٦] .

وقال تعالى : ﴿ وإنه لتنزيل رب العلمين * نزل به الروح الأمين * علي قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربى مبين * وإنه لفى زبر الأولين * أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل ﴾ ، [سورة الشعراء : ١٩٢ - ١٩٧] .

وقال تعالى عن من أثنى عليه من النصارى : ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا ﴾ ، [سورة المائدة : ٨٤] .

وقال تعالى : ﴿ وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا * قل آمنوا به أو لا تومنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً * ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا * ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً ﴾ ، [سورة الإسراء : ١٠٥ - ١٠٨] .

وقال تعالى : ﴿ أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين ﴾ [سورة الأنعام : ١١٤] .

وقال تعالى : ﴿ ولقد وصّلنا لهم القول لعلهم يتذكرون * الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ ، [سورة القصص : ٥٢ - ٥٤] .

وقال تعالى في سورة الأنعام آية ٢٠ ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾

وقال تعالى : ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾ ، [سوة البقرة : ٨٩].

والأخبار بمعرفة أهل الكتاب بصفة محمد صلى الله عليه وسلم عندهم فى الكتب المتقدمة متواترة عنهم وكان قبل أن يبعث النبى صلى الله عليه وسلم تجرى حروب

وقتال بين العرب وبين أهل الكتاب فيقول أهل الكتاب : قد قرب مبعث هذا النبى الأمى الذى يبعث بدين إبراهيم ، فإذا ظهر اتبعناه وقتلناهم معه شر قتلة فلما بعث النبى صلي الله عليه وسلم كان منهم من آمن به ، ومنهم من كفر به فقال تعالى: ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون ﴾ أى يستنصرون بمحمد صلى الله عليه وسلم على الذين كفروا ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾ ، ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم فى خطابه لأهل الكتاب يقول لهم : « والله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنى رسول الله » وكذلك من أسلم منهم كعبد الله ابن سلام وكان يقول لغيره من أهل الكتاب « والله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله » وهذا أمر معروف فى الأحاديث الصحاح والمخرجة فى الصحيحين وغيرهما فظهر بما ذكرناه تحريف هؤلاء لكلام الله وأنه لا حجة لهم فيما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم كما تقدم نظائر ذلك .

فصل

قالوا : فثبت بهذا ما معناه نعم ، ونفى عن إنجيلنا وكتبنا التى فى أيدينا التهم والتبديل لها ، والتغيير لما فيها بتصديقه إياها . فيقال : كلامكم الذى تحتجون به فى هذا الموضع وغيره ،وإما أن يكون باطلا محضاً وإما أن يكون مما لبستم فيه الحق بالباطل ، فإن قولكم بتصديقه إياها وإن أردتم أنه صدق التوراة والإنجيل والزبور التى أنزلها الله على أنبيائه ، فهذا لا ريب فيه ، فإن هذا مذكور فى القرآن فى غير موضع وقد أوجب على عباده أن يؤمنوا بكل كتاب أنزله وكل نبى من الأنبياء مع اخباره أنه أنزل هذه الكتب قبل القرآن وأنزل القرآن مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه .

قال تعالى : ﴿ الم * الله لا إله إلا هو الحى القيوم * نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل * من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان ﴾ ،

[سورة آل عمران : ١ - ٤] .

وقال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٨] .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت ﴾ [سورة النساء : ٤٧] .

وقال تعالى : ﴿ آلم * الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ [سورة آل عمران ٧،٦] . وقال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه ﴾ [سورة المائدة : ٤٨] ، ﴿ . وقال : والذى أوحينا إليك من الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه ﴾ [سورة فاطر: ٣١] . وقال : ﴿ والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقاً لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير ﴾ ، [سورة فاطر : ٣١] . وقال : ﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ﴾ ، [سورة البقرة : ١٠١] . وقال ﴿ آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم ﴾ ، [سورة النساء ٤٧]

وقد أوجب على عباده أن يؤمنوا بجميع كتبه ورسله ، وحكم بكفر من آمن ببعض وكفر ببعض ، فقال تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون * فإن آمنوا بمثل ما ءامنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ ، [سورة البقرة : ١٣٦ ، ١٣٧] .

وقال تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٨٥] .

وقال تعالى : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا * أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً * والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ ، [سورة النساء : ١٥٠ - ١٥٢] .

فذم المفرق بينهم بأن يؤمن ببعض دون بعض وبين أنه فضل بعضهم على بعض ، فقال تعالى : ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٥٣]. .فبين أنه فضل بعضهم على بعض ، قال تعالى : ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ﴾ ، [سورة الإسراء : ٥٥] .

وقد اتفق المسلمون على ما هو معلوم بالاضطراد من دين الإسلام وهو أنه يجب الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين وبجميع ما أنزل الله من الكتب ، فمن كفر بنبى واحد تعلم نبوته مثل إبراهيم ولوط وموسى وداود وسليمان ويونس وعيسى فهو كافر عند جميع المسلمين حكمه حكم الكفار ، وإن كان مرتداً استتيب فإن تاب وإلا قتل . ومن سب نبياً واحداً من الأنبياء قتل أيضاً باتفاق المسلمين وما علم المسلمون أن نبياً من الأنبياء أخبر به فعليهم التصديق به كما يصدقون بما أخبر به محمد صلى الله عليه وسلم وهم يعلمون أن أخبار الأنبياء لا تتناقض ولا تختلف ، وما لم يعلموا أن النبى أخبر به فهو كما لم يعلموا أن محمدا أخبر به صلى الله عليه وسلم عليهم أجمعين ولكن يكذبون إلا بما علموا أنه كذب كما لا يجوز أن يصدقوا إلا بما علموا أنه صدق ، وما لم يعلموا أنه كذب ولا صدق لم يصدقوا به ولم يكذبوا به كما أمرهم نبيهم محمد عليه السلام ، وبهذا أمرهم المسيح عليه السلام فقال : « الأمور ثلاثة : أمر تبين رشده فاتبعوه ، وأمر تبين غيه فاجتنبوه ، وأمر اشتبه عليكم فكلوه إلى عالمه » .

فصــل

وإن أرادوا بتصديقه كتبهم أنه صدق ما هم عليه من العقائد والشرائع التى ابتدعوها بغير إذن من الله وخالفوا بها ما تقدمه مع شرائع المسلمين أو خالفوا بها الشرع الذى بعث به مثل القول بالتثليث والأقانيم ، والقول بالحلول والاتحاد بين اللاهوت والناسوت ، وقولهم إن المسيح هو الله وابن الله وما هم عليه من إنكار ما يجب الإيمان به من الإيمان بالله واليوم الآخر ومن تحليل ما حرمه الله ورسله كالخنزير وغيره ، وبين أنهم لا يدينون بدين الحق الذى أنزل به كتابه وأرسل به رسوله بل بدين مبتدع ابتدعه لهم أكابرهم كما قال تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ﴾ ، [سورة التوبة : ٣١] . وقد بين النبى صلى الله عليه وسلم ذلك لعدى بن حاتم وكان نصرانياً لما جاءه ليؤمن به وقد آمن به عدى وكان من خيار الصحابه فسمعه يقرأ هذه الآية : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ ، [سورة التوبة : ٣١] قال عدى : قلت يارسول الله ما عبدوهم . قال : (١) « إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال » فكانت

---

(١) رواه الترمذى فى كتاب « التفسير » باب « ومن سورة التوبة » (٨/٤٩٢، ٤٩٣ح٥٠٩٣)

وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب وغطيف بن أعين ليس بمعروف فى هذا الحديث وقد حسنه فى طبعات أخرى .

ورواه الطبرى فى « تفسيره » (١٠/٨٠)

ورواه الطبرانى فى « الكبير » (١٧/٩٢ح٢١٨، ٢١٩)

وعزاه السيوطى فى « الدر المنثور » (٣/٢٣٠، ٢٣١)

لابن سعد وعبد بن حميد والترمذى وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى فى سننه

وحسنه الألبانى فى « صحيح سنن الترمذى »

(٣/٤٥٦ح٢٤٧١)

تلك عبادتهم إياهم .فإن أرادوا بتصديقهم كتبهم فى هذه الأمور أو أن محمداً صلى الله عليه وسلم صدق ما عندهم مما لم يأت به الأنبياء عن الله فقد كذبوا على محمد صلى الله عليه وسلم كذباً ظاهراً معلوماً بالاضطرار من دينه وإنما صدق ما جاءت به الأنبياء قبله .

وأما ما أحدثوه وابتدعوه فلم يصدقه كما أنه لم يشرع لهم أن يستمروا على ما هم عليه من الشرع الأول ولو لم يكن مبدلا بل دعاهم وجميع الإنس والجن إلى الإيمان به وبما جاء به واتباع ما بعث به من الكتاب والحكمة ، وحكم بكفر كل من لم يتبع كتابه المنزل عليه ، وأوجب مع خلودهم فى عذاب الآخرة جهادهم في الدنيا حتى يكون الدين كله لله وحتى تكون كلمة الله هى العليا وقد دعا أهل الكتاب من اليهود والنصارى عموماً ثم كلا من الطائفتين خصوصاً فى غير موضع مع دعائه الناس كلهم أهل الكتاب وغيرهم كقوله تعالى : ﴿ ورحمتي وسعت كل شئ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبى الأمي الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون * قل ياأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٥٦ - ١٥٨] .

وقال تعالى يخاطب النصارى : ﴿ ياأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا * لن يستنكف

المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ [سورة النساء : ١٧١ - ١٧٣] .

وقال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٢] .فى موضعين .

وقال تعالى : ﴿ ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون ﴾ ، [سورة المائدة : ١٤] .

أخبر سبحانه أن النصارى تركوا حظا مما ذكرهم به وبسبب ذلك أغرى بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة . فعلم أنه سبحانه بين أنهم تركوا بعض ما جاء به المسيح ومن قبله من الأنبياء ، واستحقوا لذلك أن يغرى بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة .

وقال تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٧] .

فنهاهم عن الغلو فى دينهم وعن اتباع أهواء الذين ابتدعوا بدعا غيروا بها شرع المسيح ، فضلوا من قبل هؤلاء الاتباع وأضلوا كثيراً من هؤلاء الأتباع وغيرهم ، وضلوا عن سواء السبيل وهو وهو وسط السبيل بين الضلال وقيده بعد أن أطلقه وأجمله .

وقال تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم

الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ ، [سورة التوبة : ٢٩] .

وقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم لقتالهم بنفسه عام تبوك واستنفر لقتالهم جميع المؤمنين ولم يأذن لأحد من القادرين على الغزو فى التخلف . ومن تخلف لأنه لم ير قتالهم واجباً كان كافراً ، وإن أظهر الإسلام كان منافقاً ملعوناً ، بين الله أنه لا يغفر لهم ونهى نبيه عن الصلاة عليهم وأنزل فى ذلك جمهور سورة براءة بالنقل المتواتر حتى بين كفر الذين استأذنوه فى ترك الخروج معه لقتال النصارى فقال تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل * إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيئ قدير * إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم * انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم أنهم لكاذبون * عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين * لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين * إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون * ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين * لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنه وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين * لقد ابتغوا الفتنه من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ﴾ ، [سورة التوبة : ٣٨ - ٤٨] .

فصــل

فتبين أن قولهم : فثبت بهذا ما معناه نعم ونفى عن إنجيلنا وكتبنا التى فى أيدينا التهم والتبديل لها والتغيير لما فيها بتصديقه إياها .

إن أراد به أنه ثبت ما جاءت به الأنبياء قبله عن الله ، فهذا حق .

وإن أرادوا أنه ثبت ما هم عليه بعد مبعثه من الشرع الذى خالف شرعه أو ما ابتدعوه مما لم يأت به الأنبياء عليهم السلام قبله فهذا باطل .

وإن أرادوا أنه صدق ألفاظ الكتب التى بأيدينا . أى التوراة والإنجيل فهذا مما يسلمه لهم بعض المسلمين ، وينازعهم فيه أكثر المسلمين ، وإن كان أكثر ذلك مما يسلمه أكثر المسلمين .

فأما تحريف معانى الكتب بالتفسير والتأويل ، وتبديل أحكامها فجميع المسلمين واليهود والنصارى يشهدون عليهم بتحريفها وتبديلها ، كما يشهدون هم والمسلمون على اليهود ، بتحريف كثير من معانى التوراة وتبديل أحكامها وإن كانوا هم واليهود ، يقولون : إن التوراة لم تحرف ألفاظها .

وحينئذ فلا ينفعهم بقاء حروف الكتب عندهم مع تحريف معانيها . إلا كما ينفع اليهود بقاء حروف التوراة والنبوات عندهم مع تحريف معانيها ، بل جميع النبوات التى يقرون بها هى عند اليهود ، وهم مع اليهود ينفون عنها التهم والتبديل لألفاظها ، مع أن اليهود عندهم من أعظم الخلق كفراً واستحقاقا لعذاب الله في الدنيا والآخرة وهم عند النصارى الذين يكفرون المسلمين أكثر من هؤلاء وشر منهم ، فإن النصارى متفقون على أن المسلمين خير من اليهود ، وكذلك اليهود متفقون على أن المسلمين خير من النصارى . بل جميع الأمم المخالفين للمسلمين يشهدون أن المسلمين خير من سائر الطوائف إلا أنفسهم وشهادتهم لأنفسهم لا تقبل ، فصار هذا اتفاق أهل الأرض على تفضيل دين الإسلام .

فعلم أن بقاء حروف الكتاب مع الإعراض عن اتباع معانيها ، وتحريفها لا يوجب إيمان أصحابها ولا يمنع كفرهم .

وحينئذ فليس شهادة محمد صلى الله عليه وسلم وأمته للمسيح عليه السلام ولما أنزل عليه من الإنجيل فى تثبيت ما عند النصارى بأعظم من شهادة المسيح عليه السلام ، والحواريين ، وبسائر من اتبعه لموسى ولما أنزل عليه من التوراة فى تثبيت ما عند اليهود ، فإن المسيح أمر أتباعه باتباع التوراة إلا القدر اليسير الذى نسخه منها .

وأما محمد صلى الله عليه وسلم فبعث بكتاب مستقل وشرع مستقل كامل تام لم يحتج معه إلى شرع سابق تتعلمه أمته من غيره ، ولا إلى شرع لا حق يكمل شرعه ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : (١) « إنه قد كان فى الأمم قبلكم محدثون فإن يكن فى أمتى أحد فعمر » فجزم بأن من كان قبله كان فيهم محدثون وعلق الأمر فى أمته ، وإن كان هذا المعلق قد تحقق لأن أمته ، لا تحتاج بعده إلى نبى آخر ، فلأن لا تحتاج معه إلى محدث ملهم أولى وأحرى .

وأما من كان قبله فإنهم كانوا يحتاجون إلى نبى بعد نبي فأمكن حاجتهم إلى المحدثين الملهمين ولهذا إذا أنزل المسيح ابن مريم فى أمته لم يحكم فيهم إلا بشرع محمد صلى الله عليه وسلم ، وإذا كان مع هذا فشهادة المسيح والحواريين وكل من

---

(١) « متفق عليه » عن أبى هريرة

رواه البخارى فى كتاب « فضائل الصحابة » باب « مناقب عمر رضى الله عنه ..»(٥٢/٧ح٣٦٨٩)

ورواه مسلم فى كتاب «فضائل الصحابة » باب « من فضائل عمر (١٨٦٤/٤ح٢٣٩٨)

ورواه الترمذى فى كتاب « المناقب » باب « مناقب عمر »

(١٨٢/١٠ح٣٧٧٦)

ورواه النسائى فى كتاب « المناقب » باب « فضل أبى بكر وعمر رضى الله عنهما » (٤٠/٥ح٨١٢٠)

آمن بالمسيح للتوراة بأنها حق ، ولموسى بأنه رسول لا يمنع كفر اليهود لكونهم بدلوا شرع التوراة وكذبوا بالمسيح وبالإنجيل .

فكيف تكون شهادة محمد وأمته للإنجيل بأنه منزل من عند الله ، وللمسيح بأنه رسول الله مانعة من كفر النصارى مع تبديلهم شرع الإنجيل وتكذيبهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وشرع القرآن ؟!

وأما إيمان من يؤمن منهم بأن محمداً رسول الله إلى العرب أو بكثير مما جاء به القرآن . فلا يمنع كفرهم إذا كفروا ببعض ما جاء به ، بل من كذب بشئ مما جاءت به الرسل عن الله فهو كافر ، وإن آمن بأكثر ما جاءت به الرسل كما قال تعالى : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً ﴾ ، [سورة النساء : ١٥٠].

وقال تعالى : ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون ﴾ ، [سورة البقرة : ٨٥].

وقد صرح بكفر النصارى فى غير موضع وأمر بجهادهم وقتالهم وحكم بكفر من لا يوجب جهادهم وقتالهم أو لا يرى ذلك عبادة لله وطاعة له كما تقدم التنبيه على ذلك فإذا كان من لا يرى جهادهم عبادة الله ، كافراً عند محمد صلى الله عليه وسلم فكيف حالهم عنده صلى الله عليه وسلم ؟!

فصـــل

وإذا تبين للخاصة والعامة ممن آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ومن كفر به أنه كان مصدقاً لما بين يديه من الكتب ، والأنبياء مصدقاً للتوراة والإنجيل شاهداً بأن

موسى عليه السلام ، ومن كان متبعاً له على الحق وأن المسيح عليه السلام ومن اتبعه الحق ، وإن كان يكفر جميع اليهود ، والنصارى ، وغيرهم ممن بلغته رسالته ، ولم يؤمن به ، وشهد عليهم بأنهم حرفوا كثيراً من معانى التوراة والإنجيل قبل نبوته . وأن أهل الكتاب كلهم من المسلمين يشهدون أيضاً بأن كثيراً من معانى التوراة والإنجيل حرفها كثير من أهل الكتاب ، لم يجز لأحد من أهل الكتاب أن يحتج بقول محمد صلى الله عليه وسلم على صحة دينهم الذى شهد محمد صلى الله عليه وسلم بأنه باطل مبدل منسوخ وأهله من أهل النار كما تقدم بسطه .

وإذا قالوا : نحن نذكر ذلك لنبين تناقضه حيث صدقها وهى تناقض بعض ما أخبر به أو لتبين أن ما أخبرت به الأنبياء قبله يناقض خبره فيكون ذلك قدحاً فيما جاء به .

أجاب المسلمون عن هذا بعدة طرق :

أحدها أن يقولوا : أما مناقضة بعض خبره لبعض كما يزعمه هؤلاء من أن كتابه يمدح أهل الكتاب مرة ويذمهم أخرى وأنه يصدق الكتب المنزلة تارة ويذمها أخرى . فهذا قد ظهر بطلانه .

فإنه إنما مدح من اتبع موسى والمسيح على الدين الذى لم يبدل ولم ينسخ .

وأما من اتبع الدين المبدل المنسوخ فقد كفره .

فأما دعواهم مناقضة خبره لخبر غيره فيقال : هو مصدق للأنبياء فيما أخبروا به وأما ما يدل من ألفاظهم أو غيرها بالترجمة أو فسر بغير مرادهم فلم يصدقه .

ويقال أيضاً : إن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ثبتت بمثل ما ثبتت به نبوات الأنبياء قبله وبأعظم من ذلك ، كما قد بسط فى موضع آخر ، وبين أن التكذيب بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم مع التصديق بنبوة غيره فمن غاية التناقض والفساد

وأنه ما من طريق يعلم بها نبوته غيره إلا ونبوته تعلم بمثل تلك الطريق ، وبأعظم منها . فلو لم تكن نبوته بطريق نبوتها إلا مثل نبوة غيره وطريق نبوتها لوجب التصديق بنبوته كما وجب التصديق بنبوة غيره ، ولكان تكذيبه كتكذيب إبراهيم وموسى وغيرهما من الرسل ، فكيف إذا كان أعظم من وجوه متعددة .

وحينئذ فالأنبياء كلهم صادقون مصدقون معصومون فيما يخبرون عن الله لا يجوز أن يثبت فى خبرهم عن الله خبر باطل ، ولا عمداً ولا خطأ ، فلا يجوز أن يخبر أحدهم بخلاف ما أخبر به غيره ، بل ولا يفترقون فى الدين الجامع كما قال تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ ، [سورة الشورى : ١٣] .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم * وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون * فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ ، [سورة المؤمنون ٥١ - ٥٣] .

وإنما يقع النسخ فى بعض الشرائع كما يقع النسخ فى شريعة الرسول الواحد وحينئذ فيعلم أن كل ما ينقل عن الأنبياء المتقدمين مما ينقض ما علم من أخبار محمد صلى الله عليه وسلم فهو باطل . سواء كان اللفظ نفسه باطلا لم يقله ذلك النبى أو قد قال لفظاً وغلط المترجمون له من لغة إلى لغة ، أو كان اللفظ وترجمته صحيحين ، لكن وقع الغلط فى معرفة مراد ذلك النبى بذلك الكلام .

فإن كل ما يحتج به من الألفاظ المنقولة عن الأنبياء أنبياء بنى إسرائيل وغيرهم ممن أرسل بغير اللغة العربية لا بد فى الاحتجاج بألفاظه من هذه المقدمات أن يعلم اللفظ الذى قاله ويعلم ترجمته ويعلم مراده بذلك اللفظ .

والمسلمون وأهل الكتاب متفقون على وقوع الغلط فى تفسير بعض الألفاظ وبيان مراد الأنبياء بها وفى ترجمة بعضها فإنك تجد بالتوراة عدة نسخ مترجمة وبينها فروق يختلف بها المعنى المفهوم وكذلك فى الإنجيل وغيره فهذا الطريق فى الجواب طريق عام لكل من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وشهد أنه رسول الله باطناً وظاهراً يخاطب به كل يهودى ونصرانى على وجه الأرض .وإن لم يكن عارفاً بما عند أهل الكتاب فإنه لا يقدر أحد من أهل الأرض أن يقيم دليلا صحيحاً على نبوة موسى وعيسى وبطلان نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن هذا ممتنع لذاته بل ولا يمكنه أن يقيم دليلا صحيحا على نبوة أحدهما إلا وإقامة مثل ذلك الدليل أو أعظم منه على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أولى وحينئذ فلا يمكن أحداً من أهل الكتاب أن يحتج بشئ من المنقولات عن الأنبياء المخالفة لما ثبت عن محمد صلى الله عليه وسلم ، سواء أقر بنبوته أو أنكرها بل إن احتج بشئ عن محمد صلى الله عليه وسلم بين بطلان له احتجاجه به وأنه حجة عليه ، لا له .

وإن احتج بشئ من المنقول عن غيره من الأنبياء عليهم السلام طولب بتقدير نبوة ذلك النبى مع تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم . وإلا فبتقدير أن ينقل عن اثنين ادعيا النبوة وأتيا بالآيات التى تثبت بها النبوات خبران مناقضان لا يجوز تصديق هذا وتكذيب ذاك إن لم يتبين ما يدل على صدق هذا وكذب هذا ، وكذلك إذا عورض أحدهما بجنس ما يعارض الآخر .

وهذا لا يرد على المسلمين إذا ردوا ما يحتج به أهل الكتاب مما ينقلونه عن الأنبياء مخالفا لخبر محمد صلى الله عليه وسلم .

فإن المسلمين لا يطعنون فى نبوة أحد من الأنبياء المعروفين ، وإنما يطعنون فى أنهم أخبروا بما يخالف خبر محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن ذلك لا يثبث أى لم يثبت اللفظ والترجمة ، وتفسير اللفظ وهذه المقدمات تمتنع أن تقوم على شئ يخالف خبر

محمد صلى الله عليه وسلم لا جملة ولا تفصيلا

فأهل الكتاب يطالبون فيما يعارضون به بثلاث مقدمات

أحدهما : تقدير أن أولئك صادقون ، ومحمد صلى الله عليه وسلم كاذب

والثاني : ثبوت ما أتوا به لفظًا .

والثالث : بمعرفة المراد باللفظ ترجمة وتفسيرًا . وإن قال الكتابى للمسلم : أنت توافقنى على نبوة هؤلاء المتقدمين أجابه المسلم نحوه :

منها أن يقول : إنى لم أوافقك على نبوة واحد منهم مع التكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم ، بل دين المسلمين كلهم ، أنه من آمن ببعض الأنبياء وكفر ببعض فهو كافر ، فكيف بمن كفر عن هو عند المسلمين أفضل الأنبياء وخاتمهم ، بل قد يقول أكثر المسلمين : نحن لم نعلم نبوة أولئك إلا بإخبار محمد ، أنهم أنبياء ، فلو قدحنا فى الأصل الذى قد علمنا به نبوتهم لزم القدح فى نبوتهم ، والفرع إذا قدح فى أصله دل على فساده فى نفسه ، سواء قدر أصله صحيحًا أو فاسدًا . فإنه إن كان أصله فاسدًا فسد هو ، وإن كان أصله صحيحًا وهو يناقضه بطل هو ، فهو إذا ناقض أصله باطل على كل تقدير ، وكذلك إذا قال له الكتابى : قد اتفقنا على تصديق موسى والتوراة ، أو المسيح والإنجيل ؛ قال له المسلم : وإنما وافقتك على تصديق موسى وعيسى اللذين بشرا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، كما أخبرنا به محمد صلى الله عليه وسلم عن الله حيث قال الله تعالي : ﴿ ورحمتي وسعت كل شئ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذي يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴾ [سورة الأعراف : ١٥٦، ١٥٧] .

وقد قال تعالى ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم

مصدقًا لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾ ، [سورة الصف : ٦] إلى أمثال ذلك .

فأما الإيمان بموسى ذكر أن شريعته مؤيدة لا ينسخ منها شئ ، أو بمسيح ادعى أنه الله أو أن الله اتحد به أو حل فيه ، ونحو ذلك مما يدعيه أهل الكتاب فى الرسولين والكتابين ، ويخالفهم فيه المسلمون ، فهذا من موارد النزاع ، لا من مواقع الإجماع ، فليس لأحد من أهل الكتاب أن يحتج على أحد من المسلمين بموافقته له على ذلك ، ومن تمام ذلك أن يقول المسلم : نعم أنا أقر بنبوة موسى والمسيح ، وإن التوراة والإنجيل كلام الله ، لكن يمتنع عقلا الإقرار بنبوة واحد من هؤلاء ، دون نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن البراهين والآيات ، والأدلة الدالة على صدق موسى والمسيح تدل على نبوة محمد صلى الله عليه سلم بطريق الأولى ، فلو إنتقضت تلك الأدلة لزم فسادها ، وأن لا أصدق بأحد من الأنبياء ، وإن كانت حقًا لزم تصديقهم كلهم فلزم ، إما أن أصدقهم كلهم ، وإما أن أكذبهم كلهم . ولهذا كان من آمن ببعض وكذب ببعض كافراً . ومن الأجوبة للمسلمين أن يقولوا : نحن نصدق الأنبياء المتقدمين فى كل ما أخبروا به لكن من نقل عنهم أنهم أخبروا بما يناقض خبر محمد صلى الله عليه وسلم فلا بد له من مقدمتين ، ثبوت ذلك اللفظ عن الأنبياء ، والعلم بمعناه الذى يعلم أنه مناقض للمعنى الذى علم أن محمداً صلى الله عليه وسلم عناه ، ثم العلم باللفظ يحتاج مع الخطاب بغير ألسن الأنبياء العربية سواء كانت عربية ، أو رومية ، أو سريانية أو قبطية ، إلي أن يعرف أن هذا اللفظ الذى ترجم به لفظه مطابق للفظه ، ويمتنع ثبوت المقدمتين ، لأن فى ثبوتهما تناقض الأدلة العلمية ، والأدلة العلمية لا تتناقض

الطريق الثانى : أن يقول المسلمون : ما تذكرونه من المنقول عن الأنبياء مناقضة لما أخبر به محمد صلى الله عليه وسلم أمور لم تعلم صحتها ، ولا يجوز اعتقاده

ثبوتها ، والجزم بها ، ولو لم يعلم أن محمداً صلى الله عليه وسلم ، أخبر بخلافها فكيف إذا علم أنه أخبر بخلافها ؟ وذلك أن العلم بثبوتها مبنى على مقدمات :

أحدها : العلم بثبوتها وهذا ممتنع مع تكذيب محمد صلي الله عليه وسلم .

والثانية : أنهم قالوا : هذه الألفاظ ، وهذا يحتاج إلى إثبات تواتر هذه الألفاظ عن الأنبياء ولم يثبت أنها تواترت عنهم .

والثالثة : أن معناها ، هو المعنى المناقض لخبر محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يعلم ذلك .

وكل واحدة من هذه المقدمات يمنع العلم بثبوت هذه المعانى المناقضة لخبر محمد صلى الله عليه وسلم ، فكيف إذا اجتمعت ؟ وهى تمنع العلم بصحتها ولو لم تناقض خبر محمد صلى الله عليه وسلم ، فكيف إذا ناقضته ؟

الطريق الثالث : طريق من يتبين أن ألفاظ هذه الكتب لم تتواتر ويثبتون ذلك بانقطاع تواتر التوراة ، وبسط الأمر . لما خرب بيت المقدس ، وانقطاع تواتر الإنجيل فى أول الأمر .

الطريق الرابع : طريق من يبين أن بعض ألفاظ الكتب حرفت ، ويقيم الأدلة الشرعية ، والعقلية على تبديل بعض ألفاظها .

الطريق الخامس : أن يبين أن الألفاظ التى بأيديهم لا تناقض ما أخبر به محمد صلى الله عليه وسلم ، بل تدل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم ، ويتكلم على تفسير تلك الألفاظ بأعيانها .

وهذه الطرق يسلكها من لا ينازع فى ثبوت الألفاظ من المسلمين

وأما الجمهور الذين يقولون بتبديل هذه الألفاظ فيسلكون هذه الطرق ويسلكون

أيضًا بيان عدم تواتر الألفاظ ، بل بيان التبديل فى ألفاظها .

فصـــل

ومن حجـة الجمـهور الذين يمتنعون أن تكـون جميع ألفـاظ هذه الكتب المتقـدمة الموجودة عـند أهل الكتاب منزلة من عند الله ، لـم يقع فيهـا تبديل ، ويقـولون : إنه وقـع التـبديل فى بعض ألفـاظها ، أو يقـولون إنه لم يعلم أن ألفاظهـا منزلة من عند الله ، فلا يجوز أن يحتج بما فـيها من الألفاظ فى معارضه مـا علم ثبوته أنهم قالوا : التوراة والإنجيل الموجودة اليوم بيد أهل الكتاب لم تتواتر عن موسى وعيسى عليهما السـلام . أما التـوراة فـإن نقلهـا انقطع لما خـرب بيت المقـدس أولا ، وأجلى منه بنو إسـرائيل ، ثم ذكروا أن الذى أمـلاها عليـهم بعد ذلك شـخص واحـد يقال له عـازر وزعموا أنه نبى .

ومن الناس من يقول : إنه لم يكن نبيًا وإنها قوبلت بنسخة وجدوها عتيقة .

وقيل : إنه أحـضرت نسخـة كانت بالمغرب . وهذا كله لا يوجب تواتر جـميع ألفاظـها ، ولا يمنع وقوع الغـلط فى بعضهـا كمـا يجرى مـثل ذلك فى الكتب التى يلى نسخها و مقابلتها وحفظها القليل . الاثنان والثلاثة

وأما الإنجيل الذى بأيـديهم فإنهم معترفـون بأنه لم يكتبه المسيح عـليه والسلام ولا أمـلاه على من كـتبـه ، وإنما أمـلاه بعـد رفع المسيـح « متى » و « يوحنـا » وكانا قـد صحبا المسيح ، ولم يحفظه خلق كثيـر يبلغون عدد التواتر ، ومرقس ، ولوقا ، وهما لم يريا المسيح عليـه السـلام ، وقد ذكـر هؤلاء أنهم ذكـروا بعض ما قـاله المسـيح ، وبعض أخباره ، وأنهم لم يستوعبوا ذكر أقواله وأفعاله .

ونقل اثنين ، وثلاثة ، وأربعـة يجوز عليـهم الغلط ، ولا سيما ، وقـد غلطوا فى المسيح نفـسه حتى اشتبـه عليهم بالمصلوب ، ولكن النصارى يزعـمون أن الحواريين

رسل الله مثل عيسى ابن مريم ، وموسى عليهما السلام ، وأنهم معصومون ، وأنهم سلموا إليهم التوراة والإنجيل ، وأن لهم معجزات وقالوا لهم هذه التوراة وهذا الإنجيل . يقرون مع هذا بأنهم ليسوا بأنبياء . فإذا لم يكونوا أنبياء ، فمن ليس بنبي ليس بمعصوم من الخطأ ، لو كان من أعظم أولياء الله ، ولو كان له خوارق عادات فأبو بكر ، وعمر ، وعثمان وعلى ، وغيرهم من أفاضل الصحابة عند المسلمين أفضل من الحواريين ، ولا معصوم عندهم إلا من كان نبيًا ودعوى أنهم رسل الله مع كونهم ليسوا بأنبياء تناقض ، وكونهم رسل الله هو مبني على كون المسيح هو الله ، فإنهم رسل المسيح ، وهذا الأصل باطل ولكن فى طرق المناظرة ، والمجادلة بالتى هى أحسن فتمنعهم فى هذا المقام ونطالبهم بالدليل على أنهم رسل الله ، وليس لهم على ذلك دليل فإنه لا يثبت أنهم رسل الله إن لم يثبت أن المسيح هو الله . وإثباتهم أن المسيح هو الله إما أن يكون بالعقل أو بالسمع . والعقل لا يثبت ذلك ، بل يحيله وهم لا يدعون ثبوت ذلك بالعقل .

بل غاية ما يدعون إثبات إمكانه بالعقل لا إثبات وجوده مع أن ذلك أيضًا باطل وإنما يدعون ثبوت وجوده بالسمع ، وهو ما ينقلونه عن الأنبياء من ألفاظ يدعون ثبوتها عن الأنبياء ، ودلالتها على أن المسيح هو الله كسائر من يحتج بالحجة السمعية . فإن عامة بيان صحة الإسناد دون بيان دلالة المتن . وكلا المقدمتين باطلة .

ولكن يقال لهم فى لهذا المقام : أنتم لا يمكنكم إثبات كون المسيح هو الله إلا بهذه الكتب ، ولا يمكنكم تصحيح هذه الكتب إلا بإثبات أن الحواريين رسل الله معصومون ، ولا يمكنهم إثبات أنهم رسل الله إلا بإثبات أن المسيح هو الله ، فصار ذلك دورًا ممتنعًا .

فإنه لا تعلم إلهية المسيح إلا بثبوت هذه الكتب ، ولا تثبت هذه الكتب إلا بثبوت أنهم رسل الله ، ولا يثبت ذلك إلا بثبوت أنه الله ، فصار ثبوت الإلهية متوقفًا على

ثبوت إلهيته ، وثبوت كونهم رسل الله متوقفًا على كونهم رسل الله ، فصار ذلك دوراً ممتنعًا .

وقد يدعون عصمة الحواريين وعصمة أهل المجامع بعد الحواريين ، كأهل المجمع الأول الذى كان بحضرة قسطنطين الذى حضره ثلاثمائة وثمانية عشر ، ووضعوا لهم الأمانة التى هى عقيدة النصارى ، التى لا يصح لهم قربان إلا بها ، فيزعمون أن الحواريين أو هؤلاء جرت على أيديهم خوارق ، وقد يذكرون أن منهم من جرى إحياء الميت على يديه ،وهذا إذا كان صحيحًا - مع أن صاحبه لم يذكر أنه نبى - ولا يدل على عصمته .

فإن أولياء الله من الصحابة ، ، والتابعين بعدهم بإحسان وسائر أولياء الله من هذه الأمة وغيرها لهم من خوارق العادات ما يطول وصفه ، وليس فيهم معصوم ، يجب قبول كل ما يقول ، بل يجوز الغلط على كل واحد منهم ، وكل أحد يؤخذ من قوله ، ويترك إلا الأنبياء عليهم السلام .

ولهذا أوجب الله الإيمان بكل ما أوتيه الأنبياء ، ولم يجب الإيمان بكل ما يقوله كل ولى لله

قال تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم ﴾ [سورة البقرة :١٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾ ، [سورة البقرة : ١٧٧] .

ولهذا وجب الإيمان بالأنبياء جميعهم وما أوتوه كلهم .

ومن كذب نبيًا واحدًا تعلم نبوته ، فهو كافر باتفاق المسلمين ، ومن سبه وجب

قتله كذلك بخلاف من ليس بنبى فإنه لا يكفر أحد بمخالفته ، ولا يقتل بمجرد سبه ، وإلا أن يقترن بالسب ما يكون مبيحًا للدم ، والذى عليه سلف الأمة كالصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة الدين ، وجماهير المسلمين ، أن أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر وليس بعد الأنبياء أفضل منهما وهذه الأمة أفضل الأمم ، وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (١) : قد كان قبلكم فى الأمم محدثون فإن يكن فى أمتى أحد فعمر ، والمحدث الملهم : المخاطب .

وكان عمر قد جعل الله الحق على قلبه ولسانه ، ما كان يقول لشئ : إنى لأراه كذا و كذا إلا كان كما يقول ، وكانت السكينة تنطق على لسانه ومع هذا فلم يكن لا هو ولا غيره ممن ليس بنبى معصومًا من الغلط ، ولا يجب على المسلم قبول ما يقوله إن لم يدل عليه الكتاب والسنة ، ولا كان يجوز له العمل بما يلقى فى قلبه إن لم يعرضه على الكتاب والسنة ، فإن وافق ذلك قبله ، وإن خالف ذلك رده .

وعند المسلمين أنه ليس فى أتباع المسيح عليه السلام مثل أبى بكر وعمر رضوان الله عليهما فإذا قالوا عن الحواريين : إنهم ليسوا معصومين ، فهم يقولون ذلك فيمن هو عندهم أفضل من الحواريين ، كما أنهم إذا قالوا عن المسيح : إنه عبد مخلوق ليس بإله . فهم يقولون ذلك فيمن هو عندهم أفضل من المسيح كمحمد وإبراهيم عليهما أفضل الصلاة والسلام .

وفى الملاحدة المنتسبين إلى الأمة من فيه بدع من الغلو يشبه غلو النصارى من يد الإلهية من الإسماعلية كبنى عبيد القداح ، كالحاكم وغيره ، أو من يدعى الإلهية فى على بن أبى طالب أو غيره كدعوى النصيرية ، وهؤلاء كفار عند المسلمين .

وكذلك من يدعى الإلهية فى بعض المشايخ ، كغلاة العدوية ، والحلاجية ،

---

(١) سبق تخريجه

واليونسية ، وغيرهم ، وكذلك من يدعى عصمة بنى عبيد أو عصمة الاثنى عشر أو عصمة بعض المشايخ .

فإن النصارى يدعون عصمة الحواريين الاثنى عشر ، وهؤلاء يدعون عصمة الأئمة الاثنى عشر .

وهؤلاء يسندون أصل دينهم إلى قول الحواريين المعصومين عندهم ويقولون إنهم معصومون فى النقل عن المسيح وفى الفتيا ، وإن ما قالوه فقد قاله المسيح عليه أفضل الصلاة والسلام .

وهؤلاء يقولون عن أولئك : إنهم معصومون فى النقل والفتيا ، وإن ما قالوه فقد قاله الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهذا مبسوط فى موضع آخر .

والمقصود هنا أنه ليس مع النصارى نقل متواتر عن المسيح بألفاظ هذه الأناجيل لا نقل متواتر ولا آحاد بأكثر ما هم عليه من الشرائع . ولا عندهم ولا عن اليهود نقل متواتر بألفاظ التوراة ونبوات الأنبياء كما عند المسلمين نقل متواتر بالقرآن ، وبالشرائع الظاهرة المعروفة للعامة والخاصة وهذا مثل الأمانة التى هى أصل دينهم ، وصلاتهم إلى المشرق ، وإحلال الخنزير ، وترك الختان ، وتعظيم الصليب ، واتخاذ الصور فى الكنائس ، وغير ذلك من شرائعهم ، ليست منقولة عن المسيح ولا لها ذكر فى الأناجيل التى ينقلونها عنه وهم متفقون على أن الأمانة التى جعلوها أصل دينهم وأساس اعتقادهم ، ليست ألفاظها موجودة فى الأناجيل ولا هى مأثورة عن الحواريين ، وهم متفقون على أن الذين وضعوها أهل المجمع الأول الذين كانوا عند قسطنطين الذى حضره ثلاثمائة وثمان عشر ، وخالفوا عبد الله بن أريوس الذى جعل المسيح كما يقوله المسلمون ، ووضعوا هذه الأمانة .

وهذا المجمع كان بعد المسيح بمدة طويلة تزيد على ثلاثمائة سنة ، وبسطه له موضع

آخر ، وإنما المقصود هنا الجواب عن قولهم : إن محمداً صلى الله عليه وسلم ثبت ما معهم ، وإنه نفى عن إنجيلهم ، وكتبهم التى بأيديهم التهم ، والتبديل ، لها ، والتغيير لما فيها بتصديقه إياها .

وقدتبين أن محمداً صلى الله عليه وسلم ، لم يصدق شيئًا من دينهم المبدل ، والمنسوخ ، ولكن صدق الأنبياء قبله وما جاءوا به ، وأثنى على من اتبعهم لا على من خالفهم أو كذب نبيًا من الأنبياء . وإن كفر النصارى من جنس كفر اليهود ، فإن اليهود بدلوا معانى الكتاب الأول ، وكذبوا بالكتاب الثانى ، وهو الإنجيل ، وكذلك النصارى بدلوا معانى الكتاب الأول التوراة ، والإنجيل ، وكذبوا بالكتاب الثانى ، وهو القرآن ، وأنهم ادعوا أن محمداً صلى الله عليه وسلم صدق بجميع ألفاظ الكتب التى عندهم .

فجمهور المسلمين يمنعون هذا ويقولون : إن بعض ألفاظها بدل كما قد بدل كثير من معانيها ومن المسلمين من يقول : التبديل إنما وقع فى معانيها لا فى ألفاظها ، وهذا القول يقر به عامة اليهود والنصارى .

وعلى القولين فلا حجة لهم فى تصديق محمد صلى الله عليه وسلم لما هم عليه من الدين الباطل ، فإن الكتب الإلهية التى بأيديهم لا تدل على صحة ما كفرهم به محمد صلى الله عليه وسلم وأمته مثل . التثليث ، والاتحاد ، والحلول ، وتغيير شريعة المسيح ، وتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم ، فليس فى الكتب التى بأيديهم ما يدل لا نصًا ولا ظاهرا ، على الأمانة التى هى أصل دينهم ، وما فى ذلك من التثليث ، والاتحاد والحلول ، ولا فيها ما يدل على أكثر شرائعهم كالصلاة إلى المشرق واستحلال المحرمات من الخنزير والميتة ونحو ذلك ، كما قد بسط فى موضع آخر .

ويقال لهم : أين مامعكم عن محمد صلى الله عليه وسلم ، مما يدل على أن ألفاظ الكتب التى بأيديكم لم يغير منها شئ ؟ ومعلوم أن المسلمين ، وغيرهم إذا اختلفوا لم يكن قول فريق حجة على الفريق الآخر .

فإذا كان المسلمون قد اختلفوا فى تبديل بعض ألفاظ الكتب الإلهية المتقدمة لم يكن قول فريق حجة على الأخرى ، ولا يجوز لأحد من المسلمين ، ولا منكم أن يضيف إلى الرسول قولا إلا بدليل

فأين فى القرآن والسنة الثابتة عن محمد صلي الله عليه وسلم أن جميع ما بأيد ى أهل الكتاب من التوراة ، والإنجيل ، الزبور ، ونبوات الأنبياء لم تبدل بشئ من ألفاظها حتى يقولوا : إن محمداً صلى الله عليه وسلم نفى عن كتبهم ذلك ؟

وهؤلاء بنوا كلامهم على أن ألفاظ كتبهم تدل على صحة دينهم الذى هم عليه بعد مبعث محمد صلي الله عليه وسلم بعد تكذيبهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه لم يبدل شئ من ألفاظها

وقد تبين فساد ذلك من وجوه متعددة . ثم زعموا أن المسلمين يدعون أن ألفاظ هذه الكتب حرفت كلها بجميع لغاتها بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا القول لم يقله أحد من المسلمين ـ فيما أعلم ـ وظنوا أنهم بالجواب عن هذا يكونون قد أجابوا المسلمين .

فصـــل

فقال الحاكى عنهم : فقلت لهم: إن قال قائل : إن التبديل والتغيير يجوز أن يكون بعد هذا القول . فقالوا : إنا نعجب من هؤلاء القوم ـ على علمهم ، وذكائهم ، ومعرفتهم ـ كيف يحتجون علينا بمثل هذا القول ؟ وذلك أنا أيضاً إذا احتججنا عليهم بمثل هذا القول ، وقلنا : إن الكتاب الذى فى أيديهم يومنا هذا قد غيروه

وبدلوه وكتبوا فيه ما أرادوا واشتهوا . هل كانوا يجوزون كلامنا ؟ قال الحاكى عنهم : فقلت لهم : هذا مما لا يجوز ولا يمكن أحداً أن يقوله ، ولا يمكن أن يتغير منه إلى آخر الفصل ، وسيأتى بألفاظ بعد هذا

والجواب أن هذا السائل النصر انى الذى ذكر عن المسلمين سؤالا لا يقولونه ، وعن علماء النصارى جوابه ، وهو وهم بنوا كلامهم على أصلين فاسدين .

أحدهما : أن الرسول ثبت مامعهم ، ونفى عن كتبهم التى بأيديهم التهم ، والتبديل والتغيير .. ومقصودهم بذلك لا يتم إلا إذا نفى التبديل عن لفظها ، ومعناها ، وهذا مما يعلم كل عاقل أن الرسول لم ينفه عنها بل النقل المتواتر عنه بنقيض ذلك وهم أيضاً ، وكل عاقل يعلم أن الكتب التى بأيديهم فى تفسيرها من الاختلاف والاضطراب بين فرق النصارى ، وبين النصارى واليهود ما يوجب القطع بأن كثيراً من ذلك مبدل محرف ، وكذلك وقع فى تغيير شرائع هذه الكتب ، فإن الكتب تضمنت أصلين : الإخبار والأمر والإيمان بها لا يتم إلا بتصديقها فيما أخبرت ، وإيجاب طاعتها فيما أوجبته .

وأهل الكتاب يكذبون مما أخبرت به ولا يوجبون طاعتها فى كثير مما أوجبته وأمرت به ، وكل فرقة منهم تشهد على الفرقة الأخرى بمثل ذاك

والنصارى لهم سبع مجامع مشهورة عندهم ، وهم فى كل مجمع يلعنون طائفة منهم كثيرة ويكفرونهم ويقولون عنهم : إنهم كذبوا ببعض ما فى تلك الكتب ، ولم يوجبوا طاعة بعض أمرها ، وتلك الطائفة تشهد على الأخرى بأنها كذبت ببعض ما فيها . ثم فرقهم الثلاثة المشهورة النسطورية ، والملكية ، اليعقوبية ، كل طائفة تكفر الأخرى وتلعنها وتشهد عليها أنها مكذبة لبعض ما فى النبوات غير موجبة لطاعة بعض ما فيها . بل اختلافهم فى نفس التوحيد والرسالة ، فزعم كل فريق منهم أن

المسيح جاء بما هم عليه . والمسيح عليه السلام وجميع الرسل بريئون من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا ، بريئون ممن يقول على الله غير الحق أو يقول على الله ما لم يعلم . وبريئون من كل قول باطل يقال على الله عز وجل ، وإن كان قائله مخطئًا لم يتعمد الكذب .

وفى مقالات النصارى من هذه الأنواع ما يطول وصفه . وقد بسط فى غير هذا الموضع .

وإذا عرف أن جميع الطوائف من المسلمين واليهود والنصارى ، يشهدون أنه قد وقع فى هذه الكتب تحريف وتبديل فى معانيها وتفسيرها وشرائعها فهذا القدر كاف . وهم من حين بعث محمد صلى الله عليه وسلم صار كل من لم يؤمن به كافراً بخلاف حال النصارى قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه كان فيهم من هو متبع لدين المسيح . والمسلمون - وإن كان فيهم من حرف الدين وبدله - فجمهورهم خالفوا هؤلاء ، فلا يزال فيهم طائفة ظاهرة على الحق لا يضرهم من خالفهم ، وخذلهم حتى تقوم الساعة ، بخلاف النصارى فإنهم كفروا جميعهم ، كما كفرت اليهود بتكذيب المسيح .

والمسلمون يثبتون بالدلائل الكثيرة أنهم بدلوا معانى التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، وغيرهم من نبوات الأنبياء ، وابتدعوا شرعًا لم يأت به المسيح ، ولا غيره ، ولا يقوله عاقل ، مثل زعمهم أن جميع بنى آدم من الأنبياء ، والرسل ، وغيرهم كانوا فى الجحيم فى حبس الشيطان ، لأجل أن أباهم آدم أكل من الشجرة ، وأنهم إنما تخلصوا من ذلك لما صلب المسيح .

فإن هذا الكلام لو نقله ناقل عن بعض الأنبياء لقطعنا بكذبه عليهم ، فكيف وهذا الكلام ليس منقولا عندهم عن أحد من الأنبياء ؟ وإنما ينقلونه عمن ليس قوله

حجة لازمة ، فإن كثيراً من دينهم مأخوذ عن رءوسهم الذين ليسوا بأنبياء .

فإذا قطعنا بكذب من ينقله عن الأنبياء . فكيف إذا لم ينقل عنهم ذلك ؟ فإن الأنبياء عليهم السلام يخبرون الناس بما تقصر عقولهم عن معرفته لا بما يعرفون أنه باطل ممتنع ، فيخبرونهم بمحيرات العقول لا محالات العقول وآدم عليه السلام - وإن كان أكل كل من الشجرة - فقد تاب الله عليه واجتباه وهداه .

قال تعالى : ﴿ وعصى آدم ربه فغوى * ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ ، [سورة طه : ١٢١، ١٢٢] .

وقال تعالى : ﴿ فلتقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾ [سورة البقرة : ٣٧] .

وليس عند أهل الكتاب فى كتبهم ما ينفى توبته وإنما قد يقول قائلهم إنا لا نعلم أنه تاب أو ليس عندنا توبته ، وعدم العلم بشئ ليس علماً بعدمه ، وعدم وجود الشئ فى كتاب من كتب الله لا ينفى أن يكون فى كتاب آخر ، ففى التوراة ما ليس فى الإنجيل . وفيهما ما ليس فى الزبور ، وفى الإنجيل والزبور ما ليس فى التوراة ، وفى سائر النبوات ما لا يوجد فى هذه الكتب والقرآن لو كان دون التوراة والإنجيل والزبور والنبوات أو كان مثلها لأمكن أن يكون فيه ما ليس فيها . فكيف إذا كان أفضل وأشرف وفيه من العلم أعظم مما فى التوراة والإنجيل وقد بين الله تعالى فضله عليهما فى موضع ، كقوله تعالى ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه ﴾ ، [سورة الزمر : ٢٣] .

وقال تعالى ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ ، [سورة يوسف : ٣] .

وقال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب

ومهيمنًا عليه ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٨] .

وسواء تاب آدم أو لم يتب فكيف يجوز أن يكون رسل الله الذين هم أفضل منه محبوسين فى حبس الشيطان فى جهنم بذنبه ؟ وإبراهيم خليل الرحمن كان أبوه كافراً ولم يؤاخذه الله بذنبه فكيف يجعله الله فى جهنم فى حبس الشيطان بسبب ذنب أبيه الأقصى آدم ، مع أنه كان نبيًا ؟ ونوح عليه السلام قد مكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وأغرق الله أهل الأرض بدعوته وجعل ذريته هم الباقين فكيف يكون فى جهنم فى حبس الشيطان لأجل ذنب آدم ؟

وموسى بن عمران كلمه الله تكليما ، وأظهر على يديه من البراهين والآيات مالم يظهر مثله على يدى المسيح ، وقتل نفسًا لم يؤمر بقتلها ، فغفر الله له ذلك ، وله من المنزلة عند الله والكرامة ، مالا يقدر قدره ، فكيف يكون فى جهنم فى حبس الشيطان .

ثم أى مناسبة بين الصلب الذى هو من أعظم الذنوب ، سواء صلبوا المسيح أو المشبه به ، وبين تخليص هؤلاء من الشيطان ؟ فإن الشيطان إن فعل ذلك بالذرية كان ظالمًا معتديًا والله عز وجل قادر على منعه من ظلمهم ، بل وعلى عقوبته إذا لم ينته عن ظلمهم .

فلماذا أخر منعه من ظلمهم إلى زمن المسيح ؟ وهو سبحانه ولى المؤمنين وناصرهم ومؤيدهم ، وهم رسله الذين نصرهم على من عاداهم ، بل أهلك أعداءهم الذين هم جند الشيطان . فكيف لا يمنع الشيطان بعد موتهم أن يظلمهم ، ويجعل أرواحهم فى جهنم ؟ هذا إن قدر أن الشيطان كان قادرًا على ذلك ، وكيف يجوز أن يجعل الشيطان بعد موت أنبيائه و أوليائه ، وسقوط التكليف عنهم ، واستحقاقهم كرامته وإحسانه ، وجنته بحكم وعده ، ومقتضى حكمته ، وجعله مسلطًا على حبسهم فى جهنم ؟ !

وإن قالوا : الرب عز وجل ما كان يقدر على تخليصهم من الشيطان ، مع علمه بأنه ظالم معتد عليهم بعد الموت إلا بأن يحتال عليه بإخفاء نفسه ليتمكن منه كما يزعمون ـ فهذا مع مافيه من الكفر العظيم ، وجعل الرب سبحانه عاجزًا كما جعلوه أولا ظالمًا ـ فيه من التناقض ما يقتضى عظيم جهلهم الذى جعلوا به الرب جاهلا فإنهم يقولون : إنه احتال على الشيطان ليأخذه بعدل كما احتال الشيطان على آدم بالحية ، فاختفى منه لئلا يعلم أنه ناسوت الإله ، وناسوت الإله لم يعمل خطيئة قط بخلاف غيره .

فلما أراد الشيطان أخذ روحه ليحبسه فى جهنم كسائر من مضى ، وهو لم يعمل خطيئة . استحق الشيطان أن يأخذه الرب ، ويخلص الذرية من حبسه .

وهذا تجهيل منهم للرب سبحانه وتعالى عما يقولون مع تعجيزه وتظليمه فإنه إن كان هو سلط الشيطان على بنى آدم كما يقولون . فلا فرق بين ناسوت المسيح وغيره ، ، إذ الجميع بنى آدم وأيضًا فإذا قدر أن الناسوت دفع الشيطان عن نفسه بحق ، فإنهم يقولون : إنه دخل الجحيم وأخرج منه ذرية آدم . فيقال : إن كان تسلط الشيطان على حبسهم فى الجحيم بحق لأجل ذنوبهم مع ذنب أبيهم ، لم يجز إخراجهم لأجل سلامة ناسوت المسيح من الذنب ، وإن كانوا مظلومين مع الشيطان . وجب تخليصهم قبل صلب الناسوت ولم يجز تأخير ذلك فليس فى مجرد سلامة المسيح من الذنوب ما يوجب سلامة غيره ، وإن قالوا إنه كان بدون تسلطهم على صلبه عاجزًا عن دفعه ، فهو مع تسلطه على صلبه أعجز ، وأعجز الأصل الثانى الفاسد ، الذى بنوا عليه سؤالهم الذى جعلوه من جهة المسلمين وجوابهم ظنهم أن المسلمين يقولون : إن هذه الكتب حرفت ألفاظ جميع النسخ الموجودة منها بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم .

وهذا مما لا يقوله المسلمون ، ولكن قد يقول بعضهم : إنه حرف بعد مبعث محمد

صلى الله عليه وسلم ، وألفاظ بعد النسخ .

فإن الجمهور الذى يقولون : إن بعض ألفاظها حرفت ، منهم من يقول : كان هذا قبل البعث .

ومنهم من يقول : كان بعده : ومنهم من يثبت الأمرين أو يجوزهما ، ولكن لا يقولون : إنه حرفت ألفاظ جميع النسخ الموجودة فى مشارق الأرض ومغاربها ، كما حكاه هذا الحاكى عنهم ، ولكن علماء المسلمين وعلماء أهل الكتاب متفقون على وقوع التحريف فى المعانى والتفسير .

وإن كانت كل طائفة تزعم أن الأخرى هى التى حرفت المعانى .

وأما ألفاظ الكتب ، فقد ذهبت طائفة من علماء المسلمين إلى أن ألفاظها لم تبدل كما يقول ذلك من يقوله من أهل الكتاب .

وذهب كثير من علماء المسلمين وأهل الكتاب إلى أنه بدل بعض ألفاظها

وهذا مشهور عن كثير من علماء المسلمين ، وقاله أيضًا كثير من علماء أهل الكتاب ، حتى فى صلب المسيح ، وذهبت طائفة من النصارى إلى أنه إنما صلب الذى شبه بالمسيح ، كما أخبر به فى القرآن ، وإن الذين أخبر وا بصلبه كانوا قد أخبروا بظاهر الأمر ، فإنه لما ألقى شبهه على المصلوب ظنوا أنه هو المسيح ، أو تعمدوا الكذب ، ثم هؤلاء منهم الذين يقولون : إن فى ألفاظ الكتب ما هو مبدل .

وفيهم من يجعل المبدل من التوراة والإنجيل كثير منها وربما جعل بعضهم المبدل أكثرهم ، لا سيما الإنجيل ، فإن الطعن فيه أكثر وأظهر منه فى التوراة

ومن هؤلاء من يسرف حتى يقول : إنه لا حرمة لشئ منهما ، بل يجوز الاستنجاء بهما .

ومنهم من يقول : الذى بدلت ألفاظه قليل منهما ، وهذا أظهر .

والتبديل فى الإنجيل أظهر، بل كثير من الناس يقول : إن هذه الأناجيل ليس فيها من كلام الله إلا القليل

والإنجيل الذى هو كلام الله ليس هو هذه الأناجيل .

والصحيح أن هذه التوراة والإنجيل الذى بأيدى أهل الكتاب فيه ما هو حكم الله ، وإن كان قد بدل وغير بعض ألفاظهما لقوله تعالى : ﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا ، سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم ﴾ ، [سورة المائدة : ٤١] . إلى قوله : ﴿ وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٣] .

فعلم أن التوراة التى كانت موجودة بعد خراب بيت المقدس بعد مجئ بختنصر وبعد مبعث المسيح ، وبعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، فيها حكم الله .

والتوراة التى كانت عند يهود المدينة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن قيل : إنه غير بعض ألفاظها بعد مبعثه ، فلا تشهد على كل نسخة فى العالم بمثل ذلك ، فإن هذا غير معلوم لنا ، وهو أيضاً متعذر ، بل يمكن تغيير كثير من النسخ ، وإشاعة ذلك عند الأتباع حتى لا يوجد عند كثير من الناس إلا ما غير بعد ذلك ، ومع هذا فكثير من نسخ التوراة ، والإنجيل متفقة فى الغالب ، إنما يختلف فى اليسير من ألفاظها ، فتبديل ألفاظ اليسير من النسخ بعد مبعث الرسول ممكن لا يمكن لأحد أن يجزم بنفيه ، ولا يقدر أحد من اليهود والنصارى أن يشهد بأن كل نسخة فى العالم بالكتابين متفقة الألفاظ ، إذ هذا لا سبيل لأحد إلى علمه والاختلاف اليسير فى ألفاظ هذه الكتب موجود فى الكثير من النسخ ، كما قد تختلف نسخ بعض كتب الحديث ، أو تبدل بعض ألفاظ بعض النسخ ، وهذا بخلاف القرآن المجيد الذى حفظت ألفاظه فى الصدور ، وبالنقل المتواتر لا يحتاج أن يحفظ فى كتاب كما قال

تعالى : ﴿ إنـا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ ، [سورة الحجر : ٩] . وذلك أن اليهود قبل النبى صلى الله عليه وسلم وعلى عهده ، وبعده منتشرون في مشارق الأرض ومغاربها ، وعندهم نسخ كثيرة من التوراة .

وكذلك النصارى عندهم نسخ كثيـرة من التوراة ، ولم يتمكن أحد من جمع هذه النسخ وتبـديلها ، ولو كـان هذا ممكنا لكان من الوقـائع العظيمـة التى تتوفـر الدواعى على نقلها ، وكذلك فى الإنجيل قـال الله تعالى : ﴿ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٧] .

فعلم أن فى هذا الإنجيل حكمـا أنزله اللـه تعالـى ، لكن الحكم هو من باب الأمـر والنهى ، وذلك لا يمنع أن يكون التغيير فى باب الإخبار ، وهو الذى وقع فيه التبديل لفظا ، وأما الأحكام التى فى التـوراة ، فما يكاد أحـد يدعى التبديل فى ألفاظهـا وقد ذكر طائفة من العلماء أن قوله تعالى فى الإنجيل : ﴿ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيـه ﴾ [سـورة المائدة: ٤٧] هو خطاب لمن كـان على دين المسيح قـبل النسخ والتبديل ، لا الموجودين بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم .

وهذا القول يناسب مناسبة ظاهرة لقـراءة من قرأ « وليحكم أهل الإنجـيل » بكسر اللام كقراءة حمزة فإن هذه لام كى ، فإن قـال تعالى : ﴿ وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعـظة للمتقين * وليحكم أهل الإنجيل بمـا أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فـأولئك هم الفاسـقون ﴾ [سـورة المائدة : ٤٦ ، ٤٧] . فإذا قرأ « وليحكم » كان المعنى وآتيناه الإنجـيل لكذا وكذا ، وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيـه ، وهذا يوجب الحكم بما أنزل الله فى الإنجيل الحق ، ولا يدل على أن الإنجيل الموجود فى زمن الرسول هو ذلك الإنجيل .

وأما قراءة الجمهور « وليحكم أهل الإنجيل » فهو أمر بذلك . فمن العلماء من قال :

هو أمر لمن كان الإنجيل الحق موجوداً عندهم أن يحكموا بما أنزل الله فيه ، وعلى هذا يكون قوله تعالى : « وليحكم » أمر لهم قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال آخرون : لا حاجة إلى هذا التكليف ، فإن القول فى الإنجيل كالقول فى التوراة وقد قال تعالى : ﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم * سماعون للكذب أكالون للسحت فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين * وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين * إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون * وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون * وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل ﴾ [سورة المائدة : ٤١ - ٤٦] . فهذا قد صرح بأن أولئك الذين قد تحاكموا إلى النبى صلى الله عليه وسلم من اليهود عندهم التوراة فيها حكم الله ، ثم تولوا عن حكم الله وقال بعد ذلك ﴿ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ﴾ [سورة المائدة : ٤٧] وهذه لام الأمر ، وهو أمر من الله أنزله على لسان محمد . وأمر من مات قبل هذا الخطاب ممتنع ،وإنما يكون الأمر

أمراً لمن آمن به من بعد خطاب الله لعباده بالأمر ، فعلم أنه أمر لمن كان موجوداً حينئذ أن يحكموا بما أنزل الله فى الإنجيل ، والله أنزل فى الإنجيل الأمر باتباع محمد صلى الله عليه وسلم كما أمر به فى التوراة ، فليحكموا بما أنزل الله فى الإنجيل مما لم ينسخه محمد صلى الله عليه وسلم ، كما أمر أهل التوراة أن يحكموا بما أنزله مما لم ينسخه المسيح . وما نسخه فقد أمروا فيه باتباع المسيح ، وقد أمروا فى الإنجيل باتباع محمد صلى الله عليه وسلم لمن حكم من أهل الكتاب ـ بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ـ بما أنزله الله فى التوراة والإنجيل ولم يحكم بما يخالف حكم محمد صلى الله عليه وسلم ، إذ كانوا مأمورين فى التوراة والإنجيل باتباع محمد صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى : ﴿ الذين يتبعون الرسول الأمى الذين يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٥٧] .

وقال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٨] .

فجعل القرآن مهيمناً والمهيمن : الشاهد الحاكم المؤتمن ، فهو يحكم بما فيها مما لم ينسخه الله ويشهد بتصديق ما فيها مما لم يبدل ولهذا قال : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٨] .

وقد ثبت فى الصحاح والسنن والمسانيد هذا . ففى الصحيحين عن عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال (١) : إن اليهود جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه

(١) « متفق عليه »

رواه البخارى فى كتاب « الجنائز » باب « الصلاة على الجنائز بالمصلى والمسجد » (٣/٢٣٧ح١٣٢٩) مختصراًورواهأيضاًبرقم(٣٦٣٥،٤٥٥٦،٦٨١٩،٦٨٤١،٧٣٣٢،٧٥٤٣)

ورواه مسلم فى كتاب « الحدود » باب « رجم اليهود أهل الذمة فى الزنى(٣ /=

وسلم ، فذكروا له أن امرأة منهم ورجلا زنيا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما تجدون في التوراة في شأن الرجم . قالوا : نفضحهم ويجلدون . فقال عبد الله بن سلام : كذبتم . إن فيها الرجم . فأتوا بالتوراة ، فنشروها ، فوضع أحدهم يده على الرجم ، فقرأ ما قبلها وما بعدها . فقال له عبد الله : ارفع يدك ، فرفع يده ، فإن فيها آية الرجم . فقالوا : صدقت يامحمد . فأمر بهما النبي صلى الله عليه وسلم ، فرجما .

وأخرج البخاري عن عبد الله بن عمر أنه قال : (١) أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بيهودي ويهودية قد زنيا ، فانطلق حتى جاء يهودي . فقال . ما تجدون في التوراة على من زنى ؟ قالوا : نسود وجوههما ، ويطاف بهما . قال : « فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين » قال : فجاءوا بها فقرأوها حتى إذا مروابآية الرجم وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم ، وقرأ ما بين يديها وما وراءها فقال عبد الله بن سلام وهو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : مره فليرفع يده فرفعها ، فإذا تحتها آية الرجم ، قالوا : صدق فيها آية الرجم ، ولكننا نتكاتمه بيننا ، وأن أحبارنا أحدثوا التحميم والتحبية . فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجمهما فرجما »

=١٣٢٦،١٣٢٧ح١٦٩٩)

ورواه أبو داود في كتاب « الحدود » باب « في رجم اليهوديين »
(١٣١/١٢ح٤٤٢٢)

ورواه الترمذي في كتاب « الحدود » باب « ما جاء في رجم أهل الكتاب » (٧٠٩/٤ح١٤٦٠) وقال : وفي الباب عن البراء وجابر وابن أبي أوفى وعبد الله بن الحارث وابن عباس »

ورواه النسائي في الكبرى « الرجم » باب « إقامة الإمام الحد على أهل الكتاب...»(٢٩٣/٤،٢٩٤ح٧٢١٣:٧٢١٧)

(١) سبق تخريجه عند البخاري في كتاب « التوحيد » باب « ما يجوز من تفسير التوراة ...» (٥٢٥/١٣،٥٢٦ح٧٥٤٣)

وأخرج مسلم عن البراء بن عازب رضى الله عنه أنه قال (١) : « مر على رسول الله صلى الله عليه وسلم بيهودى محمم مجلود فدعاهم . فقال : هكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ قالوا : نعم . فدعى رجلا من علمائهم ، فقال : أنشدك الله الذى أنزل التوراة على موسى ، أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ قال : لا ، ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك ، نجد الرجم ، ولكنه كثر فى أشرافنا ، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد ، فقلنا : تعالوا فلنجتمع على شئ نقيمه على الشريف والوضيع ، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه . فأمر به فرجم » فأنزل الله تعالى : ﴿ يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم - إلى قوله - فأولئك هم الكافرون إلى - الظالمون - إلى الفاسقون ﴾ [سورة المائدة : ٤١] . قال هى فى الكفارة كلها .

وفى صحيح مسلم عن جابر بن جابر عبد الله أنه قال (٢) : « رجم النبى صلى

---

(١) « صحيح »

رواه مسلم فى كتاب « الحدود » باب « رجم اليهود ...» ، (٣/١٣٢٧ح١٧٠٠)

ورواه أبو داود فى كتاب « الحدود » باب « فى رجم اليهوديين » ، (١٢/١٣٣،١٣٤ح٤٤٢٣) ورقم (٤٤٢٤)

ورواه النسائى فى الكبرى فى كتاب « الرجم » باب « إقامة الإمام الحد على أهل الكتاب ..»

(٤ / ٢٩٤ ، ٢٩٥ح٧٢١٨)

(٢) « صحيح »

رواه مسلم فى كتاب « الحدود » باب « رجم اليهود ...» (٣/١٣٢٧ح١٧٠٠)

ورواه أبو داود فى كتاب « الحدود » باب « فى رجم اليهوديين » (١٢/١٣٣ ، ١٣٤ح٤٤٢٣) ورقم (٤٤٢٤) ، ورواه النسائى فى الكبرى فى كتاب « الرجم » باب « إقامة الإمام الحد على أهل الكتاب ..» (٤/٢٩٤،٢٩٥ح٧٢١٨)

الله عليه وسلم رجلا من أسلم ، ورجلا من اليهود » . وأما السنن ففى سنن أبى داود عن زيد بن أسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال (١) : « أتى نفر من اليهود فدعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القف فأتاهم فى بيت المدارس . فقالوا : يا أبا القاسم إن رجلا منا زنى بامرأة فاحكم بينهم ، فوضعوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وسادة فجلس عليها ثم قال : ائتونى بالتوراة فأتى بها فنزع الوسادة من تحته ووضع التوراة عليها ، وقال : آمنت بك وبمن أنزلك . ثم قال : ائتونى بأعلمكم فأتى بشاب ، ثم ذكر قصة الرجم » .

وأخرج أيضاً أبو داود وغيره عن أبى هريرة أنه قال (٢) : « زنى رجل من اليهود بامرأة فقال بعضهم لبعض : اذهبوا بنا إلى هذا النبى ، فإنه نبى بعث بالتخفيف فإن أفتانا بفتيا دون الرجم قبلناها واحتججنا بها عند الله ، فقلنا نبى من أنبيائك ، قالوا : فأتوا النبى صلى الله عليه وسلم . وهو جالس فى المسجد فى أصحابه فقالوا : يا أبا القاسم ما ترى فى رجل وامرأة ـ منهم ـ زنيا ، فلم يكلمهم كلمة حتى أتى بيت مدارسهم ، فقام على الباب فقال أنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى ما تجدون فى التوراة على من زنى إذا أحصن ؟

قالوا : نحمم ونجبيه ، ونجلده ـ والتجبية : أن يحمل الزانيان على حمار . ويقابل أقفيتهما ، ويطاف بهما ـ قال : وسكت شاب منهم ، فلما رآه النبى صلى الله عليه وسلم ساكتاً ، أنشده ، فقال : اللهم إذا انشدتنا فإنا نجد فى التوراة الرجم .

---

(١) «صحيح »

رواه مسلم فى كتاب « الحدود » باب « رجم اليهود ...» (١٣٢٨/٣ح١٧٠١)

ورواه أبو داود فى كتاب « الحدود » باب « فى رجم اليهوديين » (١٤٣/١٢ح٤٤٢٨)

ورواه مختصراً برقم (٤٤٣١)

(٢) رواه أبو داود فى كتاب « الحدود » باب « فى رجم اليهوديين » (١٣٨،١٣٧/١٢ح٤٤٢٥)

وصححه الألبانى كما فى « صحيح سنن أبى داود »(٨٤١/٣ح٣٧٣٦)

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : فما أول ما ارتخصتم أمر الله ؟ قال : زنى ذو قرابه من ملك من ملوكنا فأخر عنه الرجم ثم زنى رجل فى أسرة من الناس فأراد رجمه فحال قومه دونه . وقالوا : لا يرجم صاحبنا حتى تجئ بصاحبك فترجمه فاصطلحوا هذه العقوبة بينهم . قال النبى صلى الله عليه وسلم فإنى أحكم بما في التوراة ، فأمر بهما فرجما » .

قال الزهرى : فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٤] .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم منهم ، وأيضاً قد تحاكموا إليه فى القود الذى كان بين بنى قريظة والنضير ، وكان النضير أشرف من قريظة ، فكان إذا قتل بعض إحدى القبيلين قتيلا من الأخرى فيقتلونه ، ولم يضعفوا الدية ، وإذا قتل من القبيلة الشريفة قتلوا به ، وأضعفوا الدية .

قال أبو داود سليمان بن الأشعث فى سننه : حدثنا محمد بن العلا ، حدثنا عبيد الله بن موسى عن على بن صالح ، عن سماك بن حرب ، عن عكرمة عن ابن عباس قال (١) : « كان قريظة ، والنضير ، وكان النضير أشرف من قريظة ، فكان إذا قتل رجل من قريظة رجلا من النضير قتل به وإذا قتل رجل من النضير رجلا من قريظة أدى مائة وسق من تمر .

فلما بعث النبى صلى الله عليه وسلم قتل رجل من النضير رجلا من قريظة فقالوا : ادفعوه إلينا نقتله فقالوا : بيننا وبينكم محمد فأتوه فنزلت : ﴿ وإن حكمت

---

(١) رواه أبو داود فى كتاب « الديات » باب « النفس بالنفس » (١٢/٢٠٤،٢٠٥ح٤٤٧١) وصححه الألبانى كما فى « صحيح سنن أبى داود » (٣/٨٥١١ح٣٧٧٢)

ورواه النسائى فى كتاب « القسامة » باب « تأويل قول الله تعالى وإن حكمت فاحكم ...» (٨/١٨،١٩)

فاحكم بينهم بالقسط ﴾ : [سورة المائدة : ٤٢] .

والقسط : النفس بالنفس ، ثم نزلت ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ﴾ ، [سورة المائدة : ٥٠] قال أبو داود : (١) قريظة والنضير من ولد هارون

وبسط هذا له موضع آخر ، وعلى كل قول ، فقد أخبر الله عز وجل أن فى التوراة الموجودة بعد المسيح عليه السلام حكم الله ، وأن أهل الكتاب اليهود تركوا حكم الله الذى في التوراة مع كفرهم بالمسيح ، وهذا ذم من الله لهم على ما تركوه من حكمه الذى جاء به الكتاب الأول ، ولم ينسخه الرسول الثانى .

وهذا من التبديل الثانى الذى ذموا عليه ، ودل ذلك على أن فى التوراة الموجودة بعد مبعث المسيح حكماً أنزله الله ، أمروا أن يحكموا به ، وهكذا يمكن أن يقال فى الإنجيل ، ومعلوم أن الحكم الذى أمروا أن يحكموا به من أحكام التوراة ، لم ينسخه الإنجيل ، ولا القرآن ، فكذلك ما أمروا أن يحكموا به من أحكام الإنجيل ، ولا هو مما لم ينسخه القرآن ، وذلك أن الدين الجامع أن يعبدوا الله وحده ، ويأمر بما امر الله به ويحكم بما أنزله الله فى أى كتاب أنزله ولم ينسخه فإنه يحكم به .

ولهذا كان مذهب جماهير السلف والأئمة ، أن شرع من قبلنا شرع لنا مالم يرد شرعنا بخلافه . ومن حكم بالشرع المنسوخ فلم يحكم بما أنزل الله ، كما أن الله أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم أن يحكموا بما أنزل الله فى القرآن ، وفيه الناسخ ، والمنسوخ . فهكذا القول فى جنس الكتب المنزلة .

قال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما

(١) قال أبو داود ذلك (٢٠٥/١٢)

آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون * وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون * أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون * يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين * فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أوأمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين * ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين * ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم * إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون * ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ ،[سورة المائدة : ٤٨ - ٥٦] .

فقد أمر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ، أن يحكم بما أنزل الله إليه ، وحذره اتباع أهوائهم ، وبين أن المخالف لحكمه هو حكم الجاهلية ، حيث قال تعالى ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾ [سورة المائدة : ٥٠] وأخبره تعالى أنه جعل لكل من أهل التوراة ، والإنجيل ، والقرآن شرعة ومنهاجاً ، وأمره تعالى بالحكم بما أنزل الله أمر عام لأهل التوراة والإنجيل والقرآن ، ليس لأحد فى وقت من الأوقات أن يحكم بغير ما أنزل الله ، والذى أنزله الله هو دين واحد اتفقت عليه الكتب والرسل ، وهم متفقون فى أصول الدين وقواعد الشريعة ، وإن تنوعوا فى الشريعة والمنهاج ، بين ناسخ ومنسوخ ، فهو شبيه بتنوع

حال الكتاب ، فإن المسلمين كانوا أولا مأمورين بالصلاة لبيت المقدس ، ثم أمروا أن يصلوا إلى المسجد الحرام ، وفى كلا الأمرين إنما اتبعوا ما أنزل الله عز وجل .

وكذلك موسى عليه السلام ، كان مأموراً بالسبت محرماً عليه ما حرمه الله فى التوراة ، وهو متبع ما أنزله الله عز وجل ، والمسيح صلى الله عليه وسلم أحل بعض ما حرمه الله ، فى التوراة ، وهو متبع ما أنزل الله عز وجل . فليس فى أمر الله لأهل التوراة والإنجيل أن يحكموا بما أنزل الله أمر بما نسخ ، كما أنه ليس فى أمر أهل القرآن أن يحكموا بما أنزل الله أمر بما نسخ ، بل إذا كان ناسخ فقد حكم ومنسوخ فالذى أنزل الله هو الحكم بالناسخ دون المنسوخ . فمن حكم بالمنسوخ بغير ماأنزل الله ، ومما يوضح هذا قوله تعالى : ﴿ قل ياأهل الكتاب لستم على شئ حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً فلا تأس على القوم الكافرين ﴾ ، [سورة المائدة : ٦٨] . فإن هذا يبين أن هذا أمر للمحمد صلى الله عليه وسلم أن يقول لأهل الكتاب الذى بعث إليهم : إنهم ليسوا على شئ حتى يقيموا التوراة والإنجيل ، وما أنزل إليهم من ربهم . فدل ذلك على أنهم عندهم ما يعلم أنه منزل من الله ، وأنهم مأمورون بإقامته إذ كان ذلك مما قرره محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم ينسخه . ومعلوم أن كل ما أمر الله به على لسان نبى ، ولم ينسخه النبى الثانى بل أقره كان الله آمراً به على لسان نبى بعد نبى ولم يكن فى بعثة الثانى ما يسقط وجوب اتباع ما أمر به النبى الأول ، وقرره النبى الثانى .

ولا يجوز أن يقال : إن الله ينسخ بالكتاب الثانى جميع ما شرعه بالكتاب الأول وإنما المنسوخ قليل بالنسبة إلى ما اتفقت عليه الكتب والشرائع .

وأيضاً ففى التوراة والإنجيل مادل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإذا حكم أهل التوراة والإنجيل بما أنزل الله فيهما ، حكموا بما أوجب عليهم اتباع محمد

صلى الله عليه وسلم . وهذا يدل على أن فى التوراة والإنجيل ما يعلمون أن الله أنزله إذ لا يؤمرون أن يحكموا بما أنزل الله ، ولا يعلمون ما أنزل الله ، والحكم إنما يكون فى الأمر والنهى ، والعلم ببعض معانى الكتب لا ينافى عدم العلم ببعضها وهذا متفق عليه فى المعانى . فإن المسلمين واليهود والنصارى متفقون على أن فى الكتب الإلهية الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له ، وأنه أرسل إلى الخلق رسلا من البشر ، وأنه أوجب العدل وحرم الظلم والفواحش والشرك ، أو أمثال ذلك من الشرائع الكلية وأن فيها الوعد بالثواب ، والوعيد بالعقاب بل هم متفقون على الإيمان باليوم الآخر ، وقد تنازعوا فى بعض معانيها واختلفوا فى تفسير ذلك كما اختلف اليهود والنصارى فى المسيح المبشر به النبوات هل هو المسيح بن مريم عليه السلام أو مسيح آخر ينتظر ؟ والمسلمون يعلمون أن الصواب فى هذا مع النصارى ، لكن لا يوافقونهم على ما أحدثوا فيه من الإفك والشرك .

وكذلك يقال إذا بدل قليل من ألفاظها الخبرية لم يمنع ذلك أن يكون أكثر ألفاظها لم يبدل ، لا سيما إذا كان فى نفس الكتاب ما يدل على المبدل . وقد يقال : إذا بدل من ألفاظ التوراة والإنجيل ففى نفس التوراة والانجيل ما يدل على تبديله ، فبهذا يحصل الجواب عن شبهة من يقول : إنه لم يبدل شيئاً من ألفاظها ، فإنهم يقولون : إذا كان التبديل قد وقع فى ألفاظ التوراة والإنجيل قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم لم يعلم الحق من الباطل ، فسقط الاحتجاج بهما ووجوب العمل بهما علي أهل الكتاب ، فلا يذمون حينئذ على ترك اتباعهما . والقرآن قد ذمهم على ترك الحكم بما فيها ، واستشهد بهما فى مواضع . وجواب ذلك أن ما وقع من التبديل قليل والأكثر لم يبدل والذى لم يبدل فيه ألفاظ صريحة بينة بالمقصود تبين غلط ما خالفها ولها شواهد ونظائر متعددة يصدق بعضها بعضا ، بخلاف المبدل فإنه ألفاظ قليلة ، وسائر نصوص الكتب يناقضها ، وصار هذا بمنزلة كتب الحديث المنقولة عن

النبى صلى الله عليه وسلم فإنه إذا وقع فى سنن أبى داود والترمذى أو غيرهما أحاديث قليلة ضعيفة ، كان فى الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبى صلى الله عليه وسلم ما يبين ضعف تلك بل وكذلك صحيح مسلم فيه ألفاظ قليلة غلط ، وفى نفس الأحاديث الصحيحة مع القرآن ما يبين غلطها ، مثل ما روى أن الله خلق التربة يوم السبت وجعل خلق المخلوقات فى الأيام السبعة ، فإن هذا الحديث قد بين أئمة الحديث كيحيى بن معين ، وعبد الرحمن بن مهدى ، والبخارى وغيرهم أنه غلط ، وأنه ليس فى كلام النبى صلى الله عليه وسلم ، بل صرح البخارى فى تاريخه الكبير أنه من كلام كعب الأحبار ، كما قد بسط موضعه . والقرآن يدل على غلط هذا ، وبين أن الخلق فى ستة أيام ، وثبت فى الصحيح أن آخر الخلق كان يوم الجمعة فيكون أول الخلق يوم الأحد . وكذلك ما روى أنه صلى الله عليه وسلم ، صلى الكسوف بركوعين أو ثلاثة . فإن الثابت المتواتر عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الصحيحين وغيرهم من حديث عائشة (١) ، وابن عباس (٢) ، وعبد الله بن

---

(١) « متفق عليه »

رواه البخارى فى كتاب « الكسوف » باب « الصدقة فى الكسوف » (٦١٥/٢ح١٠٤٤)

ورواه أيضاً برقم (١٠٤٦، ١٠٤٧، ١٠٥٠، ١٠٥٦، ١٠٥٨، ١٠٦٤، ١٠٦٥، ١٠٦٦، ١٢١٢، ٣٢٠٣، ٤٦٢٤، ٥٢٢١، ٦٦٣١)

ورواه مسلم فى كتاب « الكسوف » باب « صلاة الكسوف » (٦١٨/٢: ٦٢٠ح٩٠١) ورقم (٦٠٢) =

= ورواه أبو داود فى كتاب « الصلاة » باب « صلاة الكسوف »

(٤٠/٤: ٤٢ح١١٦٥)

ورواه الترمذى فى كتاب « الجمعة » باب « فى صلاة الكسوف » (١٤٣/٣ح٥٥٨)

ورواه النسائى فى كتاب « الكسوف » ٣٠، ٧٢١، ٨٢١، ٩٢١، ٠٣١٠، ١٣١، ١٣٢)

ورواه ابن ماجة فى كتاب « إقامة الصلاة » باب « ماجاء فى صلاة الكسوف » (٤٠١/١ح١٢٦٣)

(٢) رواه البخارى مسلم فى كتاب «صلاة الكسوف جماعة » (٦٢٧/٢. ٦٢٨ح١٠٥٢)

ورواه مسلم فى كتاب « الكسوف » باب « ما عرف على النبى صلى الله عليه وسلم فى=

عمرو (١) ، وغيرهم أنه « صلى كل ركعة بركوعين » ولهذا لم يخرج البخارى إلا ذلك وضعف الشافعى والبخارى وأحمد فى أخذ الروايتين عنه وغيرهم حديث الثلاثة والأربع فإن النبى صلى الله عليه وسلم إنما صلى الكسوف مرة واحدة فى حديث الثلاثة والأربع أنه صلاها يوم مات إبراهيم ابنه وأحاديث الركوعين كانت ذلك اليوم فمثل هذا الغلط إذا وقع كان فى نفس الأحاديث الصحيحة ما يبين أنه غلط والبخارى إذا روى الحديث بطرق فى بعضها غلط فى بعض الألفاظ ذكر معه الطرق التى تبين ذلك الغلط ، كما قد بسطنا الكلام على ذلك فى موضعه .

فكذلك إذا قيل : إنه وقع تبديل فى بعض ألفاظ الكتب المتقدمة كان فى الكتب ما يبين ذلك الغلط ، وقد قدمنا أن المسلمين لا يدعون أن كل نسخة فى العالم من زمن محمد صلى الله عليه وسلم بكل لسان من التوراة والإنجيل والزابور بدلت ألفاظها ، فإن هذا لا أعرف أحداً من السلف قاله . وإن كان من المتأخرين من قد يقول ذلك ، كما فى بعض المتأخرين من يجوز الاستنجاء بكل ما فى العالم من نسخ

=صلاة الكسوف...»(٦٢٦/٢، ٦٢ح٩٠٧)

ورواه أيضاً برقم (٩٠٢، ٩٠٨)

ورواه أبو داود فى كتاب « الصلاة » باب « من قال أربع ركعات » (٦٤/٤، ٧٤ح١١٦٩)

ورواه النسائى فى كتاب « الكسوف » باب « قدر القراءة فى صلاة الكسوف » (١٤٦/٣، ١٤٨)

ورواه مسلم فى كتاب « الكسوف » باب «ذكر النداء ...»

(٦٢٧/٢، ٦٢٨ح٩١٠)

ورواه أبو داود في كتاب « الصلاة » باب « من قال يركع ركعتين » (٥٧/٤، ٥٨ح١١٨٢)

ورواه النسائى فى كتاب « الكسوف » (١٣٦/٣، ١٣٧)

(١) « متفق عليه »

رواه البخارى فى كتاب « الكسوف » باب « طول السجود فى الكسوف » (٦٢٦/٢ح١٠٥١) ورواه أيضاً برقم(١٠٤٥)دون ذكر الشاهد

التوراة والإنجيل . فليست هذه الأقوال ونحوها من أقوال سلف الأمة وأئمتها . وعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، لما رأى بيد كعب الأحبار نسخة من التوراة قال : يا كعب إن كنت تعلم أن هذه هى التوراة التى أنزلها الله على موسى بن عمران فاقرأها فعلق الأمر على ما يمتنع العلم به ، ولم يجزم عمر رضى الله عنه بأن ألفاظ تلك مبدلة لما لم يتأمل كل ما فيها . والقرآن والسنة المتواترة يدلان على أن التوراة والإنجيل الموجودين فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم فيهما ما أنزله الله عز وجل ، والجزم بتبديل ذلك فى جميع النسخ التى فى العالم متعذر ، ولا حاجة بنا إلى ذكره ، ولا علم لنا بذلك ، ولا يمكن لأحد من أهل الكتاب أن يدعى أن كل نسخة فى العالم بجميع الألسنة من الكتب متفقة على لفظ واحد ، فإن هذا مما لا يمكن لأحد من البشر أن يعرفه باختياره ، وامتحانه ، وإنما يعلم مثل هذا بالوحى وإلا فلا يمكن لأحد من البشر أن يقابل كل نسخة موجودة فى العالم بكل نسخة من جميع الألسنة بالكتب الأربعة والعشرين ، وقد رأيناها مختلفة الألفاظ اختلافاً بيناً ، والتوراة هى أصح الكتب ، وأشهرها عند اليهود ، والنصارى ، ومع هذا فنسخة السامرة مخالفة لنسخة اليهود والنصارى ، حتى فى نفس الكلمات العشر ، ذكر فى نسخة السامرة منها - من أمر استقبال الطور- ما ليس فى نسخة اليهود والنصارى ، وهذا مما يبين أن التبديل وقع فى كثير من نسخ هذه الكتب ، فإن عند السامرة نسخاً متعددة ، وكذلك رأينا فى الزابور نسخاً متعددة تخالف بعضها بعضاً مخالفة كثيرة فى كثير من الألفاظ والمعانى يقطع من رآها أن كثيراً منها كذب على زبور داود عليه السلام . وأما الأناجيل فالاضطراب فيها أعظم منه فى التوراة . فإن قيل : فإذا كانت الكتب المتقدمة منسوخة ،فلماذا ذم أهل الكتاب عن ترك الحكم بما أنزل الله منها ؟ قيل النسخ لم يقع إلا فى قليل من الشرائع ، وإلا فالإخبار عن الله ، وعن اليوم الآخر ، وغير ذلك فلم تنسخ .

وكذلك الدين الجامع والشرائع الكلية لا نسخ فيها ، وهو سبحانه ذمهم على ترك اتباع الكتاب الأول ، لأن أهل الكتاب كفروا من جهتين من جهة تبديلهم الكتاب الأول وترك الإيمان والعمل ببعضه . ومن جهة تكذيبهم بالكتاب الثانى وهو القرآن . كما قال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ﴾ ؛ [سورة البقرة : ٩١] .

فبين أنهم كفروا قبل مبعثه بما أنزل عليهم وقتلوا الأنبياء كما كفروا حين مبعثه بما أنزل عليه ، وقال تعالى : ﴿ الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٨٣] .

وقال تعالى : ﴿ فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبروالكتاب المنير ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٨٤] .

وقال تعالى : ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون * قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ﴾ ، [سورة القصص : ٤٨ ، ٤٩] .

وإذا كان الأمر كذلك فهو سبحانه يذمهم على ترك اتباع ما أنزله فى التوراة والإنجيل وعلى ترك اتباع ما أنزله فى القرآن وبين كفرهم بالكتاب الأول وبالكتاب الثانى ، وليس فى شئ من ذلك أمرهم أن يحكموا بالمنسوخ من الكتاب الأول ، كما ليس فيه أمرهم أن يحكموا بالمنسوخ فى الكتاب الثانى .

فهرس الجزء الأول من

كتاب « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح »

* المقدمة . ٣
* خطبة الكتاب . ٦
* دين الأنبياء والمرسلين دين واحد . ٧
* محمد عليه السلام خاتم النبيين . ٩
* فصل ، وكان دينه الذى ارتضاه لنفسه هو دين الإسلام . ١٣
* الباعث لتأليف هذا الكتاب . ٢١
* جواب المؤلف على دعوى النصارى . ٣٢
* فصل فى دلائل صدق النبى الصادق ، وكذب المتنبى الكاذب . ٣٢
فصل ادعائهم أن محمداً أرسل إلى جاهلية العرب . ٣٣
* الفرق بين الإرسال الكونى والإرسال الدينى . ٤١
* الأمر بالمجادل ، لا ينافى الأمر بالقتال . ٧٣
* فصل ، وكان قبل قصة نجران قد آمن بالنبى كثير من اليهود والنصارى ، ويشمل على هجرة بعض الصحابة إلى الحبشة وإيمان النجاشى ملك الحبشة . ٨٧
* فصل ، وكان أول ماأنزل الله عليه الوحى ، عرضت خديجة امرأته أمره إلى ورقة بن نوفل وكان من علماء النصارى . ٩٦
* بيان أن محمداً عليه السلام أرسل رسله إلى جميع الطوائف ، وبيان غلبة الفرس على النصارى ، وفرح المشركين بذلك ، وإخبار النبي بغلبة النصارى على الفرس ، وفرح المؤمنين بذلك . ٩٨
* إرسال النبى كتابه إلى هرقل مع دحية الكلبى . ١٠٥

* فصل ، وقاتل عمر بن الخطاب الفرس المجوس ، وفتح أرضهم وظهر صدق خبر الرسول بذلك . ١٠٨
* إرسال النبى عبد الله بن حذافة بكتابه إلى كسرى . ١٢٠
* فصل فى ضرب الخلفاء الجزية على المجوس والنصارى ، بعد أن دعوهم للإسلام . ١٢٤
* فصل فى إرسال كتبه عليه السلام إلى كسرى وكل جبار يدعوهم إلى الله . ١٢٦
* فصل فى الدلائل الدالة على أنه عليه الصلاة والسلام رسول إلى النصارى ، وغيرهم . ١٢٩
* فصل فى تعظيم النصارى للصليب ، واستحلالهم لحم الخنزير ، ١٣٩
* وتعبدهم بالرهبانية ، وامتناعهم عن الختان ، وتركهم طهارة الحدث والخبث .
* النصارى ليست صلاتهم التى يصلونها ، منقولة عن المسيح . ١٤١
* فصل فى اعتقاد أهل الإيمان ، أن محمداً عليه السلام بعث رسولا لأهل الثقلين ومن لم يؤمن به فهو كافر . ١٤٣
* فصل فى إثباته بالآيات الدالة على نبوته صلى الله عليه وسلم . ١٦٠
* فصل فى قولهم : أرسل إلى العرب ، وقوله عليه السلام : أرسل للناس كافة . ١٨١
* فصل فى جواب من لا يقر برسالته ، لا إلى العرب . ولا غيرهم . ١٨٧
* فصل فى اعتماد النصارى فى النبوات على بشارة الأنبياء بمن يأتى بعدهم . ١٩٧
* فصل يتضمن بطلان احتجاجهم بالقرآن إلا مع التصديق برسالته . ٢٠٤

* فصل وإن كان مقصودهم الاحتجاج بذلك على المسلمين . ٢٠٨
* فصل فى كون القرآن أنزل باللسان العربى ، والجواب عن ذلك . ٢١٠
* فصل فى قوله تعالى . إنا أنزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون . ٢١٧
* فصل فى قولهم : إن كتبهم ترجمها لهم الحواريون وهم معصومون . ٢٢٣
* فصل فى قولهم : لا يلزمنا اتباعه . لأننا نحن أتانا رسل من قبله . ٢٢٦
* فصل فى قوله تعالى : ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا . ٢٣٣
* فصل فى قولهم : ونعلم أن الله عدل لا يطالبنا . ٢٣٤
* فصل فى تفسيرهم لقوله تعالى : ومن يبتغى غير الإسلام ديناً . ٢٤٤
* فصل فى قولهم : ثم وجدنا فى هذا الكتاب من تعظيم المسيح وأمه ٢٥٣
* فصل والمضاف إلى الله نوعان . ٢٦٦
* فصل وأما قولهم (فكان طيراً بإذن الله) أى بإذن اللاهوت . ٢٧٣
* فصل فى قوله تعالى : ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى . ٢٧٨
* فصل فى قولهم : وآتينا عيسى ابن مريم البينات . ٢٨١
* فصل فى قوله تعالى . ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات . ٢٨٥
* فى قوله تعالى : من أهل الكتاب أمة قائمة . ٢٩١
* قالوا : ثم وجدناه يعظم إنجيلنا ، ويقدم صوامعنا ومساجدنا . ٢٩٨
* فصل فيما يتضمن ما أوجب لهم التمسك بدينهم ، والجواب عنه . ٣٠١
* فصل فى فساد قولهم فى تفسير آية البقرة . ٣٢١
* فصل قالوا : وأما تعظيمه لإنجيلنا وكتبنا التى فى أيدينا والجواب عنه ٣٢٧
* فصل فى قوله تعالى : (وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم) . ٣٣٨
* فصل فى أن الله لا يعذب إلا من أرسل إليه رسولا . ٣٤١
* فصل فى سبب ضلال النصارى . وأمثالهم من الغالية . ٣٥٠

* فصل فى الخوارق التى يضم بها الشياطين أبناء آدم ٣٦٠
.* فصل قالوا وقال أيضاً (فإن كنت فى شك مما أنزلنا اليك) ٣٧٧
* فصل قالوا : فثبت بهذا ما معنا ، ونفى عن إنجلينا التهم والتبديل . ٣٦٩
* فصل وإن أرادوا بتصديقه كتبهم ، أنه صدق ما هم عليه من العقائد.. ٣٨٠
* فصل يتضمن إيضاح ما شهد لهم به . ٣٨٤
* فصل يتضمن اعتراف الجميع بأن محمداً مصدق للتوراة
والإنجيل ، شاهد بأن موسى وعيسى ومن اتبعهما على الحق ،
كما أنه كفر جميع من بلغته رسالته ولم يؤمن به . ٣٨٦
* فصل يتضمن حجة الجمهور على منع أن تكون جميع ألفاظ
الكتب المتقدمة ، الموجودة عند أهل الكتاب .منزلة من عند الله ،
لم يقع بها تبديل . ٣٩٣
* فصل يتضمن دعواهم بعد التحريف والجواب عنه . ٣٩٩
* سؤاله عليه السلام لليهود في شأن الزانى . ٤١٠
* تحكيم قريظة والنضير للنبى عليه السلام فى القاتل . ٤١٤
* اختلاف اليهود والنصارى فى المسيح المبشر به النبوات هل
هو المسيح ابن مريم أو مسيح آخر ينتظر ؟ ٤١٧
* اختلاف نسخ التوراة . ومخالفة نسخة السامرة لنسخة اليهود
والنصارى حتى فى الكلمات العشر وغيرهم . ٤٢١

الخطأ	الصواب	السطر	الصفحة
ورن	وإن	١	٣٠
بك	يك	٢	١٦٧
ميثاقا	ميثاقا	١٩	١٧٨
كيفهم	كهفهم	١٢	٢٣٤
المسيع	السميع	٤	٢٧٥
نوجاً	نوحاً	٥	٢٧٩
اليتم	اليم	٧	٢٨٧
لئن	أين	١٧	٣١٥